نادية هاشمي

بيت بلا نوافذ

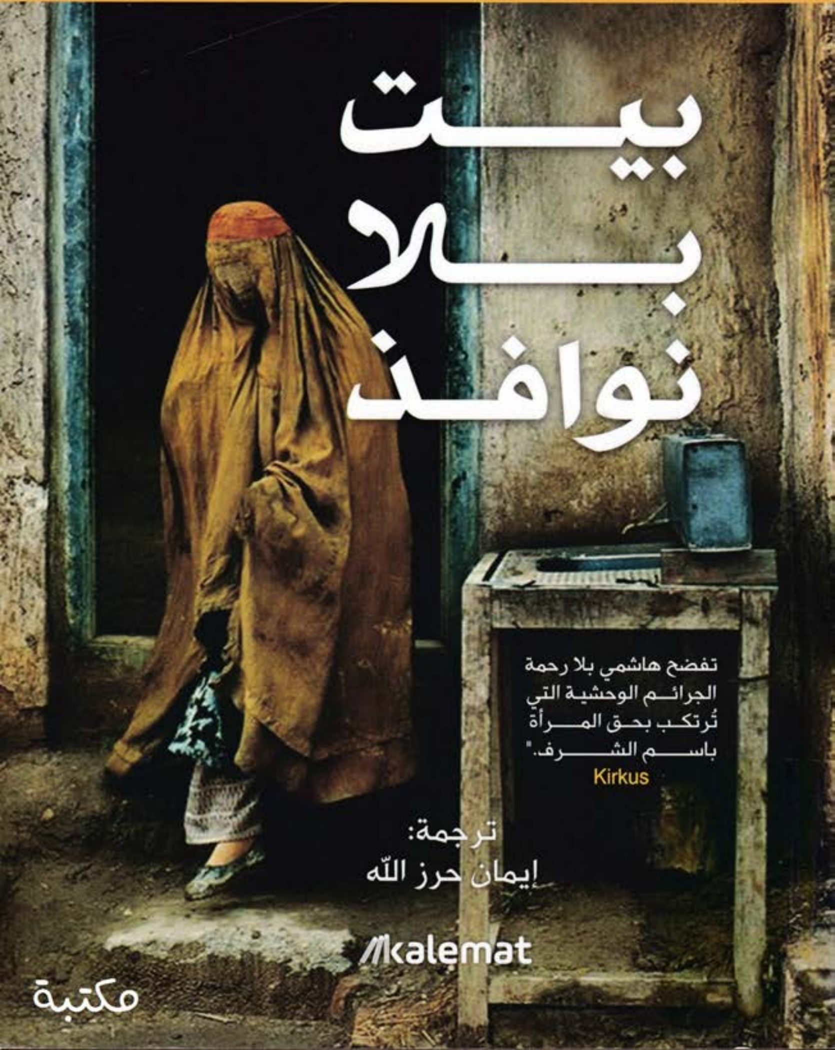

"تفضح هاشمي بلا رحمة الجرائم الوحشية التي تُرتكب بحق المرأة باسم الشرف."
Kirkus

ترجمة:
إيمان حرز الله

kalemat

مكتبة

بيت بلا نوافذ

لن ننسى تشرين .. 23

لن ننسى غزة والشهداء

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa

مكتبة
t.me/soramnqraa
20 11 23

بيت بلا نوافذ

A HOUSE WITHOUT WINDOWS

نادية هاشمي

Nadia Hashimi

ترجمة: إيمان حرزالله

دار كلمات للنشر والتوزيع

بريد إلكتروني:

Dar_Kalemat@hotmail.com

الموقع الإلكتروني:

www. kalemat.com

a house without windows. Copyright © 2016 by Nadia Hashimi. All rights reserved. Printed in the United States of America. No part of this book may be used or reproduced in any manner whatsoever without written permission except in the case of brief quotations embodied in critical articles and reviews. For infonnation address HarperCollins Publishers, 195 Broadway, New York, NY 10007.

ردمك: 978-9921-730-90-6

بيت بلا نوافذ

A HOUSE WITHOUT WINDOWS

نادية هاشمي

Nadia Hashimi

ترجمة: إيمان حرزالله

مكتبة

t.me/soramnqraa

2022

kalemat

تعبر الرسالة والمطر والنور الإلهي من نافذتي
تسقط في بيتي إلى داخلي
البيت بلا نافذة جحيم
والدين الحق أن تفتح نافذة
لا ترفع فأسك في كل زاوية
ارفعها لتفتح نافذة
واعلم أن الشمس التي تراها
ليست سوى انعكاس لشمس كلية خلف الحجاب.

جلال الدين الرومي، *المثنوي*، الجزء الثالث 2403–2406

ظني أنني مسؤولة جزئيًّا عن تلك الفوضى الدموية. وكيف لا؟ لقد عشت مع الرجل. طهوت له طعامه، فركت له ظهره. جعلته يشعر كما ينبغي لزوج أن يشعر.

فعل لي أشياء قليلة أيضًا. كان يغني لي حين أغضب بشدة شيئًا ما بين الأغنية والاعتذار فيزول غضبي على الفور. كان شيء ما في طريقة تراقص حاجبيه أو رفعه رأسه... كالثلج لمزاجاتي الساخنة. كنت أتكور بداخله لأشعر بأنفاسه تدغدغ عنقي من الخلف.

أتعجب من وقوع النهاية على مقربة أقدام قليلة من حيث اعتدنا الرقود معًا كزوجين، وعلى مسافة خطوات قليلة من حيث سُفِك دم غير مقدس من قبل. شهد فناؤنا الصغير -بأجمة ورود في أحد أركانه وحبل غسيل يمتد عبره- قدرًا كبيرًا من الدماء خلال العام الماضي. أتساءل بخصوص عقلانية الورود التي ما زالت تجرؤ على الإزهار هناك.

إنها ورود حمراء قانية وستبدو رائعة على قبر. أتلك فكرة غريبة؟

ظني أن معظم الزوجات يتخيلن موت أزواجهن، سواء من باب الخوف أو الانتظار. الموت أجلنا جميعًا. فلماذا لا نخمن كيف أو متى سيحدث؟

تخيلت موت زوجي بملايين الطرق: وهو عجوز على الفراش وأبناؤه إلى جانبه، برصاصة في الرأس على يد متمردين، منبطح أرضًا ويداه على صدره بعد أن توقف قلبه. ظلت صاعقة البرق هي المفضلة لديَّ. ليغفر لي الله خيالي الخصب. ورثت عن

أمي هذه الخِصلة الرائعة. ظني أن صاعقة البرق أمر سهل على الجميع، صدمة شاعرية صغيرة من السماء. قد تؤلم قليلًا، لكن للحظة فقط.

أكره أن أرى أي شيء يعاني.

لا، لم أتخيل موت زوجي بهذه الطريقة قطّ، لكن ماذا بيد الزوجة؟ صواعق البرق لا تأتي حين تحتاج إليها.

اعتدت منذ كنت شابة أن أستجمع نفسي بجمع الكلمات في مقاطع موزونة، لخلق نظام وإيقاع في رأسي حين يغيبان عن عالمي تمامًا. حتى الآن، في هذه الحال البائسة، ينظم ذهني مقطعًا.

لم يرني زوجي من قبل بكامل طولي
لأن الأحمق كان يدير ظهره لي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل 1

لو كانت زيبا امرأة أقل طبيعية، لكان كمال قد لاحظ، لكان شعر بانقباض أو بقشعريرة صغيرة على الأقل. لكنها لم تنذره، لم يكن من سبب ليرى أنها قد تصبح أي شيء أكثر مما ظلت عليه عقدين من الزمن. كانت زوجة محبة، أمًّا صبورة، قروية وادعة. لا تفعل أي شيء لجذب الانتباه لها.

في ذلك اليوم، اليوم الذي غيَّر قرية لا تتغير، كانت ظهيرة زيبا عادية كأي ظهيرة أخرى. الملابس معلقة على الحبل خارج بيتهم. يخنة البامية تغلي على النار في إناء ألومنيوم. ريما -بقدميها المكتنزتين والمسودتين من الحبو في أرجاء البيت- نائمة على مقربة أقدام قليلة، توجد دائرة صغيرة مبللة حيث يلتقي فمها البريء بملاءة الفراش. راقبت زيبا صدر ابنتها يعلو ويهبط وابتسمت لرؤية شفتيها مزمومتين قليلاً. دست أصابعها في حفنة حب هال مطحون حديثًا، علقت رائحته بأطراف أصابعها، حلوة ومهدئة.

تنهدت وشدت طرفي طرحتها البيضاء حول كتفيها. حاولت ألا تتساءل أين كمال لأن ذلك سيؤدي حتمًا إلى التساؤل عن ماذا يفعل، ولم تكن في مزاج مناسب لتلك الأفكار ذاك اليوم. أرادت أن يظل عاديًا.

كان بصير والفتيات في طريقهم من المدرسة إلى البيت. بصير -ابنها البكر- يبلغ من العمر ستة عشر عامًا لكنه أكثر صلابة من فتية آخرين في سنه. منحته المراهقة رؤية سوداوية

لمشاهدته والديه على حقيقتهما. لم يكن البيت مكان راحته. ظل بالنسبة إليه، منذ وعى على العالم، مكانًا مفككًا؛ أطباق مكسورة، أضلع مكسورة، أرواح كسيرة.

كمال، زوجها، هو قلب المشكلة، رجل تحلل بمرور السنين. يعيش معهم فقط لاعتقاده أن الرجل الذي يكونه لدقائق في وقت ما يمكنه التعويض عمّا يفعله من يكونه لبقية الساعات.

راقبتْ ألسنة النار تحت الإناء. قد يأتي كمال بقطعة لحم اليوم. لم يتناولوا أيًا منه منذ أسبوعين. أحضر الأسبوع الماضي كيس بصل، كان طازجًا وحلوًا جدًّا إلى حد أن دمعت عيناها من مجرد النظر إليه، ظلت أيامًا تسكب دموع الشكر في كل ما طهته.

تحركت ريما قليلًا، عادت رجلها إلى تحت البطانية الصوف وذراعها إلى جنبها. ستستيقظ قريبًا. وضعت زيبا حب الهال المطحون في مرطبان صغير فارغ. أخذت نفسًا واحدًا عميقًا منه قبل أن تُحكم غطاءه لتسري رائحته في رئتيها.

كانت بعض الأيام صعبة. يندر الطعام أغلب الوقت ويمرض الأطفال أحيانًا. فقدت طفلين صغيرين بالفعل وتعرف كيف يسهل على الله استرداد عطاياه. لكمال حالات مزاجية لا تفهمها، لكنها تعلمت أن تتفاداها، كطيار خبير يناور في سماء عاصفة. تشغل نفسها بعمل البيت. تركز على ما هو جيد. الفتيات يذهبن إلى المدرسة. بصير، ابنها البكر والوحيد، ذكي، ومساعدته لها في البيت تخفف من آلام ظهرها. نجت ريما، الرضيعة، من أمراض قضت على أطفال آخرين قبلها. وخداها الورديان يُثلجان صدر زيبا.

ذاك اليوم، كانت ريما، أصغر أفراد الأسرة -على نحو لا يصدق- هي من غيرت مسار التاريخ. على الأطفال الآخرين أن يبدؤوا السير قبل فعل ما فعلته.

لو لم تحرك ريما رجلها في تلك اللحظة، لو لم تنعش رائحة حب الهال رئتي زيبا المتعبتين، لو كان أحد هناك ليراها أو ليوقفها، لربما استمرت الحياة التي رشحت في فنائهم المتواضع وفي عزلة جدرانهم الطينية عامًا آخر، أو عقدًا آخر، أو بقية العمر. ما حدث أن نسيمًا رقيقًا دخل من النافذة المفتوحة ففكرت زيبا في أن الأفضل أن تجمع الغسيل المنشور قبل أن تستيقظ ريما ويعود بصير والفتيات إلى البيت.

خرجت من الباب الخلفي، إلى الفناء، ثم إلى حبل الغسيل حيث وقفت دقائق قليلة قبل أن تسمع صوتًا لا يمكن إنكاره.

كان صوت لا أحد يرغب في سماعه. صوت يفضل الناس الابتعاد عنه.

انقبض صدرها. غمرت وجهها حرارة بيضاء جعلت فكها يكِزّ بقوة في يوم كان من الممكن أن يكون عاديًا بشكل رائع. فكرت قليلًا قبل أن تقرر أنها -كزوجة، وامرأة، وأم- يجب أن ترى.

دخل بصير وأخواته من البوابة في الجدار الطيني الذي يفصل بيتهم وفناءهم عن الشارع والبيوت المجاورة. انقبضت معدته لسماعه بكاء ريما، صراخ طفلة بذراعين ممدودتين. أسرعت الفتيات إليها، وفي لمح البصر، كانت شابنام قد وضعتها على حِجرها الصغير، وجه الرضيعة مبلل وأحمر. نظرت كريمة إلى أخواتها بعينين متسعتين، الهواء معبأ برائحة يخنة محترقة كثيفة ومشؤومة. لا وجود لمادر جان. شيء ما خطأ.

لم يقل بصير شيئًا. تفقد غرفتي النوم والمطبخ سريعًا. ارتعشت يده وهو يمدها إلى الباب الخلفي. تطايرت السراويل والطرح والقمصان على حبال الغسيل. لفتَ انتباهه نشيج هادئ في ركن من فنائهم، حيث المرحاض الخارجي عند الجدار الخلفي.

تقدم خطوة، ثم أخرى. كم تاق إلى العودة إلى هذا الصباح، حيث كان كل شيء عاديًا وطبيعيًا. تاق إلى العودة إلى البيت ليجد أمه تقلب فاصولياء خضراء في إناء كبير قلقة من ألا يجد أطفالها طعامًا كافيًا.

لكن لا شيء سيعود عاديًا بعد الآن. عرف بصير هذا وهو يلتفت نحو الركن فيما تذوب الحياة التي اعتادها في فوضى دامية وحشية. نظرت إليه زيبا، أمه، بوجه شاحب وخالٍ. كانت تجلس على الأرض تستند بظهرها إلى الجدار، الجو مسموم. يداها داكنتان وملطختان بالدم، كتفاها ترتعشان.

«مادر جان»، بادرها قائلًا وهو يلمح كيانًا متكورًا على مسافة أقدام قليلة من المرحاض.

«باجم»[1]، صوتها مضطرب، أنفاسها متقطعة ومتسارعة. سقط رأسها بين ركبتيها وهي تجهش بالبكاء.

«عد إلى البيت يا بنيّ... عد إلى البيت... أخواتك، أخواتك... عد إلى البيت...»

انقبض صدره، مثله مثل أبيه، لم يتوقع هذا.

1- بُنيّ بالدارية (المترجمة)

الفصل 2

لم يكن حلم يوسف، وهو طفل صغير، أن يصبح يومًا ما محاميًا، ناهيك بالعمل في أمريكا. كان كأي طفل آخر لا يفكر كثيرًا في الأيام التي تلي الغد.

يتذكر مدد الظهيرة الرخية التي قضاها في اللعب بين ثمار الرمان الدانية في بستان جده. كانت الكرات الحمراء الممتلئة تتدلى مثل الزينة في متناول الأيدي. أثمرت ثلاث شجرات كبيرات قدرًا يكفي لإبقاء أصابع أبناء بوبا جان وأحفاده مبقعة بالأحمر طوال الخريف. كان يوسف يقطف إحدى الثمار الثقيلة ويشق قشرتها الجلدية بسكين سرقها من مطبخ جدته. يشطرها إلى نصفين بحرص لئلا يسقط أي من فرطها الياقوتي. يحرر كل ياقوتة من غشائها الأبيض بأطراف أصابعه بحرص. يفعل ذلك بجدية ودقة. تارة يأكل الياقوتات واحدة تلو الأخرى، ليشعر بانفجارها اللاذع على لسانه. وتارة يضع حفنة منها في فمه ليمتص عصارتها ويمضغ أليافها المتبقية بين أسنانه.

كان يلقي بالقشر أعلى الجدار الفاصل بين فناء جده والشارع، ليس لأنه يجب ألا يأكل الرمان، بل لأنه لا يريد أن يعرف إخوته وأبناء عمومته كم ثمرة أكل.

كان أصغر أربعة أطفال، وكان يعشق أخاه الأكبر منه بستة أعوام، الوسيم والواثق بنفسه جدًا. كان يحب أختيه أيضًا، يجلس معهما وهما تفتتان الخبز الجاف في راحتيهما وتلقيان به للحمامات والعصافير الشاكرة خارج بيتهم. كان من الأطفال

الذين يحبون القصص، خاصة قصص الرعب والإثارة. كان حين ينام، يتخيل نفسه بطلًا، يطارد الجن في الغابة أو يعثر على كنوز في أعماق بئر. أحيانًا يكون شجاعًا في أحلامه وينقذ أسرته من قبضة الأشرار. لكنه أحيانًا أخرى، أكثر مما يمكنه الاعتراف به، يستيقظ على مرتبة مبللة بخوف طفل.

حين كان في الحادية عشرة من عمره، قرر أبوه ترك أفغانستان. كانت الصواريخ تقترب من بلدتهم بعد أن ظلت بعيدة تمامًا عنها خلال العقد الفائت. سُرَّت أمه، التي عملت مدرسة مدة عام واحد فقط قبل إغلاق المدارس، بقرار الرحيل. أخذت معها تذكارات قليلة إلى حياتهم الجديدة: صور فوتوغرافية، سترة غزلتها لها أمها، ووشاح مطرز بدرجات الأزرق الطاووسي ابتاعه لها زوجها حين سافر إلى الهند خلال سنوات زواجهما الأولى. تركت أوانيها النحاسية، وسجادهم القرمزي المغزول يدويًّا، وصينية زفافها الفضية، وأغلب ملابسها. كان أبوه، الطيار الماهر، قد قضى سنوات دون قيادة طائرة بعد منع شركات الطيران من العمل. لذلك حرص على حمل دبلوماته وشهاداته مثله مثل الأطفال. كان رجلًا عمليًّا لا يبكي على اللبن المسكوب.

كانت رحلتهم من أفغانستان إلى باكستان شاقة. عبروا قمم الجبال، في الظلام أحيانًا، ودفعوا لرجال لهم هيئة مشبوهة مبالغ ضخمة مقابل مساعدتهم. التصق الأطفال الأربعة -القريبون في السن من بعضهم- بأبويهم في الظلام، في مؤخرة شاحنة تصعد على الصخور. ارتعشوا حين تردد صدى طلقات نارية في السهول. حثتهم أمهم، وهي ترتعش في *الشادُر* الأزرق، على التماسك جيدًا

مؤكدة أن الأصوات بعيدة عنهم جدًا، كان يوسف سيصدقها لو كان صوتها أقل ارتعاشًا.

في باكستان، استقرت الأسرة في مخيم لاجئين. لم يكونوا من ميسوري الحال في أفغانستان، لكن العيش في المخيم كان عسيرًا عليهم. صاح رجال الشرطة الباكستانية فيهم دون أن يجيبوهم على أي سؤال. وقفوا في طوابير للحصول على طعام وسكن ووثائق بدا أنها لن تصدر أبدًا. عاشوا في سهل مفتوح، منخفض ترابي مملوء بالخيام والأرواح الباهتة. ناموا جنبًا إلى جنب، يحاولون تجاهل رائحة عفن الفقر والخسارة والعوز. «اليد العاطلة يجد لها الشيطان عملًا»، كانت أمه تحذر أطفالها. ظلوا نائين بأنفسهم ولم يتحدثوا مع أحد في المخيم عن أي شيء أكثر من الانتظار المتواصل والحر الذي لا يُطاق. هذا المخيم وضع مؤقت، كان أبواه يعدونهم، سرعان ما سنصل إلى أقاربنا في أمريكا.

مضت أسابيع ولم يأتِ خبر. بحث أبوه عن عمل، لم تجبه شركة الطيران. لم يجد عملًا كميكانيكي أو حتى مساعد ميكانيكي. فعمل في النهاية -بقلب مثقل وديون أثقل- صانعَ طوب.

«ليست الكرامة في ماذا تفعل»، كان يؤكد لزوجته وأطفاله الذين لم يعتادوا رؤيته ملطخًا بالطين والتراب. «بل في كيف تفعله».

لكنه كان يغسل يديه من الطين بكتفين متهدلتين. عضت أمه شفتها ووضعت يدها على ذراع أبيه في خصوصية خيمتهم الهشة.

يصعب حفظ الكرامة في المخيم. نأوا بأنفسهم ما أمكنهم عمَّا كان يحيط بهم؛ مصارعات الديكة، تعاطي الأفيون، رائحة بشر لا يتحممون، وعويل الحِداد على طفل توفي على إثر مرض.

عمل أخو يوسف الأكبر مع أبيه. بقيت أختاه مع أمهم، والتحق يوسف بمدرسة محلية، عشرون ولدًا يجلسون أسفل سقيفة طويلة مفتوحة من ثلاثة جوانب. يوجد فيها سبورة قديمة ومدرس يوزع كراسات صغيرة بورق مصنَّع من قشور البصل. كان أقاربهم في أمريكا يقسمون أنهم يبذلون قصارى جهدهم ليحضروهم إلى الولايات المتحدة، كانوا قد ملؤوا الاستمارات وقدموا البيانات المصرفية، ووكلوا محامين بالكاد تمكنوا من دفع أجورهم. أخبر موظفو القنصلية المحلية والد يوسف أن التماسه لم يُنظر فيه بعد.

«بادر جان، يمكنني الذهاب للعمل معك ومع فاضل. لم أعد طفلًا الآن. يمكنني كسب المال، أنا أيضًا». كانوا يجلسون في خيمتهم مساءً، يرشفون من صحون حساءً خفيفًا أعدته أمهم لهم على موقد نار في الخارج.

حدق أبوه إلى الأرض، كأنه يتوقع أن تنشق من تحته وتبتلعه.

«بادر؟»

«يوسف جان»، قاطعته أمه بهدوء. «دع أباك يتناول عشاءه».

«لكن مادر جان، أنا أريد أن أساعده. المدرسة مزدحمة والأولاد...»

«يوسف». أسكته حزم صوتها الذي لا تخطئه أذناه. نام أبوه تلك الليلة دون أن ينبس بكلمة.

امتدت الأسابيع أشهرًا. ازداد يأسهم لرؤية المخيم يزدحم بأسر جديدة. حين تلقوا الخطاب الذي يخبرهم بمنحهم تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة أخيرًا دفنت أم يوسف وجهها في صدر أبيه لتكتم بكاءها. أثمرت جهود كاكه رحيم ومثابرته. كانوا من القلة المحظوظة التي استطاعت ترك المخيم خلف ظهرها، مع ذلك ظل أثره فيهم حتى بعد سنوات من العيش في أمريكا، وكان أثره الأشد في أبيه الذي لم يستطِع السير بقامة منتصبة، وكان يسير حتى وهو طيار عاطل عن العمل في قريتهم.

استقرت الأسرة في نيويورك، في حي يسكنه الشتات الأفغاني في منطقة كوينز. تشربوا كل شيء في المدينة: المباني ذات المصاعد، جموع البشر الذاهبين إلى العمل، صنبور المياه الصالحة للشرب، متاجر البقالة الجميلة بفاكهتها وخضراواتها تفيض خارجها بالفعل. فاض لم الشمل بالأحضان والبكاء وولائم اللحوم. مكثوا مع أحد الأعمام وأسرته في شقة مكونة من ثلاث غرف حتى استطاعوا تأمين إعانة وعمل يكفيهم لاستئجار شقة خاصة بهم. التحق يوسف وأختاه بمدرسة، وعمل أبوه وأخوه في محل بيتزا يملكه كاكه رحيم.

وقعت أخت يوسف الكبرى، ستارة، في الحب بعد أن أنهت المدرسة العليا. أحبت ولدًا أفغانيًّا يعيش في بنايتهم. تحولت نظرات الغزل في المصعد إلى لحظات مسروقة في غرفة الغسيل في القبو الرطب. حذرها أبواها وطلبا منها أن تبقى بعيدًا عنه، كان موظفًا في بنك بدوام جزئي، ووالداه من عرق مختلف. أُغلقت الأبواب، فُرضت الرقابة على المكالمات الهاتفية،

وتطايرت نظرات العداء. وكما هو متوقع، اشتعلت نار الحب في قلبي العاشقين الشابين وتعانقا في عربات المترو، ضاربين بأسرتيهما عرض الحائط.

وافقت الأسرتان على الزواج لإخماد الشائعات، وبعد حفل متواضع، انتقلت ستارة للعيش لبدء حياة جديدة مع حبيبها، أعلى شقة أبويها وإخوتها بطابقين، في شقة أسرته. فضلت أخته الثانية، صدف، استكمال دراستها ودرست المحاسبة في جامعة محلية. كان أخوه -البعيد عن الدراسة منذ أمد طويل- يحسِّن إنجليزيته بترديد جمل حوارات المسلسلات التليفزيونية. ترقى سريعًا في السلم الوظيفي للمطعم وصار نادلًا. التحقت أم يوسف بفصول لتعلم اللغة الإنجليزية في المكتبة المحلية وحصلت على عمل في أحد المتاجر الكبرى. قرر أبوه، شاكرًا لكاكه رحيم مساعدتهم على الوقوف على أقدامهم، أن يعمل سائقَ تاكسي، راضيًا بمستقبل خالٍ من الرحلات الجوية. صار يوسف بين عشية وضحاها تقريبًا فتى يافعًا يتقن اللغة الإنجليزية بقدر ما يبرع في السير في عربات المترو المزدحمة. تفوق في المدرسة فنصحه مدرسوه المنبهرون بالتقدم لنيل منحة لاستكمال دراسته.

كان يقضي نهاراته جيدًا، لكنه يستيقظ ليلًا مبلَّلًا بالعرق البارد مرة أسبوعيًا على الأقل. لم يمضِ عليه أسبوع دون أن يستيقظ في الظلام ليغير قميصه وغطاء وسادته المبللين بعرق الرعب دون أن يوقظ إخوته.

عاشت الأسرة بشكل متواضع لكنه مريح. كان لديهم تلفاز واحد، ثم صار لديهم اثنان. امتلأت دواليبهم بملابس جديدة.

حل محل متاعهم القديم متاع جديد. انفجرت أم يوسف بالضحك والبكاء حين عاد أبوه إلى البيت ذات يوم بصينية فضية، مطابقة تقريبًا لصينية الزفاف التي تركاها في أفغانستان. كانوا يشاهدون التلفاز معًا، يمسك أحدهم جهاز التحكم عن بعد بإصبع على أهبة الاستعداد لتغيير المحطة في حال ظهرت مشاهد غرامية. ظل أبوه يتابع أخبار أفغانستان في الصحف ونشرات الأخبار. تحفزوا جميعًا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ودهشوا من صياح الغرباء الغاضبين نحوهم في الشارع في أعقاب الكارثة. فرح أبوه بقرار الولايات المتحدة بغزو أفغانستان مع أنه لم يكن لديه لا النية ولا الأمل في العودة إلى هناك.

الحمقى فقط من يركضون نحو مبنى يحترق، كان يقول ساخرًا.

حين كان يوسف في عامه الأول في جامعة نيويورك، كانت أخبار أفغانستان في كل مكان. إلى حد الضجر. كانت أفغانستان هي الهجمات الانتحارية، والنساء ضحايا العنف والفساد. في عامه الثاني التحق في لحظة نزق بفصل لدراسة حقوق الإنسان، ظنًا منه أنها طريقة سهلة ليضيف إلى متوسط درجاته. في المحاضرة الثانية اشتعل اللهب. عاوده فيض الذكريات، عاد إلى أفغانستان. جثث قتلى. أطفال صغار يعملون في الحدادة. صحفي شاب يُذبح هو وزوجته وأطفاله. الأوضاع اللا إنسانية في مخيمات اللاجئين. بيعت فتيات صغيرات لسداد ديون الأفيون. مجرمو الحرب الذين لا يمسهم القانون.

كيف يمكنه إدارة ظهره لكل هذا؟

يوجد آخرون لم يمكنهم، آخرون كانوا شجعانًا، آخرون حملوا قضية من لا صوت لهم.

عاش يوسف وتنفس الحلم الأمريكي بأن شخصًا واحدًا يمكنه إحداث فارق. تشبع بمطويات اتحاد الطلبة والخطاب المتفائل لأساتذة الجامعة. حضر أول تظاهرة اعتراض وأحب الهتاف مع آخرين. رفع صوته. ذاق طعم النضال، راقه الغضب الذي يثيره فيه. الغضب أفضل من الخوف.

مضى فصلان دراسيان قبل أن يلاحظ مضي أسابيع عدة دون أن يستيقظ مبللًا بعرق بارد.

اختار القانون لأنه الفاصل بين الخطأ والصواب، لأنه الوسيلة الوحيدة لحماية الضعفاء والقضاء على المجرمين. ظل أسابيع منكبًّا على كتب امتحانات التقدم لكلية القانون، حتى خاض الامتحان واجتازه بتفوق مدهش. ملأ العشرات من استمارات التقدم للجامعات لكنه ظل يتمنى من أعماق قلبه أن تقبله جامعة نيويورك. مزق الظرف السميك المرسل من جامعة كولومبيا بتحفز عصبي. كانت أخبارًا جيدة، لكن والديه هزّا رأسيهما بإحباط.

أأنت متأكد من أنك لا تريد أن تكون طبيبًا؟ الأطباء ينقذون حياة الناس كل يوم، ذكّراه.

لا أريد أن أنقذ حياة واحدة كل مرة، أعلن يوسف. *توجد طرق أفضل*. رفعا كتفيهما وتمنيا له التوفيق. على الأقل سيكون صاحب مهنة، أكثر تحققًا من إخوته الذين لم يهتموا بالدراسة كثيرًا. كانا سيبذلان جهدًا أكبر لمنعه لو كانا يعرفان ما هو مقبل عليه.

درس قانـون حقـوق الإنســان وقانـون الهجـرة. تطـوَّع للعمـل مترجمًـا لتحسـين لغتـه الداريـة. سـاعده أسـاتذته علـى العمـل فـي منظمـات حقـوق الإنسـان. كان شـاكرًا لاسـتقرار أسـرته فـي نيويـورك حيـث الفـرص وفيـرة. أبقـى أنفـه مدفونًـا فـي الكتـب.

ستفقد بصـرك قبـل أن تبلـغ الثلاثيـن، اعتـادت أمـه القـول لـه بحـزن. كانـت فخـورة بـه لكنهـا قلقـة عليـه أيضًـا. يبـدو أحيانًـا كأنـه لا ينـام.

تخـرج فـي كليـه الحقـوق وعمـل فـي منظمـة دعـم قانونـي تـدرب فيهـا مـدة عاميـن. انبهـروا بحماسـته فأبقـوه فـي العمـل. لـم يكـن مرتبـه بقـدر مرتـب زملائـه فـي الدراسـة الذيـن عملـوا فـي شـركات المحامـاة، لكنـه كان أكثـر ممـا كسـبه هـو أو أي فـرد آخـر فـي أسـرته، وكان سـعيدًا لأن لديـه هدفًـا. عمـل بكـد ولـم يرفـض أي قضيـة.

كان يقتطـع مـن وقتـه فتـرات قصيـرة للاجتماعيـات، يخبـر نفسـه فيهـا بأنـه يقـوم بالتشـبيك كـي لا يشـعر أنـه يضيـع وقتـه.

بـدأ الأمـر ببـار هابـي آور، بحجـة تنـاول مشـروب بعـد الخـروج مـن مبنـى مكيـف الهـواء. بمضـي الوقـت، ازداد ولعـه بالبيـرة السـوداء. كانـت البيـرة البـاردة فـي يـده تجعلـه يشـعر بالترابـط مـع زملائـه. أبقـى هـذا الجـزء مـن حياتـه بعيـدًا عـن والديـه وإخوتـه. كانـوا قـد ظلـوا طـوال حياتهـم يعيشـون معًـا فـي مسـاحة ضيقـة، لكنـه شـعر بـأن عليـه الاحتفـاظ بذنوبـه سـرًا. لـم يكـن ذلـك خداعًـا -حسـب مـا رأى- بـل احترامًـا لقيـم والديـه.

كان فـي هابـي آور حيـث بـدأ المواعـدة. اسـتغرقه الأمـر سـنوات ليـدرك أن الفتيـات مـن حولـه لا ينظـرن إليـه كأجنبـي أو كشـخص مـن

درجة أدنى. حين مالت على البار فتاة آسيوية تُدعى لين وأراحت يدها على ساعده بدلال، شعر بثقته تنمو بصورة جنونية. خرج في مواعيد مع فتيات قليلات لكنه لم يدع شيئًا يتطور لأكثر من خمسة أو ستة مواعيد. كان حين يشعر بازدياد اهتمامهن، يبتعد على الفور، لا يرد على مكالماتهن أو يعلن عن عدم رغبته في الارتباط بشخص واحد.

أدرك بعد فترة أن ما يفعله ليس نضجًا، لكنه، بعد الاستماع لوالديه يتفاخران بمجموعة أخيه المتنوعة من الفتيات، قرر أن يعثر على واحدة يعشقاها. واحدة يمكنهما التحدث معها بالدارية، ويمكنها تربية أطفال ذوي ثقافتين معه، واحدة تفهم الثقافتين الأمريكية والأفغانية. هذا هو ما ينبغي له فعله، عمليًا وأخلاقيًا.

حينها قابل إلينا. إلينا الجميلة الفاتنة التي هاجرت إلى الولايات المتحدة مع أسرتها في سن صغيرة جدًا من بيرو. شعرها بلون الشوكولاتة البنية، تظهر في خديها غمازاتان حين تبتسم، ما كان يحدث كثيرًا. صديقة زميل له في العمل، مرت بهما وهما يشربان البيرة في مقهى على الرصيف. كانت في طريق عودتها إلى البيت من العمل في شركة محاسبة، ترتدي بلوزة بيضاء واسعة وسروالًا أزرق سماويًا ضيقًا أنيقًا.

كانت جميلة وذكية، والأهم من كل شيء، لم تجفل حين أخبرها بأن أسرته من أفغانستان. في موعدهما الأول، ذهبا إلى حفل موسيقي بيروية في السنترال بارك. وفي موعدهما الثاني تناولا أيس كريم طبيعي في الإيست فيليج. لم يستطِع منع نفسه وهو معها من إحاطة خصرها بذراعه وجذبها إليه. كانت أقصر

منه بخمس بوصات، وحين تعانقا تنفس العطر الاستوائي الحلو لغسول شعرها. كانت تتعلق به فقط بقدر ما يُشعره بأنه معشوق، وليس بقدر ما يشعره بأنه في فخ. يمكنها التحدث عن مضامين اتفاقيات التجارة وأحدث أغنية لفرقة *وان دايريكشن* في الوقت نفسه. رفع أصدقاؤه حواجبهم وبيرتهم استحسانًا. كانت إلينا كنزًا.

حين قابلها كان يخطط بالفعل للانتقال إلى واشنطن للعمل في منظمة غير هادفة للربح مناهضة للجرائم الإنسانية. أقنع نفسه أن كليهما يفهمان أن الأمر سينتهي ما إن يغادر. لم تكن إلينا في حسبانه. مع ذلك، كان يجد سعادة بالغة في مئات الأشياء الصغيرة؛ تغضن أنفها وهي تضحك، حركة إصبعها اللعوب في ياقته، رغبته الملحة في مهاتفتها أو مراسلتها بعد أن يفترقا بقبلة في الليل.

كانت قلة ما بينهما من قواسم مشتركة هي ما يجذب أحدهما إلى الآخر. اللغة، والدين، والمجال المهني. فكانا يدرسان أحدهما الآخر باهتمام أكاديمي تقريبًا.

تستمع إليه يتحدث عن عناوين الأخبار التي لفتت انتباهه: نبشُ قبور آلاف المسلمين من الرجال والشباب القتلى في الإبادة الجماعية في البوسنة، وجلد صحفي معارض في دولة عربية، واختفاء طائرة ركاب ماليزية. تضيف إليه تفاصيل من تقارير إخبارية قرأتها على الإنترنت وهي ترفع مرفقيها على الطاولة بعينين نابهتين. جعلته يتساءل بخصوص خطته. ربما اللغة والثقافة المشتركان ليسا كل شيء.

ربما إلينا هي كل شيء.

كانا في طريقهما إلى محطة المترو بعد عشاء مع أصدقائهما حين توقفا عند إشارة مرور. التفت إليها وعدل وشاحها المعقود حول عنقها. كان الوقت خريفًا وهواء الليل باردًا.

حفل تعميد ابنة أختي نهاية هذا الأسبوع، ستأتي معي، صحيح؟

تحولت اليد الحمراء إلى قامة رفيعة بيضاء فواصلا سيرهما. لم يجبها يوسف على الفور. لكزته في مرفقه.

ربما، قال. *سأرى قدر ما سأنجزه من عمل هذا الأسبوع.*

جلسا في مقعدين بالقطار رقم 7، نسخة نيويورك من طريق الحرير. ستترجل إلينا سريعًا بعد دخولهما حي كوينز، قبل أن تتحول المنطقة إلى الآسيوية بشكل ملحوظ. على يوسف الانتظار تسع محطات أخرى قبل أن يهبط في فلوشنج.

أتعرف حبيبي، أنا أفتقدك منذ الآن بالفعل، قالت وعربة المترو تميل لتقرب أحدهما من الآخر. *سأزورك في واشنطن كل أسبوع.*

قبّل شفتيها مباشرة، قبلة طويلة بما يكفي لتعرف أنه سيفتقدها هو الآخر بالقدر نفسه. لكن شيئًا ما بداخله ظل يقعقع لتفكيره في حضور شيء ما غريب عليه كحفل تعميد. وبينما تفترق شفتاهما، كان قد انسحب. حين جاءت محطتها، ابتسمت له وترجّلت من القطار. شعر بالندم بالفعل على ما سيفعله، لكن لا سبيل آخر. لم يعد يرى ما كانته، صار يرى فقط ما لم تكنه.

ذهب آسفًا إلى واشنطن دي سي وقضى عامًا مع فريق من

المحامين في الإعداد لقضية ضد ضباط جيش متهمين بارتكاب جرائم إبادة جماعية في إفريقيا. بذل جهده لئلا يفكر في إلينا. كان حين يفتقدها -وكان هذا كثيرًا ما يحدث- يشغل نفسه بأبحاثه أو يتصل بوالدته، ما يذكره بكيف لن تتفق إلينا مع أسرته. كانت محادثاته مع والدته من هذا الجانب تفلح بشكل معقول، كانت تخبره بآخر أخبار إخوته، مع بعض النميمة عن أبناء عمومته. وبشكل حتمي يعود حديثها لشأنه هو.

لقد أنهيت دراستك، ولديك عمل الآن. حان الوقت لتتزوج. أتنتظر أن تذهب كل الفتيات الجيدات إلى شباب ليس لديهم ربع ما لديك حتى من حيث المظهر والعقل؟

كان يتهرب من تلك المحادثات. يفتقد بالفعل وجود شخص ما إلى جانبه، لكنه لا يتخيل أن يتزوج. لم يتخيل أن يعود إلى البيت كل ليلة ليجد في انتظاره شخصًا ما يسأله لماذا تأخر في العمل. لن يستطيع تحمل عصبة أخرى من والدين وأبناء الأعمام والأخوال. ليس لديه الرغبة في الأبوة. وعد أبويه كاذبًا أنه سيكون مستعدًا لمثل هذا الالتزام خلال العام القادم.

لكنه كان لديه خطط أخرى. سيضحي -حسب ما فكر- من أجل مسيرته التي ينبغي له مواصلتها. ليس لديه خيار آخر سوى هجر إلينا.

كان الهجر ليكون أصعب لولا الوخز الغريب في صدره.

جاء الوخز من أرض الطين والجبال. كأن صافرة إنذار قد انطلقت في أحلامه، تتوسل إليه أن ينقذها من نفسها. كان يسمع اسمها في حوارات المحطات الإذاعية؛ يرى وجهها على

أغلفة المجلات. صرخ الإنترنت بمأساتها، حكى عن سفك دماء المظلومين في أراضيها، وعن المعتقلين والمضطهدين. كان كل مظلوم فيها يناديه كأنه أمله الوحيد.

أفغانستان.

أجرى اتصالاته. أرسل رسائل إلكترونية صاغها بشق الأنفس. إن لم يلبِّ هو النداء فمن سيفعل؟ قرّ عزمه.

لاحظ وهو على الرصيف المزدحم، أنه لا يتذكر آخر مرة استيقظ فيها بعرق بارد. ابتسم لنفسه، ازدادت قوته لمجرد التفكير فيها. جريحة وجميلة، إنها الوطن.

الفصل 3

«قُتِل زوجها! ليس هذا وقت الأسئلة السخيفة! أين صوابك؟ علينا تغسيله وتكفينه. والداه، أسرته، هل أرسل إليهم أحد خبرًا؟»

ضمت زيبا يديها معًا. تمنت أن تتوقف رعشتهما، ربما حينها سيمكنها استيعاب ما حدث. ربما سيمكنها التوضيح. عصف رأسها بكلام كثير جدًّا. ما زالت جثة كمال عند المرحاض. بالتأكيد تجمع عليها الذباب الآن.

«لقد قُتِل الرجل في بيته! يجب أن نعرف ماذا حدث هنا!»

كان بصير والفتيات في إحدى غرف النوم. حاولت كريمة وشابنام، في التاسعة والثامنة من عمرهما، التماسك. هرعتا نحو أمهما حين دخلت البيت أخيرًا، لكن نظرتها ورعشة يديها أفقدتهما تماسكهما. تراجعتا، عادتا إلى بصير الذي أوكل إليهما مهمة رعاية ريما.

«أرجوكم، جميعًا، جيراننا وأصدقاءنا الأعزاء، أرجوكم افهموا أن أمي وأسرتي كلها في مصيبة اليوم. يجب أن أخبر أعمامي، وبقية عائلتي».

«لكن، الشرطة، ينبغي الاتصال بالشرطة».

«لقد أرسلنا إليهم بالفعل».

«من الذي اتصل؟»

«لا يهم. سيأتي المأمور إلى هنا خلال وقت قصير وسيقرر ماذا نفعل».

حين سمعوا الصياح فتح الجيران أبوابهم على مصراعيها، واحد بعد الآخر. للفضيحة إغراء لا يقاوم. لم يكن واضحًا من يصيح، سكت بصير وزيبا الآن تمامًا. وقف بصير في الفناء يعض باطن خديه. حبس دموعه وثبت عينيه في الأرض. تجمع الرجال والنساء، انتشر الخبر سريعًا في حي البيوت الطينية كنقطة الحبر في الماء. لمح الوجوه المألوفة لديه طوال حياته. أمسكت النساء بطرحهن أسفل ذقونهن ومصمصن شفاههن بهدوء. هز الرجال رؤوسهم ورفعوا أكتافهم.

«يجب إحضار الملا».

«نعم، أحضروا الملا!»

«ويجب إخبار عائلته باللّه عليكم! رفيق صاحب، أرسل ابنك».

نظر بصير إلى أمه.

«لكن لماذا لا تتحدث؟ ماذا حدث هنا خانوم؟ هل قتلتِ زوجك؟»

«بالطبع قتَلتْه، توجد فأس في قفاه! أتظن أنه قتل نفسه؟»

جفل كل من زيبا وبصير لذكر الفأس. جثم بصير إلى جانب أمه التي جلست مستندة بجانبها إلى الجدار الطيني لبيتهم.

خرج صوته متكسرًا في همس عصبي.

«مادر، أنا لا أعرف ماذا... هل يمكنك إخبارهم بما حدث؟ أجاء أحد إلى هنا؟»

توسلت عيناها إلى ابنها. لم تقل شيئًا.

ضغط بصير براحتيه على عينيه المغمضتين، ليخفي العالمَ في الظلام لجزء من الثانية فقط. ما زال يرى دماء.

«ماذا سنفعل الآن؟»

بكى بهدوء. شدت زيبا طرحتها على وجهها. الأعين تراقبها، تحكم عليها. فتياتها الثلاث خائفات في الغرفة خلف هذا الجدار. أرغمت نفسها على أخذ نفس عميق.

«بصير، بني، أرجوك اذهب إلى أخواتك. لا بد أنهن مذعورات».

ضاقت الأعين. مالت الآذان نحوها، الأرملة المنكوبة تتحدث. كانوا في انتظار اعتراف. لم يتحرك بصير. ظل إلى جانب أمه، يمسح دموعه بظهر يده بغضب.

ماذا ستقول أيضًا؟ تساءل.

«أرجوك يا ربي، بماذا ابتليتنا؟ ماذا فعلنا لنستحق هذه المصيبة؟ ماذا سنفعل؟» نحبت زيبا، بصوت عال بما يكفي لتهتز الرؤوس تعاطفًا. «كيف يحدث شيء كهذا هنا... في بيتنا؟»

نظرت النساء إلى الرجال حولهن. نظرت إحداهن إلى الأخرى. كانت زيبا قريبة من الموت بقدر ما كانت أي واحدة منهن. بدأن حينها يرددن صدى نحيبها.

«هذه المرأة المسكينة -بلا زوج- ليحفظها الله هي وأطفالها!»

جاء مأمور الشرطة، آغا حكيمي، رجل في بداية أربعينياته. كان حفيد زعيم حرب هُزِم على يد زعيم حرب آخر لديه المزيد من الرجال والأسلحة والأموال. فصار حكيمي التركة الحية للعجز والفشل. كان أهل القرية يعاملونه على هذا النحو.

حين دخل حكيمي الفناء، اقتيد على الفور إلى خلفية المنزل. رأى جثة كمال، فهز رأسه وضيق عينيه، ليبدو متأملًا أكثر منه مشمئزًا.

تمزق لحم عنق كمال إربا. تناثرت قطع العظم وبرك الدم وقطع المخ خلف الميت بألوان الوردي والأحمر والأبيض.

أخبروه بما حدث في سلسلة من السرد المتقطع. تنقلت عيناه من الفوضى الدموية إلى الأرملة المتكورة بجوار الجدار ثم إلى الوجوه الكثيرة التي تحدق إليه بتوقع.

كانت زيبا تنوح بهدوء وغم.

تفرس حكيمي في المرأة أمامه. عيناها مزججتان، يداها ما زالتا ترتعشان. حين تحدث معها نظرت إليه بعينين فارغتين، كأنه يتحدث بلغة أجنبية. عاد يلتفت إلى الزحام مستاءً.

«لا أحد يعرف ماذا حدث هنا؟ ليرحمنا الله. ماذا حدث لكمال؟ ألستم جيرانه؟ ألم يسمع أحدكم شيئًا؟»

ثم رفع يده ليصمتوا. التفت إلى رفيق. آغا رفيق الأكبر سنًا بينهم، وبيته مجاور لبيت زيبا.

«آغا رفيق، أنت جار هذه الأسرة. عرفتهم لسنوات. ماذا سمعت؟»

كان آغا رفيق قد سمع الكثير جدًّا على مدار سنوات، ليس الصوت نفسه الذي جذب زيبا إلى الفناء، بل أصوات أخرى يسهل تحديدها. نظر إلى المرأة المتكورة على الأرض، ترتعش كطائر سقط في فخ.

«لقد... لقد عرفتهم لسنوات بالفعل. كمال جان، ليغفر له الله، لم يسبب لي أي مشكلات. كان يراعي أسرته، كان... أوه، ماذا أقول؟ أرملته تجلس هنا الآن. لديها أربعة أطفال لتعتني بهم. زوجتي تعرفها جيدًا. لا أصدق أن بإمكانها ارتكاب هذا الجرم الشنيع».

صدرت غمغمات وصيحات وارتفعت قبضات في الهواء.

«كفى!» صاح حكيمي، شعر بالعرق يسيل على عموده الفقري. تلاحقت أنفاسه لتفكيره في رد فعل الجمع على أي قرار قد يتخذه. يعرف أنهم يكرهونه. لماذا وافق على هذا العمل؟

قال: «أريد أن أسمع ما يقوله آغا رفيق». والتفت إلى آغا رفيق، الذي توتر بشدة للفت الانتباه إليه.

فتنحنح وبدأ بحرص:

«أنا لست قاضيًا لكن... يمكنني... يمكنني القول، مراعاة للأصول، أن عليها البقاء هنا للعناية بأطفالها حتى يمكننا حل هذه القضية».

غمغمت النساء موافقة.

أومأ حكيمي برأسه بسلطوية. إنهم يثقون برفيق ولن يجادلوا جارهم الشيخ. تذمَّر آخرون بصيحات اتهامية. تنحنح حكيمي، أمسك حزام زي الشرطة، وابتعد خطوة عن زيبا.

«حسنًا جدًّا، ظني أن ما يتبقى مسألة الجثة...»

«سنلف جسده ونضعه عند الباب الخلفي. يمكن لعائلته تغسيله هناك». صاح أحد الرجال.

شعر بصير بمعدته تستقر قليلًا. نظر حكيمي حوله، دقق في النظر إلى كل ركن من أركان المنزل، وتفقد الفناء بوصة بوصة. كان معه ضابطان، فتيان صغيران أكبر من بصير بالكاد، شعر منفوش ووجهان أملسان.

سحب أحدهما ملاءة فراش من فوق حبل غسيل. شكره حكيمي بإيماءة من رأسه ويداه عند خصره. تجنب النظر إلى زيبا.

لاحظ بصير ازدياد اهتمام الجيران بالمشهد الدموي. غادرت النسوة من باب الاحترام لكنهن وجدن ذريعة للتلكؤ في الشارع، بأعناقهن مرفوعة أملًا في لمح أي شيء آخر. أكان الأمر سيئًا حقًّا كما قالوا؟

كان الأمر كله سينتهي عند هذا الحد لو لم يندفع فريد إلى الداخل كالإعصار، لاهثًا وغاضبًا. فريد، ابن عم كمال الأصفر. رجل يمكنه تبادل السباب والمجاملات في نفسٍ واحد. كان قميصه مفتوحًا ووجهه أحمر. فوجئ آغا حكيمي وكاد يسقط دفتره الصغير.

«ماذا حدث هنا؟ أين ابن عمي؟»

وقعت عيناه على الرجال الأربعة الذين يحملون لفة ملاءة الفراش. تلطخت الزهور الباهتة المطبوعة عليها ببقع حمراء كبيرة.

«هذا حقيقي إذًا؟ أهذا هو؟ دعوني أرى ابن عمي! ماذا حدث له؟»

دفع مَن في طريقه وهو يتقدم، لكن ثلاثة رجال أمسكوا به وهم يرددون عبارات التعزية.

هدر قائلًا: «ليخبرني أحد بما حدث هنا!»

التفتت الوجوه إلى حكيمي. فرد مأمور الشرطة كتفيه ولخَّص له ما يعرفه هو:

«وُجِد ابن عمك في الفناء. لسنا متأكدين مَن قتله حتى هذه اللحظة. لم يسمع أحد شيء حتى خرجت خانوم زيبا تصرخ. نعتقد أنها وجدت جثة زوجها. لذلك سنتركها هنا، إلى حين التحقيق في الأمر، للعناية بأطفالها الليلة».

نظر فريد إلى زوجة ابن عمه، التي زاد ارتعاشها منذ دخوله من البوابة. كانت تهتز بكيانه كله وعيناها نصف مغمضتين. استدار فريد ليحدق إلى دائرة المشاهدين، تململ بعضهم بحزن وشعور بذنب غير مفهوم. اتسع ثقبا أنفه وعقد حاجبيه غضبًا.

«هل جننتم جميعًا، كلكم؟» نظر الرجال بعضهم إلى بعض.

لم ينتظر فريد إجابة. انقض على زيبا فجأة، وقبل أن يستطع أحدهم إيقافه، كانت يداه محكمتان حول عنقها.

الفصل 4

اشتاقت زيبا إلى أمها كرضيع صغير محموم في تلك الساعات الحالكة. لكنها لم تبكِ وتناديها بصوت عالٍ. بعد العبارات السامة التي تبادلاها من قبل، لم يصل يأسها إلى حد أن تنادي جلناز. ستنتظر.

كان ذلك عارًا، حقًّا. إذ كانت زيبا وجلناز أمها، في يوم من الأيام، قريبتين كالزهرة وغصنها. كانت زيبا طفلة مشرقة، تجسيدًا حيًّا للاسم الذي منحه لها أبوها[2]. كانت تنزلق من فوق حِجر أبيها إلى جوار أمها وهي تضحك فيما يتناوب أبواها دغدغة بطنها، أو تقبيل جبينها، أو رفعها في الهواء.

كان أخوها، رفيع، في الخامسة من عمره وأكثر جدية بطبيعته. كان طفلًا بسيطًا ومطيعًا لا يمنح أبويه سببًا لا للفخر به ولا للشكوى منه.

كانت بطون النسوة من حول جلناز تنتفخ بالطفل الثاني ما إن يبدأ الأول السيرَ، لكنها لم تكن مثلهن. كانت تحب السيطرة، السيطرة على عواطفها وجسدها وأسرتها. قنع زوجها بتركها تفعل ما تريد. فكانت محط حسد الكثيرات لذلك، ما زاد من حاجتها إلى السيطرة.

ستنجب جلناز طفلًا حين تريد. سواء أكان ذلك برفضها زوجها حين يأتيها أو ببعض وصفات الأعشاب غير المعروفة،

2- زيبا اسم فارسي يعني جميلة أو ملاكًا من الجنة. (المترجمة).

غمـزت وهـي تجيـب أخـت زوجهـا ببسـاطة حيـن تجـرأت الأخيـرة علـى سـؤالها.

كان ذلـك عـام 1979، حيـن بـدأت كتائـب السـوفيت التدفـق إلـى البـلاد نتيجـة الغـزل الدائـر بيـن أفغانسـتان والقـوى العظمـى، الـذي بـدأ حيـن وُلـدت جلنـاز قبـل ذلـك بعشـرين عامًـا.

كان رفيـع، ابنهـا البكـر، قـد كبـر بمـا يكفـي ليسـتحم ويرتـدي ملابسـه ويـأكل وحـده، فقـررت جلنـاز أنهـا علـى استعداد لطفـل ثـانٍ. بعـد تسـعة أشـهر مـن إعلانهـا هـذا، وُلـدت زيبـا. أحبتهـا جلنـاز بشـدة لأن حضورهـا المـلائكي كان دليـلًا علـى أن جلنـاز هـي ربان سـفينتها.

تغيـرت أفغانسـتان ذاك العـام، حـل رئيس محل آخر توفي لأسـباب طبيعيـة أو اغتيـل علـى أيـدي معارضيـه. ظلـت الحقيقـة ضائعـة. وإذ تجلـب الفوضـى فوضـى أكبـر سـيحل رئيـس آخـر محـل الرئيـس الجديـد قبـل مضـي عـام واحـد. كان الوقـت مشـؤومًا لإنجـاب حيـاة جديـدة. تسـاءلت جلنـاز إن كان حملهـا فـي زيبـا خطـأً.

تخيـل بيتًـا يترأسـه ثلاثـة آبـاء فـي عـام واحـد، فكـرتْ. لا، لـن ينجـو مثـل هـذا البيـت، ولـن ينجـو البلـد.

لـن ننجـب أطفـالًا آخريـن، أعلنـت جلنـاز لزوجهـا وعائلتيهمـا. لـم يشـك أحـد فـي قرارهـا، كانـوا قـد عرفـوا، حينهـا، أن بوسـعها إخضـاع الطبيعـة لسـيطرتها.

كانـت جلنـاز سـاحرة، تحـرك الأقـدار بمهـارة مثـل جدتهـا تمامًـا. ورغـم زعمهـا أن جدتهـا لـم تعلمهـا أيًـا مـن حيلهـا التـي اشـتهرت بهـا، لكنـه كان واضحًـا أن زعمهـا هـذا ليـس حقيقيًـا. كانـت تمـارس فنًـا دقيقًـا ومعقـدًا تتوارثـه الأجيـال، وليـس فنًـا يمكـن التقاطـه ببسـاطة.

كانت تدندن وهي تعد الوصفات؛ ما جعل الأمر كله يبدو بريئًا تمامًا أمام أعين أطفالها وزوجها الذين استفادوا جميعًا -رغم كل شيء- من مهاراتها. كانت حين تنتاب الحمى أحد الطفلين، تسكب قطرات ماء مقدس في فمه وتضع التمائم تحت وسادته. حين تلوّى رفيع ألمًا من دمل بحجم ثمرة الطماطم في سمانته، هرعت جلناز إلى البحيرة. أمسكت ضفدعًا وشقت بطنه بسكين حادة، وضعته على الدمل ولفت جثته النازفة بشريط قماشي. خلال ساعة، صاح رفيع بصوت عالٍ؛ انفجر الدمل وسال القيح على ساقه بحرية. ألقت جلناز بجثة الضفدع خارجًا، وخلال يومين كانت رجل رفيع قد شفيت تمامًا. كانت محبة ومخلصة كأي زوجة أو أم أخرى، فقط أقوى قليلًا. كان طفلاها يرتاحان لسحرها حتى وإن آلمهما.

حين كان رفيع في السادسة من عمره، كُسرت رجله. حدث ذلك بعد يوم من تعليق عمته على طوله الملحوظ. أمسكت جلناز وهي تسب في سرها بإبرة خياطة أعلى لهب نار ثم ثقبت بها شحمة أذن رفيع. دمعت عيناه وهو يصرخ ويتلوّى أسفلها. وحتى بلغ الرابعة عشرة من عمره، كانت تترك خصلة واحدة من شعره دون أن تقصها حتى طالت إلى منتصف ظهره.

«لتحميك من الحسد»، قالت بجهامة. العين الشريرة قوية. وهذه الأمور ضرورية.

كانت بقية العائلة ترتبك من جلناز. يعض الأقارب وأخوات الزوج والعمات ألسنتهم ويتعوذون بصلواتهم. كانت الجميلة ذات العينين الخضراوين تثير قلقهم.

تجلس زيبا إلى جانب أمها وتراقبها وهي تغرز إبرًا ساخنة في قطعة دهن حيواني أو تسلق بيضًا ستتركه على عتبة آمنة. اعتادت فعل هذه الأمور مثل غسيل ملاءات الفراش أو تقشير البطاطس. كانت هذه هي الحياة مع جلناز. رددت زيبا جدول الضرب مع الأطفال الآخرين لكنها فهمت المنطق الرياضي أفضل كثيرًا حين أرتها جلناز قوة العُقدة المربوطة خمس مرات في تحويل خلاف بين امرأتين حانقتين إلى نار حامية قد تحرق بيتًا برمته.

لكن جلناز كانت تستخدم حيلها حين تقتضي الضرورة فقط أو حين يستنجد بها المقربون منها. كانت حصيفة في هذا إذ تعرف أن الأمر يضايق زوجها، مع أنه لم يمنعه صراحةً قط. كان سحرها، مثل كل شيء آخر في حياتها، تحت سيطرتها، ويمكنها ممارسته بقدر ما تراه مناسبًا.

تغير كل هذا حين اختفى والد زيبا. لاحظت زيبا تحولًا ما في أمها، انقباض في الفك لم ينبسط قط.

اختفى والد زيبا ما إن تعلمت القراءة. تتذكر هذا الأمر لأن تسلسل الحروف كان منطقيًا أكثر من أي شيء في بيتهم الصغير. أخبرت جلناز طفليها أن أباهما ذهب لمحاربة الشيوعيين الكافرين. تمنى الطفلان عودته بهدوء لكنهما سرعان ما أدركا أنه ليس موضوعًا للحديث عنه مع أمهما. حين كان الأقارب يذكرون أمر رحيله المفاجئ، كانت جلناز تقضي بقية اليوم في نفض السجاجيد أو حك السواد عن الأواني بحنق انتقامي. كان من الأفضل عدم ذكره، حتى وإن كان غيابه كنافذة مفتوحة في الشتاء. كانت الحرب تزداد دموية يومًا بعد يوم، وسرعان ما بدا أن عدد الشهداء سيفوق عدد الأحياء.

نأت جلناز بنفسها وطفليها عن عائلة زوجها في نطاق بيتهم المشترك، متخذة مظهر الزوجة المهجورة الحزينة. حين مضى ما يكفي من الوقت وبدأ البعض يشير إليها بوصفها أرملة استغلت افتراضاتهم لصالحها. ارتدت السواد، أسدلت الستائر على النوافذ، وتحدثت بنبرات هامسة. تسهر بعد أن ينام الطفلان وتظل تراقبهما على الضوء الباهت للهب الشمعة. كانت مرحة وودودة معهما فقط حين يكونون وحدهم. كان الطفلان يحبان أباهما ويفتقدانه بمرارة. صار رفيع أكثر خضوعًا مما كان عليه بالفعل، مخصيًا بغياب والده. كانت زيبا تؤمن، التفكير السحري لطفلة، بأنه سيعود. كانت قد سقطت في النوم على إيقاع دقات قلبه الهادئ ليالي كثيرة جدًا حتى لم تستطع تصديق أنها لن تريح رأسها على صدره مرة أخرى أبدًا.

كانوا دائمًا ما يلفتون الأنظار، أحيانًا بتعاطف، وأحيانًا بارتياب. وكانت جلناز تزدري الاثنين على قدم المساواة وتضيف أسماء كل من ينظر إليهم إلى قائمة أعدائها. وزَّعت قِصاصها عليهم جميعًا. كبرت زيبا في كنف أمها، معتادة الشعور بالغربة. أصبح رفيع -على الرغم من هدوئه وتحفظه- أقرب أصدقائها. كان الوحيد في العالم كله غيرها الذي قد يفهم ماذا يعني أن تحظى بأم كجلناز.

حين يفيض الكيل بالرجل فلا سبيل آخر أمامه، كانت عمة زيبا قد علقت بذلك ذات مرة على العشاء في إحدى المناسبات، في عرض محادثة عن زوجين من الجيران يمكن سماع شجارهما من الشارع. قالت النسوة، وهن يغسلن الصحون، إن الزوج عنيد

وقاسٍ ويستحق تقريبًا توبيخ زوجته له على الملأ. لكن العمة فيري، أخت أبيها، فكرت بطريقة أخرى. *لا يوجد زوجة ولا زوج بلا عيوب. هذان الاثنان فقط هما من يعرفان حقيقة قصتهما.*

لم تفكر زيبا في تلك المحادثة كثيرًا، ابتسمت جلناز، وأومأت برأسها فقط. كلام فيري معقول، رأت ذلك. لكنها ما إن صارت وأطفالها داخل بيتهم بستائره المسدولة، تغيرت تمامًا.

«فاض به الكيل، هذا ما تظنه»، انفجرت جلناز في لا أحد على وجه الخصوص. «بالطبع فاض به الكيل. لا بدَّ أنني زوجة بشعة!»

«ما الأمر مادر جان؟» سألتها زيبا بحرص. كانت حينها في الثانية عشرة من عمرها تقريبًا، تحلق في المساحة الفاصلة بين المراهقة والشباب. تقضي هي والفتيات الأخريات من سنها وقتهن مع النساء، يتعلمن تفاصيل النميمة وآداب التعامل.

«إن عمتك تبوح بما في سريرتها بتلك الهيئة الراقية جدًا دائمًا كأنها فوق مستوى النميمة. لا أعرف ماذا أكثر إهانة؛ تلميحها بكوني السبب في هروب أبيك أم ظنها أنني غبية إلى حد أني لن أفهم ما الذي تتحدث عنه حقًا!»

لم يعرف رفيع قط ماذا يفعل في نوبات غضب أمه. كان يكره شعوره بالعجز لذلك كان يلوذ بأي شيء خارج البيت. في ذاك الموقف بالتحديد حمل الدلو الصفراء البلاستيكية وسار نحو الباب ليجلب الماء من البئر. راقبته زيبا يذهب. ليس لديها مهرب مثله، خاصة في المساء.

«لكن مادر جان، أنا لم أسمع أي شيء عن أبي»، عارضت أمها بحرص. كانت ستشعر بالإهانة مثل أمها لو كانت سمعت شيئًا كهذا. ما زالت تفتقده، حتى وذكرى وجهه تبدأ بالزوال.

«لم تسمعي؟ أوه يا زيبا»، تنهدت جلناز. «ابنتي، إن عقربًا بطول بوصة مميت بقدر نمر عملاق. تعلمي أن تنتبهي جيدًا لأي خطر حسب قدره. وطريقتها في النظر إليكِ! أنا متأكدة من أنها تحسدك لأنك أطول من ابنتها وبشرتك أفتح أيضًا. إن ابنة عمتك جميلة، لكنها ليست في مثل جمالك وأمها تعرف هذا».

لم تشعر زيبا بأنها أجمل من ابنة عمتها، بل في الحقيقة كانت تشعر بأنها أقل جمالًا منها والأخريات جميعًا بشكل ملحوظ. سُرَّت حين اتضح أنها قد تكون مخطئة بشأن مقارنة شكلها بالأخريات.

«وأنا التي قضيت ليلتين أعد الزلابية لعشاء الليلة لأنها طلبتها مني، ناهيك بطهيي لهم طوال الأسبوع الماضي حين مرضت ولزمت الفراش. لكنها لا تذكر شيئًا من هذا. يشغلها التفكير في أنني من دفعت بأخيها إلى الجبال، كأنني كنت أتحكم في الرجل إلى هذا الحد! إنها لا تعرف عن ماذا تتحدث وعليها أن تمسك لسانها قبل أن يمسك به شيء آخر».

آلمها أن تسمع أمها تشير إلى أبيها من بعيد هكذا. كان قد مضى على غيابه ست سنوات، لكنها ما زالت تأمل في عودته. كانت تحلم بلقائه في السوق. هل سيتعرف أحدهما على الآخر؟ هل سيركض نحوها ويقبل جبينها؟ كان لديها أفكار أقل تفاؤلًا أيضًا. ربما كان على مسافة مرمى حجر منهم لكنه يختبئ قبل

أن يـروه دائمًـا. كانـت تشـرد بأفكارهـا تلـك بعيـدًا فـي اتجـاه حزيـن ومحبـط فيتلـوَّن عـالمهـا بالوحـدة والشـك والقلـق.

وربمـا أمهـا محقـة. كانـت قـد لاحظـت عمتهـا ترمقهـا وأمهـا بنظـرة غريبـة مـن حيـن إلـى آخـر. الأسـبوع الماضـي فقـط، حيـن ذهبـت إلـى بيـت عمتهـا بإنـاء حسـاء أعدتـه أمهـا، سـألتها عمتهـا إن كانـت أمهـا تعتنـي بهـا وبأخيهـا جيـدًا. لـم تذكـر شـيئًا عـن السـؤال حيـن عـادت إلـى البيـت، صرفتـه مـن ذهنهـا علـى أنـه تعبيـر عـن الاهتمـام، لكـن مـن المرجـح جدًّا أن يكـون معنـاه أكبـر ممـا تخيلـت.

بعـد ذلـك بأربعـة أسـابيع، جلسـت زيبـا بجـوار أمهـا وهـي تقطِّـع جلـد ثعبـان مسـلوق إلـى شـرائح صغيـرة جدًّا وتلقـي بحفنـة منهـا فـي إنـاء فيـه سـبانخ وكـراث يغليـان علـى نـار. كانـت تطبـخ فـي حجـرة بـلا سـقف فـي خلفيـة البيـت، حيـث تتصاعـد الأبخـرة والدخـان فـي الهـواء الطلـق بالخـارج. ظلـت جلنـاز تثرثـر مـع ابنتهـا طـوال الوقـت، تذكرهـا كيـف كانـت جميلـة ذاك اليـوم وأنهـا، كأم، لـم تكـن لتطلـب مـن اللّٰه طفلـة أجمـل منهـا. انتفخـت أوداج زيبـا فخـرًا لسـماعها كلمـات أمهـا ولرؤيتهـا لمعـة الفخـر فـي عينيهـا الخضراويـن.

قَلَتْ جلنـاز بعـض الجبـن الـذي تعـده فـي البيـت فـي إنـاء منفصـل وسـكبته علـى السـبانخ حيـن لانـت أوراقهـا وصـارت ناعمـة. حركـت المزيـج بشـوكة لتتأكـد مـن اختفـاء جلـد الثعبـان تمامًـا.

«مـاذا سـيفعل هـذا مـادر جـان؟» سـألت زيبـا أمهـا وهـي تحـدق إلـى الإنـاء.

«إنـه مـا تسـتحقه عمتـك لمحاولتهـا سـلخنا بعينيهـا. سـيبقيها مشـغولة بمـا يكفـي لئـلا تجـد الوقـت لقـول أشـياء مريعـة عنّـا مجددًا».

غطت الإناء ولفته ببطانية صوف قديمة لتبقيه دافئًا. أوصلته هي وزيبا إلى بيت عمة فيري.

«أوه، جلناز جان، أهذا لي؟ لماذا أتعبتِ نفسك؟» سألت عمة فيري وهي تنظر إلى الإناء الصغير بحذر.

تساءلت زيبا إن كانت تشك في شيء. حبست أنفاسها.

«أنتِ مثل أختي فيري جان. لقد لاحظت ضعفك الشديد مؤخرًا، ففكرت أن بعض السبانخ ستفيدك».

«أنا مرهقة طوال الوقت مؤخرًا بالفعل. ليحفظ الله زوجك، كان دائمًا ما يقول إنك طبيبة ماهرة جدًّا في ما يخص الخضراوات والأعشاب فحسب. أخبريني إذن. ماذا وضعت في هذه السبانخ؟»

رفعت جلناز حاجبيها.

«أقال زوجي هذا؟» قالت برزانة. «أوه، لقد كان كريمًا جدًّا بكلماته. لكن للأمانة، أضفت بعض الزنجبيل الطازج فقط. كانت أمي تقول إنه لا شيء لا يمكن للزنجبيل علاجه».

«لقد سمعت الشيء نفسه»، قالت عمة فيري وهي تومئ برأسها. بذلت جهدها لتبدو مرحة. «أنا لا أقصد تدوير أقاويل الآن، لكن الجميع يعرف بشأن حيلك يا عزيزتي. ماذا وضعتِ هنا أيضًا؟»

وضعت جلناز يديها في خصرها، فردت ظهرها وتنهدت بحدة.

«حقًّا فيري. ظننتك أعقل من هذا»، قالت متأففة. تطاير طرفا طرحتها الزرقاء في النسيم.

ضحكتِ العمة فيري بهدوء قبل أن تحول انتباهها إلى زيبا.

«زيبا جان»، قالت بصوت ودود رغم تعبيرات وجهها الاتهامية.

«ماذا وضعت أمك في هذا الطعام حقًا؟ أنتِ لستِ مراوغة مثلها، ألست كذلك؟ لن تستطيع عائلتنا التعامل مع اثنتين».

راقبت زيبا أمها تبتسم بهدوء وهي تلمس مرفق عمتها برفق. اشتعل وجه زيبا لشعورها بالعار والغضب.

قالت أمها: «أنا أعرف أنكِ لست بحال جيدة عزيزتي. لا داعي لقول هذه الأشياء، خاصة أمام ابنتي الصغيرة، إنها شابة بالكاد. ألقي بالسبانخ إلى الكلاب في الشارع إن شئتِ، كنت أحاول مساعدتك فحسب».

أمسكت بذراع ابنتها واستدارت لتتصرف، تاركة عمة فيري ممسكة بالهدية الملفوفة.

«مادر، لماذا تقول...»

«اسكتي زيبا. انسي الأمر فحسب». لم تسمح لابنتها بأي أسئلة.

حين تم البدر، تجمعت العائلة الكبيرة مجددًا. كانت عمة أخرى قد ولدت طفلًا، وتجمعوا للاحتفال بمضي أربعين يومًا على الولادة. التقت زيبا وجلناز العمة فيري أمام بيت العمة التي دعت الجميع.

كادت شهقة تفلت من زيبا. بدا وجه العمة فيري منهكًا. تشققت بشرتها حول أنفها وزاويتي فمها وبدت فيها قشور بيضاء صغيرة.

تبادلن المجاملات ودخلن معًا، تحركت جلناز وابنتها إلى الجانب الآخر من الغرفة.

أغرق قرع الطبلة الثرثرة. كان الجو العام احتفاليًا لكن زيبا كانت قلقة جدًا.

ظلت أغلب الوقت تراقب عمتها وهي تحك وتهرش ذراعيها بغضب. تتوقف فقط حين تميل إليها أخت زوجها لتتحدث معها، لكنها تواصل ما إن تلتفت عنها. تخيلت زيبا جسد عمتها تحت ثوبها القطني مغطى بقشور سمك شائكة.

في طريق عودتهما إلى البيت تلك الليلة، نظرت زيبا إلى وجه أمها، يتوهج في نور البدر الناعم. أحيانًا، تشعر بغرابة شديدة لكونها ابنة ساحرة بعينين خضراوين.

الفصل 5

سافر يوسف من مطار كينيدي إلى دبي، ظل ثلاث عشرة ساعة ملتصقًا بنافذة البوينج 747. نزل بفندق له أرضية رخامية وفي بهوه نجف مبهرج وأثاث فخم. نام نصف يوم مرهقًا، ثم استيقظ في المساء وخرج يتجول في السوق بين زحام السياح ذوي البشرة البيضاء والمحليين ذوي الجلابيب البيضاء. أغلب أصحاب المحلات تقريبًا من الأجانب ذوي البشرة السمراء، يبيعون سلعًا من الهند في محلات بمداخل تشبه الخيام. تتألق نوافذ العرض بمجموعات الأساور والسلاسل المصوغة بإتقان من الذهب عيار ثمانية عشر قيراطًا. ضجر سريعًا من حالة البذخ. تناول الكباب في مقهى على الرصيف وفكر في عودته إلى الوطن بعد غياب طويل.

مرت ساعتا الرحلة من دبي إلى كابول بسرعة، وترجل يوسف من الطائرة إلى حالة من الذهول. من هنا، تبدو أرض طفولته كأنها لم تتغير، كأن أحداث التاريخ لم تكن سوى حلم مزعج. كانت هي الجبال نفسها التي في ذاكرته.

سار مسافة قصيرة من مدرج الطائرات إلى صالة الوصول، أشار له عاملو المطار بمآزرهم الخضراء الفلورسنت إلى الطريق.

أخذ حقيبته من فوق حزام نقل الأمتعة ووجد تاكسي أمام مبنى المطار في الخارج. كانت رحلة قصيرة من المطار إلى كابول، وظلت عيناه ملتصقتين بالنافذة. لمح مدخل المطار الرئيس فيما تبتعد به السيارة.

على الأبواب الزجاجية العريضة صورتان، واحدة لأحمد شاه مسعود، أسد بنجشير الشهيد الذي قاد التحالف الشمالي[3] ضد طالبان، بقبعته الصوفية المستديرة المسطحة أعلى شعره الكث المجعد، رُسم بشكل جعله ينظر إلى المدينة من بعيد. شاربه ولحيته متواضعان، هيئته رثة. بدا في هذه الصورة، كما في كل صوره الأخرى التي التقطت له، كأنه يخطط للهجوم على طالبان أو قلب نظام الحكم بقصائد شعرية، مزيج يصف روح الأمة.

الصورة الأخرى لحامد كرازي. أول رئيس لأفغانستان عقب سقوط طالبان عام 2001. لصورته، بخلاف الصورة الأخرى، هيئة البورتريه الملكي. على كتفيه العباءة التقليدية -مخططة بالأخضر والذهبي والأزرق الداكن- ويرتدي قبعة من صوف الحمل بقمة رفيعة. لحيته الرمادية مهذبة بعناية، وبعينيه الصغيرتين لكنهما مفعمتين بالفخر، يبدو صريحًا، خلف من يغادر المطار نحو كابول الجديدة.

سأل سائق التاكسي يوسف لماذا عاد. رأى أفغانًا كثيرين يعودون من الخارج، لكنّ شابًا يسافر وحده! فهو هنا لسبب غير زيارة عائلته.

«ألديك مشروع هنا؟»

«لا، ليس لديَّ مشروع».

«أتريد أن تبدأ مشروعًا؟»

3- جبهة عسكرية شكلتها الجماعات المعارضة في أفغانستان عام 1996. (المترجمة).

«لا، أنا هنا من أجل عمل».

«ماذا تعمل؟»

«أنا محام».

«محام؟ فًي شركة أجنبية؟»

«لا، فًي منظمة دولية توفر محامين للأفغان. أنا هنا لأعمل من أجل الناس».

شعر يوسف بفضول الرجل يمتزج بشيء ما آخر، شك أو حقد ربما. يعرف أن أعدادًا كبيرة من الأفغان قد عادوا إلى كابول لاستغلال الفرص بعد الحرب. باعوا أراضي بأسعار مبالغ فيها، بنوا فنادق، وانتهزوا الفرص للتعاقد مع أجانب من الباطن. قرر تغيير الموضوع فسأل السائق عن انسحاب الولايات المتحدة.

«يرحلون جميعًا»، قال السائق بتلويحة حازمة. «لماذا نتوقع منهم البقاء؟ لكنهم سيعودون».

«ماذا تقصد؟»

«سنواجه مشكلات أكبر بكثير بعد رحيلهم. نحن جميعًا نعرف هذا. أحيانًا ينزعج المرء من النمل في بيته لحد ألا يلاحظ الفئران الكامنة في انتظاره».

«لكن، ألا تظن أنه حان الوقت ليعتني الأفغان ببلدنا؟ علينا أن نتعلم الوقوف على أقدامنا».

سعل السائق، ضغط بوق سيارته لسيارة أخرى تتقدمه من الجانب. كانت الطرق مزدحمة بسيارات الأجرة الصفراء ستيشن واجون، والتويوتا، والعربات اليدوية، والمشاة. عج الشارع بسيارات قريبة جدًا من بعضها إلى حد أن السائق يمكنه مد يده إلى السيارة المجاورة.

«القول سهل»، تمتم السائق. «أنت لا تعيش هنا».

«في الحقيقة، أنا كذلك الآن».

أمسك السائق عصا السرعة وضبطها على السرعة الأولى. لم ينبس بكلمة أخرى.

حوَّل يوسف انتباهه إلى الشوارع التي بدت مألوفة على نحو مبهم. انتابه -في بعض الطرق- شعور ما بين الرؤية المكررة والذكرى الحقيقية. وشعر في منعطف ما بيد أبيه تمسك يده. أدهشه عدد المباني الحديثة بواجهاتها من الحديد الصلب اللامع ونوافذها الزجاجية الكبيرة. يافطات حمراء تعلن عن أثاث منزلي بأسعار مخفضة.

طلب من السائق توصيله إلى فندق في الناحية الراقية من المدينة، حيث يقيم أغلب أفراد الجاليات الأجنبية. ابتسم السائق بمكر، شعر أن ظنه سليم.

بعد أن فتح حقائبه وشرب من زجاجة المياه التي اشتراها من بهو الفندق، جلس ورفع قدميه واتصل بأمه.

«كيف كانت رحلتك؟ هل أكلت شيئًا؟» صوتها مشحون بالقلق.

«كانت رحلة جيدة. بالطبع أكلت، مادر جان. أنا هنا للعمل، وليس لعمل حِمية».

«لا تذكر لي تلك الكلمة»، قالت بمرارة، «لقد ظللت أتبع حمية طوال الأعوام الخمسة عشر الماضية وزاد وزني عشرين رطلًا».

«من دون الحمية كنت ستزدادين ثلاثين رطلًا. اعتبري هذا نجاحًا»، أجابها.

«يمكنك الجدل في أي شيء، أليس كذلك؟ اسمع، أعرف أنك لن تمكث هناك سوى أيام قليلة، لذلك أرجوك لا تضيّع وقتًا، اذهب إلى بيت كاكه سيار في أقرب وقت ممكن. لقد وعدتني».

زام يوسف.

«سأذهب! ظننتك لن تمانعي اتصالي بكِ أولًا قبل ذهابي للبحث عن جيراننا القدامى».

«كانت المكالمة ستكون أمتع كثيرًا لو أخبرتني أنك ذهبت إلى بيتهم وشربت معهم الشاي».

لم يكن كاكه سيار عمه حقًّا. رحل هو وأسرته إلى إيران في الوقت نفسه تقريبًا الذي رحلت فيه أسرة يوسف إلى باكستان. له ثلاث بنات. أتمت صغراهن الرابعة والعشرين من عمرها لتوها وتُدعى مينا. كان على يوسف وهما صغيرين أن يراقبها فيما يمرر والداهما أطباق الطعام بينهم ويناقشون أحداث الحرب. كان هو ولد صغير في سن المدرسة، وهي رضيعة. بمرور الوقت، لم ينزعج منها البتة حين كانت تلاحقه. ظل دائمًا رقيقًا معها، بشكل جعل أمه وأمها تبتسمان بفخر.

تذكر يوسف حين تركوا كابول. كان على مسافة ما من مينا ذاك العام، قلّ اهتمامه بمداعبة فتاة في السادسة من عمرها بينما يقف وهو في الحادية عشرة من عمره على أعتاب المراهقة. مع ذلك، ظلت مينا متعلقة به بوصفه أخاها الكبير، ولم يكن يرفض طلباتها. كان يجلس متربعًا ليحكي لها قصصًا أو يستمع إلى قصصها. كان العالم خارج بيتيهما قاسيًا، وشعر أن من واجبه أن يجعلها تبتسم.

«إنها فتاة جميلة، وهم عائلة رائعة». قالت والدته بتنهيدة. كررت قولها هذا مرارا خلال الأسابيع الأربعة التي سبقت سفره. «كل ما أطلبه منك أن تقضي معها وقتًا فحسب».

ستعدُّ أمه رحلته موفقة فقط في حال عاد مرتبطًا. لم يكن ذلك شيئًا استنبطه، بل أعلنته بصراحة شديدة، خاصة بعد رفضه فرص الارتباط الكثيرة التي أشارت عليه بها في دائرة معارفهم في نيويورك. اتهمته بكونه نيقًا جدًا وحذَّرته من مخاطر المماطلة.

«مساحيق تجميل كثيرة، تعليمها قليل، طويلة جدًا، قصيرة جدًا. لتكُف عن إيجاد عيوب في الفتيات وابحث بنفسك عمّن تناسبك. لقد انتظرت طويلًا جدًا ولن يتبقى أمامك أحد لتختار».

لكن الفتيات الأفغانيات في نيويورك لم يكنّ مختلفات كثيرًا عن الأمريكيات. حين تحدث مع كثيرات منهن في احتفالات الجالية أو رابطات الطلبة، لم يجد واحدة مهتمة بأي شيء عن أفغانستان. تبين له أن فكرتهن عن الهوية الثقافية تتلخص في ارتداء الزي الأفغاني التقليدي مرة في العام في حفل زفاف وحمل صينية حناء. كثيرًا ما تضمن التعرف إليهن مكالمات هاتفية سرية ومقابلات بذرائع مختلقة بدهاء لئلا يعرف آبائهن أماكنهن، فقط ليكتشف أن لا قواسم مشتركة بينهما.

لكن مينا قصة مختلفة. ضحك حين ذكرت أمه الأمر لأول مرة أمامه. وضعت يديها في خصرها بحزم وأخبرته بأن أم مينا لا تمانع الفكرة. مينا في السن المناسبة وأنهت دراستها الجامعية لتوها. وهي الآن تدرس الحاسب الآلي، ويريدون تزويجها بشخص

جيد. وهم يعرفون أسرة يوسف ويعرفون أنه صار محاميًا. سيكون زوجًا مناسبًا لها، قرر والدا مينا وألمحا لأم يوسف إلى الأمر.

بينما كان الوطن يجذبه كالمغناطيس، كان فضوله بخصوص مينا أيضًا يتزايد بهدوء. كان قد رأى صورة لها ويعرف أنها جميلة جدًا. لكنه لا يعرف القدر الكثير. مضت سنوات كثيرة جدًا منذ أن رآها، التفت ذراعاها الصغيرتان حول عنقه وهو راكع أمامها ليودعها. مسح الدموع عن عينيها، تدفق الدم في وجهه لرؤيتها حزينة.

«سأتصل بهم صباحًا وسوف أزورهم في وقت لاحق من اليوم. أهذا جيد؟» وعد أمه، لكنه جعل وعده يبدو كأنه يفعل هذا على سبيل المزاح معها فحسب.

«جيد. تذكر، ليس لديك سوى أيام قليلة في كابول قبل السفر إلى الأقاليم. استغِل هذا الوقت في التعرف إليها».

مضى في طريقه إلى بيت كاكه سيار في اليوم التالي، مر بأسراب من أطفال الشارع المبتسمين بأيادٍ ممدودة وأعين فضولية.

«مستر، مستر... حسنة قليلة!»

«مرحبًا، كيف حالك!» صاحوا به ثم انفجروا بالضحكات وهم يمارسون إنجليزيتهم البدائية. ملابسهم رثة، أظفارهم أقواس سوداء. تساءل يوسف إن كانوا يتامى أم أنهم فيض أسر فقيرة.

ضحك معهم، عبث في شعر أحدهم وأعطى الآخر قلم حبر جاف كان في جيبه.

«هل تذهبون إلى المدرسة يا أولاد؟»

«أنا أذهب!»

«وأنا أيضًا!»

كانوا طياري المستقبل وأطباءه وأساتذته، وعدوه بذلك. كانوا مثابرين بلا أدنى قدر من الخجل، جمعهم يدعم ثقتهم.

مر بنساء يرتدين البراقع وأخريات يرتدين بناطيل جينز، وطُرح رأس فضفاضة وأحذية بكعب عالٍ. ما زال بعض الرجال يرتدون الزي التقليدي: قميصًا وبنطلونًا وعمامة على الرأس. آخرون يرتدون بناطيل جينز ضيقة من قماش الداينم وأحذية رياضية من أديداس. جلس رجل على كرسي بلا ذراعين أمام محله، يعلو المدخل قوس من أقفاص الطيور المصنعة من الخيزران. حطت الببغاوات والعصافير وطيور الكناريا على أغصان رفيعة، وبدت كجواهر متألقة بألوان كثيرة.

كانت أسرة كاكه سيار تعيش في بيت تركه أحد أقاربهم. تهدم بيتهم الذي كانوا يعيشون فيه والذي كبر فيه يوسف حين كانوا خارج البلاد. طرق يوسف البوابة الخارجية وانتظر -متوترًا- أن يجيبه أحد. يحمل حقيبة هدايا اختارتها أمه كلها: شوكولاتة، ملابس لكاكه سيار، وزجاجات عطر لزوجته.

كان كاكه سيار من فتح الباب، هز رأسه بدهشة وجذب يوسف إلى الفناء. عانقه بقوة وقبَّل خديه. حين عاد إلى الخلف خطوة ليمعن في النظر إلى الولد الذي لم يرَه منذ أكثر من عشرين سنة، خرجت خالة زينب إلى الفناء وعانقت يوسف، ربَّتت براحتيها على خديه بطريقة أمومية. انحنى يوسف وحاول تقبيل يدها، لكنها سحبتها بسرعة ودفعته ليدخل إلى البيت.

«تبدو مثل أبيك تمامًا»، قالت خالة زينب. «كيف حالهم؟ وحال أخيك وأخواتك؟»

«ما شاء الله، لقد صرت رجلًا كبيرًا! لو كنت رأيتك في الشارع لما عرفتك»، أضاف كاكه سيار.

كانت ابنتاهما الكبريان قد تزوجتا لكنهما كانتا في البيت مع أبويهما هذا المساء بالإضافة إلى زوجيهما وأطفالهما، أتوا جميعًا لرؤية يوسف. لم يتعرف يوسف عليهما، ولا على مينا أيضًا. وقف حين جاءت من الخارج. كانت قد عادت لتوها من عملها، شيء ما له علاقة بالأمم المتحدة، حسب ما أخبرته به أمه. ترتدي بنطلونًا أسود وبلوزة طويلة مخططة تغطي وركيها. طرحتها فضفاضة وشفافة وابتسامتها دافئة.

ذكر شيء ما فيها يوسفَ بإلينا، لكنه نحى الخاطر جانبًا. جلست مينا على وسادة على الأرض بين أختيها، حبَتْ ابنة أخت، تبلغ من العمر عامًا، إلى حجرها بفرح. دغدغت مينا بطن الصغيرة فهزت الأخيرة رأسها باعتراض زائف، ولمس شعرها ذقن مينا.

كانت رائعة، أقر يوسف، وذكَّر نفسه ألا يحدق إليها. لقد عاد إليهم بصفته صديقًا للعائلة وليس بصفته خاطبًا رسميًا، لكن حضور شخصين عازبين متقاربين في السن ملأ الغرفة بالتوتر. تمنى لو كان والداه معه ليخففا من الانتباه إليه وحده. كانت كل الأعين والأسئلة موجهة إليه فقط. لمح مينا تنظر إليه مرات عدة، لكنها كانت تحول انتباهها إلى ابن أو ابنة أخت ما إن ينظر إليها.

كانا كحصانين معصوبي الأعين، يقفان جنبًا إلى جنب ويتظاهران بعدم الوعي بوجود الآخر. لكن كيف سيتعرف عليها إن لم يتحدثا معًا؟ هل يتوقعون منه اتخاذ قرار يخص بقية حياته بمجرد تناول الطعام معًا في غرفة واحدة؟

تساءلت أختاها الكبريان عن أحواله. مع أنهما كانتا أقرب إليه في السن لكن وجود أطفالهما وزوجيهما إلى جانبيهما أزال الحرج. كانتا تسألانه وتمزحان معه لغرض محدد، كان واضحًا أنهما تحاولان استكشاف المعلومات نيابة عن أختيهما الصغرى.

ماذا يعمل زوج أختك؟ هل يعيشان بالقرب من والديك؟ وأختاك، ماذا تدرسان في الجامعة؟

كانت أمه ستفخر بسماعه يقول إن زوج أخته موظف في بنك وأنهما اختارا العيش بالقرب من بيت أبيها. لم يذكر أنهما يعيشان في شقة مستأجرة في البناية نفسها مع والديه. مع وجود طفل في الطريق، لم يستطيعا التفكير في الانتقال. أخبرهم بأن أخته الأخرى تدرس المحاسبة، ولم يذكر أنها أنهت في خمس فصول دراسية ما ينهيه الآخرون عادة في ثلاثة فصول فقط وأنها تعمل بدوام جزئي فنانة تجميل في متجر كبير. بالنسبة إلى أخيه، ركز يوسف على مميزات المطعم الذي يديره، محجوزًا برمته كل ليلة تقريبًا ويتمتع بسمعة جيدة.

أومأ كاكه سيار برأسه استحسانا. ابتسمت خالة زينب بتشجيع. كانا يتخيلان بالفعل كيف سيكون البيت بعد زواج ابنتهما الصغرى، يتخيلان سفرها إلى الولايات المتحدة وترحاب والدي يوسف بها.

حاول يوسف المساعدة في رفع الصحون وأخذها إلى المطبخ، آملًا في فرصة للتفاعل مع مينا في سياق أكثر طبيعية، لكن كاكه سيار رفع يدًا وهز رأسه.

«أنت ضيفنا»، قال بابتسامة هادئة. «لقد جئت مسافة طويلة وبعد غياب طويل، وخلال أيام قليلة ستسافر خارج المدينة من أجل عملك. لا تقلق بخصوص الصحون».

كان ذلك حقيقيًا. ليس أمامه سوى أربعة أيام فقط في كابول قبل أن يتسلم عمله. كان يتوق إلى بدء العمل.

رغم شعوره بالحيوية تسلل إليه اختلاف التوقيت وبدأ جفناه يثقلان. عض لسانه ليمنع نفسه من التثاؤب، انتظر بأدب تقديم الحلوى والفاكهة قبل أن يستأذن للانصراف.

«كم يومًا ستمكث هنا؟ يجب أن تعاود زيارتنا». أراحت خالة زينب يدها على ساعده وهو يقف عند الباب.

تمنى ألا يكون خياله الذي هيأ له نظرة الإحباط على وجه مينا لرؤيته يغادر.

الفصل 6

ساعد ثلاثةُ من رجال الشرطة حكيمي في القبض على زيبا. دفعوها بقسوة في عربة الشرطة لنقلها إلى السجن في عاصمة إقليمهم. كانوا آسفين لتركها تذهب، يعرفون أن العدالة الحقيقية كانت ستتحقق لو كانوا قد تركوا فريد ينهي ما بدأه. لكن ما حدث أن أمر حكيمي أهل القرية بإبعاد ابن عم كمال عن زيبا، المكومة على الأرض لا يمكنها التنفس. صرخ أطفالها، متأكدين من أنهم سيفقدون أمهم أيضًا في اليوم نفسه.

وصلوا إلى سجن **شيل ماهتاب**، سلمها ضباط الشرطة لحرس السجن الذين بصقوا على الأرض وهم يتسلمونها. سارت زيبا في الأروقة، تمسك بها من مرفقها حارسةُ سجن، أسما، تشد شعرها المصبوغ بالحناء الحمراء للخلف في ذيل أرنب سفلي يمنحها مظهرًا صارمًا وغير ودود. مع ذلك، كانت بمنزلة أم حنون بالقياس إلى الحرس الذين سلموها إياها، وشعرت زيبا بتنفسها يهدأ.

لأسما عين حولاء. قفزت عينها الأخرى من فوق أبواب الزنازين المفتوحة إلى حلقة الكدمات القبيحة حول عنق السجينة الجديدة. سارتا عبر رواق واسع بأرضية من البلاط. عاملت أسما -كعادة أغلب السجانات- السجينة الجديدة باحترام. لا مجال لتبادل الابتسامات أو المجاملات، ولا للضرب أو نظرات الازدراء كذلك.

الحرس جميعًا داخل السجن من النساء، يرتدين سترات زيتونية مغلقة الأزرار أعلى سراويل أو تنانير بلا شكل تصل إلى كواحلهن. بعضهن يفتخرن بالزي الرسمي، تثيرهن السلطة

التي يشعرن بها لارتدائه، كونهن مسيطرات وأعلى شخص ما، أي شخص. حارسات أخريات لم يكن يرتحن فيه، ما فهمته زيبا بشكل أفضل. كن ودودات ومحترمات أغلب الوقت. بدا أنهن يفهمن أنه حتى هن لسن بعيدات بأكثر من إصبع اتهام واحدة عن الزج بهن في السجن مع السجينات.

وُضِعت زيبا في زنزانة مع ثلاث نساء أخريات حدقن إليها بلا حياء والسجانة تدفعها إلى مقرهن الضيق. كانت قد اعتادت خلال اليومين الماضيين جميع أنواع النظرات.

«هذا فراشك. ستأخذين الفراش السفلي».

تتبعت زيبا نظراتهن الجماعية وجلست على بطانية بخشونة الأرض الأسمنتية نفسها. تحوي الزنزانة سريرًا بدورين، وتلفازًا صغيرًا في الركن، وروزنامة تقويم من الأمم المتحدة معلقة على الحائط. على الفراش المقابل لفراشها ملاءة مغبرة مخططة بالأصفر والأرجواني. علقت صاحبته على الحائط أعلاه دبدوبًا محشوًا وردي اللون في كيس بلاستيكي لحمايته من التراب. ألصقت صاحبة الفراش العلوي على حائطها صفحات مجلات، صور لنساء بمكياج كامل، نجوم بوليوود، وإحدى قطط الرسوم المتحركة حتى، بعينين واسعتين كطبقي الفنجان، وتمسك بمخلبها باقة زهور عباد الشمس.

دققت النساء في النظر إليها، لاحظن كدمات عنقها وعينيها الفزعتين.

«أخبرينا إذن بسبب وجودك هنا. ماذا فعلتِ؟»

حين بدأت الأسئلة، هزت زيبا رأسها، أغمضت عينيها، ورقدت. تركتهن ينسجن نظرياتهن الخاصة. كن يأملن أن تكسر السجينة الجديدة رتابة أيامهن. لكن زيبا، الوافدة ذات الوجه الحجري، لم تمنحهن شيئًا.

عدن إلى لعبهن الكوتشينة فيما رقدت زيبا ساكنة، تستمع إلى ثرثرتهن وتتعرف إليهن.

كانت هناك نفيسة، امرأة بلسان حاد في منتصف الثلاثينيات لم يُجدها سلوكها غير الهيَّاب نفعًا مع القاضي. كان أحد أقاربها قد أبلغ عن علاقتها المحرمة برجل أرمل يعمل حدَّادًا. شوهدا وهما يتناولان الطعام معًا في حديقة ذات مساء. لم تتزوج نفيسة قط، ولم يزعج هذا والديها المسنين حتى وصل إلى سمعهما الاتهامات. غضب إخوتها الثلاثة الأكبر منها من تلطيخها سمعة العائلة. أقسمتْ نفيسة أن الأمر لم يتجاوز وجبة سريعة مع صديق شريف، لكنّ قليلين من صدقوها. لم يغير من الأمر شيئًا أنها كانت ابنةً وأختًا مطيعة وحنونًا طوال حياتها. قررت أمها، خوفًا من ألا يرى إخوتها سبيلًا آخر لغسل عارهم سوى بالدم، إبلاغ الشرطة عنها بنفسها.

بدموعها تسيل على وجهها ويديها المرتعشتين، قادت الأم ابنتها المحاربة إلى قسم الشرطة وسلمتها.

أنا لم أفعل شيئًا، صاحت نفيسة. *أقسم بالله أنني لم أرتكب ذنبًا!*

خذوها، همست أمها بصوت أجش. *لقد أساءت إلى سمعتنا*.

أدينت نفيسة بتهمة الشروع في الزنا. وحكم عليها بالسجن ثلاث سنوات.

تزورها أمها كل أسبوع. لم تلمها نفيسة قط، تعرف أنها لم تكن لتبقى على قيد الحياة لو لم تفعل أمها ما فعلته. كل آمالها الآن تعتمد على الفرصة الضئيلة في أن يطلب الأرمل -رجل في منتصف ثلاثينياته- يدها للزواج. في الحقيقة كانت الوجبة التي تشاركاها نتاج مكالمات هاتفية وبعض المغازلات الصغيرة. لكن لم يكن واضحًا إن كان تعارفهما النامي سيصل إلى أي شيء الآن بعد أن وُصِمت نفيسة بالفسوق.

لكن إن كان الرجل يريدها حقًّا، إن استطاع إقناع والديه بغض الطرف عن تلك الفضيحة، سيمكن إطلاق سراح نفيسة، والأهم من هذا، ستعود إليها كرامتها.

«أنا لست طفلة. من حقي أن أتناول الطعام في الحديقة وقتما أشاء. وفي جميع الأحوال، لم نفعل أي شيء خطأ. كنا نأكل فقط. أعدت أمي بعض البولاني[4] وأردت أن أتقاسمه معه»، أصرت نفيسة، بصوت ثابت.

«أراهن أنك لم تتقاسمي معه البولاني فقط»، قهقهت لطيفة قائلة.

لطيفة، التي تخلت عن الفراش السفلي لزيبا، شابة صاخبة في الخامسة والعشرين من عمرها بصوت جهوري وجسد عريض. تبدو كأنها تهم بالاشتباك في عراك حتى وهي في أشد لحظاتها سرورًا. لم تبدُ كطفلة قط، ولم تعاملها أسرتها كطفلة قط. ظلت تتعرض للضرب والسب حتى جاء يوم قررت فيه أنها لم

4- أكلة أفغانية شعبية عبارة عن فطائر محشوة بالخضراوات.

تعد تستطيع التحمل. من دون تخطيط ولا ضجة، سرقت لطيفة القليل من سجائر أبيها ووضعتها في جيب سترتها، أخذت أختها، البالغة من العمر خمسة عشر عامًا، من يدها، وخرجت بهدوء من البوابة الأمامية، لم تتوقع أن يبحث عنهما أحد. استقلت الباص المحلي إلى مدينة أكبر ومن هناك وجدت باصًا آخر لتصل إلى هرات، على أمل أن تعبر من هناك إلى إيران. كانت على مسافة يومي سفر من بيتها وفي حاجة إلى مكان للمبيت، تعرفت إلى امرأة في السوق، أخبرتها لطيفة بأنها أرملة وأن أختها ابنتها. عرضت عليهما المرأة على مضض أن يبيتا معها لليلة.

في الصباح عادت لطيفة وأختها إلى محطة الباص ليستأنفا رحلتهما. في نقطة تفتيش، لاحظ رجال الشرطة تململ أختها تحت نظراتهم فثارت شكوكهم. وجهوا إليها تهمة الشروع في استغلال أختها في الدعارة، ثار غضبها، أوضحت لهم أنهما باتتا ليلتهما في بيت امرأة محترمة، لكنهم حينها كانوا قد وصلوا إلى أهلها وقرروا اتهامها بالخطف والهروب من البيت. أعيدت أختها إلى البيت، وخلال مدة قصيرة، زوجوها بأحد الأقارب البعيدين. رفضت لطيفة دفاع محامٍ عنها واختارت أن تمثل نفسها بنفسها أمام القاضي.

كان الأمر كله مسؤوليتي، قالت وهي تخبط بيدها على صدرها وتومئ برأسها بتأكيد. *أنا من قررت الهروب من ذاك البيت البائس. أردت أن أنقذ نفسي وأختي.*

لم تكن لطيفة تتمنى الخروج من سجن شيل ماهتاب، حيث تلقت معاملة أفضل من أي معاملة تلقتها طوال حياتها. تفكر

كثيرًا في أنها لو كانت تعرف أن السجن سيكون هكذا، لكانت قد ركضت بنفسها نحو سور الأسلاك الشائكة منذ زمن طويل، لكانت قد سلّمت نفسها بأي تهمة.

لكنها محكوم عليها الآن بالسجن سبع سنوات بتهمة الهروب من البيت والخطف والشروع في الدعارة.

أما مزجان، فتاة في التاسعة عشرة من عمرها بعيني غزال، بنصف حجم صاحبتيها الأخريين، ولا تملك شيئًا من جرأتهما. حين رفضت تزويجها بشقيق زوج أختها، غضبت أسرة الزوج. عرفوا سريعًا أنها على علاقة حب بفتى في حيها، فوجهوا إليهما أصابع الاتهام الغاضبة انتقامًا، وأُلقي القبض عليها. بعد ذلك بأسبوعين، أخذوها إلى عيادة صحية للكشف على عذريتها. حين رأتها الطبيبة تُفرغ ما في معدتها في غرفة الكشف الصغيرة، قررت إجراء اختبار حمل، فقط ليثبت جُرم مزجان.

ظلت تبكي أيامًا، لا تعرف كيف يمكن لتلك اللحظات المسترقة القليلة أن تؤدي إلى وجود طفل وتدمير سمعتها.

«الأسوأ من كل هذا أن هارون في السجن هو الآخر»، قالت بأسى. «أقسم أنني لم أفعل ما يزعمون. لم يكن الأمر كذلك».

توسَّل والدا مزجان لأسرة هارون ليسمحا بزواج الحبيبين، لكن أسرة هارون رفضت تمامًا.

«أنا متأكدة من أن هارون منزعج. أعرف أنه يحبني وأنه سيفعل أي شيء لإخراجنا نحن الاثنين من هنا. لا بدّ من أن والديه يرفضان الاستماع إليه».

أطلقت لطيفة ضحكة عالية وعميقة.

«أه. نعم. لا يوجد سبب آخر لعدم تقدمه للزواج بكِ حتى الآن».

تنهدت مزجان بحدة.

«لقد تقدم بالفعل. لكنها أمه، إنها غير طبيعية. لا تحبني كثيرًا. تقول إنني أنا من لاحقت ابنها، وهذا ليس حقيقيًا البتة. كان هارون يتبعني في طريق عودتي من المدرسة إلى البيت. إنه يحبني حقًّا وبصدق. هل قلت لكما من قبل إنه اتصل براديو سبأ ذات مرة وتحدث عن حبنا وكيف يحاول العالم تفريقنا؟»

«لقد أخبرتني بهذا مرة كل أسبوع منذ مجيئك إلى هنا. لكنهم في إذاعة سبأ لا يذكرون الأسماء. لا يمكنك الجزم من أنه هو المتصل. ربما كان شخصًا ما آخر».

«لقد سمعت المكالمة يا لطيفة. قال إن حبيبته رقيقة كحرف الألف، بحاجبين رائعين كحرف الشين. أليس هذا جميلًا؟» تنهدت، طرف جفناها وهي تحاول كبح عواطفها. «هذه هي الأشياء التي اعتاد ترديدها، إلى جانب ذلك، أنا أعرف صوت حبيبي».

«وتعرفين أكثر من صوته قليلًا، أيتها الأميرة الصغيرة»، قالت لطيفة ضاحكة. «إن سألتني رأيي، يجب أن يكون أصحاب ومذيعو راديو سبأ هم من في السجن بدلًا من كل هؤلاء النساء. لأنهم يسمحون للناس بالتحدث عن الحب والغرام كأنهما أمور عادية في الحياة. تقع فتاة مسكينة في الحب لأنها تسمع من الراديو فتى أحمق يتحدث عن كيف لا يمكنه العيش من دونها. خمني أين سيؤول بها الأمر؟ ستنال فراشًا خاليًا في شيل ماهتاب، هناك سينتهي بها المطاف».

«لا أحد يقع في الحب لشيء سمعه في الراديو»، احتجّت مزجان، نبرتها مثقلة بالخيبة وشفتاها مزمومتان على نحو تأملي. كانت في مرحلة مبكرة من حملها وبالكاد تغير جسدها. أنهت مرحلة القيء قبل أسبوع من وصول زيبا، ما تعرف أنه يعني مرور ثلاثة أشهر. كانت قد شهدت أمها في حمليها الأخيرين وتعرف جيدًا ماذا سيحدث لها. وضعت يدها على بطنها المسطحة ما زالت، وقالت بأسى: «إنه شعور بالتواصل. حين لا يمكنك النوم إلا بعد أن تتحدثي معه كل يوم وتحبسين أنفاسك حتى تكونا معًا مجددًا».

«أكان من الصعب مقاومته لهذه الدرجة، هذا الفتى؟»

«أوه، لطيفة. أنا لست شاعرة. ليس لديَّ كلمات لهذا. كل ما أعرفه أنني منذ أن وقعت عيناي عليه، شعره الداكن، عيناه الرائعتان... قد أموت وأُدفن وسأظل مشتاقة إليه!»

ابتسمت نفيسة ببهجة. تقول مزجان ما ترغب هي في قوله، مع أنها لن يمكنها ذلك أبدًا. كيف تأمل في البراءة؟

خرجت الكلمات من شفتي زيبا قبل أن تفكر

«الرجال يحبون للحظات لأنهم أذكياء

وحماقة الحب إلى الأبد شأن النساء».

«ماذا قلتِ؟» سألتها نفيسة.

«قالت إنكما حمقاوان!» قالت لطيفة وأطلقت ضحكة عالية. «لم تستغرق وقتًا طويلًا في التعرف إليكما!»

كسرت زيبا صمتها، صوتها خاوٍ وبعيد. تحدثت إلى الجدران التي بلا نوافذ والكراسي البلاستيكية، الأسرة المعدنية والسجادة

الخضـراء الخشـنة. كان عليهـا أن تنظـر مباشـرة إلـى صاحبـات السـجن، ربمـا لتعيـد تعريـف نفسـها علـى أنهـا واحـدة منهـن، سـجينة فـي شـيل ماهتـاب.

«أفعـل هـذا مـن بـاب العـادة، تعلمتـه منـذ زمـن طويـل مـن امـرأة عاشـت فـي الجنـوب. كانـت النسـاء يجتمعـن سـرًا فـي بيـت قريـب مـن النهـر، ويتشـاركن تلـك القصائـد القصيـرة، مجـرد كلمـات. طريقتهـن فـي الفضفضـة عمَّـا يثقـل قلوبهـن».

رفعت مزجان كتفيها وقالت:

«يعجبني هذا. ظني أنه يجعلك شاعرة بشكل ما».

«كل مـن يحمـل قلبًـا مثقـلًا شـاعر»، قالـت زيبـا قبـل أن تغمـض عينيهـا.

فـي الأسـابيع القليلـة التاليـة ظلـت زيبـا منطويـة علـى نفسـها. فقـدت النسـاء اهتمامهـن بهـا وعـدن إلـى شـؤونهن. كانـت معهـن لكنهـا ليسـت واحـدة منهـن. اسـتمعت إلـى محادثاتهـن، تعرفـت علـى مختلـف الجرائـم التـي أتـت بهـن إلـى شـيل ماهتـاب: النشـل والاتّجـار فـي المخـدرات والقتـل. مـع ذلـك، كانـت صاحباتهـا مـن الكثيـرات المحكـوم عليهـن بالسـجن فـي جرائـم أخلاقيـة؛ الحـب أو الهـروب مـن البيـت.

تسـامحن مـع انعزالهـا لرؤيتهـن عينيهـا الحمـراوين وكيـف تسـهمان فـي الفـراغ. تشـاركن قصصهـن، فـي انتظـار اليـوم الـذي ستشـاركهن فيـه قصتهـا.

كان السـجن عالمًـا صغيـرًا. الزنازيـن مفتوحـة أغلب الوقت، يسـير النسـاء فـي الأروقـة، يتجمعـن فـي زنزانـة مفتوحة أو فـي الفناء. يوجد

مطبخ داكن مملوء بأوانٍ عميقة بما يكفي لحمل بطيخة، غرفة دراسة يوجد فيها سبورة سوداء وقطع طباشير، وغرفة ألعاب للأطفال الكثيرين الذين يقيمون في السجن مع أمهاتهم. كانت غرفة الدراسة فضاءً مفتوحًا، تستخدمها النساء أحيانًا والأطفال أحيانًا أخرى. يوجد صالون تجميل حتى، كرسي مائل موضوع أمام مرآة مضاءة. أمام المرآة مجموعات ظلال الجفون بألوان ودرجات مختلفة، أصابع أحمر الشفاة بألوان جريئة وملاقيط. بعض هذه الأشياء ساعد في شرائها السجانات، وبعضها جلبه أفراد أسر السجينات أو محاموهن لرفع معنوياتهن. تغطي رسوم الجرافيتي الملونة جدران الأروقة، إبداعات أطفال شيل ماهتاب.

كان لمكافحة الضجر طريقة واحدة جيدة. يجلسن في زنازينهن ويحكين قصصًا، كن مذهلات بحكاياتهن، حتى وهن يتهمن إحداهن الأخرى بسرقة زيت الشعر أو مسحوق الغسيل. بعض حكاياتهن مزينة كالنساء حين يغادرن صالون التجميل. في غرف النميمة تلك، عرفت لطيفة بقصة زيبا من امرأة لها شعر نحاسي بجذور قاتمة تفضح الصبغة.

همست لطيفة بالخبر للأخريات ذات ظهيرة في الفناء المحاط بالأسوار.

«الأمر حقيقي إذن، ما سمعناه حين جاءت أول يوم. وجدوا زوجها والفأس في رأسه»، قالت ببرود. سحبت نفسًا عميقًا من سيجارتها، ضيقت عينيها ومالت برأسها جانبًا. «يدهشني أنها وصلت إلى هنا. من حيث جئت، كانوا سيقتلونها ويمثلون بجثتها».

«واو»، قالت نفيسة دون أن ترفع نظرها عن هاتفها المحمول

المهرَّب. أرسلت لتوها رسالة نصية إلى حبيبها الأرمل وكانت في انتظار الرد. «لا يبدو عليها هذا. أتساءل ماذا فعل ليدفعها إلى هذا الجنون».

«ربما كان يضربها كثيرًا»، خمنت لطيفة. «ربما رأته مع امرأة أخرى. يفعل الرجال أشياء كثيرة تستحق القتل».

تنهدت مزجان ونفيسة، شرد فكراهما في حبيبيهما، رجلان شجاعان لا يستحقان شق رأسيهما بفأس أبدًا.

رأت الشابتان نظرية لطيفة بأن زوج زيبا يستحق ما وقع له، سليمة إلى حد ما، لكنهما تساءلتا أحيانًا إن لم تكن زيبا مجرد قاتلة بدم بارد. جعلتهما تلك الأفكار لا يستطيعان النوم لليالٍ قليلة، خاصة وصاحبتهن الغامضة لا تتفوه بشيء. كانتا تتململان بتوتر حين تنظر زيبا نحوهما. وإن تجرأتا على النظر إليها مباشرة كانت هي تشيح ببصرها بعيدًا.

كانت زيبا تسهر بعد أن ينمن. تلقي اللمبات المهتزة في أروقة شيل ماهتاب بظلال قبيحة عبر الزنزانة، فتبدو ظلالهن النائمة شبحية وغريبة.

كن يتناولن الوجبات معًا في الزنزانة. حين تنتهي الأخريات من تناول الطعام، تشق زيبا طريقها إلى قطعة القماش المفروشة على السجادة الخضراء وتمد يدها إلى الطعام. تتناول ما يكفي لإسكات معدتها عن القرقرة فقط وليس بقدر ما يشعرها بالشبع أبدًا. كانت تتناول الطعام باردًا دائمًا، ما لم يزعجها البتة. ليست هنا للاحتفال وتناول الطعام.

أخبروها بأنها ستقابل محاميها خلال أيام قليلة. ومما سمعته من أخريات عن محاميهن، لم تكن تتوقع الكثير. لكنها حين تفكر في أطفالها، تدعو الله أن يرسل إليها محاميًا جيدًا، لأنها تعرف أنها في مأزق خطِر بالفعل.

ابنتاها. كريمة وشابنام.

ماذا فعل؟ سألتهما بجزع. *كنتما ستخبراني، أليس كذلك؟*

مادر، ماذا حدث؟ بكتا بحزن شديد. كانت هيئة زيبا مروعة، طرحتها مكومة في يديها، يداها تبدوان من الوهلة الأولى كأنهما مخضبتان بحناء جافة.

ريما، الرضيعة، مستقرة على حجر شابنام. ترفع شابنام أختها الصغرى غريزيًا لتقبل خديها كما رأت أمها تفعل مئات المرات. خدا ريما المتجهمان ما زالا محمرين من تركها وحدها في المنزل. يداها متكورتان في قبضتين وتسدد لأمها نظرات تتأرجح بين السخط والشوق.

بدا بصير متماسكًا وهو يتحدث مع الجيران. مع ذلك، انكمش حين لمسته. ضاق صدرها حين تذكرت، توترت عضلات ساعده، وتحول وجهه كله إلى عُقد من الغضب عليها، أمه. لم ترَ تلك النظرة من قبل قط، على الأقل ليس على وجه ابنها.

فيمَ كانوا يفكرون؟ ماذا يظنون بأمهم؟

فؤادها فارغ، لا شيء لتتشبث به. رأسها يدور وقلبها يدق بقوة.

ستجوع ريما. تمنت لو كانت قد أرضعتها مرة أخيرة قبل أن يأخذوها منها.

شعرت بحلمتيها تؤلمانها. في أسبوعها الأول في السجن، حشت حمالة صدرها بمناديل ورقية لتجفيف قطرات اللبن المتسربة من ثدييها. ظل صدرها يؤلمها حتى جف اللبن.

الفتيات.

سيعتني بهن بصير. كعهده دائمًا.

يصعب التفكير في أطفالها والأصعب منه ألا تفكر فيهم. ويصعب النأي بنفسها عن زنزانة ملأى بالنساء وجرائمهن التافهة.

«ما أغنيتك المفضلة لأحمد زاهر؟» سألت لطيفة بأداء جاد لوكيل النيابة.

«هذا سؤال سهل». قالت نفيسة ضاحكة ثم غنت مقطعًا من الأغنية بعينين مغمضتين، وجذعها يتمايل مع اللحن. «*مذاق شفتيك عالق في شفتي، موجات حبك تزيد دقات قلبي*».

«أيتها اللعينة!» صاحت لطيفة. «مزجان، دورك».

«حقًّا لا أعرف أغنياته جيدًا»، غمغمت مزجان. لم تكن من الفتيات اللاتي يجبن عن السؤال من أول مرة، ترى أن هذا يجعلها واضحة جدًّا.

«كاذبة»، قالت نفيسة تغيظها. «ماذا كنت تفعلين طوال الوقت الذي قضيته مع حبيبك؟ لا بد من أنه غنى لكِ أغنية ما. كيف بغير ذلك وصل إلى ما تحت ثوبك؟»

زمجرت مزجان. تعودت بالفعل على استفزاز نفيسة لها طوال الوقت.

«كان أبي يغني تلك الأغاني»، قالت مزجان. أبوها من جيل أقرب إلى المغني المشهور الراحل منذ وقت طويل، الذي جعل شعبًا كاملًا كسير القلب يغني. «ظني أني أتذكر بعضها بالفعل».

«أسمعينا»، قالت لطيفة وهي تصفق.

صوت مزجان عالٍ ورقيق، بصدى واهن بين جدران الزنزانة.

«إن كان هذا حبك ما يشتعل بداخلي، فهو أكيد ذنب... إلهي.. إلهي!»

«جيد جدًّا، أيتها الفاجرة!» صاحت نفيسة مبتهجة.

«لديَّ أغنية لكما»، أعلنت لطيفة ثم تنحنحت وبدأت. «*احترس يا قلبي لأنني وقعت، وصلتني هدية الألم*».

«أنتِ سخيفة تمامًا يا لطيفة»، قالت نفيسة مستاءة. «انتظري حتى تقعي في الحب. لن تكوني بهذا المرح حينها».

«نعم، أنا أدعو الله كل ليلة أن تصيبني مصيبتكما».

«على الأقل تمنحنا الأمل في الخروج من هنا. يمكننا بالزواج الشرعي التماس العفو من القاضي».

شعرت مزجان بالشفقة على لطيفة.

«أنا متأكدة من وجود طريقة لتلتمس لطيفة العفو أيضًا. أنت لم تحاولي حتى. ربما عليك طلب محامي. لماذا رفضتِ المحامي في البدء؟»

«لأنني لو عدت إلى أهلي، سأعود إلى هنا خلال أيام قليلة بجريمة قتل. أنا أسدي لهم معروفًا برفضي هذا».

ظلت زيبا حريصة على جمودها، فمرت اللحظة دون أن تحول النساء المحادثة إليها.

الحب. الزواج. الحرية.

طفا ذهنها بين الكآبة والغضب. تردد في الزنزانة لحن ناعم ملأ الصمت. كانت تغني.

«وحدي وحر بغضبي وحزني
سال دمي بما يكفي لليوم وغدًا
الآن سينمو برعمي
أنا عصفور مغرم بالوحدة
أسراري لي وحدي
أغرد بصوت عالٍ... وحدي، أخيرًا!»

مكتبة
t.me/soramnqraa

صِحن بسرور حين سمعن صوتها يعلو بأغنية. سيلحظن في ما بعد غياب الرومانسية عن كلمات الأغنية والوجد الغريب الذي غنتها به.

الفصل 7

مالت زيبا برأسها على الحائط البارد. تقشر الطلاء في الأركان والحواف. تلتقط قشوره بفتور من يدمر شيئًا مدمرًا بالفعل. لم تفعل شيئًا خلال أربعة أيام سوى المساهمة في التداعي البطيء للجدران، وإحباط النساء الفضوليات من حولها. امتدت شبكة الهمس في السجن، ومع كل همسة كانت جريمتها تتغير، أحيانًا بدرجات قليلة فقط، وأحيانًا بقفزات درامية كبرى.

لقد قتلت عشيقها، لئلا يقتله زوجها. أتتخيلن حبًا كهذا؟

ليس عشيقها، بل زوج أختها. كان يحاول مغازلتها بعيدًا عن نظرات زوجته وزوجها.

هذا سببٍ كافٍ لقتله إن كانت قد فعلت هذا حقًا.

أنتِ لا تعرفين شيئًا. أيضًا، سمعت أنها قطعت رأسه وظلت تركض به في القرية.

قبل زواجها بكمال، لم تكن زيبا تشعر نحوه بشوق أو خجل. لم تَرَه قبل الخطبة حتى. زوَّجتها أمها وأخوها وهي في السابعة عشرة من عمرها امتثالًا لتوصية جدها. لم يكن لها رأي في الأمر، كان قرار كلٍّ من جدها، صفوت الله، وجدّ كمال، قبل خمس سنوات من عقد القران. كان صفوت الله مرشدًا معروفًا في قريتهم، ووافقت أمها على قراره، خاصة أن جدّ كمال كان جنرالًا كبيرًا في الجيش. كان الجدان صديقين مقربين يلعبان الشطرنج معًا، ويصليان معًا، ويزدريان معًا الأشخاص نفسهم. بصفته مرشدًا، كان جد زيبا دليلًا روحيًا، يمنح بركات لا تُقدر

بثمن وعلى صلة ما بالعليِّ القدير. أما جد كمال فيضيف منافع أكثر دنيوية، علاقات بجميع الأشخاص المناسبين في الحكومة الجديدة. تملك عائلة زيبا أرضًا كبيرة، لذلك كانوا في حاجة إلى أصدقاء ذوي مكانة مرموقة لضمان استمرار حيازة أملاكهم.

رتَّب الرجلان الزواج تعبيرًا عن التزامهما الأخوي، ربطا عائلتيهما معًا بزواج سينجم عنه دم مشترك.

اعترضت أمها، جلناز، على الزواج. توسلت إلى الجد ليعيد التفكير في الأمر. كانت عائلة الزوج، قد وافقت -احترامًا للمرشد- على اقتراحه منذ سنوات، ولا رجعة في الأمر.

إنها صغيرة وهذا وقت غير مناسب للزواج، أصرت جلناز. *لننتظر قليلًا فقط*.

كان السوفيت قد انسحبوا منذ سنوات، لكن مع غياب قيادة حكومية حقيقية، سقطت أفغانستان في دوامة الحرب الأهلية، فكان قدرها ما زال مبهمًا.

إن كنت تنتظرين انتهاء القتال، قال المرشد، *فلن تزويجيها أبدًا*. لقد علّمنا التاريخ أن القتال لن ينتهي قبل أن تسيل آخر قطرة من الدم الأفغاني.

تزوج كمال وزيبا عام 1996 في منطقة لم تكن طالبان قد سيطرت عليها بعد. كان عقد القران والحفل متقشفين، يميزهما قرع الطبول والدفوف. عروسان لا يعرف أحدهما شيئًا عن الآخر. تهز زيبا رأسها حين تتذكر ذاك العام الأول، عاشت في بيت عائلة زوجها تتمنى بيأس أن تعود إلى بيتها حيث تعيش أمها

مع رفيق وزوجته منذ عام، المرأة التي تكرهها لأنها حوَّلت عنها اهتمام أخيها.

كان كمال، في بداية زواجهما، يبذل قصارى جهده ليريحها. كان حين يجدها مرتبكة وخجلة يجد طرائق ليتحبب إليها. كان يلقي بنكات. يأكل ما تعده ويطلب المزيد. يتحدَّث معها عن الأمور الصغيرة والكبيرة وحتى يقدم لها الهدايا من حين إلى آخر. كيس حلوى، زوج أحذية. شعرتْ بالاطمئنان لاهتمام زوجها بها. كانت تشعر وهي معه وهو في أفضل أحواله بأنها تعيش أغنية رومانسية من تلك الأغاني التي يذيعونها في الراديو. في الحقيقة، لم تكن قد شعرت بهذا الرضا منذ أن سار أبوها نحو الأفق واختفى تمامًا إلى الأبد.

عادت بذهنها إلى ماضٍ بعيد حين اشترى أخو زوجها جهاز تلفاز ومشغل أقراص مدمجة. ظلوا يتفاخرون بهما مدة شهر قبل أن يتسنى لنساء العائلة التجمع معًا لمشاهدة فيلم هندي. حضرت زيبا أيضًا، جلست مبتهجة، مفتونة بمهرجان الألوان ورقص النساء بسارياتهن المذهلة. يحركن أذرعهن وبطونهن العارية ببراعة. يضرب البطل -قلب الفيلم النابض- صدره بقبضة يده وهو يرقص حول حبيبته، يمد ذراعيه وهو يعلن عن حبه بجرأة. يركع على ركبتيه ويميل نحوها بطريقة جعلت أخت زوج زيبا التقية تشيح بنظرها بعيدًا، في حين هللت أخريات بسرور. حتى نهاية الزمان لن يحب سواها، غنَّى.

ضجت الغرفة بدقات قلوب عشرات النساء المشتاقات إلى الحب إلى حد خطِر قد يقرب إلى الذنب. احمرَّ وجه

زيبا. كان كمال قد غنى لها هذه الأغنية منذ أيام قليلة فقط، قرص مؤخرتها بغزل وهي تمر به في رواق بيتهم الضيق. مررت أصابعها في شعر ابنها. بصير، كان في الثالثة من عمره فقط، يجلس متكورًا عند قدميها، نسخة مصغرة من أبيه.

حب عنيد وأرعن وممنوع. تبتسم الفتاة بخجل، تركض نحوه ثم تبتعد مجددًا في رقصة مترددة تصيب بالدوار. ضحك الأطفال وقلدوا الحركات. ضحكت امرأة وهي تنكز كتف ابنتها ذات الأعوام الأربعة قائلة:

«اجلسي قبل أن يأتي أبوك! أتظنينه سيرحب براقصة في بيته؟»

كانت تلك أكثر أيام زيبا سرورًا، لكنها لم تستمر طويلًا.

كانت قريتهم هادئة بشكل محمود، خلافًا لبقية الأنحاء المقصوفة بالصواريخ، الحياة فيها روتينية بقدر ما يأمل المرء. كانت زيبا محظوظة. عاملها حمواها -خلال السنوات التي قضتها معهما قبل وفاتهما- بالحسنى إلى حد كبير. كانت أخت زوجها فقط، تامينا، من تُبعدهما عنها. لم تلمها زيبا، إذ كانت تتصرف بالعجرفة نفسها مع زوجة أخيها هي.

حين ولدت زيبا طفلهما الأول، بصير، فرح كمال بشدة. أنجبت له زيبا ابنًا يشبهه، سيحمل اسم ابيه، ويشرِّف العائلة. كان بصير مشرقًا وعفيًا ويبتسم باستمرار.

توفي الطفلان التاليان فبدأت الأوقات القاتمة لزيبا وكمال. دفنا فتاة صغيرة عمرها سبعة أشهر فقط؛ ظل وجهها الملائكي يراود زيبا في أحلامها لبقية حياتها ليوقظها بشعور الاختناق.

بعد ذلك بعامين دفنا طفلًا آخر. كان ولدًا، توفي في الصباح التالي لتجمع العائلة احتفالًا بمرور أربعين يومًا على ولادته. لم يتحدثا معًا كثيرًا بعد ذلك. لم يكن صمتًا غاضبًا، بل لم يكن لديهما شيء لقوله ببساطة.

«لن أسميها»، قالت زيبا ببرود بعد ولادة الطفل الثالث. لم يكن لديها سبب لتصدق أن الطفلة ستعيش، حتى بعد أربعين يومًا.

«لكن، زيبا، لا بد من أن نسميها. إن حدث شيء لها... لا بد من تسميتها».

كانت تعرف أن زوجها محق. حتى لو ماتت الطفلة، ستظل في حاجة إلى اسم لدفنها. مع ذلك، ظلت ترفض تسميتها.

«نامي، نامي، يا صغيرتي»، غنت لرضيعتها بنعومة وهي تهدهدها.

«لقد بدأت الصغيرة تحبو»، قالت لكمال بفخر ذات يوم.

كانت تحبس أنفاسها مع كل نوبة حمى، وكل ليلة باردة، وكل عطلة، تتوقع أن يسترد الله هديته. فقط حين سارت شابنام خطواتها الأولى اختار لها والداها اسمًا، مع ذلك، ومن باب العادة، ظلا يدعوانها «الصغيرة» حتى كبرت بما يكفي لتطالبهما باستخدام اسمها الحقيقي.

كانت كريمة مختلفة. جددت ثقتهما. لم يعد عليهما المطالبة بالمعجزات. قد يكونان طبيعيين. عليهما فقط تحمل نصيبهما من الأفراح والأتراح مثلهما مثل أي زوجين آخرين. لذلك تجاهلت زيبا نوبات غضب كمال والمرات التي لكمها فيها بقبضته الثقيلة. أخبرت نفسها بأنه أمر طبيعي.

بعد ذلك بثلاثة أعوام، أخذا أطفالهما إلى النهر، كان عيد النيروز، اعتدال الربيع وبداية العام الجديد. لعب بصير وشابنام وكريمة في المياه الضحلة على الشاطئ، جلسوا على الحجارة، رشوا المياه بأيديهم وبللوا ملابسهم. نام كمال على الملاءة المفروشة على الأرض فيما جلست زيبا تراقب الأطفال، تعكس قطرات الماء على شحمات آذانهم وأطراف أصابعهم ضوء الشمس ببريق كبلّورات صغيرة. ساروا ببطء عائدين إلى البيت، ملابسهم ثقيلة بالماء، لكن قلوبهم ترفرف بمعجزة يوم واحد من البهجة.

في صورة فوتوغرافية أخذت لهم بعد ذلك بعامين تقريبًا، يحمل كمال شابنام على إحدى ذراعيه وكريمة على الأخرى. يقف بصير أمام أبيه، يتطلع إلى الكاميرا باهتمام. وقفت زيبا خلف كمال بخجل، يخفي زوجها الجالس استدارة بطنها، يخفي ريما التي ستنضم إلى العائلة خلال أشهر قليلة. ظلت متماسكة رغم قلبها الذي كاد ينفجر.

أيوجد شيء أكثر كمالًا من هذا؟

طنَّت ثرثرة السجينات في أذنيها، خلفية صوتية لأفكارها. ماذا يفعل أطفالها الآن؟ أهم مرعوبون؟ كيف يعاملهم الناس؟ عزاؤها الوحيد أنهم جميعًا معًا.

انقبضت معدتها للتفكير في كونهم أيتامًا. لكن بصير، من الأولاد الذين يمكن لأمهاتهم الاعتماد عليهم.

لم يقل بصير شيئًا وهم يأخذونها. صرخت ومدت ذراعيها نحوه فمد ذراعه نحوها مترددًا. عبر ظل بوجهه، ظلامٌ ما تظاهرت

بأنها لم تلحظه. كان أطفالها كلهم، خاصة بصير، يعرفون أباهم جيدًا. مع ذلك يظل الأب الغاضب أفضل من الميت.

كان عنقها ما زال محمرًا من قبضة فريد الانتقامية. ساعد بصير اثنين من جيرانهم لإبعاد ابن عم أبيه عن أمه.

«دع الشرطة تأخذها!» صاح الجيران، وسلموا زيبا إلى حكيمي المذهول.

شعرت زيبا بأعين الحارسات عليها، صلصلت مفاتيحهن بفتور وهن يسرن في الأروقة الواسعة. كان استعراضًا، في أغلبه. عملهن مثل أي عمل آخر، ولم يتلقين سوى القليل جدًّا من التدريب على التعامل مع السجينات. مرتبات الحكومة لا تكفي للاعتماد عليها لكنها أفضل من لا شيء، والقصص التي تدغدغ آذانهن تُبقي اليوم ممتعًا بما يكفي.

كانت قصة زيبا أكثر متعة من غالبية القصص الأخرى. في العادة يقتل الأزواج الزوجات، وليس العكس.

همسات، نخرات، حواجب مرتفعة بدهشة.

حتى اللاتي يتحدثن همسًا كن قريبات جدًّا منها إلى حد أنها كادت تشعر بأنفاسهن الحارة في أذنها. كانت بعض الأصوات تجعل رأسها ينبض بقوة وهي تتخيل أطفالها يتكومون معًا مرتبكين.

ليكن الله في عون أطفالها. إن كان لديها بنات، في الغالب سيتخلصون منهن قبل أن تنظر المحكمة في قضيتها.

تعرفن ماذا يقولون. لا تقتلي زوجك، حتى وإن كان إبليس نفسه.

لم يكن واضحًا متى سيستدعيها القاضي لمناقشة التهمة المنسوبة إليها، لكن ذلك كان يجب أن يتم سريعًا. كان الأطفال في رعاية أخت كمال، تامينا. توسلت زيبا لإرسالهم إلى بيت رفيع بدلًا من ذلك، لكن المأمور حكيمي رفض طلبها خوفًا من تهديدات فريد الغاضبة.

«خانوم، ظني أنكِ فقدت صوابك. لقد مات زوجك. دعينا لا نهينه أكثر من هذا بإرسال أطفاله إلى بيت رجل غريب».

«لم يكن عليك تسيير الأمر في هذا الاتجاه»، قالت زيبا بهدوء. «كان بإمكانك إنقاذنا جميعًا من كل هذا».

لم يجبها حكيمي، شغل نفسه بأوراق ما وأومأ برأسه لضابط آخر ليأخذها إلى السجن. كانت زيبا قد ذهبت إليه منذ شهر مضى بالفعل، أعلى وجنتها كدمة بنفسجية، حذرته من أن بعض رجال القرية يعبدون إلهًا جديدًا، إله يعيش في زجاجة. يقضون أمسياتهم مغيبين ويعودون إلى بيوتهم بمزاج انتقامي.

ستنزل بهم المصائب لذنوبهم تلك، تنبأت زيبا. *لكن قد يحدث ذلك بعد فوات الأوان.*

تساءلت ماذا ستقول للقاضي. حين أغمضت عينيها، اتضحت لها وقائع ذاك اليوم ببطء. رؤية مغبشة ليوم غائم.

سمعَتِ الحارسة تصيح بموعد العشاء. في القاعة، امرأة سمينة في خمسينياتها توزع أرزًا يتصاعد منه بخار برائحة الكمون، ويخنة بطاطس. على امرأة واحدة من كل زنزانة حمل طبق الأرز والبطاطس إلى شريكاتها في الزنزانة. تجلس النساء حول قطعة قماش صفراء باهتة فرشنها على الأرض لتناول الأرز

والبطاطس بأصابعهن. شاركتهن زيبا، ابقت عينيها الحزينتين مخفضتين تتمنى أن تُطعِم أطفالها. هزت النساء رؤوسهن ولم يدعن صاحبتهن الصامتة تؤثر في محادثتهن. كن يبتسمن بشفاه مغلفة بالدهن ويومئن برؤوسهن لقصص سمعنها من قبل مرارًا وتكرارًا.

في أسبوعها الثاني، شعرت زيبا بإعياء لتفكيرها في ما يظنه بصير بها. آلمتها ذراعاها لمجرد التفكير في ابنتيها وطريقة دفنهما وجهيهما في صدرها للحظة قبل أن يقتحم الجيران بيتهم. نامت ليلًا ونهارًا بوجهها في الجدار.

ظنت شريكاتها في الزنزانة أنها متعجرفة.

نحن جميعًا هنا لسبب ما أو لآخر، مذنبات أم لا. لماذا لا تخبريننا بما فعلتِه؟

أتظنين أنك أفضل منا كثيرًا لتتحدثي معنا؟

ربما فقدت صوابها.

هيا، إن كنت ستمكثين معنا لسنوات لا يعلم عددها إلا الله، فنحن نريد أن نعرف من أنت!

لا واحدة في هذا السجن تعرف زيبا. لا يعرفن شيئًا عن زوجها ولا عن محنة أطفالها. كانت على مبعدة أميال من بيتها، من قريتها، وكانت شاكرة لكونها مجهولة. ستمثل أمام القاضي خلال أسبوع أو اثنين، كما أخبروها. حتى ذلك الحين لن تتفوه بكلمة عن ذلك اليوم الدموي، الفأس التي وجدوها في رأس زوجها، أو آثار الأقدام التي غادرت المنزل.

الفصل 8

طرف يوسف بعينيه. سطعت أضواء كشافات السيارات المارة في المساء. رن أحد الرجال جرس مقود دراجته. تنحى يوسف في سيره جانبًا لتفادي سحق قدمه تحت العربة التي تقطرها الدراجة خلفها. كان قد نسي هذا الزحام، مع أنه يشبه كثيرًا الضجة والفوضى في الأحياء الصينية والهندية والأفغانية المجاورة لحي كوينز، لو كان هناك قطار مترو الأنفاق بالأعلى، لشعر بأنه لا يبعد عن بيته سوى أقدام قليلة.

قضى اليوم في مشاهدة مدينة طفولته وحاول ألا يبدو سائحًا، لكنه بزجاجة المياه التي يحملها والآي فون الذي يلتقط به الصور للحدائق والآثار أو مجرى النهر الجاف، لم يذب جيدًا في زحام المحليين.

حي آخر، ثلة أخرى من الفتية في الشارع.

كاكه، كاكه، صاح فتى. عمي، التقط صورتي! وقف الفتى وعقد ذراعيه على صدره بابتسامة واسعة، فكشف عن تجويفين لسنين مفقودين. قلده طفل آخر يرتدي قبعة بيسبول، مال برأسه جانبًا وغمز بعينه.

التقط لهما الصورة وعرضها عليهما فسُرَّا كثيرًا.

ستعود بها إلى أمريكا وتريها للجميع أليس كذلك؟

ضحك يوسف ووعدهما بهذا.

نجوم سينما، هذا ما سيقولونه عن فتية كابول.

رشف من زجاجة الماء التي اشتراها وشعر باهتزاز هاتفه في جيبه. الاتصال من أمه.

«لستَ نائمًا، أليس كذلك؟»

«لا، مـادر جـان. الوقـت مـا زال بدايـة المسـاء. هـل كل شـيء بخيـر؟»

«نعـم، نعـم. اسـمع، اتصلت بـي خالتـك زينـب منـذ قليـل وأخبرتنـي بأنهـا سـرت كثيـرًا لرؤيتـك. شـكرتني علـى الهدايـا وقالـت إنـك كنـت مؤدبًـا جـدًا ورائعًـا و... حسـنًا، لقـد أشـادت بـك كثيـرًا لدرجـة أننـي لـم أعـرف مـاذا أقـول».

«هـذا كرم بالـغ منهـا. وأنـا أيضًـا أسعدتنـي رؤيتهم»، قـال يوسـف.

«ألديك ورقة وقلم؟»

«لماذا؟»

«سـأعطيك رقـمَ محمـول مينـا. يمكنـك الاتصـال بهـا والتحـدث معهـا، لتتعـرف إليهـا».

«رقم مينا؟» كان مذهولًا. «كيف حصلتِ عليه؟»

«من أمهـا، بالطبـع. إنهـا تريدكمـا أن تتحدثـا. كاكـه سـيار لا يعـرف شـيئًا عـن هـذا. الأمـر بيـن مينـا وأمهـا فقـط».

تحيَّـر يوسـف فـي مـا إن كان سـخفًا أم تقدّميـة مـن الخالـة زينـب أن تتصـل بأمـه علـى الجانـب الآخـر مـن العالـم لتعطيهـا رقـم هاتـف مينـا المحمـول.

«أيجب عليَّ الاتصال بها؟»

«نعـم!» أجابتـه أمـه متأففـة. «لـن تسـتطيع هـي الاتصـال بـك، أليـس كذلـك؟ الآن، اسـمع، حيـن تتصـل بهـا، اسـألها عـن اهتماماتهـا. اسـألها كم طفـلًا تريـد أن تنجـب وإن كانـت تريـد العمـل أو الدراسـة. لا تتحـدث أنـت طـوال الوقـت».

مال برأسه إلى الخلف وأخذ نفسًا عميقًا. هل تعطيه أمه نصائح بشأن التحدث مع الفتيات؟

«مادر جان، ظني أني أعرف كيف أدير محادثة».

«إنها ليست مجرد محادثة يا بنيَّ. يجب أن يتعرف أحدكما إلى الآخر وتتأكدا أن بإمكانكما قضاء بقية حياتكما معًا. هذا أمر بالغ الأهمية، أنت تعرف. أنا أتمنى لو كان لديَّ الفرصة لأسأل أباك تلك الأسئلة».

سمع يوسف أباه يصيح بشيء ما في الخلفية. ضحكت أمه وصاحت تجيبه بأنها يمكنها السؤال الآن إذ لم يتأخر الوقت كثيرًا. ثم عادت إلى محادثة يوسف.

«يظن أبوك أن كل شيء مزحة. لكنه أمر جاد حقًّا، يوسف، اتصل بها».

انتظر حتى اليوم التالي، ليس متأكدًا من إن كان اتصاله سيعدّ وقاحة أم تأدبًا، لكنه سيبدو متسرعًا إن اتصل ما إن ينهي مكالمة أمه. ناهيك بأنه متأكد تقريبًا من أنها ستكون في البيت مع أبويها وأنها ستختبئ في غرفة أخرى لتجيب اتصاله بعيدًا عن مرمى السمع.

«مرحبًا مينا جان»، قال بتردد حين سمع صوتها. «أنا يوسف. كيف حالك؟»

«يوسف؟ أنا... بخير، بخير. كيف حالك؟»

«بخير، شكرًا. أخذت رقمك من أمي... أو أمك، كما أظن. أرجو ألا يكون الوقت غير مناسب للاتصال. أنا ....»

«أعطتك أمي رقمي؟»

عض يوسف شفته.

«نعم، هل يزعجك هذا؟»

مر جزء من الثانية قبل أن تجيبه أنها لم تكن تعرف. أغمض عينيه وزفر ببطء، هز رأسه لطريقة تدبير الأمهات حياة أبنائهن. بذل جهدًا لينسحب من تلك المحادثة بهدوء، لكن حينها تحدثت مينا.

«لا، هذا توقيت مناسب جدًا، في الحقيقة. كنت على وشك أخذ استراحة من العمل. كيف يسير يومك؟»

لاحظ الثقة في صوتها على الفور. لم يبدُ أنها تتحدث بيد تواري فمها والسماعة. لم تبدُ حذرة من أن يسمعها أحد عرضًا. بل بدت في واقع الأمر كأنها تجلس مستريحة وتمدد قدميها أمامها.

جرت محادثتهما بطبيعية. سيسر أم يوسف أن تعرف هذا. سألها عن عملها فأخبرته عن برنامج الأمم المتحدة للجندر. كانت أحد مساعدي مدير البرنامج، المسؤولة عن ترتيب الاجتماعات وتوفيق الجداول الزمنية بين الإدارات المتعاونة. عادت أسرة كاكه سيار إلى كابول عام 2002، عام إسقاط طالبان وصعود الأمل في ازدهار أفغانستان في حالة السلام. ظلت مينا تدرس في بلد الملجأ، ودرست الإنجليزية، ما ساعدها على نيل وظيفتها، إلى جانب توصية أحد الأعمام ممن يعملون في البرنامج. لديها طموح بالترقي في عملها، وتدرس الحاسب الآلي أيضًا.

«أتحبين العمل؟» سألها. بدا أنها وظيفة رائعة، خاصة مع كونها لم تحظَ بفرصة تعليم مستقر. سيبدو هذا رائعًا في سيرة

مهنية، فكر بينه وبين نفسه، وقد يساعدها حتى على نيل وظيفة ذات صلة في الولايات المتحدة. لم يكن ليقول ذلك بصوت عالٍ، بالطبع. لم يكن يعد بأي التزام نحوها، كذلك لم يكن قد قرر التقدم رسميًا لطلب يدها للزواج. مع ذلك، أراد أن يفكر في التفاصيل اللوجستية بحرص.

«نعم. أعمل مع أشخاص رائعين حقًا: مع أفغان وأمريكيين، وأوروبيين حتى. إنهم جميعًا أذكياء».

«أتعرفين، كنت أفكر، لقد كنت صغيرة جدًا حين رحلت أسرتي. أتذكرينني حتى؟ كنت فتاة صغيرة حينها».

«بالطبع أذكرك!» صاحت ببهجة. «كنت كبيرة بما يكفي لأدرك أن أقرب أصدقائي سيرحل. بالطبع لم أكن أعرف إلى متى ستغيب، مع ذلك، أذكر أنك كنت صبورًا معي جدًا. كنت كأخي الأكبر. ظني أن أبي لهذا كان يحبك بشدة حينها. كنت مثل ابنه الذي لم ينجبه».

كانت رفاهية -في تلك الأوقات العصيبة- لأطفال كل أسرة أن يشعروا بأن لديهم والدين آخرين. كان كاكه سيار وخالة زينب يعاملان يوسف كابنهما حقًا، وكذلك كان أبواه يتعاملان مع أطفالهما. رحلوا جميعًا حين كانت طالبان تشق طريقها نحو العاصمة، حينها أدركت الأسرتان أن أمام أفغانستان الكثير، والكثير جدًا، لتغرق فيه. كان أبو يوسف يخشى بشدة تجنيد أبنائه للقتال في أحد الصفوف المتحاربة أو وقوعهم في مرمى النيران.

«كنت الفتى الوحيد في العالم الذي يرحب باللعب مع فتاة في السادسة من عمرها. لا أصدق كم كنت صبورًا معي. أذكر حتى

أنك ضفَّرت شعري وكنت تحكي لي قصصًا، لكنني لا أذكر قصة واحدة منها الآن».

«يسعدني أنك تذكرينني. كنت شاكرًا فقط لوجود شخص آخر أقصر مني»، قال مازحًا.

«أنا سعيدة من أجلك»، قالت، كلماتها دافئة وصادقة حتى وهي تمزح. «أنا سعيدة حقًّا بنجاحك الشخصي، وبسلامة أسرتك وبعودتك إلى هنا. ومتأكدة من أنك ستقوم بأمور عظيمة هنا. نحن بحاجة إلى أشخاص مثلك».

مرر أصابعه في شعره. أكان يفعل ذلك حقًّا؟ لم تكن تلك محادثة عادية بين صديقي طفولة. نمَت مع كل لحظة قضياها على الهاتف التوقعات بحدوث شيء جاد، شيء سيربط أسرتيهما معًا إلى الأبد. كانت أختاه تغيظانه بهذا التوقع ذاته قبل أن يغادر، لكنه لم يفكر في الأمر، أخبرهما بأنه لا يثق كثيرًا بالفتيات الأفغانيات، بعد أن عاش معهما طوال حياته. أجابته أمه بقرص أذنه.

«أنا وأنت من هؤلاء الأشخاص إلى حد ما يا مينا، ألا تظنين ذلك؟»

«نعم»، قالت بتأمل. تخيلها تدس خصلة شعر خلف أذنها بإصبع واحدة رشيقة كما كانت تفعل حين زارهم. تخيلها تبتسم وهي تسمعه يغازلها، لسماعها كلمات جريئة كإعلان عن الحب. كانت مثيرة وحيوية، ليس كما تخيل شابة تعيش في أفغانستان. «نعم يا يوسف. ظني أننا كذلك».

الفصل 9

كان مرور كل يوم بمثابة خطوة أخرى بعيدًا عن تلك الظهيرة الكارثية. كل يوم، تصبح زيبا أرملة أكثر، تبتعد أكثر عن كمال. شعرت في لحظات بخفة وحرية. افتقدت أطفالها بشدة، مع ذلك كان من الصعب ألا تقدِّر الحرية التي نالتها. إن لم ترغب في النهوض مع صاحباتها في السجن، يمكنها تجاهل ضجتهن، تنقلب على جنبها، وتقضي النهار في النوم. ليس لديها عمل في المطبخ. وجباتها تأتيها بانتظام مؤثر. تحمِّم نفسها فقط لا غير. تفتقد خدي ريما الناعمين يلمسان خديها. لكن، ثمة هدوء محبب إلى النفس في السير دون حمل طفل، دون قبضات صغيرة تضرب بالإيقاع المشحون لنوبة غضب، دون فم يلتقم ثديها دون أدنى اعتبار لحاجاتها هي. كم من مرة عجزت عن دخول الحمام حتى امتلأت مثانتها لئلا تترك ريما للحظة جوع؟ وكانت ريما آخر أطفالها، أو على الأقل آخر من بقي منهم، لكنها لن تفكر في هذا الآن. كانت تستمتع بلحظة من الخفة.

لم تندم على إنجاب أطفال، لكنها كانت تكرههم أحيانًا. جميع الأمهات كذلك، أليس كذلك؟ كيف لا يمكن حمل القليل من الكره نحو أشخاص يأخذون ويأخذون ويأخذون طوال الوقت؟ كيف كانت تُطعمهم؟ أين كان كمال حين كانوا مرضى أو متعبين أو غير معقولين؟

لم يكن من الآباء الذين يفعلون الكثير للأطفال. وإن بدا الأطفال أقل بأدنى قدر من كونهم حسني التربية أو التغذية، فذلك خطؤها وخطؤها وحدها.

أن أرادت أطفالًا، أن توجع رحمها حنينًا لهم، فذلك يسهل نسيانه. أن تمزق قلبها ونزف حزنًا على الرضيعين اللذين فقدتهما، فتلك ذكرى أخذت تتمحي في السنوات الأخيرة مع ازدياد تعبها وغضبها وضجرها.

حين كانت شابة، دائمًا ما كان في البيت الواحد أكثر من أمّ. كانت تعيش في بيت عائلة مع العمات وأبناء العمومة الأكبر سنًا. توقعت شيئًا ما مشابهًا حين تزوجت، لكنها لم تعارض زوجها حين قرر السكن بعيدًا عن بيت العائلة. رحبت بالابتعاد عن عائلة لم ترتَح لها قط. كانت أختُه الكبرى، مريم، متطفلة. وأخته الصغرى، تامينا، بالكاد تحترم زيبا ودائمًا ما تجد الأسباب لتجاهلها. كان والد كمال قد توفي على إثر أزمة قلبية قبل أن تشيب شعرة واحدة من رأسه، لولا ذلك لكان قد أنجب لها المزيد من الأبناء لترحب بالابتعاد عنهم.

تساءلت إن كانت حماتها قد شعرت بالسرور أحيانًا لرحيل زوجها المبكر، لكنه أمر غير وارد. كانت حماتها مخلصة لأسرتها ولذكرى زوجها. كان شقيقُ كمال الوحيدُ قد قتل بانفجار لغم. أيضًا فقدَ شقيقته على إثر مرض لم يستطِع الأطباء حتى تسميتَه. انكمشت والدة كمال في جلدها، تسبّح بمسبحتها وتهز رأسها في حداد دائم.

بموت أبيه وأخيه، صار كمال رب العائلة، ومع ذلك لم يلقَ الاحترام الذي شعر بأنه يستحقه. يومًا بعد يوم، ساءت حالاته المزاجية. كان يثور على الأطفال، يبعدهم عنه إن تجرؤوا على الاقتراب منه. زادت مرات صفعه زيبا بظهر يده ليسقطها أرضًا

عن ذي قبل. تعلمت التزام الصمت في وجوده وتهدئة الأطفال بنظرات صارمة.

أبقيه سعيدًا فقط، كانت تخبر نفسها. *قد يسوء الأمر عن هذا كثيرًا*.

بدأ يخرج للتجول بلا هدف، يعود متأخرًا ولا يعبأ بتوضيح شيء. كان يغيب أيامًا أحيانًا. غاب ذات مرة أكثر من أسبوع. تحرجت زيبا من إخبار أحد. شكَّت في أنها ستراه مجددًا، لكنها لم تعرف إن كان قد مات أم لم يعد مهتمًا.

في اليوم التاسع، استجمعت شجاعتها لتذهب لزيارة أخته الكبرى. وبينما كانت تجهز الأطفال للخروج، دخل كمال البيت مترنحًا، ملابسه مبقعة، لحيته شعثاء، وأنفاسه حارة ونتنة.

تمالكت نفسها ولم تسأله عن شيء أمام الأطفال. بدأت بدلًا من ذلك بإعداد العشاء ووضعه أمامه حتى وهو مكفهر.

كالعادة في القرى، بدأ الناس يتحدثون. نأت زيبا بنفسها بعيدًا عن الجيران والعائلة حتى. كانت تلف طرحتها بقوة حول وجهها وتدفع أطفالها إلى داخل البيت بعيدًا عن نظرات الناس.

«كمال جان»، قالت له بحذر ذات يوم شتوي بعد أن ظلت تعدّ وجبات من الخضراوات والزبادي وقتًا أطول مما يمكنها تخيله. «لم يتناول الأطفال وجبة معقولة منذ أيام».

«أتظنين أنني لن أجلب شيئًا إلى البيت إن استطعت؟»

«فكرت فقط في...»

لكنه لم يكن مهتمًا بأفكارها. رماها بصندله فحلق على قيد شعرة من رأسها.

كان يُرهبها، بدنيًا ولفظيًا. يلقي بتعليقات صغيرة دنيئة تحت ستار المزاح كأنه يتحداها أن ترد عليه. صارت لحظاتهما الحميمية مباغتة، تفاعل جسدي فظ. تغيرت زيبا أيضًا. لم تعد العروس ذات العينين اللامعتين التي كانتها من قبل، لكنها كانت تؤمن بأن لحبهما مسارًا. لم يكن أمام علاقتهما سوى مسارٍ واحدٍ فقط معروفٍ. كان كل هذا خطأ.

«دمَّرته الحرب والسنوات الصعبة. هذا ليس خطأه»، كانت والدته تقول بيأس قبل وفاتها بأشهر، كأنها عرفت أنها لن تمكث للدفاع عنه وقتًا أطول من هذا. «الحمد للّه أنه معنا على الأقل، حي ومعافى».

كانت زيبا تعض لسانها. ذهبتْ طالبان. عاد الغرب لاستكشاف أفغانستان وتجول في القرية رجال بوجوه كالحة، ونساء حتى، بمعدات وخوذات عسكرية ثقيلة. لم تكن معاناة كمال شيئًا ما خاصًا. لم يكن جنديًا أو مصاب حرب. لم يكن لديهم الكثير بل عاشوا على الكفاف من عمله حدادًا.

لا، قررت زيبا. *كان كمال سيصير الرجل الوضيع نفسه حتى ولو عاش الأيام الرخية للملوك والتقدم.*

تعاملت معه بحذر. ستسوء الحال أكثر إن خرج من هذا الباب ولم يعد أبدًا.

لكنها لم تشفق عليه. كان يهينها بطرق لا يمكنها التحدث عنها بصوت عالٍ. لم تكن جلناز لتتسامح مع هذا، لكن زيبا ليست أمها. ليست قريبة منها في شيء.

كانت ترى كيف يجول بعينيه في السوق، يحدق إلى النساء اللاتي خلعن البراقع. تراه يتتبع ظلهن، يعريهن بابتسامة خبيثة

تجعل وجهها يحمرّ. كانت تعرف، حين يأتي إليها ليلًا أنه يفكر في مئة امرأة أخرى، أي امرأة أخرى. كان يسافر إلى مدينة قريبة أحيانًا، يغيب يومًا بنقود ينبغي إنفاقها على إطعام الأسرة. كان توجد نساء -الجميع يعرفهن- ينمن مع الرجال مقابل وجبة.

بالنسبة إليها، كانت النساء المجهولات أفضل من الرذائل التي يرتكبها في قريتهم. وصلها همسات عن رؤيته يغادر بيت صديق سكرانًا جدًّا ولا يمكنه السير.

«أريد أن أخبرك بأنني مصدومة مما سمعته عن كمال»، قالت فاطيما، زوجة فريد، بخبث. «ثقي بأنني لن أتفوه بكلمة عن هذا لأي شخص. بعض الرجال هكذا. لا أفهم الأمر... حين أفكر، أجد بقية أفراد عائلته متقين ومحترمين. كنتِ تعرفين، أليس كذلك؟ سأكره أن أكون أنا من أخبرتك بالأمر!»

أسقط في يدها. لم يخطر لها قط رد مناسب على مثل هذا الكلام، كانت تظن أن سلوك زوجها لن يضحى محل نقاش عائلي مفتوح أبدًا. شعرت بالإهانة والدنس، كأنه ذنبها هي وليس ذنبه هو.

كان الشُرب يجعل مزاجه أسوأ. تعلَّم الأطفال تجنبه حين يعود إلى البيت بعينين غائبتين. تأخذ كريمة وشابنام أختهما ريما ويشغلا نفسيهما بجمع الغسيل الجاف عن الحبل. كانتا تسيران برأسيهما مطرقين وكتفين متهدلتين، كأنهما تتفاديا الضرب حتى ولو لم يشتعل مزاجه.

بدأ الناس يتحدثون عنه. عرفت ذلك من نظرات أصحاب المحلات لها. ترتفع حواجبهم حين تدخل، ويتحدثون بنبرة أقل احترامًا قليلًا. لم تبتسم لهم قط. كانت تقضي حاجاتها بسرعة

وعيناها إما على ما تبتاعه وإما على الطريق أمامها. كانت مع كل مرة يرى فيها كمال سكرانًا في البلدة، تخوض أكثر في حياة الهوان. توسلت إليه أن يفكر في عائلته، في سمعتهم.

هكذا، كسر كمال أنفها وضلعها ونصف ما لديهم من أطباق.

كانت فواصل صحوه بالكاد تعود بالرجل الذي كانه ذات مرة. مجرد لحظات يتجول بعدها في البيت غاضبًا، يزعق في الأطفال ليبتعدوا عن طريقه، ويشكو لحاجته إلى «دوائه». كانت أشعارها تهدئها، تكثف غضبها ويأسها في بيوت شعرية موجزة.

يدعو الرجلُ الخمرَ دواءه

مع أنه أصل دائه.

لم يعد باستطاعتها تذكر الرجل الذي كان يهمس لها بود خلال أيامهما الأولى معًا، الذي دمعت عيناه حين أنجبت ابنهما. لم يوجد ذلك الرجل قط حقًّا، صارت تعتقد هذا. كان من نسج خيالها، وسيلة لإثبات نسب أطفالها بشرف.

مرت بها فاطيما ذات صباح فدعتها زيبا إلى الدخول على مضض. أعلنت فاطيما عن سبب الزيارة، وزيبا تصب لها كوبًا من الشاي الأخضر.

«أرسلني فريد لأرى إن كان كمال معه النقود التي يدين بها له. نحن لسنا أثرياء، تعرفين، وقد وعدنا كمال برد الدين منذ أشهر مضت. أوه، انظري إلى بصير جان.. صار يشبه أباه كثيرًا الآن...» قالت بصوت رتيب وهي تراقب بصير يعبر الفناء.

انقبضت معدة زيبا. تكره الاعتراف بالشبه الكبير بين كمال وبصير، يجعلها تشعر نحو ابنها بمشاعر لا تحبها.

كانت قد بحثت عن سبل لتغييره لئلا ترى كمال حين تنظر إليه. جزت له شعره حتى فروة الرأس. لم تسمح له قط بارتداء ملابس أبيه. كانت حين تقبله، تضغط جانبي وجهه لتمحي أي شبه بينه وبين كمال.

سيكون بصير مختلفًا، أقسمت لنفسها. *سيكون أفضل من أبيه.*

كان ابنها البكر، طفلها الذي تكنُّ له معزة خاصة عن أطفالها الآخرين. لم يقترف شيئًا أسوأ مما يقترفه الفتية الآخرون في سنه، لا شيء خارج عن المعتاد. لكنها من حين إلى آخر، كانت ترى، أو يُخيَّل إليها أنها ترى، ومضة غضب تعبر وجهه، فتطفو بداخلها فقاعة شعور قاتم، الخوف من أن تكون قد أنجبت كمالًا آخر. في أغلب الأيام، كان بصير يعود من المدرسة ويحيط كتفيها بذراعيه ويقبل وجهها. كانت زيبا في تلك اللحظات تشعر بذنب شديد نحوه، أي أمّ هي؟

ربما كان بإمكانها استعادة حبها لكمال. ربما كان بإمكانها جعله يغني أغاني الحب مجددًا.

الأمر يستغرق وقتا لكُره أو حُب الزوج، تعرف هذا من محادثاتها مع نساء أخريات. لا يتضح أي من هذين الشعورين في ليلة الزفاف ولا خلال مئات الليالي التالية. يتحدد شعور المرأة الأساسي نحو زوجها بمرور الزمن فقط، سواء كانت تنطق اسمه باحتقار أم تهمس به بجذل. فقط بعد آلاف الوجبات، وبعد ولادة عدة أطفال، وبعد وفاة عزيز، وبعد ليالٍ كثيرة يقضيانها منفصلين وبعد تراوُح مزاجاهما ما بين الساخن والبارد كالمواسم.

الزواج مباراة. نقطة للحب، نقطة للكره. القلب يسجل النقاط.

ذراعه حول كتفيها في نور القمر. طريقة تقبيله جبين ابنته. رائحة العرق والحديد في ملابسه بعد يوم عمل شاق. طريقه تقبيله يد والدته في المناسبات. نقاط للحب.

لكن أمزجة كمال الكثيرة كانت تتغير بمرور الأيام، كمؤشر يشير إلى ترددات مختلفة.

نعم، كانت تعتمد عليه كثيرًا جدًّا، لكن لأي غرض آخر يكون الزوج؟ لن تهتم به كثيرًا، وعدت نفسها. كانت رغبتها فيه تقل شيئًا فشيئًا في جميع الأحوال. إبعاده نظره عنها حين تخلع ملابسها، تذمره من آلامها في أثناء الحمل والولادة، نوبات غضبه حين يدعوها بالعاهرة التي لا أب لها، كل هذه نقاط في الجانب المقابل. لم تكن مباريات الزواج تدور باحترام كما ظنت.

الأطفال المساكين، فكرت زيبا، لا يشاركون في اللعبة، لكنهم خسروا في جميع الأحوال.

تحب أطفالها من أعماق قلبها، حتى مَن فقدتهما، أو ربما خاصة مَن فقدتهما. كانوا طيبين. تركتها، لحمها ودمها، حتى وإن كانوا أبناء كمال أيضًا.

كانت تصحو في صباحات كثيرة جدًّا بأمل استعادة الحياة الماضية. وتأوي إلى النوم في ليالٍ كثيرة جدًّا وهي تسخر من سذاجتها. فكرت: ليت كمال هو من مات بدلًا من أخيه.

يقدر الله لحظة ولادتك ولحظة موتك قبل وقت طويل من أخذك أنفاسك الأولى.

علمها أبوها هذا قبل أن يختفي. لو كانت أذكى لكانت سألته:

ماذا عن ما بين هذه وتلك، أهي له أم لي؟

هل قتلت كمال؟ لم تكن متأكدة. حدث الكثير جدًا خلال لحظات قليلة. جرت الصور في ذهنها بسرعة شديدة لتميزها. في الحقيقة كانت تخشى مما قد تراه لو أبطأتها. ستواجه الأمر في النهاية، لكن ليس اليوم.

وربما الأمر ليس مهمًا لتفكر فيه. قد تقنع نفسها بسهولة أنها قتلته وقد تصر على أنها لا يمكنها فعل شيء كهذا. الزوجات، الأمهات، البنات، النساء لا يفعلن شيئًا كهذا. لا يملكن الشجاعة.

وقت مغيب الشمس، حين تشاركت عشاءً آخر مع صاحبات الزنزانة الثلاث، كانت قد ابتعدت خطوة أخرى عن كونها زوجة كمال. عن كونها الأم الساخطة العصبية. عن كونها بيدقًا في يد القدر المتغير.

في الصباح، ستشاركهن زيبا كلمات أكثر قليلًا. ستشعر براحة أكثر قليلًا خلف تلك القضبان الكئيبة. في الصباح ستعاودها شهيتها وستزول الهالات السوداء حول عينيها قليلًا.

في الصباح ستصبح زيبا أكثر قليلًا، التي لا تعتمد على أحد لحل المشكلات الصغيرة في يوم عادي. للأسف كمال ليس موجودًا لمشاهدتها.

الفصل 10

قابلت زيبا لتوها مديرة السجن لتخبرها بالتهمة الموجهة إليها. امرأة بدينة في أواسط العمر تقضي معظم وقتها خلف مكتبها، لم تندهش ولم تفاجئها ذاكرة زيبا الضعيفة بشأن الأحداث الأخيرة. عقدت حاجبيها وهي تغلق الملف المكتوب فيه اسم زيبا، وأومأت برأسها لأسما -الحارسة ذات الشعر الأحمر- لتأخذها إلى زنزانتها.

حدقت زيبا إلى قدميها وهما تتحركان على البلاط المربع بلون العظام. طلاء الجدران باللون نفسه لكن أغلبها مغطى بشخبطات أطفال وقليل من السجينات الضجرات. طلاء البوابات وأبواب الزنزانات بلون أزرق مبهج على نحو متناقض.

مر بهما ولدان في سن ما قبل المدرسة، لمس مرفق أحدهما فخذ زيبا. أزعجها ضحكهما.

«على مهلكما!»، صاحت أسما من خلفهما. هزت رأسها وأمالته جانبا قائلة «أولاد أشقياء مثل أمهاتهم».

مرّتا بمكتب الحارسات، حاوية زجاجية على شكل نصف دائرة في منتصف السجن تطل على الأروقة الطويلة من جميع الاتجاهات. في الداخل طاولة خشبية عليها مذياع، يرقد هوائيّاه بجانبه بخمول، وكومة صغيرة من الجرائد المطوية. تجلس حارسة أخرى رفعت بصرها وهما تمران. أعادت زيبا بصرها إلى قدميها.

انعطفتا إلى سلم يؤدي إلى الطابق الثاني. تجلس فتاة صغيرة، أكبر من ريما بقليل، على بسطة السلم بين طابقين،

تلعب بمروحة ورقية صغيرة. يزهو ثوبها البنفسجي متناقضًا مع لون الأسمنت. رفعت بصرها وابتسمت لزيبا ببهجة. أرادت زيبا أن تجيبها بابتسامة، لكنها لم ترَ الأمر معقولًا.

تأتي أصوات عالية من الغرفة الصغيرة المجاورة للسلم. ألقت زيبا نظرة سريعة وهما تمران بها فرأت كرسيًا قابلًا للطي أمام تسريحة. تظهر في الأدراج المجوفة في الحائط فرش شعر مستديرة ومسطحة، علب صفيح ملأى بمشابك الشعر، وأقلام أحمر الشفاه. على المنضد رشاش مثبِّت للشعر. تجلس على الكرسي سجينة صفَّفت شعرها لتوها، تميل برأسها وجذعها لترى رأسها من الخلف. تقف حولها امرأتان أخريان، أطراف أصابعهما مخضبة بالحناء، إحداهما تضع أحمر الخدود على عظمة وجنتها وهي تحدق في مرآة بحجم كف اليد. لم يعنين برفع بصرهن فيما تمر زيبا والحارسة.

«كأنهن في طريقهن إلى حفل زفاف»، غمغمت أسما، عيناها بلا كحل ووجنتاها بلا أحمر خدود. «الضجر جريمة تنتظر الوقوع».

أخذتها أسما إلى نهاية الرواق، إلى الباب الأزرق التي تميزه زيبا بانبعاج أحدثته قدم غاضبة ذات مرة.

«زيبا، لقد عدتِ!»

«ظننت أنهم قد أطلقوا سراحك. لقد غبت وقتًا طويلًا جدًا».

شعرت زيبا باختناق مفاجئ من أصوات صاحباتها. يوجد شيء ما في هذا السجن المزدحم بأروقته الواسعة وغرفه الصغيرة، من المستحيل تقريبًا أن تُترَك وشأنك.

«تهذَّبن»، حذرتهن أسما وهي ترفع أحد حاجبيها. «لا داعي لبدء المشكلات، صحيح؟» مسحت الغرفة بعينيها سريعًا قبل أن توسِّع عينيها نحو لطيفة لتؤكد تحذيرها.

تأفَّفت لطيفة بوجنتين منتفختين وتنهدت بإحباط.

«الفرق الوحيد بيننا هو هذا الزي الرسمي أسما. أنت تعرفين هذا جيدًا».

«نعم، هذا صحيح تمامًا، لطيفة. هذا هو كل شيء»، وافقتها أسما بسخرية. رمقتها بنظرة قاسية ومطولة قبل أن تستدير وتغادر. خمنت زيبا أن لطيفة في الغالب هي من ركلت الباب لتترك فيه هذا الانبعاج.

دخلت زيبا الغرفة وحنت رأسها لتجلس على فراشها السفلي. لا ترغب في الثرثرة معهن، لكن، كما قالت أسما، الضجر جريمة تنتظر الوقوع. كان صبرها ينفد وقلقها يزداد. حاولت ألا تتخيل قضاء بقية حياتها في هذا السجن لكنها عجزت عن تخيل بدائل أخرى أيضًا. لم يحدد القاضي موعد محاكمتها بعد. كان أخوها يبحث عن محامٍ. تعرف أنه ليس من السهل إيجاد محامٍ يرحب بالدفاع عنها.

«ألم تقابلي القاضي بعد؟» سألتها لطيفة حين ابتعد وقع خطوات أسما.

«لا»، قالت زيبا ببساطة. «ليس بعد».

«يحبون الاحتفاظ بنا مدة طويلة قبل بدء المحاكمة. يحتفظون بك هنا وقتًا طويلًا حتى تقتنعي أنتِ وكل من تعرفينهم أنكِ مذنبة بأي تهمة مكتوبة في ملفك».

جلست لطيفة على كرسي بلاستيكي مقابل تلفاز في ركن من الزنزانة، جلست مزجان ونفيسة على الأرض أمام فراشيهما. كن يتابعن مسلسلًا تركيًا باهتمام شديد، مدبلج بالدارية على نحو غريب. لم تترك عيناهما الشاشة لحظة.

«كم مكثت هنا قبل محاكمتك؟» سألت زيبا.

أطلقت لطيفة ضحكة عالية قبل أن تجيبها.

«قرابة شهرين. قضية بسيطة لكن النيابة ظلت تؤجل. لم أنكر أنني هربت من البيت وأخذت أختي معي حتى. لكنني أعرف لماذا. أنا متأكدة من أن القاضي كان يأمل أن يُحلّي له أبي شايه لذلك ظلّ يؤجل».

شهران. شعرت زيبا بغصة في حلقها. أطرقت برأسها.

«لا يعني هذا أنه سيفعل المثل معكِ، هذا ما فعله معي أنا. أليس هذا صحيحًا يا خانوم؟» سألت لطيفة حارسة أخرى، امرأة عادية في الأربعين من عمرها تبرز خصلات شعرها من تحت طرحتها البنية، كانت تقف عند بابهن لتتابع المسلسل.

«بربك يا لطيفة. أنتِ تعرفين أنني لا أسمع كل ما تقولينه»، أجابتها الحارسة بخبث.

ضحكت لطيفة.

«يا لك من صديقة، شكرًا. كيف حال ابنتك بالمناسبة؟ هل عادت إلى المدرسة أم ما زالت مريضة؟»

«تحسنت كثيرًا، شكرًا لك. عادت إلى المدرسة بالأمس، وصار بإمكاني الوجود هنا لمراقبتك أنتِ بدلًا من مراقبتها هي، أرأيتِ حسن حظي؟»

كان مزاجهن رائق حتى جاء السؤال التالي.

«نفيسة، أأنتِ مستعدة للغد؟»

أخذت نفيسة نفسًا عميقًا وتململت في جلستها على الأرض. وضعت مزجان يدها على ركبة نفيسة.

«ستكونين بخير»، قالت تطمئنها.

«هذا غباء»، أعلنت لطيفة.

«إن كنت لا تخفين شيئًا فقد يساعدك هذا»، قالت الحارسة بهدوء.

لاحظت لطيفة نظرة التساؤل على وجه زيبا.

فقالت بنبرة منغمة وبأداء مذيعة في الراديو «ستخضع هذه الشابة للاختبار غدًا، وسوف يخبر طبيبٌ بارع وشهير العالمَ كله هل هي عذراء أم لا. هذا ما يريد الجميع أن يعرفه حقًّا. هل فعلتها أم لم تفعلها؟ أما زالت فتاة أم أنها بغي؟ هل لطخت شرف أبيها في الوحل أم لا؟»

مكتبة
t.me/soramnqraa

احمرَّ وجه نفيسة بشدة.

قالت بحنق: «اخرسي يا لطيفة!»

لكن لطيفة واصلت بلا مبالاة.

«دعيني أخبرك قليلًا لأن لا أحد آخر سيفعل. سيكون عليكِ أن تخلعي لباسك التحتي وترفعي تنورتك. سيستخدم الطبيب كشاف ضوء لينظر في كل شق في جسدك ليرى إن كان قد اقترب منه رجل أم لا. أوه، نعم، ستخضع مؤخرتك للفحص أيضًا. لكن الجزء الأمامي هو الأساس. سيظل يتفحصك كلك ليتأكد من وجود غشاء بكارتك حول أعضائك الأنثوية. إن لم يكن لديك ذاك

الغشاء الصغير الذي يبحثون عنه، ستواجهين مشكلات كبرى. لو كنت قد سقطت من قبل من نافذة أو من فوق شجرة، يجدر بكِ إخبارهم قبل أن يفتحوا رجليكِ. هذا هو أملك الوحيد لتبرير ما قد يكتشفونه لئلا تمكثين معنا هنا عشر سنوات أخرى. هل سقطت من فوق شجرة؟ فكري جيدًا يا صديقتي. بالطبع، لا بدّ من أنكِ سقطت من فوق شجرة في وقت ما من حياتك».

طرقعت مزجان بلسانها بتعاطف. «يكفي هذا يا لطيفة! أنت تظنين أن كل شيء مزحة. ستتعرض غدًا للإهانة بما يكفي، لا تزيدي الطين بلةً».

«أنا فقط أحاول إعدادها. انظري إلى وجه المسكينة. ألم تلاحظي أنها بالكاد أكلت أو نامت خلال اليومين الماضيين؟ إنها حزمة أعصاب. لسنا جميعًا مستعدين *مثلك* لأن يحشر رجل أصابعه بين رجلينا».

أمسكت مزجان بفرشاة شعرها وقذفت بها لطيفة. مالت الأخيرة برأسها في اللحظة المناسبة. وقفت مزجان وبدا أنها ستندفع كالعاصفة من الزنزانة. اتجهت نحو الباب، توقفت وعقدت ذراعيها على صدرها. ابتسمت الحارسة باستمتاع.

«أتمنى أن يكون محاميها أفضل من محاميّ»، قالت لطيفة بتنهيدة. «أخبرني محاميّ أن عليَّ أن أشعر بالعار لهروبي من أهلي. أخبر القاضي بالأمر نفسه على مسمع مني ثم طلب منه الرفق بي لأنني أبدو نادمة، يا له من دفاع! توجد امرأة هنا خضعت لاختبار العذرية وقال الطبيب إنها كانت تمارس الجنس على الأقل مرة أسبوعيًا مع رجلين مختلفين».

«يمكنهم معرفة هذا من فحصها؟» سألت نفيسة مذهولة.

«أنا لست طبيبة. ربما يترك الرجال بطاقات تصويت بداخلها. اللعنة عليَّ لو كنت أعرف».

كانت نفيسة متوترة جدًّا لتضحك.

«ماذا أظهر اختبارك أنتِ؟» سألت نفيسة. لم تتحدث لطيفة عن اختبارها خلال مدة سجنها كلها. لم تذكر حتى خضوعها له.

«اختباري؟ أأنتِ غبية مثلهم أم ماذا؟» قالت لطيفة منزعجة. «ليس عليك سؤال اللحم بين رجلي إن كنت قد مارست الجنس مع رجل من قبل أم لا. يمكنك سؤالي أنا فقط وسأجيبك أنني لم أفعل، حتى ولو لم يصدق رجال عائلتي. إن أخي يقسم أنه سيقتلني لو كنت عاهرة».

ثم سكتت وأغمضت عينيها. حركت أصبعها في الهواء كأنها تستقبل إشارات.

«خطر لي مقطع! خطر لي مقطع!»

«إن كان الشرف هو كنز الرجل الثمين

لماذا يحتفظ به بين رجلي المرأة؟»

«أليس ذكيًا؟» تساءلت لطيفة. كانت زيبا مشتتة جدًّا لتقيِّم المقطع أو لتنتبه لحقيقة أنها ساهمت في إلهام صاحباتها في الزنزانة.

«هل يفحصن الجميع؟» سألت بعصبية.

«لا»، أجابتها لطيفة وهي تقف وتنفض رجليها. «المتهمات بالزنا فقط. وأنا حدسي يخبرني بأنك لست هنا لهذا».

لطيفة محقة. كانت زيبا بالكاد ترغب في الجنس في نطاق زواجها، وأقل من ذلك بكثير خارج نطاق الزواج.

«إذن، زيبا، هل ستخبريننا بما حدث أم سيكون علينا تخمينه؟»

نظرت زيبا إلى عيني لطيفة. هزت رأسها وأخذت نفسًا عميقًا.

فوجئت بسرعة انتشار رائحة الدم لتملأ الهواء. ماذا كانت تلك الظلال الشبحية على وجه زوجها؟ أكانت آلامًا؟ بدا مذعورًا، كأنه يحدق في وجه الشيطان. تكوم على الأرض، ذراعاه ممدودتان، يتوقع بنصف عقل أن تحمله زيبا. مادت الأرض تحت قدميها فشهقت شهقة حادة. سال ظلام من رأس زوجها على الأرض وتمدد نحوها شيئا فشيئا. ترنحت تتراجع إلى الخلف، لم تُدِر ظهرها. ظلت تتراجع حتى اصطدم ظهرها بالجدار الخارجي للبيت، فانهارت على الأرض. رفعت عينيها للحظة، فكانت كافية لتصرخ بكلمة واحدة:

انصرف.

«لا شيء لأقوله». عادتْ زيبا إلى فراشها وهي تزرر أسورة كمِّها. رأت الأخريات أصابعها تعبث بالزر، وشفتيها ترتعشان. تنتابها تلك اللحظات من حين إلى آخر، مشاهد خاطفة من ذاك اليوم. يصعب التحدث في تلك اللحظات. أحيانًا يصعب التنفس حتى.

لاحظت لطيفة ذلك لكنها ألحت.

«لا شيء البتة؟ أهو سوء تفاهم. أم ربما لم يكن وسيمًا جدًّا. أو...» واصلت بنبرة متشككة، «أو ربما كنتِ مريضة بالحب مثل هاتين الفتاتين. ربما وجدت رجلًا جديدًا، شخصًا ما بتجاعيد

أقل. أو بنقود أكثر. أرجوك أخبريني أن هذا هو الأمر. ستكون تلك قصة أريد أن أسمعها!»

وجه كمال مجددًا. عيناه متسعتان ومستعرتان.

بحثت لطيفة في جيوبها وأخرجت علبة سجائر مجعدة. حشرت إصبعها الثخينة بداخلها، أُحبطت. ألقت بالعلبة الفارغة على فراشها.

تلاحقت أنفاس زيبا. أصابعها ترتعش.

انصرف!

هل صرختْ أم همستْ؟ لا تتذكر.

«كفى»، صاحت نفيسة. «لطيفة... أنتِ غبية».

حينها غابت زيبا عن الوعي تمامًا، هدأ تنفسها وخلا ذهنها. كانت هذه ثالث مرة تفقد فيها الوعي منذ أن جاءت إلى السجن. توترت مزجان بشدة. نفضت تنورتها بعصبية وأقسمت أنها لن تبقى في غرفة وحدها مع زيبا أبدًا.

نسيت نفيسة قلقها بشأن اختبارها الوشيك. ستحتمله من أجل الحب. كانت تؤمن بالرومانسية، بالعشق عبر النجوم، وانتصار الحب. كيف بغير هذا ستواجه حقيقة أن حبيبها الأرمل، رغم وعوده اللجوجة، لم يتقدّم إلى عائلتها لطلب يدها للزواج؟ إنها تعرف الحب جيدًا بما يكفي لتلحظ غيابه عن وجه زيبا. كان سجن شيل ماهتاب -أربعون قمرًا- مأوى نساء اقترفن جرائم أبشع كثيرًا من الشهوة.

«بربك يا لطيفة، أأنتِ عمياء؟ هذا ليس حبًا»، همست نفيسة، عيناها على يدي زيبا المرتعشتين. «هذا دنس».

الفصل 11

ارتفع جفنا زيبا ببطء، ركزت عيناها على القضبان المعدنية. رأسها ثقيل. رفعت إصبعًا. ثم يدًا. تقلبت وشعرت بملاءة الفراش تتجمع عند قدميها في صندلها. كانت في فراشها. لا تتذكر شيئًا عن نقلها. لا بد أنهن وضعنها في الفراش بصندلها. لم يعدن يعنين الآن باستدعاء الحارسات.

لم يسبق لها أن فقدت وعيها قط قبل الأسابيع القليلة الماضية. لم يحدث ذلك وهي طفلة حين رأت الصواريخ تسقط من السماء. ولا وهي حامل في أشد أشهر الصيف قيظًا. ولا حتى حين بكت على أبيها المختفي. شيء ما تغير فيها، وهي تعرف ما هو. إنه الظلام يواجهها.

مر زمن طويل جدًا منذ أن رأته أول مرة، زمن طويل لحد أنها كادت تنسى كيف كانت تعيش بهذا الرعب. في البدء كان يأتيها ببطء، وبشكل غير منتظم. تسلل إلى بيتها كدخان النار، يتكور في الشقوق بين النافذة والجدار، يلمسها وأطفالها وهم نائمون ليجعلهم يرتجفون رعبًا في أحلامهم. استولى على زوجها تمامًا، تسلق من أصابعه إلى ذراعيه ولف رأسه بغيمة قاتمة. تنفَّسَه الأطفال، تشبَّعت أجسادهم الصغيرة به، قتمت عروقهم دون أن يعرفوا. تنام الأسرة كلها في غرفة واحدة كبيرة، تسهر زيبا تستمع لصوت تنفس الأطفال ليلًا، تخشى أن يلتف الظلام حول أعناقهم الصغيرة ويخنقهم قبل شروق الشمس. أكثر من مرة استيقظت الفتيات فجأة على أصابع أمهن تمسح أعناقهن بقلق، فتربت على أكتافهن برقة ليعدن إلى النوم.

حين كانت تنام، كانت تحلم به. رأت موجاته تغرق طعامهم وعرفت أنها ستجد دليل وجوده في الصباح: سوس في جوال الأرز، عفن في الخبز المخبوز حديثًا، وتفاحات بكدمات. ستنهض في الصباح وتلقي بالطعام الفاسد فقط إلى كلاب الشارع. تفضل أن تلقي به كله لولا خوفها من ألا يجدوا شيئًا لتناوله. شعرت بغشاء رمادي على أطباقهم وأكوابهم وسمعت أزيز الذباب المتواصل. كافحت لإزالته، لكنها ظلت تتذوقه. تغلغل في المعدن والحجر والجلد. لم يكن من مفر منه.

نما قلقها. ازدادت زيارات الظلام، مرة في الشهر. ثم مرة في الأسبوع.

اشتاقت إلى أمها، من غيرها يستطيع التعامل مع شيء غير ملموس كهذا. كانت تتعامل مع الظلام بعلمها الخاص جدًّا. لكنها لا يمكنها اللجوء إليها الآن، بعد أن قالت لها ما قالته.

ماذا تريدين مادر؟ أتريدين أن يتربى أطفالي بلا أب كما تربينا نحن؟ أتريدينني أن أعرضهم لحياة المهانة والإساءة، هم أيضًا؟ لا لن أفعل هذا. أنا لست مثلك. لا أريد أن ينظر إليّ الناس كما ينظرون إليكِ!

لا، الأرجح أن أمها لن تسامحها على ما قالته. سيكون عليها التعامل مع الأمر بنفسها.

استجمعت شجاعتها لتخبر كمال بالأمر.

يوجد شيء ما هنا، كمال. إنه يؤذينا.

كان يسوِّد حياتهم، ظل فوق بيتهم. في المرة الأولى التي ذكرت

فيها الأمر دهشت من استماع كمال إليها. حين أنهت كلامها، ويداها متشابكتان خلف ظهرها، قلب عينيه وهز رأسه.

«أنتِ تتخيلين. لا تكوني مثل أمك الساحرة».

لدغتها كلماته، لكنها تنفست براحة أكثر قليلًا. كان واثقًا ومتماسكًا، ويمكنها تصديقه.

في المرة الثانية لبوحها بمخاوفها له، لم يجبها بشيء، بل قرص أذنها بقوة حتى تورَّمت وصارت كتلة بنفسجية. غطتها بشعرها وطرحتها لئلا يسألها الأطفال عنها.

«أنا لا أريد زوجة غبية ممن يصدقن في الخرافات».

كيف تكون خرافة إن كنت تصدقها؟

عضت لسانها وعادت إلى شغل الإبرة في يدها، لم يقنعها. لم يرَ ما رأته. لم يرَ أنهم يعيشون في بيت بلا نوافذ.

ظلت تراقب الأطفال بحرص. تبقيهم إلى جانبها. يعودون من المدرسة إلى البيت، فتحرص على أن يبقوا معها وهي تعد الطعام. تفرك جلدهم كأنه أطباق ظلت متسخة يومًا كاملًا وتظل تتحسس جباههم خوفًا من الحمى. قد يتخذ الظلام أي شكل، حدسها يخبرها بهذا. كمال لا جدوى منه. حماية أسرتها مسؤوليتها وحدها.

تقضي الليل مستيقظة، تستعد لمقابلة المقتحِم اللا مرئي وتفكر في سبل مواجهته. لم تكن تراه دائمًا، لكنها كانت تشم رائحته، رائحة لحم فاسد تجعل معدتها تنقلب. حتى الفئران ابتعدت.

حين كانت تطهي، كانت تتنفس رائحة البقدونس الطازج، والثوم والكمون والليمون. تحاول تنظيف حواسها من رائحة العفن المستقرة في جدرانهم.

في الليل، يعود.

لم يرَ الأطفال ما كانت تراه. تصرفاتهم في النهار عادية ما دام أبوهم غائبًا. تتردد أصداء ضحكات بصير في الشارع خلف بيتهم. يعود من لعب كرة القدم بخدوش وليس بكسور. الفتاتان تتعاونان في عمل البيت. تأتي كريمة وشابنام بدلاء الماء من البئر، تحملان معًا المقبض المعدني. ترددَا الأغاني الشعبية مثل الفتيات الأخريات. تحبو ريما، وتتعثر وتغمغم مثل أي رضيع آخر. لا أحد منهم يعرف شيئًا. ذهلت زيبا من إعفائهم. كانت أحيانًا تمتن لهذا. وأحيانا أخرى تغضب لأنها الوحيدة التي تشعر بثقل الظلام.

قبل العيد بيومين، نشرت زيبا سجادة غرفة الجلوس في الفناء لتنفض عنها التراب. وضعت طرف طرحتها على فمها وأنفها بيد وبدأت ضرب السجادة بعصا ثقيلة بالأخرى. كان زوجها قد خرج منذ الصباح. تمنت أن يكون قد ذهب إلى العمل لكنه في الغالب ذهب ليشرب ويدخن بما كسبه كله.

بدأت بأحد الأركان ثم تحركت إلى بقية المستطيل بنظام. تلوت السجادة تحت ضرباتها على نحو مثير للشفقة.

وجهتْ عصاها إلى أسفل وهوت على السجادة بضربات قوية. حين انكسرت العصا إلى نصفين أطلقت صرخة حادة، ثم أمسكت بيد مكنسة وواصلت الضرب من حيث توقفت. ضرب، ضرب، ضرب. تنخر بين الضربات، ينتشر تراب يخرج بعنف من النسيج كسعال شخص مسلول.

حين انتهت من آخر قدم مربعة في السجادة، توقفت. تلهث. تؤلمها كتفاها. جلست على دلو بلاستيكية مقلوبة لتلتقط أنفاسها وتريح عضلات ذراعيها.

حط على القرية برد قارس. حتى داخل البيت، ابيضت أصابع الأطفال من البرد. أدخلت السجادة وفرشتها على الأرض، ما زالت ألوانها كما كانت قبل هجومها عليها. ما جعل عينيها تدمعان لسبب ما لم تستطِع تحديده.

نفخت في يديها وفركتهما معًا. استدارت لسماعها صوت الباب ينفتح خلفها. فك كمال وشاحه الأسود ووضع كيس بندق وزبيب على المائدة. ابتسمت له بضعف، لم يكن ليصل في توقيت أفضل من هذا.

«رائع»، قالت، وهي تمد يدها للغلاية. «جلب بصير لتوه خبزًا طازجًا. سأعد بعض الشاي. سيُدفئ بطوننا».

فأجابها: «هذا ليس لهم. يمكنهم تناول ما تبقى من ليلة أمس. هذا لي أنا».

جعلها شيء ما في صوته تقشعر. رفعت بصرها فجأة. تجنب كمال نظرتها فورًا. راقبته من كثب وهو يعلق وشاحه وسترته على مشجب في الصالة. رأت انحناء كتفيه، التحدي في ذقنه، والظلال حول عينيه. كم ظل كل هذا هناك دون أن تراه؟ بالكاد أمكنها التنفس، غص حلقها بقوة.

اضطرب صوتها.

راقبها كمال من زاوية عينه. لم يتحرك نحوها أو بعيدًا عنها. وقفا في مساحة محسوبة، تفصلهما قرابة ستة أقدام. قدماه

راسختان بقوة على السجادة التي حاولت تنظيفها منذ دقائق. يمكنه رؤية الخيوط الفضية القليلة في شعرها. يمكنها رؤية شعر ذقنه على وجهه، الوجه الذي فرك وجهها ليلة أمس حين جاء وولجها رغم توسلاتها الصغيرة ومعارضتها. ارتفعت أصابعها المتربة إلى شفتيها.

لكنه زوجي. كيف هذا؟

كان فيه، ذاك الشيء الذي لا يمكنها تسميته. ذاك الشيء الذي لا يمكنها التحدث عنه.

«زيبا»، قال وهو يدير لها ظهره العريض. «لا تبحثي عن مشكلات».

الفصل 12

وُضعت زيبا في غرفة بجوار مكتب إدارة السجن، تسع بالكاد طاولة وكرسيين. نافذتها الوحيدة كبيرة وتطل على الفناء المحاط بالأسوار، وجدرانها خالية. جلست على كرسي في مواجهة شاب بعينين سمراوين بدا كأنه يحمل حقيبة مدرسية بدلًا من حقيبة عمل. شعره حليق ومجعد ووجهه ناعم.

أوه رفيع. فيمَ كنت تفكر؟

تنحنح الشاب قبل أن يجيبها. وضع يده على صدره وأومأ برأسه وهو يقدم نفسه.

«مساء الخير، أنا يوسف، سأكون محاميكِ. لدينا الكثير لنناقشه».

لم تصدق أن هذا هو المحامي الذي وكله أخوها. بدا صغيرًا جدًّا إلى حد يجعله لا يستطيع الدفاع عن شيء ما أكثر جدية من هدف في مباراة. هوى قلبها، بالتأكيد سيعدمونها قبل نهاية الصيف.

«لقد قرأت محضر القبض وتقرير الشرطة. لكنني هنا لأسمعك. من أين تريدين البدء؟»

أراحت زيبا جبينها على راحتها وحدقت إلى الطاولة. حار يوسف في تفسير هذا.

«ربما عليَّ أن أبدأ أنا؟» عرض عليها.

بدأ يذرع الغرفة الصغيرة. كان مندهشا -كما أخبرها- من حقيقة أن أهل القرية أو أهل زوجها لم يقتلوها على الفور.

«الأمر فقط أنه... أن هذه الأمور لا تسير هكذا. أنا لا أصدق أنهم رفعوا أكتافهم ببساطة وقرروا تسليمك للشرطة في حين يعرف الجميع من يدير القرى حقًّا. الأمر غير متوقع وغير مسبوق تمامًا، وعلينا أن نركز على هذا لأنه مهم. بل ومحوري جدًّا في الحقيقة».

لم يكن أهل قريتها نبلاء أو متسامحين على نحو خاص، فكرت زيبا، لكنها احتفظت بهذا لنفسها. هذا الرجل لا يعرف شيئًا عن زوجها أو جيرانهم.

ذكر لها العوائق التي واجهها ليصل إلى هذا الحد، تحديد وقت للقائها. كان قد اطلع على ملف السجن وتقارير الشرطة وقرر أن المعركة شرسة. يحتاج إلى التحدث مع أهلها ومع أي شخص تظن أنه قد يشهد لصالحها. توجد إجراءات كثيرة لم تُراعَ قط، أكد يوسف. أزلق إصبعه في عقدة رباط عنقه وسحبها لأسفل بنفاد صبر، كأنها تمنعه من الحديث بالسرعة المطلوبة.

تساءلت زيبا إن كان يوجد خطأ ما. ربما وكّل لها رفيع محاميًا مختلفًا؟ سيكون الأمر أكثر منطقية إن كان هذا الرجل محامي سجينة أخرى، واحدة من المتهمات بالحب ربما. يبدو مناسبًا أكثر لمشكلات الحب.

سحب يوسف كرسيًا وجلس قبالتها ونظر إلى عينيها. تجنبت نظرته غريزيًا.

«أريد أن أعرف ماذا حدث. أريد أن أعرف كل شيء عن ذاك اليوم وأي نوع من الرجال كان زوجك».

قابلت زيبا أسئلته بالصمت. أوضح لها بتؤدب، ثم بإلحاح، لماذا عليها التعاون معه. لم تتفوه بشيء وتساءلت أيّ من صاحباتها في الزنزانة ستقع في غرامه أولًا، مزجان أم نفيسة. أو حتى الباردة كالثلج لطيفة قد تذوب أمام سحر شبابه.

عاد يوسف مرتين بعد تلك الزيارة. ظلت زيبا على صمتها. تُثبِّت عينيها على الطاولة الخشبية أمامها، تتتبع رسوم الحبيبات كفأر في متاهة. لم يستطِع هو قراءة أي شيء من تعبيرات وجهها. جلس يلمِّع نظارته بطرف رابطة عنقه، في انتظار رد.

«أنا هنا لمساعدتكِ. أتفهمين هذا؟ أتعرفين ماذا سيحدث لكِ لو، أو ربما عليَّ القول، حين يثبتون عليكِ التهمة؟ خانوم، سوف نقابل القاضي خلال وقت قصير وما زلت لم تمنحيني شيئًا لأعمل عليه، لا سبيل للدفاع عنك أو... أو... أو...»

رفع يديه في الهواء. يرتدي اليوم بدلته البنية نفسها التي ارتداها في أول زيارة لها. لاحظتْ الخياطة المتقنة، الطيات الدقيقة على الصدر. هذه البدلة ليست من هنا. لم يكن يرتدي مثل أي رجل في قريتها. كلماته، ملابسه، طريقته في النظر إليها، كل شيء فيه له رائحة أجنبية.

«لديَّ سؤال»، قالت بهدوء ورفعت بصرها إليه.

سكت منتظرًا.

«من أين أنت؟» سألته. ظل صامتًا، أربكته بساطتها. كان أخوها قد أكد أنها امرأة طيبة، وأم حنون وودودة، وأقسم أنها ليست قاتلة.

«خانوم، فيمَ يهم من أين أنا؟ مزار، كابول، باجمان. ما الفارق؟»

«الفارق كبير جدًّا أيها الشاب. إن لم تكن من قريتي، فلن

تعرف الأشجار التي تنبت في تربتي. أتظن أن بإمكانك زراعة شجرة برتقال في حيّنا؟ ستموت الشجرة قبل أن تمسح عرقك عن جبينك. لأنك لا تعرف من أين أنا».

«أنا لا أتحدث عن زراعة الأشجار يا خانوم. أنا أتحدث عن جريمة وسجن وموت. أتحدث عن سبل للدفاع عنك ضد تهمة جسيمة». كان محبطًا. ألا تفهم خطورة الموضوع؟

«الدفاع عني؟ أتظن أن لي أملًا في مغادرة هذا المكان!».
أومأت برأسها نحو الجدار.

«ألا تظنين ذلك؟» عاد يوسف بظهره إلى الكرسي، على الأقل كانت تتحدث.

«أنا امرأة. وجدوني ودماء زوجي على يديَّ. كانت جثته خلف بيتنا ولم يرَ أحد ما حدث له. أنا لا أعرف من أين أنت يا صاحب، لكن في قريتي، من حيث أنا، لا تسامح. هذا يتطلب... دماء».

«دماء؟»

«نعم». أكدت له.

«لكنهم لم يقتلوك حينها بل أرسلوكِ إلى هنا على الفور».

«نعم»، وافقتْ. حرص مأمور الشرطة على تقييد يديها وأشرف بنفسه على نقلها. لم يرحب بوجود زوجة قتلت زوجها في عهدته. أوكل حكيمي العجوز الطيب لأفضل ضباطه بمهمة نقلها إلى السجن في اليوم نفسه، قبل أن يعرف كل أهل كمال بالأمر. يعرف كيف تسير هذه الأمور. إن جاؤوا طلبًا للثأر، سيحققون غرضهم بطريقة أو بأخرى.

«وتظنين أنني لا أعرف شيئًا عن موطنك؟» قال يوسف ببرود.

«لو كنت تعرف، لم تكن لتضيع وقتك هنا».

«لديكِ أطفال وهم الآن بلا أم أو أب. إن كنتِ ترين أنك لا تستحقين فرصة رؤيتهم مجددًا فاطلبي مني، أرجوكِ، أن أجمع أوراقي وأنصرف. وأخبري أخاك أن عليه ألا يقلق بهذا الشأن بعد الآن. هيا، وفري علينا جميعًا الكثير من الصداع وقولي ذلك فقط»، قال يتحداها.

زمَّت شفتيها. لم تقل شيئًا. الأفغاني الذي عاش في الخارج أسوأ من الأجنبي. يعودون وهم يظنون أنهم يعرفون كل شيء ويتسابقون لإثبات هذا.

دس دفتر ملاحظاته في حقيبته وأغلقها بحزم قبل أن يقف.

«حسنًا إذن. حان موعدنا أمام القاضي. لم تقولي الكثير لتساعديني. كل ما أطلبه أن تتعاوني معي ونحن في الداخل هناك. لا تجعلي الأمر أصعب مما هو عليه بالفعل».

قادها في الرواق إلى مبنى أصغر حجمًا على مسافة مئة قدم من السجن. كان مظلمًا بالداخل وله رائحة رماد رطب.

حين فتح القاضي الباب وأشار إليهما بالدخول، رمقها يوسف بنظرة أخيرة.

ظل وجهها جامدًا. كانت أعصابها قد انهارت بالفعل، وبدا أن محاميها يستمتع بدفعها إلى حافة الهاوية.

مكتب القاضي غرفة ضيقة وبلا نوافذ، في ركن منها مكتب قديم من خشب البلوط تملؤه الخدوش. وفي الناحية الأخرى طاولة قهوة صغيرة وأريكة لشخصين مطبوعة برسومات زهور.

وقفت زيبا عند الباب فيما جلس يوسف على الأريكة. تجهَّم القاضي -ستيني بوجه نحيل- في وجه زيبا وهو يمرر حبات مسبحته بين أصابعه.

جلس وكيل النيابة على مقعد بذراعين أمام يوسف. رجل في بداية أربعينياته تقريبًا، كما يبدو من خصلات شعره الرمادية. بدا مرتاحًا في جلسته أكثر من يوسف بشكل ملحوظ، ما جعل زيبا تشعر بالغرق.

قال القاضي «تسنى لكما أنتِ ومحاميك الوقت لتناقشا التهمة الموجهة ضدك.. أرجو أن تقدري خطورة الجريمة هنا».

مال يوسف إلى الأمام، ترك ملحوظاته العشوائية في حجره، كلمات مرتبطة بخطوط ودوائر.

«سيدي القاضي، نحن بالفعل نقدر خطورة التهمة، لهذا تحديدًا أطلب المزيد من الوقت مع موكلتي. لقد واجهتُ صعوبات في الحصول على معلومات كافية عنها وعن أحداث ذاك اليوم».

ضحك وكيل النيابة. كان على الطاولة أمامه ملف مكتوب عليه اسم زيبا. حاولت زيبا ألا تنظر نحوه.

«صعوبات؟ أي صعوبات؟ لقد تمكنت من مقابلتها بحرية. لم يقم أهل زوجها بأي شيء للوقوف في طريقك، مما فهمته».

هز القاضي رأسه. لم يكن معتادًا على نوعية كلام يوسف.

«حقًا سيدي القاضي، لكن موكلتي ظلت في حالة صدمة حزن على وفاة زوجها و...»

«صدمة حزن؟» مال القاضي إلى الأمام، ضاقت عيناه وهو ينظر إلى زيبا التي نظرت إلى الأرض فورًا، وتململت في وقفتها.

لـم يقـل وكيـل النيابـة شيئًا. بعـد رد فعـل القاضـي، لا داعـي لقـول شـيء.

«نعـم يـا سـيدي»، أصـر يوسـف، نظـر خطفًـا مـن أعلـى كتفـه ليتأكـد أن زيبـا تقـف باحتـرام. «مـع احترامـي، لكنهـا امـرأة فقـدت زوجهـا وأُخِـذت بعيـدًا عـن أطفالهـا. أنـا أطلـب تأجيـلًا مـدة ثلاثيـن يومًـا كمـا ينـص...»

«هـذا سـخف...»، قاطعـه وكيـل النيابـة، «سـخف لا داعـي لـه. لا شـيء ستحققه فـي هـذه المـدة يمكنـه دحـض مـا لدينـا هنـا أمامنـا الآن. لمـاذا تريـد أن تضيـع وقتنـا؟ أنـت تعـرف مثلمـا نعـرف جميعًـا أنهـا مذنبـة. قـم بعملـك والتمـس العفـو».

تحركـت عينـا القاضـي مـن وجـه يوسـف الحليـق إلـى الكتابـة فـي دفتـر ملاحظاتـه وعقـدة رابطـة عنقـه.

«أنـا لـم أقابلـك مـن قبـل أيهـا الشـاب. لا أعـرف أيـن تظـن نفسـك، لكـن إن أردت أن تخـدم تلـك المـرأة، أقتـرح أن تتعلـم كيـف تسـير الأمـور هنـا. الأحـرى بـك أن تسـاعد موكلتـك علـى التعبيـر عـن ندمهـا علـى مـا فعلتـه. سـيكون علـيَّ موافقـة النيابـة. ألـم تقـرأ شـهادتها حيـن أحضرتهـا الشـرطة إلـى هنـا؟ إنهـا مذنبـة كمـا يكـون المذنـب. يجـب ألا نضيـع وقتنـا فـي هـذا الهـراء».

عض يوسف لسانه.

نعـم، قـرأ شـهادتها، لكنهـا شـهادة ملفقـة بوضـوح. كتبهـا ضابـط شـرطة نيابـة عنهـا زاعمًـا أنهـا لـم تسـتطِع الكتابـة بنفسـها. وفـي أسـفل الصفحـة بصمـة أصبعهـا بحبـر أزرق.

«توجد مشكلات في شهادتها سيدي القاضي».

«أي مشكلات؟»

«أولًا، لـم تكتبهـا بنفسـها. بـل كتبهـا ضابـط شـرطة فـي حيـن موكلتـي متعلمـة بمـا يكفـي لتكتبهـا هـي بنفسـها».

أبقت زيبا نظرهـا لأسـفل، لكنهـا شـعرت بعينـي القاضـي عليهـا. ركـزت علـى جانـب الأريكـة، ثبتـت عينيهـا علـى الزهـور الزرقـاء والرماديـة. كان القمـاش فاخـرًا ذات يـوم، يمكنهـا ملاحظـة هـذا. لكنـه بلـي تقريبًـا الآن، وبهتـت ألوانـه.

«لـم تكتـب شـهادتها بنفسـها إذن، فيـمَ يهـم هـذا؟ ربمـا أعجزتهـا *صدمـة الحـزن* عـن الإمسـاك بالقلـم»، خمـن وكيـل النيابـة وهـو يقـرب مـا بيـن ركبتيـه ويبعدهمـا مـرارا.

اسـتجوبتها الشـرطة مـدة سـاعة تلـك الليلـة الأولـى. ظـل ضابطـان يمطرانهـا بسـؤال تلـو الآخـر، هدداهـا بالضـرب أو بمـا هـو أسـوأ إن لـم تتعـاون.

أنتِ قتلتهِ. أخبرينا لماذا فحسب.

لن تفلتي بهذا، ستسهلين على نفسك الأمر إن قلت الحقيقة.

زوجك. إن أملك الوحيد في العفو أن تتعاوني.

رفضـت زيبـا الاعتـراف بشـيء. كانـت مرعوبـة مـن قـول أي شـيء وظلـت تـردد العبـارة نفسـها.

لم أقتله.

حيـن دفعـا بالورقـة أمامهـا وضغطـا بإبهامهـا الملطـخ بالحبـر الأزرق عليهـا، كانـت تبكـي وترتعـش. كانـت تتوقـع أنهمـا سـيأخذانها خلـف قسـم الشـرطة ويطلقـا عليهـا النـار.

«وثانيًا، لم تذكر لي شيئًا من المكتوب في ما يُسمى اعترافها. هذه ليست شهادة موثوقًا بها يا سيدي القاضي، و يجب ألا يؤخذ بها في القضية».

«إنه اعتراف موقَّع! لقد دوّنوا أقوالها بوضوح: أنّها قررت إمساك الفأس وضرب رأس زوجها بها لأنها أرادت قتله. وبصْمتِها أسفل الصفحة».

شعرت زيبا نحو يوسف بالأسف تقريبًا، لطريقة تحدث القاضي إليه. كاد يوسف يفقد أعصابه، يمكنها ملاحظة هذا من شكل فكه.

كان غريبًا كيف يمكنها ملاحظة شيءٍ رقيقٍ كهذا في رجل بالكاد تعرفه. لماذا لم تلحظ المزيد في زوجها؟ أكانت عمياء طوال الوقت؟ ما الذي فاتها رؤيته أيضًا؟

«وأنتِ يا خانوم، هل لديكِ أقوال أخرى للدفاع عن نفسك؟ قتل زوجك، هذه تهمة ثقيلة».

هزت رأسها، بدأ طنين في أذنيها، بدأت الغرفة تعتم. صارت هناك مجددًا، حبيسة تلك اللحظة. لا يمكنها الاقتراب من جسد زوجها رغم رغبتها الشديدة في أن تُغمِض له عينيه. كانتا لامعتين ومستعرتين حتى، وشفتاه مرمدتان. كان فمه مشدوهًا. حتى وهي تتراجع، كانت تفكر في أنه أمر فظيع أن يموت بهذه النظرة الحمقاء الغاضبة على وجهه. كان وسيمًا جدًّا ذات مرة.

كان وكيل النيابة يتحدَّث، لكنها لم تسمعه. حاولت أن تبعد نظرها عن الملف. الذي قد يُعدُّ حبل المشنقة.

فكرت في السلم، في الرواق. ليتها تصعد إلى سطح المبنى وتقفز من أعلى، ستنتهي بذلك هذه الأزمة الآن. هل سيدفنونها بجوار كمال؟ يُفترض الجمع بين المرء وزوجه في الآخرة، كما سمعت. لكن رحمة الله واسعة بالتأكيد، أليس كذلك؟

يريدني زوجي له إلى أبد الآبدين..

لكن أملي أن نفترق يوم الدين.

تاقت لتكون ذاك العصفور الوحيد الذي غنت عنه منذ أيام. تردد اللحن في ذهنها فهدأت وتذكرت أن تتنفس. أن تكون وحدك يعني أن تكون حرًا.

حاول كمال نطق اسمها، لكنه لم يستطع. لم يستطِع النطق باسمها لمرة أخيرة حتى. في هذا شيء ما حزين جدًا، فكرت.

رأت الظلام بوضوح شديد ذاك اليوم، هشًا وجافًا في سطوع الشمس. كان ينضح من مسامه، تجمعت آلاف السحب الضئيلة معًا في سحابة واحدة لفت أطرافه المختلجة، حين توقفت الرجفة، بدأت سحابة الظلام تتحرك، تمددت ومرت من بين رجليه، حول فخذه، ثم إلى صدره لتنتزع آخر أنفاسه من رئتيه. لفت وجهه. رأتها زيبا، واضحة ومحددة إلى حد أن كان باستطاعتها لمسها لو جرؤت على مد يدها. تهدَّل وجه كمال تحت ثقلها. خلال ثواني، كان الظلام قد انزلق في الأرض وذاب في التربة خلف البيت.

هل سيعود إليها؟ إلى أطفالها؟

كانت ريما تصرخ. لم تستطِع زيبا النهوض على قدميها. لم تستطِع مواجهة ابنتها بيديها ووجهها الملطخين بالدم. ومع أنه مات، لكنها تعرف أنه غير موثوق به، حتى وهو ميت. يجب

أن تراقبه، لتتأكد من أنه لن يرتعش ويعود إلى الحياة مجددًا. ستترك ريما تنتظر. كانت زيبا تقوم بالأفضل لها. يمكنها تخيلها، وحدها في المطبخ، تحبو بحثًا عن أمها.

ششش، همست زيبا من خلف البيت. *ابنتي الحلوة، لا تبكي يا قلبي لا تبكي. لقد حدث شيء فظيع لكننا ليس علينا البكاء بسببه.*

ظلت تراقب الظلام. تريد أن تتأكد من أنه لن يعود ليتسلل إلى بيتهم.

سمعت صوت بصير. كان يناديها. عاد أطفالها إلى البيت. سرعان ما سيجدها.

لله الأسماء الحسنى. هو *الرحمن، الرحيم، الحفيظ،* وهو كذلك *الحسيب، الغفور، المنتقم، وهو العليم الشهيد.*

عضت لسانها. عليها أن تختار اسمًا من هذه الأسماء لتدعو به. عليها أن تدعو لئلا تكون من المغضوب عليهم.

«خانوم؟ خانوم! هل تسمعينني؟»

تسارعت أنفاسها، واحتدمت. شعرت برجليها ثقيلتين كالرصاص، وبدا أن جدران الغرفة تميل إلى الداخل كأن أحدهم يدفع بها من الخارج. كيف يمكن هذا؟

ضاق صدرها، ينشب شيء ما بمخالبه فيه، يسحب الهواء. توترت عضلاتها كلها وهي تحاول كبحه، كتمه وقتًا أطول قليلًا فقط، لكنه يأبى.

«خانوم، هل سمعت ما قلته؟ ألديك أقوال...»

ارتفع رأسها. نظر إليها يوسف مشدوهًا فتذكرت نظرة كمال في لحظاته الأخيرة. وضع وكيل النيابة كوب شايه وراقبها وهو يضيق عينيه.

سرت رعشة من أطراف أصابعها إلى يديها. وحين وصلت إلى كتفيها، فقدت السيطرة على نفسها. فتحت فمها فانطلق عويل حاد، على نحو غير لائق بالمرة في مكتب القاضي.

الفصل 13

قيدوها بالقوة وأعادوها إلى زنزانتها في سجن النساء. دست نفيسة هاتفها المحمول تحت وسادتها حين سمعت الباب ينفتح، لا تريد أن يصادروه مجددًا. ذهلن جميعًا لرؤية الحارسات يجرجرن جسد زيبا الواهن ويضعنها في فراشها، تكورت على جانبها بوجهها نحو الجدار، أغمضت عينيها عن تحديقهن وسقطت في نوم عميق. نامت طوال الظهيرة، وطوال المساء، حتى الصباح التالي. لم تنهض لتناول الإفطار أو الغداء. جلست نفيسة ومزجان على طرف الفراش يتحدثان عنها بهمس. حام وجه لطيفة المستدير بالقرب من وجه زيبا، تدقق في النظر إليها بفضول صفيق.

«ماذا تفعلين؟ ابتعدي عن وجهها!»

«أريد أن أرى إن كانت تتنفس. ستنتشر رائحة الجثة هنا بسرعة شديدة»، همست لطيفة.

«إنها نائمة، أيتها البهيمة»، قالت نفيسة بحنق. «دعيها تنام كما تشاء. ليست مختلفة كثيرًا وهي مستيقظة. يظن القاضي أنها مجنونة قليلًا. هذا ما يقلنه الحارسات».

في المساء، وهن ينهين عشاءهن، فتحت زيبا عينيها. شعرت بتخشب في أطرافها وعنقها. جلست ببطء ورأسها يدور.

صاحت لطيفة مازحة: «عادت صاحبتنا من الموت، متأخرة قليلًا على العشاء لكنني لا أشتكي»، وتناولت ملعقة كبيرة أخرى من الأرز. «لقد عدت في الوقت المناسب لتسمعي الأخبار

الجيدة. لقد اجتازت عزيزتنا نفيسة الاختبار! تأكدت بكارتها!» قالت وألقت بذراعها السمينة حول كتفي نفيسة فيما يحمرّ وجه الفتاة المسكينة.

«لطيفة!» صاحت نفيسة محتجة وهي تدفع بذراع لطيفة عنها. «أنا لا أريد التحدث عن هذا».

هزت مزجان رأسها قائلة:

«يا لك من متنمرة يا لطيفة. دعي الفتاة وشأنها. يكفيها ما مرت به، لقد فتحت رجليها لذاك الطبيب الأحمق».

ابتسمت لطيفة ولم تقل شيئًا.

«أنا سعيدة من أجلك نفيسة» قالت زيبا بصوت كئيب.

«نعم»، قالت مزجان بود. «أثبتِّ شرفك. لديك أمل الآن».

«وخانوم زيبا، سيعجبك هذا. لقد ألفت مقطعًا لها!»

لن تنالي البراءة

لو لم تصوني البكارة

شعرت زيبا بشفتيها تبتسمان. ظلت مقاطعها الشعرية عادتها وحدها، مهربها الخاص. دهشت لاستمتاعها بوجود آخرين يشاركونها إياها.

«حسنًا، لا تبالغي في الارتياح»، حذرت لطيفة. «من يدري، قد يكون الطبيب قد فض بكارتك وهو بالداخل هناك».

دمعت عينا نفيسة. ستظل دائمًا الفتاة التي سُجنت بتهمة الزنا، بصرف النظر عن شهادة الطبيب النهائية في ملف قضيتها. هل سيرغب الأرمل في الزواج بها بعد أن سلط الطبيب ضوء كشافه على المكان الذي يجب أن يراه رجل واحد فقط؟ ألقت بنفسها

على فراشها ودفنت وجهها في البطانية. سمعن بكاءها، وسرى الحزن بينهن.

عاد يوسف في اليوم التالي.

النساء وجنونهن، تمتمت إحدى الحارسات وهي تدخله. حين نظر يوسف إليها بتعبير جاد واضح، أمسكت القلم وعدَّلت حزام سترتها الزيتونية.

عرف الجميع بشأن نوبات جنون زيبا. ظلت في حالة هستيرية قرابة نصف ساعة، تحفر بأصابعها في فروة رأسها وتمزق ثوبها.

هب يوسف واقفًا حين فعلت ذلك. كان حرجه سيزداد لولا أن رأى القاضي ووكيل النيابة مذهولين بالقدر نفسه من انفجار موكلته.

لاحظت زيبا تغيرًا فيه. صوته حذر. ينتقي كلماته بحرص.

«ماذا تخفين عني؟»

لمستْ جبينها بيدها وأغمضت عينيها. ستحكي قصتها كلها بعلو حسها ليسمعها الجميع لو كانت ترى أي فائدة لهذا.

«خانوم، مع احترامي، عليكِ إخباري بما حدث ذاك اليوم. أخبريني أي نوع من الرجال كان زوجك. هل كان يضربك؟ هل حاول قتلك؟ هل ضرب الأطفال؟ هل كان مدمنًا؟»

يبدو متفائلًا جدًا، فكَّرت.

«لا تنظري إليَّ كأني طفل. لا تقولي لي إنني أجنبي. لقد وُلدت في هذا البلد أيضًا. جئت من الأرض نفسها، الشعب نفسه. أعرف كيف تسير الأمور. أعرف أن مجيء *أي شخص* لقول أي شيء دفاعًا عنك سيُعد معجزة. تحدثي معي ليمكنني

الدفاع عنكِ، أو أخبرني بأنه لا أمل في الدفاع عنكِ لأوضح هذا لأخيكِ وأترك الأمر».

قال وحبس أنفاسه. كلما قضى معها وقتًا زاد عجبه من سلوكها، وزادت قناعته بأنها تستحق الدفاع عنها. وهذا، أكثر من أي شيء آخر، ما جعلها تنظر إليه كأنه طفل وأجنبي.

«أخي؟» قالت بشرود.

«نعم، أخوكِ، رفيع. لقد أخبرني أنكِ مظلومة. وكما أرى، يصعب إثبات ما قاله. لقد سمعت وصف المشهد، وأنتِ لا تقدمين أي تفسير آخر للعثور عليك بجوار جثة زوجك. ربما لا يريد رفيع حدوث أي شيء لأخته الصغيرة، لكن يبدو أنه سيخيب أمله بشدة قريبًا *جدًا*».

أخوها رفيع أكبر منها بخمس سنوات. حين تركهما أبوهما، صار الأب لأخته الصغرى. غدت أمهما تعتمد عليه في كل شيء من أول إطعامهم وحتى تمثيلهم في الجنازات. وافق رفيع على خطة جده صفوت الله لتزويج زيبا لكمال. لم يرَ سببًا حقيقيًا للاعتراض.

«هل كانت أمي هناك أيضًا؟»

«من؟»

«أمي، هل جاءت مع رفيع؟»

«لا، لماذا؟»

لم تجبه. أغمضت عينيها وتخيلت وجه أمها الناعم، عينيها الخضراوين الذهبيتين على نحو لا يُصدق، وارتفاع زاويتي فمها على نحو غير ملحوظ حين تتحدث. شعرت فجأة بحنين شديد

للوجـود بجوارهـا، السـقوط عنـد قدميهـا ودفـن وجههـا فـي يـدي أمهـا.

«مـن جـاء؟» سـألت زيبـا. «قلـت إن شـخصًا مـا مـن قريتـي جـاء. مـن كان؟»

«لا أعـرف. لـم يذكـر القاضـي لـي أسـماء. لـم يذكـر إن كان مـن أقاربـك أم لا أيضًـا. قـد يكـون جـارًا، صديقًـا، قريبًـا. ربمـا لديـك فكـرة عمّـن يكـون».

ليس لديها فكرة.

«كل مـا أخبرنـي بـه القاضـي أن ذاك الشـخص قـال إنـك بريئـة. إن زوجـك لاقـى عاقبتـه السـيئة وأن أطفالـك فـي حاجـة إليكِ».

جفلت زيبا لذكر أطفالها.

«هل سمعت أي شيء عن أطفالـي؟»

رفع كتفيه وهز رأسه. على الأقل تتحدث.

«ليـس كثيـرًا للأسـف. أعـرف أنهـم عنـد أقـارب. ليتنـي كنـت أعـرف المزيـد».

أخـت كمـال. كانـت عائلتـه تخطـط لقتلهـا بـلا شـك وسـيؤلبون أطفالهـا عليهـا. لا يسـمح السـجن بدخـول أطفـال يزيـد عمرهـم علـى سـبع سـنوات. مـع ذلـك، سـتطالب عائلـة كمـال بحضانـة الأطفـال، ولـن تسـتطيع الاعتـراض، حتـى مـع كونهـا أمهـم.

«أريد أن أراهم».

«لا أعرف إن كان هذا ممكنًا، لا أعرف كيف أصل إليهم».

كانـت تعـرف أن طلبهـا مسـتحيل. تـزداد يقينًـا كل يـوم أن لا أمـل لهـا فـي البـراءة. مـن الأفضـل أن تستسـلم وتتقبـل أي عقوبـة

سيقررها القاضي. دون أطفالها، ليس لديها شيء. حتى وإن أطلقوا سراحها، ستقتلها عائلة زوجها بلا شك.

«لماذا أنتَ هنا؟ أتظن حقًّا بوجود أمل للدفاع عني؟» كانت هادئة على نحو غريب وهي توجه له السؤال.

«أنا هنا لأن الإجابة عن هذا السؤال هي نعم. بأمانة شديدة، كل شيء ضدنا، لكنني ما زلت أرى أن الفرصة موجودة إن تحدثت معي فقط عن يوم وفاة زوجك».

حدقت في الطاولة؛ تهز رأسها.

يوم وفاة زوجك.

لاحظتْ، وكان يأمل أن تفعل، عدم افتراضه أنها من قتلته.

«أنت تأتي إلى هنا بحقيبتك وأوراقك... استماراتك المملوءة. لديك دفتر ملاحظات يبدو أنك لا تستطيع العيش من دونه، ونظارة تبدو من بلد آخر. ربما تكون قد رأيت أشياء وأنت طفل، أشياء تجعلك تعتقد أن كل *هذا* قد يحقق شيئًا ما. أن ثمة شيئًا ما آخر أكبر من القاضي، وأكبر من القانون، وأكبر من الناس حولنا. لكن لا يوجد شيء آخر. لا شيء في حقيبتك يمكنه تغيير ما حدث. لقد رأى أهل القرية زوجي بفأس في رأسه. رأوا دمه على يدي، يا سيدي».

حدق فيها. فردتْ كتفيها. كانت تجلس منتصبة الظهر على حافة كرسيها، ذقنها يرتعش رغم ثبات صوتها.

شعر بإطار نظارته المصنوع من التيتانيوم، ومن إحدى الماركات الشهيرة، يقرص أنفه. منع نفسه من خلع النظارة وحك أنفه. لم يعن بدفتر ملاحظاته أيضًا. ليس عليه الآن سوى الاستماع.

«فقدتُ أبنائي يوم أخذوني، يوم... إنهم مع أهلهم الآن. سيطعمونهم ويكسونهم ويخبرونهم عن جريمة أمهم. هل سأمزقهم بادعاءاتي؟ إن الأعين الفضولية عليهم الآن. صاروا أيتامًا.. هل أؤلبهم على الوحيدين الذين سيعتنون بهم الآن؟ هل أجعل أطفالي عرضة للخطر فقط لأنني أشتاق إليهم بشدة. الشيء الوحيد الذي يمكنني فعله لهم الآن أن أتركهم. إن ابني قوي وحكيم. سيوفقه الله».

ألقت بظهرها على مسند الكرسي، مُنهكة. قضت ساعات الليل تفكر في الموقف وتقلبه، تدقق فيه من جميع الزوايا، جميع النهايات الممكنة لمأساة زيبا وكمال وأطفالهما. دعت الله، ليس في السجود أو برفع راحتيها، كعادتها، بل بسكون يائس.

اللهم يا رحيم، إن مصيرهم بيدك أنت. ومصيري أيضًا. اللهم ربنا بيدك كل شيء، أليس هذا صحيحًا؟ بيدك كل شيء؟ يا عليم بذات الصدور.

هزت رأسها. يا لها من غبية؟ ألم تتعلم شيئًا من حياتها حين كانت ابنة جلناز؟ وحفيدة المرشد المبجل؟

راقب يوسف وجهها. قرأ أفكارها، رآها لأول مرة بعيدا عن كونها موكلة أو متهمة. كان قد تعب من استسلامها و ضج من خنوعها، كأنها رضت بقضاء بقية حياتها في هذا السجن أو حتى إعدامها لجرم في الغالب ارتكبته. لكنه رأى الآن أنها تقاوم، وربما أكثر من أي موكل آخر رآه. رأى اللهب في عينيها. ففهم على الفور.

«أنت لن تساعديني في الدفاع عنكِ».

أومأت بثبات وحزم.

إن كان سيدافع عنها فعليه القيام بهذا وحده تمامًا.

«أنا لم أطلب مجيئك، يمكنك إخبار رفيع أنني لم أتعاون. يمكنه توفير نقوده».

تذكر يوسف محادثته الأخيرة مع رفيع. لم يكن لديه ما يكفي من مال ويعرف أن قضية أخته خطِرة. طمأنه يوسف. ستتولى منظمة الدعم القانوني قضيتها. ما زال يوجد أمل.

مال إلى الأمام.

«لماذا إذن لا تسهلين الأمر؟ لماذا لا تعلني أنك مذنبة؟ زيارة واحدة فقط إلى مكتب القاضي وستوفرين علينا جميعًا متاعب كثيرة».

لم تحمل نبرته عداءً أو تعاليًا، كذلك لم يبدُ عليه الاستعداد للانصراف. كان فضوليًا.

نظرت إليه في عينيه. كان يواجهها بالسؤال الذي سألته لنفسها آلاف المرات. لماذا لا تأخذ الخطوة الأخيرة وتعترف بالجريمة قبل أن يدينها بها القاضي؟ لماذا تطيل هذا البؤس؟

«حسنًا؟»

ظلت تنظر إليه، عيناه المشرقتان وشعره الكث. رأت احترامه لها. جدية لم ترها في أحد من قبل ولم تفهمها. هذا ما يبدو أجنبيًا بشدة بشأنه، إلى جانب إطار نظارته الرفيع.

لا يمكنها إجابة سؤاله. أكان هذا لأن الاعتراف ليس صوابًا؟ أم لأنها لا تريد أن يسمع أطفالها اعترافها؟ هل تأمل في سريرتها أن يجد يوسف طريقة لمساعدتها؟ تلك أسئلة كثيرة جدًا. أشاحت ببصرها بعيدًا.

«لم تستسلمي تمامًا بعد»، قال وهو يومئ برأسه. كان يحفر في الصخر بعمله على هذه القضية التي نصحه المحامون -زملاؤه في المكتب- ألا يضيع وقته فيها. «لا أعرف السبب. ربما كان بسيطًا أو معقدًا. لكنك لا تريدين الاعتراف بالجريمة. وهذا كل ما أريده الآن. يمكنني العمل على هذا».

تسارع ذهنه. سيكون عليه أن يُبدع. ضغط بقدميه على الأرض كأن ليزيد السرعة.

أغمضت زيبا عينيها. ماذا تفعل مع هذا الشاب؟ أمن الخطأ أن تجذبه إلى هذه الفوضى؟ إنه صغير جدًّا، صغير جدًّا على المشاركة في تلك الفوضى الدموية. سيدمره الأمر بالطبع، وستكون هي الملومة.

الفصل 14

عرفتْ جلناز أنه رآها تصعد التل. وضع كرسيه في ظل شجرة الدلب، في طريق زوار المقام. يبدو صندوق النذور طويلًا وسحريًا على مكتبه المتواضع المكون من لوح خشبي على قفص. حين اقتربتْ بما يكفي ليتأكد من أن عيناه لا تخدعانه، وضع كوب شايه على المكتب، باهتمام. توقع أن تمر بمقره في الهواء الطلق دون أن تتوقف لحظة.

راقب جَوادُ خطواتها الحذرة. تغطي طرحتها الفضفاضة شعرها وكتفيها الرقيقتين. قد يتقدم السن بسائر الخلق وتتدهور صحتهم، وقد حدث ذلك بالفعل، دون أن يجرؤ على المساس بها هي.

ما زالت جميلة. حتى في عقدها الخامس. خفق قلبه للتفكير في بشرتها البيضاء الحليبية وعينيها الخضراوين الساحرتين. هز رأسه، وللمرة الألف في حياته، ندِم لعجزه عن تحقيق أمنيته.

أخرج ثلاث ورقات مربعة صغيرة من محفظته الجلدية. مثلها مثل الآخرين، جاءت لطلب شيء.

«السلام عليكم»، قالت تحاول ألا تبدو لاهثة كما كانت بالفعل. ظهرها مستقيم وواثق، لكنّ عينيها المكحلتين تلتفتان خلفها من حين إلى آخر. بالتأكيد لا يعرف ابنها أين هي.

«وعليكم السلام»، أجابها. لم تطلب منه خدمات منذ سنوات. كان يتلهف لمعرفة المعضلة التي أتت بأشهر أرملة ساحرة في القرية. طيّر النسيم بعض خصلات شعرها الأسود الفاحم من تحت طرحتها.

الوقت منتصف النهار، فترة ما بين فرضي صلاة. يتمشى قليلون بين الأروقة المقوسة والأعمدة المزخرفة. لم يلحظها أحد، ابنة مرشدهم الروحي المحبوب. يعرف جواد المرشد جيدًا وكان من القليلين في البلدة الذين لا يوالونه تمامًا. ابتسم لتفكيره في ما سيقوله حضرة صفوت الله وهو يرى ابنته تزوره.

«كيف يمكنني مساعدتك خانوم؟»

لمع القيشاني الفيروزي للمسجد تحت ضوء الشمس. غطت عينيها بيدها. تجاهلت نظرة جواد لها.

«جئت لأطلب شيئًا ما».

«بالطبع. كيف يمكنني مساعدتك».

حاولت أن تبدو رسمية، كأنها أول محادثة بينهما.

«أريد حجابًا»، قالت بحرص. لم ترغب في الخروج عن النص الذي تمرنت عليه وهي تصعد التل.

«وأي حجاب تحديدًا تريدين؟» جواد أشهر صانع أحجبة في البلدة. كان قد صنع حجابًا في ظرف ما أو آخر لكل واحد من أهل البلدة تقريبًا، بالإضافة إلى الوافدين من خارجها للزيارة. الأمل الذي يوفره الحجاب لا يُقاوم، كانت أحجبته تشتهر بقوتها حتى خارج حدود البلدة. لذلك وقفت جلناز أمامه مرة أخرى بعد سنوات كثيرة، في مكان مقدس يقول الناس إن كل سبع حمامات فيه تحمل روحًا وأن الحمائم الرمادية تتحول إلى بيضاء بعد أن تقضي فيه أربعين يومًا.

«للحماية».

صمت قليلًا.

«الحماية»، كرر وقد تملكه الفضول. حدق فيها، وجهه المغضن لوّحته الشمس لجلوسه على قمة التل طوال سنوات. عمره ما بين الستين والخامسة والستين ولا شعرة رمادية واحدة في رأسه. ظلّ يكتب أحجبة طوال حياته، ما كان سبب الخلاف بينه وبين صفوت الله من حين إلى آخر.

صفوت الله الكاظمي أشهر مرشد في إقليمهم. عُرِف منذ صغره بحبه الصوفي للّه، وقدرته على الدعوة لمن حوله حتى يستجيب اللّه. شاب شعره كله تقريبًا وهو في الخامسة والعشرين من عمره، ما عدَّه الجميع دليل ورعه وحكمته.

عاشت عائلة صفوت الله على مبعدة كيلومتر واحد من المقام، قبر أحد الصوفية المحبوبين. ربما كانت الأرض المقدسة، أو وفود المريدين. لكن شيئًا ما جعل صفوت الله قامة أكبر من الحياة. نمت شهرته بإنقاذ الأطفال من أمراض مميتة، وردّ بصر المكفوفين، ومنح نساء عاقرات أطفالًا أعزاء. لم يأخذ مقابلًا من أحد لكنهم كانوا يقدمون له ما يسعهم من هدايا. حتى من لم ينالوا مرادهم، كانوا يغادرون بشعور من العزاء والتفهم. كان يشد أزرهم ويثبت إيمانهم.

عمل جواد مشابه. يتيح للناس، حين لا تكفي الدعوات، ملاذًا أخيرًا بمقابل مادي. لم تُذكر مهاراته في القرآن، ومع أن الجميع تقريبًا لجؤوا إلى خدماته، لم يكن أحد ليتحدث عن أحجبته. كان شيئًا ما خاصًا، بين الطالب وجواد، الذي يبدأ خط الحروف والأرقام بحرص على ورقات مربعة صغيرة.

في أكثر من مناسبة، نصح صفوت الله مريديه بعدم اللجوء إلى خدمات جواد. لا شيء قد يفعله حجاب أفضل من دعوة قلب صادق. لم يعجبه أن يتلقى جواد مقابلًا لخدماته، وشعر بأنه ليس تقيًا بما يكفي ليكتب أحجبة. كان جواد قد أعلن بصوت عالٍ بما يكفي ليسمعه صفوت الله، أن فرض مقابل زهيد أكثر نزاهة من قبول حَمَل من أسرة فقيرة.

كذلك اتهم جوادُ صفوت الله بالسير على نهج أبيه في العمل جاسوسًا للبريطانيين. تقول الشائعات إن المرشد الراحل، والد صفوت الله، ساهم في خلع الملك أمان الله الذي أراد تحرير أفغانستان من الحكم البريطاني. كان صفوت الله ما زال رضيعًا حين تنازل أمان الله عن العرش، لكن الشبهة التصقت به كرائحة الثوم بالأصابع.

مع ذلك، صار صفوت الله، ابن المرشد الأكبر، أحد الصالحين، وصار جواد هو الخارج عن الإسلام، دجال يتلاعب بأسرار وحيل يلجأ إليها ضعيفو الإيمان واليائسون.

«حماية، جواد جان. لا يخلو بيتا من المصائب. كما تعرف، إن عائلتنا لها مكانتها. الأعين علينا من كل نوع، وأنا عليَّ العناية بمن أحبهم. عليّ حمايتهم».

«أفهم قصدك. وما رأى صفوت الله صاحب عن هذا؟»

قال وهو يمسك ثلاثة أقلام، أخضر وأسود وأحمر. رفعها وفحص سنونها، ثم عاد يركز نظره على وجه جلناز الجامد. لم تكن لتزكي النار بين الرجلين.

«جئت أطلب حجابًا، جواد جان، لا شيء آخر».

قهقه. تدعوه جواد جان. أيُعد هذا احترامًا أم حبًا؟

«جيد»، قال وهو يفرد أول ورقة مربعة بطرف أصبعه. «مَن المهدد بالخطر تحديدًا؟»

«اصنع لي حجابًا جيدًا بحيث لا يمكنك أنت ولا أي أحد في البلدة معرفة ذلك أبدًا».

توقف لوهلة، أغمض عينيه وأطرق رأسه. كانت فاتنة، قليلون من يمكنهم مواجهة امرأة مثلها. جريئة قليلًا وذكية كثيرًا بالنسبة إلى أغلبهم. ربما لهذا اختفى زوجها. اختلقت القرية مئة قصة لتفسير اختفائه. تصله، وهو في مقره خارج المسجد، صلوات القرية المتناغمة، وكذلك شائعاتها المتناقضة. لم يعرف أحد إن كان زوجها حيًا أم ميتًا. شعر جواد بارتياح حين سمع أول شخص يدعوها بالأرملة. يسهل على روحه اشتهاء زوجة رجل ميت.

يثيره ذكاؤها. إن صميم عمله -رغم كل شيء- هو تجاوُز العقبات. حرك الورقة المربعة بطرف إصبعه إلى منتصف الطاولة. «يجب أن أركز».

راقبته جلناز يختار القلم الأخضر. لون الحبر مهم جدًا مثله مثل تفاصيل أخرى كثيرة لا يعرفها سوى جواد. كان ذلك جزءًا مما يأتي إليه الناس... التركيز، الحروف المكتوبة بدقة، الطلاسم التي يملئ بها المربع الصغير بأشعار أو رموز أو أرقام. لكل شيخ طريقته.

بعد ذلك بخمسين دقيقة، ناولت جلناز -ابنة الشيخ المعارض للأحجبة- جواد لفة نقود، وأخذت منه الحجاب الذي كتبه لابنتها. دسته في جيب ثوبها وأومأت شاكرة. شعرت بعيني

جواد تركزان عليها وهي تهبط التل وابتسمت لتفكيرها في أنها حتى في هذه السن ما زال بإمكانها جعل رجل ينظر إليها بهذه الطريقة. اقترب موعد الصلاة. أسرعت خطوها. تمنت ألا يسمع صفوت الله بالأمر، مع علمها بأن احتمال هذا كبير.

للأم أن تحاول بشتى السبل، قالت لنفسها.

الفصل 15

تجول بصير بجوار المجرى، مصرف لنفايات البلدة بسطح من الفقاعات. رأى الأسماك الصغيرة تتحرك في المياه وتساءل كيف يمكنها العيش في مثل تلك القذارة. الماء هنا أسوأ بكثير من الجداول الصغيرة بجوار بيت أسرته. تخيل الأسماك الصغيرة تختنق لتناولها النفايات، حبيسة الزجاجات البلاستيكية، تتشبع بالعفن في الوحل. يمكنه من موقعه على صخرة، تمييز أشكالها المبهمة، أسفل سطح الماء ببوصات قليلة. بقدر أكثر مما يتوقع.

التقط حصاة وقذف بها السمك.

في الأسابيع الماضية، منذ إحضارهم هو وأخواته إلى بيت العمة تامينا، لم تقل أخت أبيه الكثير عن القتل أو القبض. كانت حزينة جدًّا لتقول الكثير عن أي شيء. بدا زوجها -كاكه متين- أكثر غضبًا منها بشأن جريمة القتل.

كانت تمسح عينيها الدامعتين وزوجها يتحدث بغضب عن أخيها. يستمع بصير برأس مطرق. تدهشه حمية زوج عمته، إذ يتذكر مشاحنات أكثر غضبًا بينه وبين أبيه. كانا قد تشاجرا على النقود، وفي السياسة، وفي لعب الورق حتى.

شعر بصير بالذنب قليلًا لأنه ليس غاضبًا مثل كاكه متين، الذي لا يمت بصلة قربى لوالده. كان بصير من رأى المشهد البشع أولًا. كان بيته هو وأسرته ما انهارا حطامًا. لم يتحدث مع والدته منذ قادوها إلى السجن. كانت تنظر إليه، تتوسل إليه أن يفهم لكنها لا تجرؤ على قول شيء. لو لم يكن جيرانهم هناك، لكان كاكه فريد قد قتلها. لا يعرف هل كان سيستطيع إيقافه أم لا.

أخواتـه حزينـات. تبقـى شـابنام وكريمـة معًـا طـوال الوقـت ولا تقـولا شـيئًا حيـن يسـب أقاربهمـا أمهمـا. ريمـا، الرضيعـة، تبكـي لاشـتياقها إلـى ثـدي أمها فـي الليـل. تنـام إلـى جانـب عمتهـم، لذلـك لا تنـال سـوى تربيتـة علـى الظهـر حتـى تعـود إلـى النـوم. لـدى عمتهـم أربعـة أطفـال، ليـس مـن بينهـم رضيـع.

الأمر كله بيد الله، قالت لبصير حين كان لا أحد يسمعها غيره.

كانـت صبـورة معهـم ولـم يبـدُ أنهـا تكرههـم. مـا أدهـش بصيـر. يعـرف أن أمـه ظنـت دائمًـا أن عمتهـم لا تحبهـم. كانـت زيارتهـم إلـى بيتهـا قصيـرة وعلـى فتـرات متباعـدة، كذلـك كانـت زياراتهـا إلـى بيتهـم أقصـر حتـى، مجـرد رسـميات، لئـلا يقـول النـاس إن الأسـرتين متخاصمتـان.

العمـة الكبـرى، مريـم، تزورهـم مـن حيـن إلـى آخـر. كانـت هـي مـن تتحـدث أكثـر عـن مقتـل أخيهـا وتنـدب موتـه عوضًـا عـن تماسـك عمـة تامينـا.

«هـل نسـت مـا فعلتـه لهـا حيـن ولدتـك؟ ظللـت أعـد لهـا الطعـام طـوال أربعيـن يومًـا. كنـت أعتنـي بهـا وببيتهـا. علمتهـا كيـف تحملـك. صنعـت لـك قفـازات صغيـرة لئـلا تخـدش وجهـك بأظافـرك. لـم تعـرف كيـف تفعـل كل هـذا! وهكـذا تعبـر عـن شـكرها بعـد كل مـا فعلتـه عائلتنـا لهـا؟»

لـم يجـد بصيـر كلمـات ليدافـع بهـا عـن أمـه، ولـم يكـن متأكـدًا مـن أنـه يريـد هـذا.

«دعـي الأطفـال خـارج الأمـر يـا مريـم»، توسـلت إليهـا تامينـا. «يكفيهـم مـا هـم فيـه».

«يجب أن يعرفوا ما فعلته!» تقول مريم والكلمات تنطلق من فمها كقذائف مدفعية. «لقد دمرت حياتهم! سيكون عليهم العيش بهذا. ليتهم يعدمونها!»

شعر بصير بالامتنان لقرار أبيه الانتقال بأسرته إلى مكان آخر في البلدة بعد مشاجراته مع أقارب قليلين، من بينهم كاكه متين.

البلدة واسعة بما يكفي لتتفرق فيها الأُسر لكنها كذلك صغيرة بما يسمح للجميع بالتحدث عن هذا حين يحدث. يعرف الجميع كمال بوصفه الأخ المشاغب، الذي يمكن مشاهدته سكرانًا من حين إلى آخر. وصمة العار في جبين العائلة، مع ذلك كانت عمة مريم تدافع عنه ضد كل من يتحدث عنه بسوء.

لكنها مع ذلك، كانت هي نفسها، تبقى على مسافة منه.

سمع بصير أمه تتمتم عن شيء تدعوه «الظلام»، لكنه لا يؤمن به. ما يعرفه أن أسرته مختلفة فحسب. كان يسمع همس الحمقى عن أبيه ويتساءل إن كانت قذاراته ستظل عالقة بجلده هو. كان يراقب والدته من زاوية عينه، رأى كيف تتفحص الخضراوات بيأس. يعرف أنها تتفقده ليلًا، تمسح بيدها صدره وتتظاهر بتسوية غطائه حين يتقلب. رأى كيف تزعج أخواته، وهي تدعك جلودهن حتى تحمر وتلتهب، ثم تدهنها لهن بالزيوت المرطبة وهي تعتذر. رأى كيف تراقب والده، عيناها تحومان حول ملابسه، تبحث عن شيء ما لم تتحدث عنه قط. كان يحبها بشدة رغم غرابة سلوكها. كانت في نوبات غضب أبيه تنبسط أمامه كسجادة لئلا يضرب أحدًا غيرها.

حين كان في الحادية عشرة من عمره، ذهب مع أبيه إلى مزرعة قريبة لشراء خروف العيد. كان عيد الأضحى، يوم أن هم إبراهيم بذبح ابنه قبل أن يفديه الله بكبش. راقب بصير المزارع يسحب خروفًا من قدميه الخلفيتين نحو المذبح، سقيفة بها مشاجب معدنية معلقة في عارضة أفقية، سكاكين بطبقات من الدم الجاف، وأرض ترابية ظلت حقلًا لدماء الذبح. جحظت عينا الكبش في وجهه المؤطر بالصوف كفقاعتي صابون، كأنه يعرف ما هو مقبل عليه. ثغا بصوت عالٍ، واحتكت قدماه الأماميتان بالأرض باعتراض واهن.

كانت التضحية في بيتهم تحدث كل يوم تقريبًا.

جف حلقه وتعرقت يداه. ركض إلى جدار خارجي وأفرغ معدته خلفه. لم يلحظ أبوه شيئًا.

يعرف ما فعلته أمه لهم. كانت السبب في قدرته على الضحك والأكل والعناية بأخواته. كانت تخفي عنهم كدماتها وندوبها.

في الأيام التي يفيض بها الكيل، كانت تجفل بسهولة. تسهم ببصرها في نار موقدهم الطيني على نحو يجعله يخشى تركها وحدها. حين يغادر أبوهم البيت يشعرون جميعًا بارتياح. حين يطول غيابه قليلًا يسود البيت توتر وتحفز عصبي.

كانت أزمة بصير في كونه يحتقر أبيه بقدر ما ينجذب إليه. كان يراه قويًا وقادرًا. يستمع إلى حكاياته عن شقاوته في عهد الصبا، وهو يتمنى أن يلوي ذراع الزمن ليصير أبوه صديق طفولته. كان يقارن نفسه به، يتساءل متى ستصبح قدماه كبيرتين وقويتين كقدميه، ومتى ستصبح لحيته كثة كلحيته، ومتى سيصبح حرًا مثله في الدخول والخروج.

لمَ كان أبوه سيكف عن ضرب أمه إن كانت تتسامح مع نوبات غضبه؟ إن كان يضايقها بشدة فلماذا لم تقل شيئًا؟ لماذا لم تنفجر في وجهه أو تواجهه ولو لمرة واحدة. لم تفعل شيئًا لتعبر عن اعتراضها. واصلت حياتها كأنها راضية عنه تمامًا.

قذف بحجر آخر في المجرى. اندفع السمك في اتجاهات عشوائية، فأغضبه على نحو مبهم.

يكره المكوث مع عمته تامينا وزوجها، يكره سماع ما يقوله الناس عن أمه. كلما ردد أحد أنها ملعونة أو يجب إعدامها، يجز على أسنانه ويكتم صرخة.

ذات صباح، بعد أن غادر كاكه متين البيت، تنحى بصير بأخواته جانبًا.

«لا تصدقا أي شيء يقولونه عن أمنا، حسنًا؟» همس قائلًا لشابنام وكريمة. «إنهم لا يعرفون شيئًا. ستكون مادر جان بخير، وحتى تعود، أنا المسؤول عنكن. لا شيء لتقلقا بشأنه».

قال ذلك ليس لأنه يصدقه، بل لأنه يعرف أنهما في حاجة إلى سماعه.

كانت أختاه صغيرتين وخائفتين لكنهما ظلتا مهذبتين. بذلت شابنام قصارى جهدها في العناية بريما. اعتادت مساعدة مادر جان في البيت والدندنة بألحان هادئة حنون وهي تراقب جفني ريما يثقلان. أبقت كريمة ملابسهم القليلة التي أحضروها معهم مطوية بنظام في ركن من الغرفة التي يتشاركونها مع أطفال عمتهم الخمسة. ظلتا قريبتين من عمتهما لمساعدتها في أي شيء تفعله.

جلس بصير على صخرة مستوية وجذب ركبتيه إلى صدره. كانت الشمس تغرق في سماء بخيوط أرجوانية وبرتقالية. عليه العودة قبل العشاء وإلا سيغضب كاكه متين. كره وجوده تحت حكمه. كره منعه من زيارة أمه. سمع أن لديها محاميًا الآن. حين سأل إن كانت قد مثلت أمام القاضي أم لا، توقفت عمته وزوجها عن التحدث عن القضية تمامًا. لا جدوى من أي سؤال آخر. لن يخبراه إلا بما يشاءان في جميع الأحوال.

نظر إلى الأرض أسفله ودس أصابعه فيها، شعر بالتراب يستقر أسفل أظافره واستمتع بالألم. قبض حفنة تراب، رفعها وتركها تتسلل من بين أصابعه. كم حفنة تراب غطت أباه؟

حاول أن يتخيله، جثمانه ملفوف بشاش أبيض. أصر أعمامه على أن يساعد في الغسل والدفن.

لم يفوت كاكه فريد فرصة.

«انظر! انظر ماذا فعلت أمك! كان يجب أن يكون حيًّا. كان يجب أن يكون بجانبي. لكن ها أنا ذا أغسل جثمانه لأن أمك اللعينة شقت رأسه بفأس».

عينا كمال مغمضتان وفكه مغلق بقماشة قطنية بيضاء ملفوفة حول وجهه، من أسفل ذقنه لأعلى رأسه. في انحناء شفتيه لأسفل تعبير عن الاحتقار. لم يستطِع بصير النظر إلى هذا التعبير، تساءل إن كان موجهًا إلى أمه أم إلى شخص آخر. أمسك بيد أبيه، شعر بأصابعه المتخشبة بين أصابعه، فتركها كأنها جمرة متقدة. تراجع خطوتين إلى الخلف، فنظر إليه أعمامه بمزيج من الإحباط والتفهم. لم يقولوا شيئًا حين جلس على الأرض ووضع رأسه بين يديه.

هل فعلت أمي هذا حقًا؟

لم يستطِع تخيلها. ولم يستطع إيجاد تفسيرٍ آخر أكثر معقولية للمشهد الذي رآه في البيت ذاك اليوم. الدم، تعبير وجه أبيه، ارتجاف أمه وهي تخبره أن يأخذ أخواته إلى الداخل.

حفر حفرة صغيرة، بحجم تفاحة. أحكم قبضته وضغط بمفاصل أصابعه على الأرض. حرك يده يمنة ويسرة لتخدش الأرض جلده. ما زال صدره مثقلًا بنفس آخر عميق.

ربما لم يكن يعرف أمه جيدًا كما كان يظن. ربما كان أبوه يغيب عن البيت لسبب ما.

آلمه رأسه لفكرة اضطراره إلى الاختيار بين أحد أبويه، خاصة وأن أحدهما ميت. لا يعرف من يلوم. كل ما يتمناه أن تظل أمه على قيد الحياة.

وجود أم أو أب -أخبرته أمه ذات مرة- أفضل من عدم وجود أحد بالمرة.

الفصل 16

جلست جلناز على وسادة على الأرض واستندت بظهرها إلى الجدار. ظلت طوال اليوم تتجنب الجميع. أرادت أن تتحدث مع رفيع، لكنه لم يعد إلى البيت بعد. راقبتها زوجته، شكرية، بقلق. تجهم وجه جلناز وأشاحت عنها عينيها الخضراوين. كانت شكرية قد أخبرت أختها أنّ عيني حماتها الزمرديتين تتصبّان عليها أحيانًا بقوة تجعل بطنها ينقبض.

تعرف جلناز ما يظنه الناس بها. دائمًا ما يعاملونها -بصفتها ابنة المرشد الكبير- باحترام مشوب بالحذر. وحين يلمحون عينيها الخضراوين، يترددون في أخذ نفسهم التالي، كأنها ستصب اللعنة على الهواء الذي سيتنفسونه. حتى وهي فتاة صغيرة، كانت عماتها وأبناؤهن يرمقونها بنظرات اتهامية كلما حدث شيء سيئ، كأنه خطؤها هي أن وضعوا ملحًا كثيرًا في الطعام أو تعثر أحدهم في حجر في الفناء. لا أحد آخر في العائلة له عينان خضراوان، ما زادهما غرابة فقط. حين أتمت عامين، كانت العائلة قد استقرت على أنها وُلدت بقوى مختلفة عن قوى المرشد، قوى ليست من النوع الذي يجذب الناس أملًا في البركة والخير، بل النوع الذي قد يجلب وجع الضرس أو يدمر حقلًا بمحصوله.

كانت طفلة وحيدة، غرابة أخرى ألصقوها بقواها المختلفة.

لا بد من أنها حسدت رحم أمها في الأشهر التسعة التي قضتها بداخله. فلم يأت طفل واحد بعدها! ليرحمنا الله!

وُلدت حين كانت أفغانستان تغازل الجنون. كان السوفيت قد ساهموا لتوهم في بناء مطار في كابول. صبُّوا المال صبًّا في البلد الصغير، أغدقوها بالهدايا وأثقلوا معصميها وأذنيها بالجواهر.

في الأوقات العصيبة، بدا أن المرشد قد فقد الاتصال بالسماء، بارت حقول البصل. ومرضت الماشية ونفقت. لم يُستجب للدعوات. انتشرت الشائعات بأن المرشد يعمل جاسوسًا للبلدان الأجنبية. قالوا إنه يبيع ناسه الأفغان. عمل مخبرًا للروس أو الأمريكان أو البريطانيين، حسب الطلب، يمدهم بمعلومات عن المسؤولين المحليين وتحركات المجاهدين. كانت أي زجاجة عطر، أي قلم حبر، أي غلاية شاي مطلية بالنيكل في بيته، دليلًا على عمالته.

لكنهم كانوا، حين يطبق اليأس على أنفاسهم، يلجؤون إلى الجاسوس سيئ السمعة، لأن ذلك يعني إعادة الطعام إلى مائدتهم أو إنقاذ حياة أطفالهم.

شاهدت جلناز أباها وهو ينتفخ فخرًا باهتمام أهل القرية به. كان الزائرون يأتون إلى بيتهم محملون بالهدايا، ليبوحوا بأحزانهم للمرشد. كان يستمع إليهم، يكور يديه بخشوع معهم. ثم، ومثل ماسورة معطلة أُصلحت تمامًا، تعيد إليهم دعوات المرشد الحياة والأمل.

لم يكن من عجب أن شابَ شعره كله تمامًا بعد أشهر عدة من حمله أعباء مجتمعه برمته. كان ما زال شابًا، مع أن أحدًا لم يكن واثقًا.

لـم يصـدق أبوهـا أن أحـدًا يهتـم بالخرافـات عـن العينيـن الخضراويـن. كان يبتسـم بهـدوء ويـزيـح شـعر ابنتـه عـن عينيهـا قائـلًا:

«هاتـان العينـان؟ كيـف لأحـد أن يتوقـع منهمـا أي شـيء سـوى البهجـة؟ الحسـد نقـص فـي الإيمـان. يوجـد فقـط حيـن لا يُذكـر الله. عينـاك ليسـتا مصـدر حسـد يـا جلنـاز. أهـل قريتنـا أذكـى مـن أن يظنـوا هـذا».

لكنهـم لـم يكونـوا كذلـك. كانـت جلنـاز وأمهـا تتواريـان عـن الأنظـار حيـن يأتـي زوار المرشـد، مـا كان يحـدث يوميًـا تقريبًـا. تختبـئ جلنـاز حينهـا فـي الفنـاء لتراقبـه وهـو يكشـف عـن سـحره. حيـن كانـت فـي التاسـعة أو العاشـرة مـن عمرهـا، ازداد فضولهـا عمَّـا يفعلـه أبوهـا ليبـدو النـاس بعـد مقابلتـه مرتاحيـن جـدًا، كأنـه أزال أثقـالًا عـن أكتافهـم.

تتبعـت مـرة أحـد الـزوار لتعـرف. جـاء رجـل يحمـل سـلة بيـض بصحبـة أحـد أبنـاء عمهـا، قـاده فـي فنـاء البيـت بخطـوات متمهلـة، يحدثـه بكلمـات قليلـة فـي الطريـق. فـي هـذه الأثنـاء كان ابـن عـم آخـر لهـا يركـض إلـى الفنـاء الخلفـي للمنـزل، وجلنـاز خلفـه مباشـرة. وصـل إلـى الغرفـة التـي يسـتقبل فيهـا صفـوت الله ضيوفـه. أخبـره لاهثًـا عـن الزائـر، وعـن سـلة البيـض التـي يحملهـا وعـن زوجتـه المريضـة.

دخـل الرجـل الغرفـة محنـي الـرأس ويـده علـى قلبـه احترامًـا. صافحـه المرشـد وقبَّـل وجنتيـه. وقفـت جلنـاز فـي الـرواق خلـف غرفـة الجلـوس، سـمعت أباهـا يقـول بهـدوء:

«تسـعدني رؤيتـك يـا صديقـي، مـع أننـي كنـت أتمنـى أن تأتـي فـي ظـروف أفضـل. أشـعر بـأن شـيئًا مـا يزعجـك بشـدة».

«أنـت محـق تمامًـا، صفـوت الله صاحـب»، قـال الرجـل بصـوت أنهكـه الأسـى.

«مـا يتعبـك ليـس ممـا يُتعـب الرجـال الأقـل شـأنًا. لسـت هنـا لتطلـب مـن الله المزيـد مـن الطعـام أو الأرض. لا، ليـس فـي قلبـك طمـع، أنـت هنـا مـن أجـل شـيء أهـم مـن هـذا بكثيـر».

«أوه، أيّها المرشد الصالح! إنك ترى روحي!»

«عيناك تبوحان بآلامك. كيف حال زوجتك العزيزة؟»

«ليسـت بخيـر، صاحـب. ينـال منهـا الوهـن كل يـوم أكثـر مـن سـابقه. تنتابهـا الحمـى. يصفـرُّ جلدهـا وعيناهـا. أتوسـل إليهـا أن تـأكل، لكنهـا لا يمكنهـا وضـع شـيء بيـن شـفتيها. أخشـى أن يصبـح أطفالـي يتامـى قريبًـا، ولا أعـرف مـاذا أفعل. لقـد جربنـا كل وصفـات العـلاج التـي أوصـى بهـا الشـيوخ».

«تحلـى بالإيمـان. كل شـيء سـيكون بخيـر بـإذن الله، لـن يتركهـا تعانـي، أنتمـا مؤمنـان صالحـان، ورحمـة الله واسـعة يـا صديقـي، لندعـو الله معًـا...»

رفـع الرجـلان راحتيهمـا وخفضـا رأسـيهما، وأخـذا يميـلان بكتفيهمـا مـن جانـب إلـى آخـر، بـدأا يدعـوان الله. لمحهـا ابـن عمهـا تراقـب مـا يجـري فـي الغرفـة ولـوَّح لهـا أن تبتعـد.

دهشـت جلنـاز لطريقـة تحـدث أبيهـا، صوتـه مختلـف تمامًـا عمـا تعـوَّدت عليـه. كان صـوت المرشـد هادئًـا، مريحًـا. أمـا صـوت أبوهـا فأقسـى، تـارة غاضبًـا، تـارة مرحًـا. كأنهمـا رجـلان مختلفـان، واحـد لأسـرته وآخـر لأهـل البلـدة الذيـن يأتـون إليـه طلبًـا للمعجـزات. بـدأت تتعلـم منـه حينهـا. كانـت تختبـئ وتسـتمع بتركيـز، ظهرهـا للحائـط

وترهـف السـمع لالتقـاط كل كلمـة. تعلمـت نبـرة الصـوت الصحيحـة، الكلمـات المناسـبة، متـى تسـكت. أضافـت شيئًا مـا بنفسـها، الميـل برأسـها، التصفيـق بيديهـا. كانـت تتمـرن حيـن لا يوجـد معهـا أحـد، تهمـس بدعـوات فـي الظـلام قبـل أن تخلـد إلـى النـوم كأنهـا تتمـرن علـى يـوم توليهـا مكانـة أبيهـا. لـم يلحـظ أحـد الأمـر سـوى أمهـا، وقـد أسـعدها هـذا أكثـر مـن أي شـيء آخـر.

كانـت كلمـا راقبـت أباهـا، ازداد افتتانهـا بمـدى الاحتـرام الـذي يلقـاه مقابـل جهـوده البسـيطة. كان النـاس فـي الغالـب مـا يعـودون للإشـادة بـه وهـم يحملـون المزيـد مـن الهدايـا حيـن تُجـاب دعواتهـم. ومـن لـم يحالفهـم الحـظ كان المرشـد يبـرر لهـم الأمـر ويواسـيهم فـي حزنهـم برفـق. عـاد الرجـل المسـكين صاحـب سـلة البيـض منهـارًا حيـن توفيـت زوجتـه.

«أرأيـت يـا صديقـي. لـم يتركهـا الله لتعانـي. إنـه لطيـف خبيـر وسـوف يتولـى أمـر أطفالـك. لندعـو الله معًـا لأطفالـك الآن...»

وبهـذه الطريقـة، تهـدأ القلـوب المثقلـة. يجـد النـاس عـزاءً. ظـل المرشـد محبوبًـا ومرغوبًـا بـه، أحـد أعمـدة المجتمـع. بـدأت جلنـاز تتـوق إلـى مكانـة مشـابهة، إلـى قـوى مشـابهة. طلبـت مـن أبيهـا أن تجلـس معـه وهـو يسـتقبل ضيوفـه لكنـه رفـض. طلبـت منـه أن يعلمهـا كيـف يقـوم بمعجزاتـه، كيـف يرفـع دعـوات النـاس إلـى سـمع الله.

«هـذا الأمـر لا ينبغـي الاسـتخفاف بـه»، قـال وهـو يهـز رأسـه. «إن مـا أفعلـه ليـس لتسـلية نفسـي أو لتسـلية الآخريـن، إنـه ليـس لأننـي أريـد احتـرام النـاس، بـل لأنهـم فـي حاجـة إلـى مسـاعدة. إنهـم فـي حاجـة إلـى شـيء يمكننـي تقديمـه، وقـد هدانـي الله لألبـي هـذه الحاجـة. وهـو ليـس شـيئًا اخترتـه. بـل اختـاره لـي الله».

عرفت جلناز أنه يتحدث من قلبه. لأن صوته كان متقطعًا وحادًا، كان صوت أبيها، وليس صوت المرشد الهادئ.

حين حاولت الدعاء بصوت عال في نطاق بيت العائلة، قابلتها النظرات الساخرة لأبناء أعمامها وعماتها. تشككوا في دوافعها وهزوا رؤوسهم لمحاولاتها جذب الانتباه. لم ترَها أعينهم المتشككة مخلصة. بل رأوها تلعب بالنار.

لكنها أرادت أن تكون صالحة. أرادت أن تعتني بالناس كما يفعل أبوها. قلدت دعواته وكلماته. كانت تدخل فجأة لتخبر الأقارب بأنها دعت لهم أو لأطفالهم.

لكنهم كانوا حين ترفض عائلة تزويج ابنتها لأحد شبابهم، أو يكسر ابن رجله في لعب كرة القدم، أو يصيب الشرى[5] وجه امرأة يتذكرون أن جلناز قد مرت بهم هذا الصباح، أو هذا الأسبوع، أو حتى منذ شهر مضى. رفضوها، بعضهم بأدب، وآخرون بالقوة.

كان هؤلاء هم أنفسهم من يقبِّلون يدي المرشد بامتنان لدعاء بسيط دعاه. لم تستطِع فهم السبب وراء المعارضة الشديدة لأفعالها هي الخيرية.

«ليس للأمر علاقة بإيمانك»، أوضحت لها أمها. «الأمر كله يعتمد على إيمانهم هم».

صارت، وهي في العاشرة من عمرها، ساخطة. شعرت بأنهم يلومونها على كل ما يحدث من سوء حتى وإن ظلت وحدها تمامًا. خارج بيت العائلة الكبير، لم تكن ابنة المرشد المحبوب، بل جلناز الخطِرة ذات العينين الخضراوين.

5- مرض جلدي

كانت تعرف أنها ستحقق أمورًا أكبر. ستؤثر في حياة الناس. لماذا لا يفهمون هم هذا؟

أخبرها صفوت الله ألا تتضايق من هذا. أحيانًا يستغرق الناس وقتًا ليعرفوا الأفضل لهم.

محبطة، أحكمت جلناز الغطاء على مواهبها التي تعتقد أنها ورثتها عن أبيها. لكن بداخلها، راحت تلك المواهب تغلي وتتحول إلى طاقة مختلفة تمامًا. لم تستطِع السيطرة عليها.

قررت أن تكون الصورة التي رسموها لها. كان يمكنها -حين يروق لها- أن تجعل أعينهم المتشككة ترتعش من الذعر.

أحبت قوتها الجديدة. باتت تسيطر عليها.

صارت -وهي شابة- تتحكم جيدًا في تأثير عينيها الخضراوين في الآخرين. كانت بكلمات قليلة من الإطراء الحريص تحول المواقف حسب مزاجها. بالنسبة إليها، كان ذلك رياضة. وإذ لم تتذكر لحظة واحدة رآها الآخرون فيها بريئة، لم تشعر بالذنب بأدنى قدر. لقد خلقوا جلناز هذه، تلك الشابة التي تستمد قوتها من شكوكهم، من مخاوفهم. عاملتها عائلتها الكبيرة برقة، أحبوها من بعيد، وحرقوا بذور الإسبند حيث تذهب لطرد أثر عينيها. كانت أمها ناقمة من معاملة العائلة لها وفخورة لأن ابنتها تعلمت استخدام مخاوفهم ضدهم. هذا أفضل كثيرًا من أن تغدو ضحيتهم.

كانت جلناز تحب أباها المرشد كأي فتاة أخرى، لكنها كانت وفية لأمها بشدة. أمها تفهمها وتحبها حبًا كاملًا وغير مشروط. تشعر ما إن تفتح عينيها حين تستيقظ في الصباح بعيني أمها ترعيانها. كانت تراها تهمس بالدعوات وتنفخ في طريقها

لتصحبها البركات. يمكنها، بوجود أمها، السير برأس مرفوع، رغم أنف بقية العائلة.

«بنيتي، احتفظي بخدعك لنفسك في الوقت الحالي. أنتِ شابة الآن، وهذا ليس الوقت المناسب لاستعراض ما يمكنك فعله. تلك مواهب امرأة، وليس فتاة».

فهمت جلناز أن أمها تعدها للزواج. إنها من عائلة محترمة، وجميلة بلا شك، لكن إن تسربت الأقاويل إلى البلدة عن قدرتها على خراب البيوت بالقليل من التوابل وكرة طين، لن تفكر عائلة واحدة في طلب يدها لابنها.

لم تكن تفكر في الزواج، لكنها احترامًا لأمها أطاعتها. ذكرت أمها عرضًا أن جلناز كبرت على قواها المتخيلة. ومن ناحيتها، أبقت جلناز عينيها مخفضتين في أمان. رسمت على وجهها ابتسامة باردة وتظاهرت في أنها فتاة خجول. بمرور عامين، ازداد قبول العائلة لها بقدر لا بأس به. اشتاقت إلى حين كان بإمكانها صنع تموجات في التجمعات العائلية لكنها عزَّت نفسها بمعرفتها أنها تتحكم جيدًا في قواها. كان هذا أيضًا دليلًا على سيطرتها.

حين أتمت الخامسة عشرة من عمرها، بدأت أمها تأخذها معها إلى الاحتفالات والتجمعات. كانت كبيرة بما يكفي لتجلس إلى جانب أمها مع النساء ليرينها. كانت نظراتها صادمة تمامًا، ولاحظت النساء ذلك. شعرت بأعينهن عليها، تتفقد كثافة حاجبيها، استقامة أسنانها، منحنى خصرها الواعد. فُتِن شباب البلدة بالأوصاف المثيرة التي تتبادلها أمهاتهم.

تذكري أن تتصرفي مثل فتاة مهذبة، كانت أمها تحذرها قبل أن يغادرا البيت. أجيبي عن الأسئلة بأدب وقبِّلي أيادي كبار

السن. ليكن صوتك وكلامك هادئين. نحن أسرة المرشد والناس يتوقعون منا الكثير.

تومئ برأسها لها، ظلت تسمع التعليمات نفسها منذ كانت فتاة صغيرة وتعرف جيدًا جدًّا كيف تتصرف.

ذات خريف، قبل أشهر قليلة من عيد ميلادها السادس عشر. دُعيت أسرة المرشد إلى حفل زفاف. كان العريس من إحدى العائلات الثرية في البلدة، دعا والدهُ صفوت الله لحضور الزفاف شاكرًا لمباركته ابنه قبل خطبته، وأصر عليه أن يصطحب معه زوجته وابنته.

ابتهجت جلناز. لم تحضر زفافًا من قبل. داعب الوعد بالموسيقى والرقص وأثواب الحفل فضولها.

اُختير ثوبها قبل أشهر من موعد الحفل. وقبل خروجهم مباشرة، سحبت والدتها قرطًا ذهبيًا مخرمًا عيار ثمانية عشر من صندوق جواهرها ووضعته في راحة ابنتها. ارتدته جلناز ومالت برأسها من جانب إلى آخر لتشعر به يتدلى من شحمتي أذنيها. شعرت بروعتها مؤكدة، مقارنة بملابسها البسيطة المعتادة.

دهشت حين دخلت هي وأمها قاعة النساء. كانت الموسيقى عالية جدًّا، إلى حد أنها شعرت بقرع الطبل في صدرها. ورود حمراء في مزهريات رفيعة على موائد مستديرة بمفارش وردية. قسمت ستارة ثقيلة قاعة المأدبة الكبيرة بطولها إلى نصفين. تمايلت النساء، بعيدًا عن أنظار الرجال، بأكتافهن وتركن خصورهن تتحرك مع الموسيقى الراقصة فجذبهن الإيقاع السريع إلى حلبة الرقص، دوَّرهن وأوقفهن كأنه شريك حقيقي في الرقص. لمعت

وجوههن الجذلة بالعرق. ضحكن وقلدن حركات إحداهن الأخرى.

بقيت النساء العجائز والفتيات الخجولات في مقاعدهن يصفقن تشجيعًا أو يراقبن بتركيز. تنظر الأمهات اللائي لديهن شباب بأعين متفحصة، يبحثن عن فتاة جميلة وليست مغرورة، واحدة ترقص جيدًا وإنما ليس بخلاعة، فتاة تشع بالبراءة والفضيلة والأنوثة.

سارت جلناز وأمها بين الموائد والكراسي لتجلسا مع قريباتهما، كن يجلسن بعيدًا عن مكبرات الصوت بما يكفي ليمكنهن التحدث. الصوت الحاد للكيبورد، آلة موسيقية تمزج إيقاعات معروفة، ويتردد لحن الأغنية بإيقاع متصاعد في أرجاء القاعة.

مسحت عينا جلناز المكان، مستمتعة بالأصوات، أعلى من أي شيء يمكنها تذكره. أزاحت خصلات شعرها عن جبينها، مستمتعة بصلصلة الأساور، بالشعور الرائع بالمعدن حول رسغها. شعرت بيد أمها في ظهرها تدفعها نحو المائدة. أبقت جلناز عينيها مخفضتين، تؤدي دورها لتنال استحسان أمها.

كان ثوبها بألوان ريش الطاووس، ممزوجة معًا في نسيج قطني سميك وفخم. كُمَّان ضيقان ينتهيان أسفل مرفقها تمامًا. وأسفل الخصر الضيق تنورة طويلة وفضفاضة تتمايل معها وهي تسير. يغطي برعمي صدرها قطعة مطرزة بالخيوط الذهبية والمرايا الصغيرة. يتدلى الشال الملكي من الكتفين إلى المعصمين، ومؤطر بشريط من الستان الأخضر الزمردي الداكن. كان ثوبًا راقيًا، يروق للمرشد أحيانًا تدليل ابنته.

عبـرتِ القاعـة، فالتفـت إليهـا الـرؤوس وهـي تتقـدم خطـوة تلـو أخـرى. ينسـدل شـعرها الداكـن علـى كتفيهـا برقـة، عيناهـا مشـرقتان ومذهلتـان. تبتسـم ابتسـامة خجـول ملحوظـة بالـكاد. وصلـت إلـى المائـدة وهـي متيقنـة تمامًـا مـن أن جمالهـا لا يُضاهـى، والأهـم مـن كل هـذا، قـوي.

خلال الأسابيع الثلاثة التي تلت الحفل، تلقى صفوت الله فيضًا من الزيارات، علـى نحـو يفـوق المعتـاد حتـى بالنسـبة إلـى المرشـد المبجـل. الأغـرب مـن هـذا أن النسـاء كنّ يأتيـن ليطلبـن رؤيـة زوجـة المرشـد. كانـت أمهـا تدفـع بابنتهـا المسـرورة إلـى غرفـة مجـاورة أو خـارج البيـت فيمـا تُغرقهـا النسـاء بالمجامـلات المعتـادة.

تبتسـم جلنـاز بمكـر مـن خلـف بـاب مغلـق وأذنهـا علـى الجـدار. كانـت تقهقـه للإطـراء، ولتفاخـر الأمهـات بوسـامة أولادهـن وذكائهـم وخفـة ظلهـم. كانـت أحيانًـا تمـر بالغرفـة فقـط لتغريهـن بلمحـة خاطفـة. لمـاذا تعنـي بالسـحر فـي حيـن يمكنهـا جعـل نسـاء كبيـرات يقفـزن لرؤيـة جانـب وجههـا فحسـب؟

كان الخُطَّـاب كثيريـن ولحوحيـن. تلاشـت سـمعتها السـيئة فـي طـي النسـيان، مرحلـة الطفولـة، إلهـاء لإبعـاد المزيـد مـن الخطـاب. راقبـتْ بعـض عماتهـا وبناتهـن الموجـة باهتمـام وريبـة. فسَّـرن الظاهـرة بهمسـات ونظـرات عليمـة. لقـد سـحرت جلنـاز القريـة.

صـارت أكثـر شـابة مطلوبـة فـي البلـدة، فشـعر والداهـا بضـرورة تزويجهـا قبـل أن يتحـول الأمـر إلـى النقيـض. بالطبـع سيُحبط مـن رُفِضـوا، وقـد تقـول الألسـنة الحاقـدة عنهـا إنهـا محطِّمـة قلـوب أو مُغويـة.

تحدثت أمها معها عن الخاطبين. وصفت عائلاتهم، عمل كل واحد منهم الذي سيعول به أسرته. كانت ترفع كتفيها، لا تهتم إن كان سيعود إلى البيت بيدين متورمتين من العمل بالحدادة أو سيطمح للسير على خطى أبيها المرشد. عبست لواحد من المفترض أن يصبح جنرالًا في الجيش. لا تهتم البتة برجل يحب الصياح بالأوامر طوال اليوم.

نفد صبر أمها من رفضها المتكرر. رفضوا عائلات كثيرة جدًّا، وقلقها يزداد.

لم يكن لدى عائلة الخياط فرصة تذكر. لم يكونوا في أي موقع يميزهم عن العائلات الميسورة الحال في البلدة. أنعم الله على ابنهم الأكبر، شاب في العشرين، بملامح وسيمة، لكنه كان خجولًا ولم يكن يعرف ماذا يفعل بيديه حين يترك الإبرة والخيط. كانت أمه قد جاءت مرتين بالفعل. حين جاءت مصطحبة معها ابنها. خرجت جلناز من البيت لتسترق النظر من نافذة غرفة المعيشة. كان ظهر أمه للنافذة فلم ترَ عيني جلناز الزمردتين تدققان بفضول. ذُعِرت أم جلناز حين رأت وجه ابنتها من خلف الزجاج. أعادت ملء أكواب الشاي لضيوفها، تدعو الله ألا يلتفتوا نحو النافذة ويروا المتلصصة. جلس الشاب في ركن، يحدق -كالعادة- في السجادة أمامه، ويبدو شابًا مهذبًا كما تقول أمه عنه.

كان وسيمًا بالفعل، قررت جلناز. أعجبتها نعومة عينيه وحركة أصابعه وهو يحمل فنجان الشاي بين يديه. كان رقيقًا. لن يُملي عليها ماذا تكون.

انظر إليّ، قالت جلناز في سرها. *دعني أرى عينيك*.

تخشَّبت كتفا أمها. أومأت برأسها بأدب لأم الشاب وهي تحدثها، دون أن تسمع كلمة واحدة مما تقوله. كانت تفكر كيف ستبرر سلوك ابنتها لو أدارت زوجة الخياط رأسها ورأتها.

وضعت جلناز أطراف أصابعها على الزجاج.

هيا، الآن. أتريد حقًّا أن تكون زوجي لطوال أيامنا؟ دعني أراك.

استقام ظهر الشاب. رفع ذقنه قليلًا.

اتسعت عينا جلناز.

انظر هنا. ها أنا ذا إن كنت تريد أن تراني. عدني أنك ستعاملني كملكة وسوف أومئ برأسي وأمنحك نفسي.

لماذا كانت تفعل هذا؟ لم يكن أكثر الخُطَّاب وسامة. لم يكن الأكثر جرأة أو تحقُّقًا أيضًا. لكنها أُخِذت بسلوكه وبالصبر الذي يتطلبه عمله بالخيط والإبرة، قياس القماش بالسنتيمتر، أو خياطة طرف تنورة على نحو متقن. كان من النوع الذي سيقدِّرها. سيدع جلناز تكون جلناز.

تنهدت. تريد أن تنظر في عينيه لتعرف. تريده أن يسمعها الآن لتصدق أنه سيسمعها في أي يوم آخر.

هل أنا ما تريده من أعماق قلبك؟ أتؤمن بأننا نصيب أحدنا الآخر كزوج وزوجة؟ انظر إليَّ إن كان أحدنا من نصيب الآخر.

انجذب الشاب الذي يعمل بالخيوط نحو النافذة بخيطٍ لا مرئي، إلى الشابة الجميلة جمالًا عاصفًا التي تطالبه بإثبات إخلاصه. رفع بصره عن السجاد، ارتخت يداه، ونظر أعلى كتف والدته.

شهقت ووضعت يدها على فمها، كأن أفكارها الجريئة خرجت بصوت عالٍ.

ابتسم، فابتعدت بسرعة عن النافذة وألصقت ظهرها بجدار البيت. تسارعت أنفاسها وهي تعاود النظر من خلف الزجاج ثانية. عيناه! كانتا طيبتين كما تمنت. ولكن، بهما بريق ما غامض. والغموض هو نقطة ضعفها.

جلست أمها تشبك يديها وتبذل قصارى جهدها لتُبقي أم الشاب ناظرة أمامها. هذا سلوك لا تسامح فيه.

عاد الشاب ببصره لأسفل مجددًا، في وجهه لمحة أذى.

نعم، فكرت جلناز. *أنت، أنا أقبل بك. سأكون حبيبتك، خطيبتك، جوهرتك.*

خلال ستة أشهر، تزوجت ابنة المرشد بالخياط الشاب، الذي سيختفي من حياتها باستهانة، ويتركها بطفلين وبأسباب كثيرة جدًّا لتكره عالمها.

الفصل 17

شعرت زيبا بالألم في قرار معدتها لكنها لم تستطِع تناول أي شيء. حثتها صاحبات السجن على تناول الإفطار ثم الغداء لكنها تجاهلتهن، بالكاد غمغمت برد عليهن. بحلول المساء فقدن اهتمامهن. إنها امرأة كبيرة وإن لم تكن عاقلة بما يكفي لتأكل فسيتشاركن وجبتها.

تعرف أن يوسف شاب وقليل الخبرة. نيته طيبة، أنبل ما رأت في حياتها، لكن النيّة لا تحقق شيئًا في أفغانستان: السلاح والمال والنفوذ والمنصب، تلك عملات هذا البلد. بدا لها، بلمعة عينيه التي رأتها خلال محادثتهما الأخيرة، مثيرًا للشفقة، كطفل وقعت عيناه على لعبة في حقل ألغام.

لم تستطِع زيبا إنقاذه. بالكاد يمكنها إنقاذ نفسها.

فكرت في أمها. جلناز المشهورة. مضى عام أو أكثر منذ أن أتت جلناز تطرق بابها آخر مرة. دققت بعينيها الثاقبتين في بيتهم. أخبرت زيبا بأنها تشعر بشيء ما خطأ. ظلت تأتيها أحلام فظيعة، تهيؤات عن الأطفال يقعون من فوق السطح على الأرض، بصير تدهس قدمه سيارة وكريمة تختطفها جماعة من بدو الكوجي. ظلت تستيقظ في منتصف الليل بشعور رهيب.

«مادر جان، لقد صرت امرأة كبيرة، لن تُخيفيني بكوابيسك بعد الآن»، قالت زيبا رغم علمها هي وأمها أنها لا تعني ما تقوله. لم تنشأ زيبا في أسرة عادية. بل في ظل جلناز الساحرة وصفوت الله المرشد الكبير. حيث الكوابيس ليست مجرد أحلام سيئة، بل

نُذر. حيث المشاعر روحانيات. كانت الكوابيس معلومات مرسلة، وتجاهلها يُعد ذنبًا.

فتحت جلناز صرة صغيرة، وأخذت منها حفنة من بذور الإسبند في راحتها.

«دعيني أبخِّر الأطفال بالإسبند... وأنتِ أيضًا. اسمحي لي بفعل هذا لأحفادي على الأقل».

راقبت زيبا باستسلام وأمها تلقي بالبذور في إناء صغير وتضعه على النار حتى تصاعدت من فم الإناء موجة دخان صغيرة. حركت جلناز البذور في الإناء بعصا، منحتها جميعها الفرصة لنفث دخانها بخورًا. تكثَّف الدخان وعبأت رائحة البذور الحريفة الغرفة الخلفية بالبيت وتسللت إلى الفناء.

«أترين؟» قالت جلناز، طرقعت بلسانها بغضب. «انظري إلى كثافة الدخان! فكري فقط في مدى الشر المُلقى على بيتك وعلى أطفالك».

الدخان معيار دقيق لدى جلناز، يمكنها به وزن الشر بالأونصات تقريبًا.

«انظري إلى هذا!» أشارت قائلة، وهي تثقب بإصبعها عمود دخان متصاعد. «أترين كيف يلتوي ويتماوج؟ إنه حرف الباء، أقسم. وتوجد كاف لكريمة. وميم».

وجدت الكثير من حروف أسماء الأطفال كأن بذورها تتحدث بصوت عالٍ، تريد أن تثبت وجود شر يحدق بأحفادها.

«مادر، هذا سخف. إنها مجرد بذور إسبند»، قالت زيبا محتجة.

«أنتِ تكابرين. أنا أحاول مساعدتك فقط. أنا أعرف أنه يوجد خطب ما. أشعر به في دمي. أنا أحاول تحذيرك لمصلحتك، لمصلحة أحفادي».

«لا خطب هنا. نحن بخير. الأطفال بخير. ماذا عليَّ أن أفعل في جميع الأحوال؟ ماذا تريدين مني فعله بشأن أحلامك مادر جان؟»

هزت زيبا رأسها. حين كانت طفلة، كانت ترى أمها ساحرة، يمكنها فعل أشياء لا يمكن لأحد غيرها فعلها. حين أعطى مدرس الرياضيات أخاها درجات سيئة، أعادت زيارة واحدة فقط منها إلى المدرسة درجاته إلى أعلى. وحين سمعت جارتهم تتحدث عنهم بالسوء، نثرت على عتبة بيتها فلفلًا مجففًا مطحونًا. وحين عثر جيرانهم على بقرتهم نافقة في الصباح التالي، شعرت زيبا بالحماية والأمان.

كانت تراقب أمها تجلس القرفصاء بجوار النار في المطبخ وهي تحرق الأعشاب التي جمعتاها معًا. وقفت بجوارها وهي تلطخ صورة فوتوغرافية لشخص ما بالرماد. لم يكن لديها كتاب وصفات؛ لم تكتب حيلة واحدة من حيلها. لم تعلم زيبا شيئًا من أعمالها بشكل رسمي. تركتها بفضولها عن الغمغمة لطرد الشر والهمس لصنع السحر. كانت تجعل الأمر مغريًا بما يكفي لتأتي زيبا إليها، تتوسلها أن تسمح لها بدخول ذاك العالم السري القوي.

كانت زيبا تشعر وهما برفقة العائلة أن النساء الأخريات يمسكن ألسنتهن في حضور جلناز. كن يبتسمن برقة كافية ويقدمن الحلوى لها ولرفيع. لكنها -جلناز- كانت تهز رأسها

حين يعودون إلى البيت وتتمتم بأنها ترى ما وراء مجاملاتهن وأنها ليست حمقاء. قليل من الحلوى لتدليل الطفل، تعرف، لذلك تذيب ملعقة سكر في حليب طفليها. لكن الكثير جدًا من السكر، مع ذلك، له أثر عكسي، وقد يمرِّر حياة شخص ما إلى الأبد.

ظنت زيبا أمها خبيرة. وأن الناس يحاولون تدمير حياتهم بالفعل. تذكرت هذا وهي تلقي بحفنة زهور برية عند باب أحدهم، وابتسمت لأنها نقعت هي وأمها الزهور في بول كلب هذا الصباح.

بعد اختفاء أبيها، ازداد انخراط جلناز في دجلها. لم يمضِ وقت طويل حتى بدا أنه أهم من أي شيء قد يفعلونه. حين خرج زوج جلناز ولم يعد تأكدت شكوكها في وجود عين شريرة مسلَّطة عليهم. وكان الأسوأ من هذا شعورها بالفشل في حماية بيتها منها. تذكرت زيبا جلوسها في ركن من المطبخ فيما تقطع أمها أظافر مقصوصة إلى قطع صغيرة جدًا، وهي غاضبة بشكل لا يصدق من أخت زوجها. كانت تنفخ وهي تمزج الأظافر في صحن اللحم المفروم مع البصل والبهارات. حملت زيبا بنفسها طبق كرات اللحم إلى عمتها، لم تجرؤ على رفع عينيها في عيني عمتها لكنها في الوقت نفسه خافت من عصيان أوامر أمها. أحست بانقباض شديد في قاع معدتها وهي تسير مبتعدة، وتتخيل عمتها تلوك كرات اللحم الملوث.

لم تكن لتفهم شيئًا عما فعله اختفاء أبيها بأمها. لم تعلم شيئًا عن مدى حب أحدهما للآخر ذات مرة أو عن قلق أمها عليه في الأيام والأسابيع والشهور التي تلت رحيله. كانت أمها تبكي بهدوء،

الشيء الوحيد في حياتها الذي تفعله بهدوء، لجهلها بما إنْ كان حيًّا أم ميتًا. سألتها زيبا عنه مرة واحدة فحسب.

«إنه عمل شخص ذي عينين أكثر شرًا من عينيَّ»، قالت جلناز بحنق. توقفت عن تقطيع الباذنجان. ظلت ممسكة بسكينها في يدها، عكس نصلها السكين شمس الظهيرة.

«لكن مادر جان، أكان يتصرف بشكل غريب قبل رحيله؟ تقول خالة ميري إنه كان يقول أشياء غريبة...»

«ليعمِها الله لتحدثها عنه بهذه الطريقة! لديها أسبابها لتكره رؤيتنا سعداء. لم تتحمل! تريدني أن أعاني مثلما تعاني. تلك المرأة... أوه، يمكنني أن أفعل بها ما أشاء. ظللت أرفق بها ولا أعرف لماذا. عشت عشر سنوات بلا زوج، وهي... تعيش مع زوجها المتغطرس في بيتهم ذاك مع هؤلاء الأطفال الذين يركضون حوله كالقنافذ دون أن يقولوا حتى مرحبًا».

حين كبرت زيبا كرهت أعمال أمها. عرفت بسمعتها وكرهت مشاركتها فيها. غضبت لأن الناس ينظرون إليها كامتداد لأمها، شريكتها. لم ترغب في أن يخافوها أو يصموها كأمها. أرادت أن تكون عادية. أن تكون جزءًا من بقية العائلة. لو كانت أمها قد كفت عن النظر إلى العالم بعينيها المتشككتين هاتين، فكرت زيبا، لكانوا قد نجوا.

لست مثل أمي في شيء، كانت تقول لنفسها وهي شابة صغيرة.

كانت تدير ظهرها لأمها حين تبدأ أعمالها. في أول مرة واجهتها فيها، ارتعش صوتها. لم تكن قد عصتها في شيء من قبل قط، ولم تواتها الشجاعة بسهولة.

«أنـا لـن... أنـا لـن أفعـل يـا مـادر جـان! إن أردت إرسـال هـذا الكعـك إلـى خالـة فيـروز، فخذيـه إليهـا بنفسـك»، قالـت زيبـا بصـوت يخفـت تدريجيًـا لئـلا ينقطـع كليًـا.

«زيبا! خذي هذا الكعك إلى بيتهم الآن. كفي عن هذا الهراء!»

«لـن أفعل يـا مـادر جـان. لا أريـد المشـاركة فـي هـذا. لا أتحملـه، كل هـذا الشـر!»

تمنـت تلـك اللحظـة لـو يدخـل أبوهـا مـن البـاب. لـو عـاد إلـى البيـت سـتكف أمهـا عـن إثـارة الزعابيـب. كان خاطـرًا حزينًـا، لكـن ربمـا كانـت تصـرفاتهـا تلـك مـا جعلتـه يختـار تـرك البيـت والذهـاب إلـى الحـرب.

«شـر؟ أتظنينني شـريرة؟ ألا تعرفيـن كيـف هـو الشـر فـي الخـارج حقًـا؟ ألـم تـري بمـا يكفـي لتفهمـي؟»

لـم تعـد علاقتهمـا بعـد ذلـك كمـا كانـت قـط. عرفـت زيبـا أن أمهـا لـم تعـد تثـق بهـا. كانـت جلنـاز تراقـب ابنتهـا مـن زاويـة عينهـا وتلـوي شـفتيها. شـعرت زيبـا بانـدلاع الغضـب بينهمـا، ورغـم يقينهـا مـن حـب أمهـا لهـا لكنهـا تسـاءلت إن كانـت قـد تمـارس سـحرها ضدهـا. حيـن اجتمـع صفـوت اللّه -جدهـا لأمهـا- مـع عائلـة أبيهـا لإعـلان خطبتهـا، لـم تكـن غاضبـة مثلمـا كانـت جلنـاز. بقـدر حبهـا لرفيـع، كان يصعـب عليهـا العيـش فـي عالـم الظـلال الـذي تخلقـه أمهـا. كان الـزواج مهربًـا منهـا.

الآن تفتقد أمها. تشعر بحديد فراش السجن يضغط ضلوعها، ينغزهـا لتعتـرف بمـا يجـول فـي خاطرهـا.

ألا تعرفين شيئًا عن الشر في الخارج حقًا؟ أنا أحاول تحذيرك لمصلحتك، لمصلحة أحفادي.

كانت قد طردتها. طحنها الشعور بالندم.

حين رأت أمها الظلام عاندتها زيبا، قررت ألا تعيش بلا زوج كما فعلت جلناز. لن ينتهي بها الحال كامرأة وحيدة، بلا مكانة الأرملة ولا الزوجة. تتذكر جيدًا كيف جعلت الهمسات جلناز حبيسة بيتهم الخانق أيامًا. رفضت زيبا أن تصير تلك المرأة.

لكن الظلام، عقب زيارة أمها، لف أصابعه الطويلة المتسلقة حول عنقها. ليتها لم تغلق الباب في وجه أمها.

لم تتقلب في فراشها. لا تريد أن ترتاح، تريد الشعور بشيء ما يثقب جلدها. ضغطت جانب وجهها في البطانية، انقبضت عضلات ظهرها وعنقها لتدفن رأسها بكل قوتها.

كل ما أرادته أن تعيش حياة طبيعية. أرادت فقط أن يحبها الآخرون، ألَّا يخشوها أو يحتقروها. لقد تعلمت كل ما تعرفه من أمها، من جلناز الساحرة ذات العينين الخضراوين الساحرتين.

عليها أن تفعل شيئًا. ربما ما زال بإمكانها.

جلست فجأة، تسارع نبضها مجددًا.

الفصل 18

«ستأتي أمي اليوم»، أعلنت زيبا على الإفطار المكون من خبز وشاي بالسكر.

رفعت نفيسة بصرها باهتمام. كانت مبهورة بتحول زيبا خلال اليومين الماضيين. أصبحت امرأة مختلفة. تشاركهن الوجبات وتبتسم بود. بلا تفسير للتحول. حدث فجأة ليمنحهن مجالًا واسعًا للتخمينات.

«أمك؟ لم تذكريها من قبل قط. من أين ستأتي؟» نظرت نفيسة إلى مزجان التي لم تستطع كتم فضولها.

«إنها تعيش مع أخي، على مبعدة نصف يوم سفر من هنا. إنها... مختلفة.... أمي. ليست كبقية النساء»، أقرت زيبا بتردد. تساءلت كيف سيكون الأمر حين ترى أمها الآن، هنا في هذا المكان.

«ماذا تعنين؟ كيف هي؟» قالت لطيفة التي كانت -بشعرها المسحوب للخلف بشدة ليُبرز حدة تقاسيم وجهها- الأقل دهشة من تعافي زيبا المفاجئ من حالتها العصبية. كانت قد أعلنت أن زيبا دجالة تريد أن تخدعهن جميعًا.

قال زيبا «إنها... إنها امرأة قوية. إرادتها قوية جدًا».

«أهذا كل شيء؟» سألت لطيفة متأففة وهي تهز رأسها. كلما أعطت زيبا الفرصة لتبرئة نفسها، تُحبطها زيبا.

«لا. الأمر ليس بهذه البساطة»، قالت زيبا بهدوء. «إن لديها طرقها الخاصة لفعل الأشياء. أشياء تعلمتها على مدار الزمن».

«ماذا تفعل؟»

لم تكن زيبا متأكدة من رد فعلهن على مواهب أمها. لكنها تحدثت بحرص.

«منذ كنت طفلة صغيرة، ظلت أمي دائمًا تمزج أعشابًا وأشياء. إنها تعرف كل شيء عن الوصفات لـ.... لمساعدة الناس على نيل مرادهم».

«ساحرة!» صاحت لطيفة وهي تلطم وركها بيدها. ارتفع حاجباها وأشرق وجهها بابتسامة. «من اللاتي يمكنهن صب اللعنة على إحداهن لتختنق وهي تأكل أو إشعال شجار حاد بين رجل وزوجته!»

«لا، لا. إنها ليست هكذا. ما اعتادت فعله... لم تجعل أي أحد يختنق قط. ما كانت تفعله مختلف». بذلت زيبا مجهودًا شاقًا لتجد الكلمات الصحيحة لأنها لم تكن موجودة.

«هل تستخدم الحمامات الميتة؟ أوه، لقد سمعت بأشياء مثل هذه!»

«أهذا ما تفعله أمك؟» سألت نفيسة مذهولة.

ثارت شكوكهن، وازداد - فجأة وبقدر كبير جدًّا - اهتمامهن بها بسبب أمها.

حين رأين جلناز، تأكدت نظريتهن. كانت رسمًا ظليًا بهيا. تجلس على الجانب الآخر من السور المعدني لفناء السجن. تتدلى أطراف طرحتها الباذنجانية بأناقة على صدرها، وظهرها مستقيم كتلميذة. بشرتها ناعمة، بتجعيدة واحدة بالكاد ملحوظة عند زاويتي عينيها، ولا دليل على السنوات التي قضتها حزينة

علـى زوجهـا أو غاضبـة ممـا يُقـال عنهـا. حتـى عبـر الفنـاء، رأيـن عينيهـا الخضراويـن تلمعـان فـي ضـوء الشـمس كحجريـن كريميـن.

رأتهـا زيبـا مـا إن دخلـت الفنـاء. بذلـن صاحباتهـا جهدهـن لئـلا ينظـرن نحوهـا مباشـرة. راقبـت لطيفـة مـن زاويـة عينهـا، ورفعـت حاجبيهـا لتمنـع نفسـها مـن قـول مـا تفكـر فيـه. تلـك طريقتهـا فـي السـكوت.

تركـت زيبـا صاحباتهـا خلفهـا، سـارت إلـى أمهـا دون أن تركـض لأن العالـم مـا زال حولهـا ويحتـم عليهـا التصـرف علـى نحـو لائـق. جلسـت صاحباتهـا علـى دكك خشـبية، عرفـت زيبـا دون أن تسـتدير، أنهـن يسـترقن النظـر مـن أعلـى أكتافهـن.

راقبت جلناز ابنتها تقترب، وقلبها يتمزق.

كان ذلـك منـذ خمسـة وثلاثيـن عامًـا، حيـن لمسـت بحـرص الجـزء الطـري مـن رأس زيبـا المولـودة حديثًـا. طرفـت بعينيهـا فمضـى عـام آخـر وصـارت زيبـا تحبـو برجليـن مكتنزتيـن، تسـتند إلـى الطـاولات الواطئـة، وتقفـز فيمـا يصفـق أبوهـا بيديـه. ومضـة. زيبـا بشـعرها القصيـر فـي حجرهـا، تغنـي وتخطـئ فـي الكلمـات. صـارت فـي الخامسـة مـن عمرهـا، تحمـل سـنها فـي راحتهـا الدافئـة، رأت أمهـا الفجـوة بيـن أسـنانها بفخـر. دقـة قلـب واحـدة. صـارت فـي الثامنـة، وعيناهـا الواسـعتان البنيتـان تتطلعـان إلـى أمهـا، تتوسـل إليهـا أن تحكـي لهـا قصـة. تراقُـص لهـب شـمعة. صـارت فـي الثانيـة عشـرة تهمـس لأمهـا أن المـرأة العجـوز الجالسـة خلفهـا فـي العـزاء قـد أطلقـت ريحـا لتوهـا. كتمـت جلنـاز ضحكتهـا مـا اسـتطاعت وأخفـت وجههـا بمنديـل كأن البـكاء غلبهـا.

جلست زيبا أمام أمها، يفصل بينهما سور شبكي ويجري بينهما نهر النوايا الحسنة.

«سلام، مادر».

«سلام، بنيتي».

«جئتِ طريقًا طويلة».

«كنت سآتي حتى ولو كانت أطول».

أطرقت زيبا برأسها. راقبت جلناز وجه ابنتها. بدت مرهقة، أكثر كثيرًا من آخر مرة رأتها فيها. تركت الأسابيع القليلة التي قضتها في هذا السجن بعيدًا عن أطفالها هالات سوداء حول عينيها. بدا أنها هي من جاءت من سفر شاق، وليست جلناز.

«أسمعتِ أي شيء عن أحفادي؟»

هزت زيبا رأسها. شعرت بكسرات زجاج في حلقها. إن تحدثت سينجرح.

تنحنحت جلناز بهدوء.

«بصير عاقل ورزين دائمًا»، قالت. «لا يشبه أباه في شيء».

لمست زيبا السور بأصابعها، كانت في أشد الحاجة ليمنحها أحد، أي أحد، كلمات تطمئنها عن أطفالها. أطلقت تنهيدة قصيرة.

«آخر ما سمعته أنهم بخير. بصير يعتني بالفتيات. إنهم معًا وهذا كل ما آمل فيه الآن».

«إنها بداية جيدة»، قالت جلناز وهي تلمس أصابع ابنتها. تركت أصابعها ترتاح على أصابع ابنتها برفق. وسعدت حين لم تتراجع ابنتها. «أخبريني بما حدث زيبا».

رفعت زيبا بصرها وقابلت نظرة أمها.

«ما الفائدة من هذا؟»

«فائدة كبيرة جدًّا».

«كان مشهدًا بشعًا».

«الجميع يعرف هذا».

لم تحرك زيبا يدها عن السور. شعرت براحة لم تكن تتخيلها لوجود أمها معها، تلمسها. شعرت كأنها طفلة.

«مادر جان، أنا لا أعرف كيف حدث هذا».

«أخبريني بما تعرفينه».

نظرت زيبا في الأرض. تدربت على تلك المحادثة في ذهنها من قبل. في كل مرة تدور بشكل مختلف قليلًا. في كل مرة تزداد صدقًا قليلًا.

«أعرف أنك حين جئتِ إليَّ لتحذريني كان يوجد شيء ما بالفعل، لكنني لم أكن مستعدة لسماعك. ظننت أن بإمكاني حماية بيتي أفضل مما حميتِ أنت بيتك. أردت أن أظل بعيدة عن كل... عن كل هذا. لكنه كان هناك. رأيته. شعرت به يسير في بيتي ويضحك عليَّ وأنا نائمة. ذاك اليوم، رأيته على حقيقته أخيرًا. كان يقف في فنائنا، أسوأ أنواع الشر. النوع الذي يتهامس عنه الناس سرا. النوع الذي يقض مضجع الأمهات ليلًا. النوع الذي يملأ دواخلك بعفن أسود لمجرد التفكير في اقترابه منك. لا أتذكر الكثير من تلك الظهيرة. أعرف فقط أنني حين فتحت عينيَّ مجددًا، كان قد ذهب. ووجدت نفسي هنا، دون أطفالي، ولست متأكدة تمامًا هل ما زال عليَّ أن أقلق عليهم أم لا».

«زيبا...»

«الشيء الوحيد الذي ظللت أفكر فيه مرارًا أنه كان عليَّ اللجوء إليكِ»، قالت زيبا ببرود. لانت عينا جلناز ودمعتا. وضعت يدها الأخرى على السور، مدت إصبعين من بين الأسلاك. أمسكت بهما زيبا بقوة. «هذا كل ما يمكنني التفكير فيه. ربما كانت الأمور ستسير على نحو مختلف. ظننت أن أعمالك، كل ما ظللتِ تفعلينه لسنوات، ظننتها ظلامًا وشرًا، لكنني أعرف الآن كيف هو الشر في الخارج حقًا. سامحيني مادر جان».

أرادت جلناز أن تعانق ابنتها، أن تشعر بوجهيهما يلتصقان. تمنت هي أيضًا لو كانت قد فعلت المزيد. تعرف أنه كان عليها الإلحاح، كان عليها تفسير أحلامها والسير خلف حدسها. كانت توجد أشياء كثيرة جدًا يمكنها فعلها.

«زيبا»، قالت جلناز بتنهيدة ثقيلة. «لقد حملت ضغائن كثيرة جدًا، يدهشني أن بإمكاني النهوض في الصباح والسير على قدميَّ. لكنني لن أحمل ذرة ضغينة واحدة نحو ابنتي. في جميع الأحوال، هذا ليس الوقت المناسب للشفقة أو اللوم. لقد فعلتِ ما ظننت أنه في مصلحة أسرتك، تمامًا كما فعلت أنا».

أومأت زيبا برأسها. بدأت غصة حلقها تزول.

«أنت في مشكلة عويصة يا زيبا. القتل ليست تهمة هينة. دعينا نركز عليها، هاه؟ هل قابلت المحامي الذي أرسله لكِ رفيع؟»

«نعم»، قالت زيبا.

«ثم؟»

«ليبارك الله أخي»، أجابتها وهي تهز رأسها. «أعرف شعوره بالمسؤولية نحوي لأنني أخته، والآن لأنني... أرملة. المحامي الذي أرسله فتى، شاب ساذج يظن أن بإمكانه إنقاذي. لكن حجارة القصاص ستنال مني. إنها مسألة وقت فقط».

«يقول رفيع أشياء جيدة عنه. هما الاثنان يريدان مساعدتك، لكنهما رجال، والرجال عادة لا يرون سوى ما بين أيديهم فقط. العالم بالنسبة إليهم من صخور وخشب ولحم. ليس خطأهم؛ هكذا خُلِقوا». تنهدت جلناز. «لا يمكننا ترك كل شيء في أيديهم. ارتكبتُ هذا الخطأ من قبل ولن أكرره».

نظرت زيبا خلفها. رأت لطيفة تميل على الطاولة وتقول شيئًا ما للشابتين الأخريين. يمكنها تخمين ما ينسجه خيالهن الجامح عن جلناز الآن. عادت تلتفت إلى أمها.

«والنساء؟» سألتها بتأمل. «كيف هو العالم بالنسبة إلينا؟»

ابتسمت جلناز بمكر.

«ألا تعرفين يا ابنتي؟ عالمنا مكون من الفواصل بين الصخور واللحم. نرى الوجه الذي عليه أن يبتسم لكنه لا يفعل، جانب وجه الشمس من بين الأغصان الجافة. يمر الزمن بنحو مختلف على جسد المرأة. تلاحقنا ساعات الأمس كلها وتقلقنا دقائق قليلة من الغد. هكذا نعيش... ممزقين بين ما حدث بالفعل وما سيحدث لاحقًا».

لمعت عينا زيبا. هدأها صوت أمها كما لو كانت رضيعة يمكن هدهدتها وهزها حتى تنام. ستحفظ تلك الكلمات، تعرف هذا، وستفكر فيها مليًا في ما بعد. عاد ذهن زيبا إلى شيء ما آخر قالته جلناز منذ قليل.

«ماذا تعنين بمن قبل؟ أي خطأ ارتكبتِه من قبل؟»

شحب وجه جلناز، وتجهم. نظرت إلى ابنتها مباشرة.

«لن أخفي عنكِ شيئًا. لم تعودي طفلة بعد الآن».

انتظرت زيبا.

«أبوكِ، حين تزوجنا، كان يعرف عن عاداتي، ما يمكنني فعله لتغيير مسار الريح. وجد ذلك محبَّبًا. كان يبتسم ويراقب، لكنه في الحقيقة، كان يظن أن اهتمامي مبالغ فيه. أخبرني بأنني أشم دخانًا حيث لا يوجد جمرة نار واحدة حتى».

شعرت زيبا بضيق وهي تسمع ما دار بين والديها كزوجين. كأنه أمر لا يجوز.

«كنت صغيرة، بالطبع. أردت أن أسعده. وربما كان جزء مني مرهقًا من توخي الحذر. تركت جدراني تنهار. قضينا وقتًا أكثر مع العائلة، مع الأصدقاء. كانت الأمور سيئة في تلك الأيام، بالطبع. الحرب والدماء والعوز في جميع أنحاء البلد. لم نكن مختلفين كثيرًا. كنا نعاني مثل الآخرين جميعًا. أنت تتذكرين، أنا متأكدة. لم نستطِع إخفاء السوء عنكِ أو عن أخيكِ.

كنت أقول لنفسي إن أمورًا سيئة كثيرة تحدث للجميع، ليس نحن فحسب. حاولت إقناع نفسي بعدم التفكير في أنني هدف أي أفكار شريرة. حاولت بكل جهدي».

حدقت زيبا إلى يدي أمها. تشققت أطراف أظافرها وتوجد بقع بلون الشاي لم تتذكر زيبا رؤيتها من قبل. كانت السنوات التي لا يفصح عنها وجهها واضحة جدًا على يديها. تألمت زيبا لرؤيتها.

«في الحقيقة، لم نكن أسوأ حالًا من أي أحد آخر. إن كنت أنتِ ورفيع قد شعرتما بجوع، فيوجد أطفال آخرون ماتوا جوعًا. بدأت أفكر في أن أباك محق. ربما كنت حساسة بشكل مبالغ فيه وأخلق المشكلات لنفسي. نحيت سحري كله جانبًا وشعرت، لمرة واحدة، كأن ثقل آلاف الحجارة قد انزاح عن كتفي. حتى حين ماتت أمي، لم أتراجع. لم ألُم أحدًا. قلت لنفسي إنها كانت عجوزًا وأننا جميعًا سنموت، عاجلًا أم آجلًا. عشت هكذا، عيناي معميتان بأبيكِ الذي لا يرى شيئًا، حتى ولو كان أمام عينيه».

دهشت زيبا لسماعها أن أمها قضت وقتًا بلا سحرها.

«مادر جان، أنا لا أتذكر يومًا واحدًا لم تنشغلي فيه بتعويذة ما. كان معكِ منذ لحظة استيقاظك في الصباح»

«ليس دائمًا. كنت أفعل ما أفعله حين يتطلب الأمر فقط».

شردت زيبا قليلًا ثم سألت: «لماذا ذهب أبي إلى الحرب؟ لم يفعل ذلك أحد غيره في العائلة».

طرقعت جلناز بلسانها ونظرت بعيدًا. طرف جفناها لذكرى تلك الأيام. لم تكن تتحدث عنه كما يتحدث المرء عن الموتى، لكن ليس كما يتحدث عن الأحياء أيضًا. كان ذلك هو المطهر الذي ظل أبوها فيه دائمًا.

«لا يمكنني تفسير أفكار أبيك. لم يكن يصارحني بها حقًّا. كان ذاك الرجل -لروحه السلام أينما كان- غير معقول. كان يتبع بوصلته الخاصة. ليس لي أدنى علاقة برحيله. كان يستمع إلى ذاك المذياع الروسي القديم. تلك الكتلة الخشبية بأقراصها النحاسية، ويسب طوال الليل. ثم، يومًا ما، رحل ببساطة. خرج

من الباب ولم يعد قط».

جلست زيبا بلا حراك.

«ألم يقل إلى أين سيذهب أو مع من سيقاتل؟ ألم يقل أي أحد قط أنه رآه في الحرب؟ لقد عادت الكثير جدًّا من الجثامين لتُدفن بالقرب من عائلاتها».

«وأكثر منهم ابتلعتهم الأرض التي كانوا يحاربون من أجلها. لن نعرف أبدًا يا زيبا، ولا جدوى من التفكير في هذا الآن. لديك أمور أهم بكثير عليكِ التركيز فيها».

«ألم تفكري قط في أنه قد يعود؟»

عبست جلناز وقالت: «اعتدت أن أتوقع رؤيته يدخل من الباب. ربما الجمعة القادمة سيعود بعد صلاة الجمعة. أو ربما خلال أسبوعين. ثم ظننت أنه قد يعود في العيد، نحيلًا بعد شهر من الصيام والقتال. ثم ذهب الروس. انتظرته مجددًا، ولكن لا شيء. ثم بدأ القتال مجددًا، فأخبرت نفسي أنه انضم إليهم مجددًا».

كانت الحرب الأهلية تعني أنه لن يحل السلام حتى بعد جلاء الروس. وكيف سيحل السلام وقد عاد التنوع العرقي في أفغانستان -بخلافاته الشائكة وكراهاته المتأصلة- يطفو على السطح. بدا كأن أطراف البلد تتآكل. حين لم يجدوا عدوًا خارجيًا، انقلب أحدهم على الآخر.

«في النهاية، تساءلت إن كان سيعود قبل زواج رفيع. قلت لنفسي إنه لو لم يعُد قبل زفاف رفيع سيكون في عداد الموتى بالتأكيد. حرب أم لا حرب، كيف لأب ألا يحضر زفاف ابنه؟»

«لكن ماذا لو لم يكن يعرف شيئًا عن الزفاف...»

«كنـت حينهـا قـد مللـت مـن التمـاس الأعـذار لـه. عددتـه مـن الأمـوات، وأنـتِ أيضًـا عددتِـه كذلـك».

معها حق. كانت حين تكور راحتيها لتدعو الله تدعوه دائمًا أن يُسكن أباها في جنات النعيم. كان ذلك الافتراض الأكثر أمانًا مع اعتبار عدد الموتى في الحرب.

«احتفظت بملابسه في البيت. كان له مكان دائمًا في حال عاد بالفعل. وكنت أبكي أحيانًا حين أرى الفراغ الذي تركه، لكننا جميعًا مررنا بأوقات عصيبة وكان عليَّ أن أفكر فينا. كان عليَّ إعالة طفليَّ والخياطة فقط ما أبقتنا على قيد الحياة. ألمح لي أعمامك لأتزوج أحدهم، لكنني أخبرتهم بأنني لن أتزوج ثانية ما لم يعد جثمان زوجي إلى البيت».

جفلت زيبا من الفكرة.

«لم تخبريني بهذا قط».

«لم يكن من داعٍ لإخبارك».

تركت زيبا أصابعها تسقط عن السور. بدأت ذراعاها تؤلمانها. يصعب رفعهما وقتًا طويلًا.

«هل يعرف رفيع؟»

«كان كبيرًا وحكيمًا بما يكفي ليرى ما يحدث. لم أرد أن يعرف أحدكما شيئًا».

فهمتها زيبا تمامًا. كيف تلوم أمها على هذا السر وهي التي تريد إبعاد أطفالها عن عار الحقيقة التي تعرفها الآن؟

«هل ذهبتِ إلى جدي؟»

هزت جلناز رأسها.

«ماذا كان سيفعل؟ كان عجوزًا حينذاك وكان الناس مقتنعين أنه جاسوس للإنجليز. لقد كبرت في بيته، وأعرف أنه لم يكن قويًا كما يظنه الناس. حتى إلى يومنا هذا لن يعترف بالأمر، لكنني أخبرك... لقد كانت لديه حيلٌ كثيرة».

وجهت زيبا نظرها إلى الأرض.

«زيبا جان، إنه ألم من نوع خاص حين تعرفين أن أبويكِ ليسا الملائكة أو الأبطال الذين تظنينهما. أنا أعرف هذا الألم جيدًا».

أرادت زيبا أن تتكلم، أن تخبر أمها بأنها لم تحتقرها ولم تُحبَط منها، لكن الكلمات أبت الخروج من فمها.

«لكننا اعتدنا الأمر. نحن جميعًا نعتاد حقيقة أبوينا لأننا لا نظل أطفالًا إلى الأبد».

هبت نسمة خفيفة بينهما، أطارت خصلات من شعر زيبا ودغدغت الرطوبة خلف عنقها. تململت جلناز في جلستها وسوت تنورتها.

«لم يمكنك إنقاذ أبي»، قالت زيبا بفتور. رجلاها معقودتان أسفلها، يداها تعبثان بطرف بنطالها الذي كان ذات مرة أبيضا.

«ماذا يجعلك تظنين أن بإمكانك مساعدتي الآن؟»

«أنتِ ابنتي يا زيبا. مثلما كنت أراقب جدك يمارس أعماله، وقفتِ أنتِ في مطبخي ورأيتِ كل ما فعلته. تعرفين كيف كنا قويتين معًا. رأيت ما حدث لمن أرادوا بنا شرًا. أبقيتك وأخاك بعيدًا عن العين الشريرة، وقد كان هناك الكثير منها حولنا. شئتِ الاعتراف بذلك أم أبيتِ، أنت تعرفين حيلي جميعها. تعرفين أسراري أفضل من أي شخص، حتى ولو أدرت ظهرك لها. لم يتغير شيء. الأمر كله عند قدميك».

ضج رأس زيبا. تغضَّن جبينها تحت ضوء الشمس، لكن جلناز، بطريقة ما، طرفت بعينيها فقط. يوجد الكثير جدًّا عنها ما زالت زيبا لم تفهمه.

«جلبت لكِ شيئًا ما»، همستْ جلناز. «ليس بالكثير، لكنه بداية على الأقل». دست إصبعيها في كم ثوبها، تحت أسورة المعصم مباشرة، ضغطت قليلًا وسحبت شيئًا ما أعطته لزيبا التي ميزته على الفور، حِجاب.

«من جواد؟» تلقت زيبا بركات المطوية في راحة يدها. أغلقت أصابعها حولها. شعرت بالسنين تذوب. عادت طفلة مرة أخرى، مبهورة بأمها التي تجد سبلًا للتحكم في النجوم. كان هذا ما أرادته تحديدًا. أن تأتي أمها وتنقذها، أن توجه مسار الرياح لصالحها هذه المرة. إن كانت تجرؤ على الأمل، فقد كان هذا هو الشكل الذي يتخذه أملها.

«بالطبع من جواد. لقد أردتُ حجابًا، وليس مجرد قطعة ورق. جواد الوحيد من لديه موهبة حقيقية».

أغمضت زيبا عينيها وتخيلت جواد. حتى حين كانت زيبا شابة يافعة، كان يتجاهلها وينظر إلى جلناز. تصورته منكبًا على ورقة مربعة صغيرة، وسن قلمه المتأني. خطّ كل حجاب صنعه من شأن جدها، صفوت الله. كان جواد السحر الأسود بينما المرشد نور الله.

«أتؤمنين بأحجبته؟»

«لأنني رأيتها تعمل. إنها صنعته. كان لجدك صنعته، وأنا لي صنعتي. يمكنك الاختيار بين الإيمان بواحدة من تلك الطرق أو

بهـا كلهـا، لأن الإيمـان بشـيء يجعـل الاسـتيقاظ فـي الصبـاح أسـهل بكثيـر».

«لن يعجب جدي هذا...»

«لـم يعجـب جدك شـيء منذ سـنوات. منـذ أن بـدأ النـاس يشـكّون فيـه، وهـن قلبـه ولـم يتعـافَ قـط. أنـا ابنـة محترمـة لذلـك أُبقـي تحركاتـي هادئـة، لكننـي أمـك أيضًـا. علـيَّ بـذل كل مـا فـي وسـعي مـن أجلـك».

«مـادر جـان، أنـا شـاكرة. لكننـي لا أريـد أن أشـعر بـ.... أعنـي، لا يوجـد سـبب ليعمـل هـذا الحجـاب»، قالـت زيبـا بحـرص وهـي تدقـق فـي وجـه أمهـا تخشـى رد فعلهـا.

دنـت جلنـاز بوجههـا مـن السـور حتـى شـعرت زيبـا بأنفاسـها علـى وجنتهـا. كانتـا معًـا مجـددًا، سـرى شـعورها بلمسـة أمهـا فـي جلدهـا. كان وقـت المضـيّ قدمًـا والعـودة إلـى الخلـف فـي الوقـت نفسـه.

«أخبريني، بنيتي العزيزة، ماذا لديكِ لتخسريه؟»

الفصل 19

ستفقد بصرك بسبب كثرة القراءة.

خلع يوسف نظارته، تردد صوت أمه في ذهنه. أضعفت القراءة في ضوء المساء الخافت عينيه بالفعل. فركهما وهو يعرف جيدًا جدًّا أنه يزيد الأمر سوءًا فقط.

كانت شقته في الطابق الثالث من بناية ذات ثلاثة طوابق. لغرفة المعيشة شرفة تسع كرسيًا واحدًا قابلًا للطي. تطل على منظر غير جذاب لشقة سكنية أخرى بنوافذ مسدلة الستائر وحبال غسيل معلقة من شرفة إلى أخرى. في الشقة أيضًا منضد للطبخ في أحد الجوانب وخلفه غرفة نوم. الحمام عملي وبسيط. بالنسبة إلى يوسف، الذي قضى سنوات مع إخوته وأبويه في شقة صغيرة ذات غرفتي نوم، كان سكنه أكثر ما يحتاج إليه.

وضع طاولة صغيرة وكرسيين في ركن من غرفة المعيشة. مائدة طعام ومكتب في الوقت نفسه. كان في الغرفة طاولة قهوة بسطح زجاجي وأريكة بالية. الجدران عارية ما خلا صورة لمكة المكرمة في إطار بلاستيكي كانت في الشقة من قبل.

شيء ما مثل أناجيل الفنادق، فكر يوسف حين وقعت عيناه عليها لأول مرة، ليس لأنه يحمل أي ضغينه نحو دينه، وإنما لأنه، حسب ما يظن، وصل إلى مستوى معين من الموضوعية في رؤيته العالم من حوله وهو يعيش في مكان آخر.

أخذ محفظة أدوات الحمام من خزانة الصالة.

تبقى لديه أربع زجاجات من قطرة العين. وبّخ نفسه لأنه لم يحضر معه المزيد. لم يتوقع أثر الهواء المحمل بالتراب في عينيه.

كثير جدًا بالنسبة إلى واحد من أبناء البلد.

هز الزجاجة البيضاء الصغيرة وقرر أن يدَّخر ما بقيَ فيها. قد يقضي هنا شهورًا قبل العودة إلى الولايات المتحدة، ولم يكن الهواء ليتحسن.

اعتاد نوبات الأرق. تبقيه القضايا الكبيرة ساهرًا، وقد يستغرق الأمر أسابيع، ينام ثلاث ساعات فقط في الليل. تلك طريقته. يعدّ قوائم القضايا السابقة للاطلاع عليها، الثغرات في حججه، والبحث الذي ما زال عليه استكماله، مثل استخراج بذور الرمان من الثمرة الواحدة تلو الأخرى. لم يكن قلقه بسبب زيبا فحسب. أخذته محادثة الأمس مع مينا على حين غرة. كان يبذل جهده ليصرفها عن ذهنه ويركز في عمله.

صب لنفسه كوبًا آخر من الشاي الأسود. الشاي هنا بديل القهوة، ليس لأنه لم يجد قهوة، بل لأنه عاوده الحب الأفغاني للشاي سريعًا.

تسللت نسمة هواء كان في حاجة ماسة إليها من نافذة نصف مفتوحة. حمل الهواء رائحة الدم من محل الجزارة أسفل البناية.

كان على مسافة ربع ساعة فقط من السجن بسيارة أجرة. مجرد ربع ساعة بينه وبين زيبا، موكلته الصموت. كان قريبًا بما يجعله يراها يوميًا لو أرادت، لكن هذا لا يفيد في شيء. فكر في التراجع، لتدرك حاجتها الماسة إلى مساعدته. لا يحبذ تلك

الألعاب في العادة، لكن الدفاع عنها يتطلب إبداعًا في جميع الجبهات. إن فرصتها في البراءة ضعيفة جدًّا على أفضل تقدير.

حين لا يكون مع موكلته، يقضي الوقت في التنقيب عن القوانين ما استطاع والانكباب على الكتب القانونية. انهارت البنية التحتية القانونية لأفغانستان على مدار السنين، لكن فريقًا من الناشطين الدوليين أخذوا على عاتقهم مسؤولية إعادة ترميمها. وضعوا مجموعة قوانين وطنية معقولة، كتاب قواعد يمكن فهمه. مع ذلك كان النظام القضائي الحقيقي مختلفًا كثيرًا. لا يلتزم الكثيرون بالقواعدَ. حتى بعض المحاكم العليا يترأسها قضاة بلا ولاية قانونية. أما خارج المدن فلا يحكم القانون حقًّا.

تفهم زملاؤه في المكتب إحباطَه، مع ذلك كان صبرهم قليلًا معه. أثار تأففه أحيانًا غضب من ظلوا يعملون بكد قبل ظهوره. كانت أنيسة مديرة مكتب الدعم القانوني. سيدة جريئة في الأربعين عاشت في أستراليا خلال أسوأ سنوات الحرب. عادت بعد سقوط طالبان، عازمة على الاستفادة جيدًا من دراستها القانون الدولي. انبهر يوسف بها على الفور حين تقابلا أول مرة.

«يوسف جان»، بادرته أنيسة بحزم، «إن النظام القضائي -إن جاز اعتباره كذلك حتى- ملتوٍ كتفكير مُلّا. توجد حلول للعمل بما لدينا، لكنها تتطلب إبداعًا وصبرًا. لا يمكنك توقع استقامة كافة الأمور في البلد ما إن تدخل من الباب. أمامنا الكثير لنفعله. والأكثر لإزالته. نعم، في أماكن كثيرة في العالم تسود سلطة اللحى البيضاء. ما يقوله الكهول هو القانون. من حسن حظك أن موكلتك تواجه قاضيًا، وليس محكمة أهلية. وبناء على ما سمعته

عن القاضي الذي ينظر في قضيتك، يجب أن تكون ممتنًا جدًا. كان من الممكن أن تقع تحت رحمة من هو أسوأ منه بكثير... جدًا».

فكر يوسف في القاضي. ربما أنيسة محقة. إنه لم يصدر حكمه بعد. لو كان قاضيًا غيره لصدر حكمه الآن. قلب صفحات دفتر ملحوظاته، وسجّل تذكيرًا بأن يعرف كل ما يمكنه عن القاضي. قد يجد زاوية ما يمكنه استخدامها لصالحه.

كان في المكتب الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، قبل وصول الجميع، لكن ليس أنيسة. حين دخل لوَّحت له من خلف مكتبها وعدَّلت طرحتها، حجاب بلون القهوة يتفق تمامًا مع بنطالها. وجهها بشوش بهدوء، عينان بنيتان ناعمتان وذقن رقيق. تزم شفتيها على نحو طفيف حين تفكر. تفكيرها القانوني حاد، عرف يوسف ذلك سريعًا. مطلعة تمامًا على كل من الشريعة والدستور، يمكنها الانتقال بسلاسة بين الدارية والبشتوية. صنعت لنفسها اسمًا كواحدة من كبار المحامين في المدينة منذ عادت إلى أفغانستان. يمكنه فقط تخيل القوة التي كانت ستتمتع بها في أستراليا، الراتب الذي لا بد من أنها تخلت عنه لتعود إلى الوطن.

حياها وجلس إلى مكتبه في الجانب المقابل من الغرفة. يفصل بينهما خزانتا ملفات بلون كريمي.

نظرت إليه أنيسة مليًا، نظرة طالت بما يكفي لتجعله يتململ.

«هل تنام؟»

أومأ برأسه.

«أنا بخير. التراب هنا... أنا بخير».

«ما أخبار القضية؟» تتحدث معه بالإنجليزية، بلكنة أسترالية خفيفة كانت بطريقة ما تجعل المحادثة غير رسمية.

«ليست بخير»، اعترف. ثم مرر أصابعه في شعره لئلا يفرك عينيه. «أنا أدافع عن امرأة لا ترغب في الدفاع عنها. تظن أنه من الأفضل لأطفالها ألا تكافح من أجل حريتها. حين لا تصرخ كمخبولة، لا تتحدث. لم تعطني أي شيء لأعمل عليه. كيف أستطيع عمل قضية من هذا؟»

«نحن نعمل بما لدينا»، قالت أنيسة بنبرة تقريرِ أمرٍ واقعٍ. «لماذا لا تخبرني بما تعرفه عن الشهادات ضدها؟ ربما يمكننا التفكير في شيء ما معًا»، اقترحت عليه. سحبت كرسيها نحو مكتبه ووضعت مرفقيها عليه. مال المكتب، فمزقت أنيسة -دون أن تقول شيئًا- أوراقًا من جريدة، طوتها، وحشرتها أسفل القائم المائل للمكتب. تظاهر أنه لم يلاحظ. كان ينوي أن يفعل هو ذلك. تنحنح وبدأ يسرد ما يعرفه حتى الآن عن يوم الجريمة.

«هل لاحظت الشرطة أي كدمات على زيبا؟ هل قالت أي شيء عن أنه كان يضربها؟»

هز رأسه.

«هناك بعض الكدمات على عنقها، حاول أحدهم شنقها قبل القبض عليها مباشرة. أعرف ماذا تقصدين. كنت أتمنى لو يمكنني استخدام هذا الدفاع، لكنها لم تلمح حتى عن أي إساءة من زوجها. ومع ذلك، أعرف أنه يوجد شيء ما في هذا»، تخيل يوسف زيبا، وجهها الجامد كشاهد القبر. حرصها في كلماتها.

«لا أصدق أن هذه المرأة ترفع فأسًا لتشق رأس زوجها بلا سبب. لا أراها من هذه النوعية. إنها خاضعة جدًّا لتفعل هذا».

«خاضعة؟ المرأة التي صرخت في غرفة القاضي ثم نامت ليومين؟»

«ربما لم تكن حينها في أكثر لحظاتها خضوعاً»، أقر يوسف. «لكنني أقول لكِ، إنها ليست ممن يفقدن أعصابهن بسهولة».

«ربما. ماذا قالت عائلتها؟ ماذا قالوا عن زوجها؟»

«لم تظهر عائلتها. لم يقل أخوها رفيع الكثير عن زوجها، قال فقط إنه نادم على تزويجها له. شعوره بالذنب لأنه تركها تتزوجه واضح. لكنه لم يقل شيئًا على وجه التحديد. ظل فقط يردد: «تحدث معها، إنها تعرفه أفضل من أي شخص آخر». قال أيضًا إنها لا تستحق الزج بها في السجن، وإن أطفالها يحتاجون إليها ولن يكونوا بخير مع عائلة أبيهم. أنا أصدقه».

«ولم يتقدم أحد آخر من العائلة؟»

«لا شيء مسجل في محضر الشرطة»، قال وهو ينقر بقلمه على دفتر ملاحظاته. «لم يقل مأمور الشرطة سوى أنه لا يوجد شهود على الجريمة، مع ذلك، كان الحيّ كله تقريبًا هناك لرؤية الجثة وزيبا بجوارها ملطخة بالدماء. يبدو أنه لا توجد مساحة كبيرة للشك».

«تحدث مع الجيران. لا بدّ من أن أحدهم يعرف شيئًا ما. الشمس لا تختبئ بين إصبعين».

عض شفته. لقد أخذ المدوّن في محضر القبض على ظاهره، لكن أنيسة محقة. ليس أمامه سوى السفر إلى قرية زيبا. *لمَ لا*، فكر وهو ينظر في هاتفه المحمول ويرى أن لا أحد اتصل به.

تحطم هدوء شقته بصوت حركة المرور والحياة اليومية القادم من النافذة. يطارد أولادٌ أشقياء كلبًا في الزقاق، تمامًا مثلما كان يفعل عندما كان طفلًا. في المساء، هدأت ضجة السوق ولف الضباب السماء وانتشرت روائح أطعمة العربات في الهواء. فكر في إغلاق النافذة ليكتم الضجة، لكنه وجد أنها تريحه وتساعده على التركيز.

فيمَ يفكر أطفال زيبا؟ ابنها البكر كبير بما يكفي ليدرك وجود فوضى ما في البيت. هل سيرحب بالتحدث عن أبيه؟ أيمكن حقًّا ألا تكون زيبا هي من قتلت زوجها؟ أغمض عينيه، حاول تخيل موكلته تشق رأس زوجها بفأس. كم كان طول زوجها؟ أكان نحيلًا وضعيفًا أم ممتلئًا؟ كم يبعد بيت أقرب جيرانهم عن بيتهم؟

يفكر وهو يسير في الغرفة. منحته أنيسة اليوم بعض الأفكار، بعض التوجيهات. سيكون عليه رؤية زيبا. لديهما الكثير ليتحدثا بشأنه.

أخرج دفتره الأصفر وسجل ملاحظات قليلة. رسم دائرة حول بعض الملاحظات وشطب ملاحظات أخرى. فرك عينيه.

رن هاتفه. نظر إليه وقرأ اسم مينا ينير الشاشة. هل يجيبها؟ تحدثا عبر الهاتف مرات قليلة، يزداد ارتياحه في كل مرة أكثر من قبلها. منذ ثلاثة أيام، مع ذلك، فاجأته مينا. كان صوتها مهذبًا ومتحفظًا. حين سألها ما خطبها، أخبرته بأنها ليست متأكدة تمامًا من إن كان عليهما مواصلة محادثاتهما الهاتفية. فوجئ وسألها سريعًا لماذا. ظنها منزعجة من قضاء وقت طويل معه على الهاتف. ربما أرادت تأكيدًا على نيّاته. لكنها ترددت،

تركت سؤاله بلا إجابة ووعدته أن تعاود الاتصال به خلال أيام قليلة.

ضغط على زر التحدث.

«يوسف»، بدأت، صوتها صغير وجاد. «أنا لا أريدك أن تفكر فيَّ بشكل سيئ. لم أكن أعرف أن أمي أعطتك رقم هاتفي. إنها تحبك بشدة... كلاهما يحبانك. عائلتي كلها تحب عائلتك، في الحقيقة».

«مينا، ما الأمر؟»

«أردت أن أخبرك بشيء. ظللت أبحث عن طريقة لإخبارك به، لكنني لم أجد، وأنا أرى أنك تستحق أن تعرف الحقيقة».

مال إلى الأمام، مرفقيه على وركيه.

«أخبريني، مينا *قند*»، طلب منها، يتساءل إن كان بصيغة التدليل تلك يتجاوز الحد معها أم لا. «أخبريني بالأمر».

«أنا... كنت أحب شخصًا ما خلال العام الأخير. والداي غير راضيين عن الأمر لأنهما لا يحبان عائلته، لكن... لكن هذا لا يغير أي شيء بالنسبة لي أو له. أنا في شدة الخجل لإخبارك بهذا».

تحب شخصًا ما آخر. طرفت عيناه بسرعة. كان يظن أنها تنسحب لأنها تريد المزيد منه بينما الحقيقة أنها تريد الأقل.

«أوه، فهمت»، قال وهو يترنح بين الغضب والحزن.

«أنا آسفة حقًا. لم أقصد أن يبدو الأمر كأنني...»

«ليس عليك التبرير يا مينا».

«كانت أمي تأمل أن تجعلني رؤيتك... التحدث معك... إمكانية السفر إلى أمريكا... أن يغير كل هذا موقفي. أتعرف ماذا أقصد؟»

كان حيلة... حركة بيدق تفتقر إلى الذكاء من خالة زينب.

«اسمعي يا مينا، عليك فعل ما يمليه عليك قلبك»، أجابها باقتضاب. «لا ضغائن هنا. شكرًا لكِ لإخباري. لديَّ عمل كثير هنا... طاب مساؤك، أوكي؟»

«أوه، بالطبع. آسفة. لم أقصد مقاطعة عملك. كنت فقط... نعم، طاب مساؤك».

بتكة، انتهى الأمر، وجد نفسه محبطًا أكثر مما ينبغي. ظلا يتحدثان على الهاتف لأسابيع قليلة فقط. لم تتشابك أيديهما أو يتحدثا وهما يشربان الشاي أو تلامست كتفاهما وهما يسيران في الشارع. لماذا يشعر كأنه خسر فتاة أحلامه؟

زمجر بغضب، انقلب على بطنه ودفن وجهه في الوسادة. ربما كانت أمه محقة. ربما كان بحاجة إلى الزواج بالفعل.

الفصل 20

جلست مزجان متربعة أمام فراش زيبا. نادرًا ما تستيقظ مبكرًا هكذا في الصباح، لكنها ظلت قلقة بشكل خاص منذ زيارة جلناز.

«زيبا جان، أريد أن أسألك سؤالًا».

لم تجبها زيبا.

«أرجوكِ. أنا أعرف أنك مستيقظة. أعرف ذلك من تنفسك».

زامت زيبا، بصوت خفيض لدرجة أن مزجان لم تسمعها. جلست في فراشها وتثاءبت، تتساءل عن الأمر الطارئ الذي جعل الفتاة تستيقظ مع شروق الشمس.

«متى ستعود والدتك؟ ربما يمكنك أن تطلبي منها مساعدتي في موقفي. هل ستفعل؟»

«ستخبرك أمي أن هذه مشكلتك وأن عليكِ التعامل معها بنفسك. ستخبرك بأنه خطؤك أن وقعت في حب رجل قبل أن تقع عائلته في حبك».

لم تنزعج مزجان. طرفت عيناها بسرعة وضغطت براحتيها على بطنها المستدير الصغير وبدت متأملة.

«أراهن أن بإمكانك مساعدتي. أراهن أنك تعرفين ما تفعله في جميع الأحوال. أخبريني بكل ما تعرفينه. بالتأكيد فعلت شيئًا بالمثل من قبل؟ هل يوجد شيء ما يجب أن آكله؟ ربما شيء ما يجب أن تأكله أم خطيبي؟»

«خطيبك؟» قالت لطيفة ضاحكة، استيقظت الآن. نهضت ومدت ذراعيها أعلى رأسها. «لو كان خطيبك لما كنتِ هنا. تريدين أن تحرك أم زيبا ريشة في الهواء فيركض نجم السينما صاحبك إلى والديك ويتوسَّل إليهما أن يتزوجك. بششت، ربما لو أحسنت في عملها، سيركض جمع من الشباب ليطلبوا يدك من أبيكِ. ألن يكون هذا رائعًا؟ أنت وطفلك... ابنك الحرام... يمكنكما اختيار رجلٍ معًا».

«لا تقولي هذا يا لطيفة. إنه يريد الزواج بي لكن والديه... لم يوافقا بعد. يبدو أنكِ لا تعرفين شيئًا عن السحر، لكنني أعرف أنه يفلح. عمي متزوج من امرأة قبيحة لم يكن لينظر إليها دون السحر، وعائلتي كلها تعرف أنها سحرت له. لم يكن يريد أن يكون له أي صلة بها يومًا ما، وفي الأسبوع التالي كان يتوسَّل إلى والديه أن يطلبا له يدها. سحر، بالتأكيد».

رقدت لطيفة بظهرها على فراشها وقلبت عينيها.

«عمك يشبه فتاة حاملًا بشكل فظيع».

«أنتِ أيضًا مهتمة»، قالت نفيسة تسلي نفسها بالمحادثة. «كدت تتسلقين السور لترينها جيدًا حين جاءت للزيارة!»

«ماذا أمامي غير ذلك هنا؟ ظللت في قن الدجاج هذا معكن أشهرًا وقد مللت سماع قصصكن. أنا أعرف جيدا كل شيء عنكما وكل ما فعلتماه مع من ومتى»، قالت لطيفة ضاحكة.

غطت نفيسة ومزجان فميهما وضحكتا.

«لطيفة، احذري مما تقولينه!». جلست نفيسة ورِجلاها تتدليان على فراش لطيفة.

«إنـه حقيقـي»، أصـرت لطيفـة وهـي تدفـع برجـل نفيسـة جانبًـا وتقـف. «هيـا زيبـا. قولـي للفتـاة المسـكينة مـا تود أن تسـمعه. أعطيها الوصفـة السـرية وخذي بيدهـا لتعـود إلـى الحيـاة المحترمـة. وفـري علـى العالـم عـار ابـن حـرام آخـر، أرجـوكِ».

عضت مزجان شفتها.

«امسـكي لسـانك القـذر لطيفـة»، صاحـت نفيسـة. كانـت تتسـامح معهـا بقـدر كبيـر لكنهـا أوقفتهـا عنـد حدهـا حيـن دعـت طفـلًا لـم يُولـد بعـد بابـن حـرام. «كفـي عـن دعـوة طفـل الفتـاة المسـكينة ابـن حـرام! أنـتِ نفسـك ليـس لديـك الكثيـر لتفخـري بـه، أأنـتِ هنـا لأنـك كنـت شـريفة جـدًا لتعيشـي مـع عائلتـك؟»

صـار الجـو مشـحونًا بالتوتـر. ظلـت مزجـان تحـدق إلـى مـلاءة فـراش زيبـا، تخشـى قـول شـيء تسـوء بـه المشـاجرة. نظـرت نفيسـة إلـى لطيفـة ويداهـا معقودتـان أمـام صدرهـا بتحـدٍّ.

كسـرت زيبـا الصمـت بمقطـع:

«الحياة تجعل القلب كبثرة قميئة

لا تصبي ألمك على أختك البريئة»

خبطت لطيفة الأرض بقدمها، منزعجة.

«حسـنًا، لـن أدعـوه كذلـك»، استسـلمت أخيـرًا وابتسـمت قائلـة: «وأنـتِ محقـة. عائلتـي أنـا أيضـا ليسـت فخـورة بمـا فعلتـه. لكـن علـى الأقـل بطنـي لا يحمـل الدليـل علـى جرمـي».

ابتسـمت مزجـان بضعـف وارتخـت كتفـا نفيسـة. المـزاح يمـلأ الفـراغ، أيامهـن كئيبـة مـن دونـه.

«لا، إن بطنك ينمو مثل بطني يا صاحبتي السمينة!»

ضحكت لطيفة بصوت عالٍ وربَّتت على بطنها مستسلمة. كان جليًّا أنها استدارت على نحو ملحوظ خلال مدة سجنها. ضاق ثوبها بلون اليقطين بشدة عند الخصر. امتلأ وجهها، توهج كشمعة. كانت تأكل كل وجباتها كأنها ستعود إلى عالم الجوع غدًا.

«صاحبتك تتجنب سؤالك يا مزجان. يبدو أن خانوم زيبا ليست مهتمة بمساعدتك»، قالت لطيفة تغيظها.

شعرت مزجان أن كلامها حقيقي، فعادت تنظر إلى زيبا.

«ستساعدينني، أليس كذلك؟ سيكون لك ثواب التوفيق بين رأسين في الحلال. فكري في السعادة التي سيجلبها ذلك لهذا الطفل. كيف يمكنك الرفض؟»

توتَّرت زيبا، هؤلاء الفتيات لا يعرفن شيئًا عن سحر جلناز. بالكاد يمكنهن تخيل الأشياء التي ساعدت فيها أمها. شعرت بالعار حين تذكرت الخلطات التي كانت تحملها، المرض الذي أوصلته، الحقد الذي قلبته. هل من الممكن استخدام الحيل التي تعلمتها دون إيذاء أحد؟

لا بدّ من أنه ممكن، فكرت زيبا. تذكرت شرود عيني أمها بعيدًا حين كانتا تتحدثان. تخيلت المسافة الطويلة التي قطعتها فقط لتزلق إصبعين اثنتين في سور معدني. كانت طيِّبة على نحو ليس جديدًا بالتأكيد، بل هي من صارت تراها بضوء جديد فحسب. يعود الفضل في تلك البصيرة إلى الظلام.

«إن سحر أمي لا يُضاهى»، أكدت زيبا بثقة. «لقد بدأت وأنهت علاقات حب. ورفعت أشخاصًا من فراش الموت وألقت بآخرين فيه. أشعلت نفوسًا بالغضب وألانت أخرى بالحب. كنت

أقف بجانبها عندما كنت طفلة صغيرة وتعلمت كل مزيج، كل خلطة سرية، وأنا أعرف أفضل من أي شخص ما تستطيع فعله بأعمالها. أتريدين أن تتزوجي هذا الفتى يا مزجان؟ إنها مشكلة حلها بسيط كوضع إناء ماء على النار ليغلي».

تنهدت بعمق. كان في صوتها كبرياء، أكثر مما توقعت هي نفسها. استمعن إليها بحرص وهي تسلب لبّهن. رأين عينيها تلتمعان، ووجنتيها تبرزان، وعنقها يستقيم. لم تضحك لطيفة ولم تسخر منها. تشبعت مزجان ونفيسة بكل كلمة تتفوَّه بها. تذوقت زيبا طعم الاحترام في الهواء. فلم ترغب في كسر الصمت وإفساد اللحظة.

تحدثت مزجان أولًا:

«أنا أصدقك، خانوم زيبا»، أكدت وصوتها يرتعش ببصيص الأمل. «أتوسل إليكِ أن تساعديني. أخبريني ماذا أفعل!»

«لا أعرف إن كان عليَّ التورط في مشكلاتك»، قالت زيبا بهدوء. صادقة.

«أرجوكِ يا زيبا، أقسم لكِ أنه حبيبي وأنني حبيبته. قدرنا أن نكون معًا. نحتاج فقط إلى من يفتح لقدرنا الباب».

ارتفع حاجبا نفيسة قليلًا.

هل كنت ساذجة هكذا من قبل؟ تساءلت زيبا. شعرت كجلناز، بصير بين العميان. لكنها لم تستطِع رفض طلب الفتاة الجالسة أمامها في انتظار مساعدتها بجدية شديدة تمزق القلب. فكَّرت في الساعات الكثيرة بين اليوم والغد. مالت إلى الوراء، راحتاها مبسوطتان على بطانية فراشها الرفيعة في السجن.

فراشي، فكرت. حيث سأنام ليالي لا يعلم عددها إلا الله. ربما لبقية حياتي كلها، طالت أو قصرت.

إن لم تجد شيئًا يساعدها على تحمل الجدران الباردة حولها، ستنغلق عليها. نظرت حولها في الغرفة. الأخريات علقن صورًا، قصاصات من مجلات أو صورًا عائلية على المساحات المستطيلة أعلى فرشهن. طرَّزت نفيسة حافة بطانيتها البيضاء بالخيط الأحمر، ووضعت لطيفة ورودًا حمراء بلاستيكية عند قائم فراشها.

عليهن التكيف إن أردن البقاء. يمكنهن تكييف أنفسهن أو تكييف مكانهن، أدركتْ. إن كانت ستعيش في سجن شيل ماهتاب، فعليها أن تفعل كما يفعلن. نظرت إلى صاحباتها في السجن. يمكنها فعل هذا بمساعدتهن. يمكنها الاستقرار في هذا المكان إن استطاعت أن *تكون* شخصًا ما هنا.

«اسمعنني بحرص»، بدأت، تعرف جيدًا أنهن سيتشبثن بكل كلمة تخرج من فمها. تعرف أيضًا أن هذا بمثابة اختبار لهن جميعًا. اختبار لإيمانهن بزيبا ولقدراتها التي ورثتها عن أمها، ولصبر مزجان في انتظار أن يحرك العمل والدي حبيبها.

بحثت زيبا مع مزجان، بأدق التفاصيل، كيف يمكن إمالة قلبي والدي حبيبها نحوها. أخبرتها عن الخيط الأحمر، عن العقد السبع ونقاط الدم الثلاث. وصفت لها قطعة القماش التي عليها لفه فيها ورميها في بيت حبيبها، مع ثلاث ريشات لدجاجة مذبوحة حديثًا. لم تنسَ إخبارها عن خيط آخر يجب عليها ربطه حول معصمها هي، بالعقد السبع نفسها، لربطها بحبيبها.

استمعت مزجان بتركيز، تصنع أصابعها عقدًا في خيط لا مرئي أثناء حديث زيبا. أومأت برأسها لكل التعليمات دون أن تجرؤ على المقاطعة.

«هذا هو كل ما علينا فعله»، أعلنت زيبا. «لكن علينا تنفيذه بسرعة، قبل أن يشتد رفضهما على مفعول العمل».

«كم سيستغرق الوقت ليعمل؟»

«لا أعرف بالتحديد»، قالت زيبا. «يعتمد هذا على دقة التنفيذ. السحر متقلب. وأنت تحت رحمته حين تلجئين إليه».

أحاطت مزجان عنق زيبا بذراعيها. ظلت زيبا جامدة لوهلة ثم أراحت يديها على ظهر الفتاة بتردد. دمعت عيناها. هل ستصير فتياتها يومًا ما حمقاوات كهذه الفتاة؟ صرفت الخاطر واستمتعت بعناق شخص آخر، حتى وإن كان يُثبِّتها على أرض السجن.

بعد ذلك بأسبوع جاءت والدة مزجان الغاضبة لزيارة ابنتها. أخبرتها مزجان بتعليمات زيبا بدقة. أكدت أهمية اتباع التعليمات بدقة. نعم يجب أن يكون الخيط أحمر. لا، ليس مهمًّا أن يكون الدم طازجًا ولا أن يكون دم مزجان. نعم يجب إلقاء القماشة الصغيرة في بيت حبيبها ليعمل السحر مفعوله.

استمعت والدة مزجان، متشككة، لكنها ترحب بتجربة أي شيء لمحو العار الذي جلبته ابنتها ذات العينين اللوزيتين على عائلتهم. لم يخرج والدها من البيت منذ ثلاثة أسابيع، لا يمكنه رفع عينيه في عيني جيرانه. صار بيتهم مشحونًا بالتوتر.

سارت الأم طوال المسافة في عودتها إلى البيت. توقفت فقط لتشتري بكرة خيط أحمر صوف من محل أدوات الخياطة. على

ضوء مصباح زيتي، عقدت الخيط بأصابعها الثخينة. همست ببعض الذكر أيضًا، لتأكيد سلامة النية. حين نفذت كل التعليمات، عادت إلى غرفة المعيشة وأمسكت كوب شاي ساخن بين يديها. رفعته إلى ذقنها، ليرطب بخاره بشرتها. لم يرفع زوجها رأسه ليسألها عما كانت تفعله. فأل حسن صغير.

لو لم يأتِ هذا بنتيجة ستكون ابنتها قد جعلت منها حمقاء للمرة الثانية.

بعد ذلك بأحد عشر يومًا، عادت والدة مزجان إلى السجن.

أمسكت مزجان حلقات السور المعدني بقوة حتى ابيضت مفاصل أصابعها. راقبتها صاحباتها من مسافة معقولة ليمنحنها خصوصية زائفة.

لم يسمعن كلمة واحد لكنهن شعرن بالحماسة تسري في شبكة السور. هزت مزجان رأسها بفرح. صفقت بيديها مرة، ثم مرتين، ثم ثلاث، ودارت حول نفسها. رفعت كتفيها لأعلى وغطت ابتسامتها بيديها. مسحت أمها دمعة فرح.

«يبدو أن أحد شيئين قد حدث: إما أن قملها قد زحف إلى باقي جسدها، وإما أنها سمعت أخبارًا سارة»، قالت لطيفة ساخرة وهي ترمق زيبا بنظرة جانبية.

لم تستطِع نفيسة تحريك عينيها عن مزجان. كانت سعادتها معدية، حتى في فناء السجن البائس.

جاءتهن مزجان تركض، ترقص أطراف طرحتها بلونها الأرجواني الفاتح في الهواء. هنأت زيبا نفسها. حتى هذه اللحظة، كان الشك ما زال يساورها بشأن ما يمكنها فعله وحدها. مضت سنوات كثيرة جدًا منذ أن سلَّت نفسها بصنعة جلناز.

«زيبا جان، لقد فعلتِها! لقد ذهبت والدته لطلب يدي للزواج! كنت أعرف أنه يحبني. لقد فتحتِ الباب لنصيبي. كيف يمكنني شكرك؟»

ضمت يديها معًا ونظرت إلى لطيفة بتأنيب.

«لطيفة، لقد كنت مخطئة في استخفافك! لقد كان مفعول عمَل زيبا أسرع وأقل كلفة من شراء ذمة قاضٍ عنيد!»

انحنت لتقبل يديّ زيبا شكرًا. طرفت عينا زيبا بدهشة وسحبت يدها بسرعة.

«لا داعي لهذا»، قالت تقاطعها. «أنا سعيدة أن جاءت أسرة الولد، لكِ وللطفل».

لمعت عينا مزجان. من خلف السور، نادتها أمها ولوَّحت لها. هزت رأسها لفرحة ابنتها. ما زال أمامها الكثير لفعله. لن تفرح هي حتى يعقد النكاح رسميًا، حين تتزوج ابنتها حسب تعاليم الإسلام. إن تهورت وأقامت حفلًا فقد يجلب هذا سوء الحظ.

لم تضيّع مزجان وقتًا. غادرت أمها السجن ذاك النهار بتعليمات أشد صرامة، من ابنتها هذه المرة. إنها بحاجة إلى ملابس مناسبة. الملابس التي ترتديها في السجن لا تليق بهذه المناسبة المهمة. حين ذهبت هي وحبيبها، هارون، إلى القاضي لإبلاغه بالمستجدات في علاقتهما، اقتربت منه وهمست له بكلمات معسولة تخبره بحبها.

«كنت أعرف أن القدر سيجمعنا. لم أكن أفكر في شيء آخر غيرك»، قالت بدلال. «والآن علينا التخطيط لخطبتنا».

عاد خطيبها إلى سجنه بقائمة الأشياء المطلوبة للاحتفال بهذا الحدث الهام خلف الأسوار. سيكون عليه تسليم القائمة إلى والديه اللذين عليهما إحضار الأشياء بأسرع ما يمكنهما حسب خطة مزجان. ناولته ورقة مطوية كتبت فيها طلباتها بخط طفولي: شوكولاتة للضيوف، لوز مسكّر، طلاء شفاه وردي، ونقود لأمها لأي نفقات أخرى.

سارت مزجان بثقة امرأة مزدانة بالذهب. بدت لطيفة ساخطة. قضى حدث الزواج على كل مزاحهن.

وصل والدا هارون مع والديّ مزجان القلقين في اليوم المحدد لتوقيع الزوجين الصغيرين عقد النكاح. أومأ أحدهم للآخر بإيجاز دون أن يقول أحدهم شيئًا. كان والد مزجان ما زال غاضبًا ويشعر بالعار ليردد أكثر من كلمتين معًا، وكانت والدتها تخشى أن يكتشف أحد ما فعلته بالخيط والريش. فظلت تشد طرفي كميها بحركة عصبية.

اقتيد الوالدان، والعروس والعريس إلى قاعة محكمة صغيرة بثلاثة صفوف من المقاعد الخشبية. كان العريس، يرتدي بنطالاً وقميصًا أبيضين، مصحوبًا بحارسين يعلقان مسدسيهما في خصريهما بلا أدنى قدر من الاحتفال. كانت مزجان، بحملها ما زال في أشهره الأولى، تتوهج بطرحتها الفضية المزركشة وثوب زمردي منفوش ربطته بإحكام عند خصرها الذي ما زال نحيلاً. يصل طرف الثوب إلى سمانتيها ويغطي بنطالها الساتان الكريمي. كانت تبتسم بخجل لخطيبها. أشاحت حماتها بنظرها بعيدًا ممتعضة. وافقت على الزواج فقط لئلا يقضي ابنها الثمانية عشر شهرًا الباقية من مدة حكمه في السجن.

كانت محبطة بشدة لتربيتها ابنًا أحمقَ.

فُكّت قيود الشابين ليوقعا العقد الذي سيجعلهما زوجًا وزوجة. أهم ورقة لمستها مزجان حتى الآن، تأنت وهي تكتب اسمها بمنحنياته وشرطاته. قبل أن يأخذ الحارسان زوجها أخبرته مزجان أنها تحلم بحفل زفاف جميل ما إن يُطلق سراحهما. هز رأسه وتنهد باستمتاع. ارتفع حاجباه والحارسان يبتعدان به. لم تكن عروسته الجميلة تمزح.

في السجن، جلبت أخبار عقد نكاح مزجان صخبًا نشيطًا. انتقلت الأخبار من زنزانة إلى أخرى بالهمسات والإيماءات والقصص المبالغ فيها. سخر بعضهن وقهقت أخريات وزاد خوف بعضهن قليلًا. لكن كل امرأة خلف تلك الأبواب المغلقة تساءلت إن كانت الشائعات عن وجود ساحرة بينهن حقيقة. سرعان ما اصطففن جميعًا في طابور أمام باب زنزانة زيبا المنبعج، أزكى الأملُ الذي وجدنه حديثًا النارَ الضارية المشتعلة بين الجدران الباردة لسجن شيل ماهتاب.

الفصل 21

وقفت جلناز أمام باب السجن تشاهد شابًا يترجل من باب التاكسي الخلفي، يكافح ليبقي حقيبته على كتفه وهو يعطي النقود للسائق.

كان متعجلًا ليصل إلى السجن، كأن عجلته قد تنقذ شيئًا ما أكثر من دقيقة. دفع باب التاكسي يغلقه ورفع يده ليشكر السائق الذي كان قد حول اهتمامه بالفعل إلى الراديو.

أوه، رفيع، هل وجدت محاميًا ليدافع عن أختك أم ولدًا ليلعب مع أبنائك؟

تمنت لو كانت قد ركزت أكثر في تربية رفيع حين كان صغيرًا. كانت نيته سليمة، لكن أفعاله طفولية.

سار الشاب بسرعة، تخبط حقيبته التي تشبه حقيبة ساعي البريد وركه بحرية. نظر إلى ساعته، فتنهدت جلناز بخيبة أمل متجددة.

الوقت ليس مشكلة يا بنّي، بل إنه كل ما لدينا.

كان هو والمحامي ذو الوجه الطفولي الذي أخبرتها عنه زيبا، الذي لا يستطيع عطره الغالي وملابسه المكوية إخفاء قلة خبرته. كانت زيبا محقة في عنادها.

حين وصل إلى سقيفة المدخل، تقدمت جلناز خطوة إلى الأمام. وضع يوسف يده على صدره وأومأ برأسه محييًا باحترام. ثم مد يده إلى مقبض الباب.

«أنت محامي ابنتي»، قالت جلناز.

توقف مأخوذًا.

«معذرة!»

«أنت محامي زيبا».

«نعم، أنا هو»، قال بحرص، ويده ما زالت على المقبض المعدني. «أنا آسف جدًّا، أنتِ...»

«أمها».

توقف فجأة، تراجع خطوة واستدار ليواجه جلناز. شعر بعينيها الخضراوين البلوريتين تسحبانه.

عينان مثيرتان، فكر وشعر أن تفكيره هذا غريبٌ جدًّا. إنهما عينان من النوع الذي يضعه المصورون على أغلفة المجلات. عاوده حسه الأفغاني وجعله بريق عينيّ جلناز يشعر برعشة في عظامه.

«عينا ساحرة»، ستتلو أمه ذكرًا في سرها لو رأت هاتين العينين.

كبح جماح أفكاره.

«تسعدني مقابلتك. أأنت هنا لزيارتها؟»

«جلستُ معها قليلًا».

«كيف حالها اليوم؟» شعر بأنه السؤال السليم مع أنه لم يدرِ لماذا يضيع الوقت في المجاملات. بالتأكيد توجد أشياء أهم لسؤال والدة زيبا عنها.

لا بدّ من أن جلناز فكرت مثله. تجاهلت سؤاله وسألته سؤالًا أقرب صلة بالأمر.

«هل تحدثت معك كثيرًا؟»

«حسنًا، لقد ظلت تحجم عن قول الكثير حتى الآن»، أجابها ببطء. لم تكن الأسرة تدفع له الكثير مقابل خدماته، لكنهم كانوا يدفعون. للأسف ليس لديه سوى القليل ليقوله بشأن القضية حتى الآن.

«إنها تعرف»، أكدت أمها. «لقد وجدوا جثة زوجها في البيت، لا يعني هذا سوى أنه مات، وليس أنها قتلته. أخبرني بخططك».

تململ يوسف في وقفته ونقل حزام حقيبته إلى كتفه اليسرى.

«حسنًا، أولًا، سوف أسافر إلى قريتها. يجب أن أتحدث مع الجيران، الذين يعرفونها ويعرفون زوجها. يجب أن أرى مكان الحادث، خاصة أنها لا تقول الكثير. سوف أؤدي عملي يا خانوم. ابنتك تظن أن لا أمل لديها، لكنني لا أرى الأمر على هذا النحو. يوجد دائمًا حل لـ...»

«إن الناس لا يتحدثون بالسوء عن الموتى. أتظن حقًّا أنك ستجد الحقيقة هناك؟»

«ستكون نقطة بداية».

«ليس لديك خطة»، استنتجت جلناز.

«هذه قضية معقدة، رغم ما تبدو عليه من بساطة. لن يكون من السهل إثبات براءتها». بدا دفاعيًا ولاحظ ذلك.

«البراءة رفاهية ليست متاحة للجميع».

سواء أكانت جلناز تلمح إلى السجناء الذين يشترون خروجهم من السجن بالرشى أم لدور ابنتها في مقتل كمال، لم يستطِع التحديد.

أمسكت بطرفي طرحتها ذات اللونين الأسود والأخضر، عقدتهما معًا، وتركتهما يتدليان على كتفيها في حركة واحدة سلسة.

«أريدك أن تقدم لي خدمة»، قالت وصخب محرك ديزل يمر أمام السجن. «أريدك أن تخبر القاضي أن ابنة صفوت الله تريد مقابلته».

«فهمت. هل لي أن أسأل، من هو صفوت الله؟»

«أبي».

«آسف، لا أميز اسمه. هل يجب أن أعرفه؟»

«لا»، قالت دون توضيح.

ارتفع حاجباه قليلًا.

«هل تعرفين القاضي؟»

«لست هنا للتعرف إلى القضاة»، أجابته بفتور.

«لا، ظني هذا».

ظلا يزنان كلمات أحدهما الآخر لبرهة.

«سوف أتحدث مع القاضي»، قال. «لكن ماذا عن التحدث معكِ الآن؟ ربما يمكننا إيجاد مكان في الداخل لنجلس ونتحدث».

«لا أفضل الحديث في السجن. يمكننا أن نتحدث هنا». قالت وابتعدت خطوات قليلة عن السجن. لم يجد أمامه سوى أن يتبعها. «عن ماذا تريد أن تتحدث؟»

«لأدافع عن زيبا، يجب أن أفهمها. أريد أن أعرف شخصيتها. أن أعرف أي نوع من الأمهات هي. وأن أعرف عن علاقتها بزوجها.

لم تكن جلناز ممن يتحدثون عن الأمور الشخصية قط. تربت ابنة المرشد في عالم من السكوت. ينبغي ألا يعرف الناس كيف يعرف المرشد ما يعرفه. لم يعرفوا أن بيت عائلة المرشد بمثابة

شبكة من المخبرين، المتلصصين والعدَّائين والمراسيل. كان صفوت الله هو المرشد، لكنه من دون عائلته أصم وأعمى وأبكم.

نفع السكوت جلناز في حياتها الشخصية أيضًا. كان الناس يسألون أسئلة كثيرة جدًّا حين اختفى زوجها.

لم تخبر أحدًا، ولا حتى أطفالها، أنها شاهدته يملأ قارورة بالشاي ويدس مسدسًا صدئًا في طاقيته أعلى رأسه. جمع في حقيبته الصغيرة ثوبًا منزليًا قديمًا لجلناز وملابس قليلة له. قبَّل زوجته على خدها وأخبرها أن العالم كله قد تحول إلى ساحة حرب.

أخبرها العزم الذي بدا في وجهه أنه لا جدوى من معارضته.

ذهب لينهي الحرب، تدبرت العيش على مدار السنوات، تتساءل إن لم يكن هذا شكل ما للحقيقة.

«**ابنتي لا تتحدث معي عن زوجها. لم تفعل هذا قط**». ولماذا ستفعل، لقد حذت زيبا حذو أمها في الصمت خلال السنوات القليلة الماضية. كان ذلك عقابًا.

«أخبريني كيف كانت عندما كانت أصغر»، اقترح. يجب أن يكون لديها أي معلومات مفيدة.

نظرت خلفها إلى السجن، طرفت عيناها في شمس الظهيرة. زيبا عندما كانت فتاة. لا شيء يبهج قلبها مثل التفكير في ابنتها وهي طفلة. لم تستطِع منع نفسها من الشرود في الذكرى.

«كانت تسطع كالنجوم. تضحك دائمًا وتتبع أخاها أينما ذهب. أبقيتها بجانبي طوال الوقت وعلمتها كل ما أعرفه عن إدارة البيت. بيتنا بيت مؤمنين وقد تربت على الصلاة وعلى احترام

أهلها. كانت فتاة طيبة، مطيعة دائمًا».

«كيف كانت علاقتها بأبيها؟» سألها يوسف برقة.

«كانت بين ذراعيه منذ أن وُلدت. كان يحملها ويرفعها في الهواء. كانا مقربين جدًّا حتى رحل».

«رحل؟»

«ذهب إلى الحرب ضد الروس»، واصلت بصبر تمرنت عليه. «ولم يعد قط».

تنهد بتعاطف.

«رجل شجاع. ولم تصلكم أخبار عنه منذ ذاك الحين؟»

«لا خبر ولا خطاب».

«كيف تعاملت زيبا مع غيابه؟ لا بدّ من أنه كان قاسيًا عليها».

«كان قاسيًا علينا جميعًا. لم تكن أوقاتًا سهلة». عادت تنظر إليه. «كانت حينها في السادسة من عمرها فقط. ظلت تبكي وتسأل عنه طوال الوقت. لكن الناس يتعودون وكذلك فعلت هي أيضًا. لم يكن محاربًا. كنت أعرف أنها لن تراه مجددًا قط. أرادت عائلته أن تتمسك بالأمل. أرادت أن تصدق أنه قد يدخل من الباب في أي لحظة ويخبرها بقصص الحرب العظيمة».

«ألم تظني أنتِ أنه قد يعود؟»

«كان ليعود لو كان قد استطاع، لكنه لم يعد، لذلك عرفت أنه مات».

«فهمت، بالطبع».

لم يفهم تمامًا، فكرتْ جلناز. كل أسرة في حد ذاتها لغز في

نظـر الغريـاء. لا يمكـن فهـم أب وأطفالـه أو زوج وزوجتـه بمجـرد الجلـوس معهـم وسـؤالهم عـدة أسـئلة.

«حدثيني عن زواجها».

«كان زواجها يُنبئ بحياة سعيدة».

«أليـس كل زواج كذلـك؟» قـال ضاحـكًا، وفكـرت جلنـاز أنـه قـول غريـب بالنسـبة إلـى شـخص فـي سـنه.

«كان جـد كمـال لـواءً فـي الجيـش، رجـل محتـرم جـدًا. وكان صديقًا مقربًـا لوالـدي. جلسـا معًـا يومًـا مـا، ليشـربا الشـاي، وقـررا أن يكـون كمـال وزيبـا زوجًـا وزوجـة. وثقـا الربـاط بينهمـا بحفيديهمـا».

«هل كنت توافقين؟»

«لم يُعن أحد بسؤالي».

«هل عارضتِ الأمر؟»

سددت له نظرة نفاد صبر.

«كان الأمر أكبر مني».

فكـر يوسـف فـي أختـه. ظـل والـداه يتوقعـان زواجهـا بابـن صديـق أبيـه المقـرب، لكنهـا أحبطـت خططهمـا وأحبـت ابـن الجيـران. كان صغيـرًا حيـن تزوجـت، لكنـه يتذكـر الصيـاح واصطفـاق البـاب بقـوة شـديدة تهتـز معهـا جـدران شـقتهم. هـل كان سـيقف بجانبهـا لـو كانـا قـد أصـرّا علـى خططهمـا أم كان سـيعتبر المشـكلة أكبـر منـه أيضًـا؟

«ماذا كان موقف زيبا؟ لا بد من أنها كانت صغيرة».

«كانـت فـي السـابعة عشـرة وعلـى اسـتعداد لبـدء حيـاة جديـدة، كانـت أقـل طفوليـة مـن قريناتهـا... ربمـا لأنهـا فقـدت أبيهـا».

«كانت راضية إذن».

مكتبة
t.me/soramnqraa

«كانت كأي عروس أخرى». شردت لوهلة في الأيام الأولى لزواجها هي بوالد زيبا. كان زوجها الحديث يغدق عليها بالهدايا ويحدق فيها بذاك النحو الذي يجعلها -حتى وهي في خصوصية بيتها- تشد طرفي طرحتها لتخفي حمرة خديها. بدأت تألفه حين بدأت التعليقات. ظل زوجها يعبر عن حبه الشديد لها أمام عائلته بشكل جعل نهرًا من الغيرة يمتلئ قطرة تلو الأخرى لينصبّ عليها.

«ظننا أن كمال رجل محترم. لم تكن زيبا تشكو لي، لكنني لم أكن أراها كثيرًا. عاشا في بداية زواجهما مع عائلته. لم أرغب في التدخل في حياتها، وظل كمال نائيا بنفسه. لم يكن يرغب في أي صلة بعائلة زوجته. كان هو ورفيع ابني لا يتبادلان سوى كلمات قليلة عن أي شيء».

«لكن زيبا وكمال انتقلا للعيش بعيدًا عن عائلته في وقت ما. متى حدث هذا؟»

«انتقلا بعد ولادة طفلهما الثاني. الصغيرة، هذا ما كانا يدعوانها به حينذاك».

«أكان لانتقالهما سبب معين؟»

هزت رأسها.

«لو وُجد سبب ما، فأنا لا أعرفه. لم يعرف أحد شيئًا عنه. لا يمكن الوثوق به، هذا كل ما عرفته».

«ما الذي يجعلك تقولين هذا؟»

«ذات مرة أحضر كمال زيبا والأطفال إلى بيتي وهم في

طريقهـم لزيـارة أقاربـه. كنـت قـد أعـددت يخنـة مشـروم، وصفـة تعلمتهـا مـن أمـي رحمهـا الله. أعـددت أيضًـا أرزًا وكـرات لحـم. كانـت زوجـة رفيـع شـكرية قـد ولـدت لتوهـا وفـي مرحلـة النفـاس وعليهـا أن تـأكل جيدًا، لذلـك ظللـت أعـد طعامًـا طازجًـا طـوال اليـوم. جلـس كمـال دون أن يلمـس شـيئًا منـه. تشـمم الأبخـرة ورفـع أنفـه. كان الجميـع يتضـور جوعًـا، خاصـة الأطفـال. توسـلنا إليـه أن يـأكل معنـا ولـو قليـلًا ليمكننـا نحـن تنـاول الطعـام، لكنـه رفـض بوقاحـة لـم أرَ مثلهـا فـي حياتـي».

«ربمـا كان قـد تنـاول الطعـام لتـوه»، قـال مـن دون أن يعـرف المغزى من الموقـف تحديدًا.

سهمت بنظرها بعيدًا.

«ثـم، بعـد ذلـك بشـهرين، دُعينـا إلـى زفـاف أختـه. كان مسـاءً صيفيًـا، جـو حـار وجـاف. أومـأ لـي برأسـه حيـن رآنـي، وبالـكاد رحـب برفيـع الـذي حـاول إدارة محادثـة معـه، كمـا ينبغـي لأخ الزوجـة. «تعـال، زرنـا مجـددًا. نحـن لا نـراك كثيـرًا»، هـذه طريقـة رفيـع. قـد يجامـل الشـيطان إن جـاءه يطـرق بابـه».

«مـاذا قـال كمـال؟»

«قـال إنـه لـن يدخـل البيـت الـذي عاملـه ككلـب مـرة أخـرى أبـدًا. قـال إننـا أهنـاه حيـن أكلنـا كلنـا أمامـه دون أن نقـدم لـه شـيئًا. قبـل أن يمكننـا قـول شـيء كان قـد دفـع بزيبـا بعيـدًا عنـا. سـمع نصـف أفـراد عائلتـه مـا قالـه، فغادرنـا. لـم يكـن مـن سـبب لبقائنـا بعـد هـذا». لـم يعبـر وجههـا عـن أي شـعور.

«أنا لا أقصد أي إساءة يا خانوم، لكنها قفزة كبيرة من حيث تقولين وحتى السبب في قتله».

أغمضت عينيها للحظة.

«ربما أنت محق»، وافقته بهدوء. «وربما ما زال أمامك الكثير من البحث».

الفصل 22

وافق القاضي على مقابلة جلنار، منحنى عالٍ وغير مألوف في الأحداث، لكنها لم تتوقع أقل من هذا. مارس القاضي قدرًا كبيرًا من ضبط النفس حين قدم له يوسف الطلب، حرص ألا يختلج وجهه لذكر ابنة صفوت الله. ابنة صفوت الله، ما يعني أن المرأة التي جاء بها هذا المحامي الشاب إلى مكتبه هي حفيدة صفوت الله. كانت حفيدة المرشد هي من جرَّها الحراس إلى الخارج وهي تصرخ منهارة.

شيء لا يمكن تخيله.

هز القاضي نجيب رأسه وهو يفكر في ما كان كباره سيقولونه عن هذا المشهد، لكن كبار القرية ماتوا منذ وقت طويل.

لم يرَ زيبا منذ ذاك الحين، ولم يكن في الواقع يرحب باستدعائها مجددًا.

حين دخلت جلناز إلى مكتبه، نهض يقف لا إراديًا. لم يعتد أن تطلب امرأة مقابلته، وبالطبع ليست واحدة كجلناز. كانت أسطورة بلدتهم تقريبًا حتى وهي شابة. تقول الشائعات عنها إن بمقدورها إلقاء التعاويذ واستمالة العقول بنظرة عين واحدة. تذكر كلام النساء في عائلته عنها حين كانت شابة صغيرة.

كان قد رآها مرة واحدة فقط. حين ذهب إلى بيت صفوت الله برفقة والده الذي أراد أن يدعو له المرشد بشفاء أصغر أبنائه. كان نجيب مفتونًا باحتمالية أن يرى جلناز، الفتاة التي تثير غيرة جميع الفتيات. طرق بوابة بيتهم البسيطة، يحمل والده كعكة ماء ورد دافئة، جبن معد في البيت، وطماطم طازجة.

فتح الباب ولدان صغيران، تناولا الهدايا من الزائرين وقاداهما إلى فناء فسيح منمق بأشجار الفواكه وشجيرات الورود. كان بيت المرشد مشيدًا من المواد نفسها المشيدة بها البيوت الأخرى في البلدة، لكنه كان مختلفًا على نحو ما. بدت ألواح الخشب أكثر صلابة، الجص أكثر نعومة، والنوافذ الزجاجية أكثر لمعانًا. رمقه والده بنظرة تخبره أن يأخذ حذره، لأن جماليات البيت تثبت صحة النوايا. إن كان شيء ما سيساعد في شفاء المريض الذي تركاه في بيتهما، فسيكون الرجل الذي يسكن بين تلك الجدران.

تبعا الولد الصغير إلى غرفة جلوس المرشد، غرفة بسيطة بوسادات للجلوس في جوانبها، وعلى الأرض سجادة بلون أحمر قانٍ، بنمط قدم الفيل ثُمانية الأضلاع مغزول باللونين الأبيض والأسود. جلس المرشد على وسادة على الأرض في موقع يسمح بسقوط ضوء الشمس المنثال من النافذة الوحيدة عليه مباشرة، ليضيء وجهه ويترك الضيوف في ظلام نسبي. توجد على الأرض صحون زجاجية فيها زبيب ذهبي وبندق وصنوبر، موضوعة بعيدًا عن متناول يد الضيوف. حيّا المرشد، حنيا رأسيهما وقبلا يده. كان صفوت الله رقيقًا، لمس صدره بيده وقبل رأس نجيب.

ذكر والد نجيب طلبه. شرح الموقف في البيت ووصف آلام بطن ابنه الأصغر ونوبات الحمى المتواصلة. استمع إليه المرشد بصبر، ثم أومأ برأسه وشكرهما على هداياهما الكريمة.

«أنت الوحيد الذي نجا محصوله من الطماطم في هذا الجو الحار»، لاحظ صفوت الله. «إنه لكرم منك أن تمنحنا منه».

تساءل نجيب وأبوه كيف عرف المرشد أنهما أحضرا طماطم

إذ أعطيا السلة للولد الصغير عند الباب الأمامي، لكنه ظل سؤالًا بلا إجابة.

تنحنح المرشد، وأشار إلى نجيب وأبيه ليفعلا مثله، ورفع يديه بالدعاء. كانت الصياغة والرعشة في ابتهالاته متقنة، صوته كفن الخط. راقب نجيب وجه أبيه.. عيناه مغمضتان بشدة وجبينه مغضن بتركيز. يميل برأسه من جانب إلى آخر بإيقاع، ويتمايل بجذعه مع إيقاع أدعية المرشد.

راقب نجيب ورأسه مخفض قليلًا فقط ليبدو مراعيًا.

ابتهل المرشد برأس مطرق أيضًا وتدفقت الكلمات من فمه كأنه رددها آلاف المرات من قبل.

رفع نجيب رأسه قليلًا.

كان المرشد يهرش في أذنه بشدة وهو مقطب. ثم عاد في لحظة إلى حالة تمايله الرقيق.

لم يكن شيئًا يُذكر. لم يكن لنجيب أن يراه. لكنه رآه. لقد قاطع كلماته اللامعة شيء ما مبتذل كحكة أذن. كيف يبجل رجلًا يحك ويهرش مثل الآخرين جميعًا؟

غادرا غرفة المرشد بخطوات متذللة للخلف ورأسين مطرقين، والذراعان مرفوعتان واليدان أعلى الصدر.

«شكرًا على وقتك آغا صفوت الله. إنه لكرم بالغ منك».

«سأظل أدعو الله لابنك. وإن شاء الله سيتعافى قريبًا وينمو ليتمتع بالقوة والعافية مثل الذي جاء معك اليوم».

اصطُحِبا إلى البوابة الخارجية وكانا على وشك المغادرة حين اكتشف نجيب أنه نسي طاقيته في مكان ما بين الباب الأمامي

وغرفة صفوت الله. عاد أدراجه إلى البيت فيما انتظره أبوه في الخارج. كاد وهو ينعطف حول أحد الأبنية الصغيرة يصطدم بشابة. كان على مقربة بوصة واحدة من وجهها قبل أن يتراجع مذهولاً.

لو لم تقابل عيناه عينيها وتعجزه عن الكلام لكان اعتذر بأدب لأنه كاد أن يوقعها.

ما لونهما؟ أخضر صافٍ جدًّا، لون الإسلام، ومع ذلك يبدو شيء ما فيهما دنسًا على نحو خطِر. كيف ترى العالم بمثل تينك العينين؟

كانت جلناز. عرفها مِن تسارُع دقات قلبه. تراجعت خطوة إلى الخلف لكنها لم تنتظر بعيدًا.

تنفس نجيب.

قالت بهدوء: «كنت هناك من أجل أخيك».

رغب بشدة في أن يجيبها، لكن لسانه تحول إلى حجر فجأة. فأومأ برأسه.

قالت: «سوف أدعو الله له أيضًا. أنا دائمًا أدعو الله للصغار والأبرياء. سأدعو الله أن يعيش عمرًا مديدًا ومثمرًا».

ثم انصرفت دون أن تنتظر ردًا.

غادر نجيب من دون طاقيته. شُفي أخوه خلال ثلاثة أيام، استعاد عافيته وشهيته. أشاد أبوه بدعوات المرشد. ظل نجيب يعض لسانه من حين إلى آخر على مدار ستة أشهر بعد ذلك حين تذكر شقيقاته أخبارًا عن خطبة جلناز. لن يراها مرة أخرى إلا بعد عمر طويل، حين ستظهر في مكتبه ويقف أمامها، كرجل عجوز لكنه مهم.

هل تتذكرني؟ هل أبالغ في توقعاتي أن تتذكرني؟

«شكرًا لك لموافقتك على مقابلتي»، قالت جلناز. نبرتها باردة. لا مجال للذكرى ولا للأسى.

«أنا لا أتحدث مع والدات المتهمات في العادة». كان ذلك حقيقيًا في جزء منه فقط، وبدا كاشفا أكثر مما كان يقصد. جلس القاضي فجلست جلناز. صب كوبًا من الشاي ووضعه على الطاولة الصغيرة أمامها. «هذا كل ما يمكنني تقديمه. مكتب القاضي ليس مكانًا للبذخ».

«هذا يعتمد على القاضي»، قالت جلناز وهي تضع مكعب سكر في كوبها وتراقبه يسقط في القاع. حدق القاضي نجيب إلى عينيها المخفضتين، المنحنى الرقيق لوجنتيها.

يا الله يا رحيم، فكر. *يا له من منظر، هكذا يجب أن تتقدم المرأة في السن.*

«صحيح تمامًا»، وافقها. «لماذا لم تأتي بيوسف معكِ؟»

«نال دوره في التحدث معك. هذا دوري أنا».

«فهمت»، أومأ برأسه

«سيادة القاضي»، بدأت. «أنا هنا من أجل ابنتي. أنت القاضي الذي سينظر في قضيتها، فكرت أنه ليس من الخطأ التحدث مع الرجل الذي قد يحكم عليها بالموت. إننا معارف، وهذا لا يمكن إنكاره. ألا توافقني؟»

عقد قاضي نجيب حاجبيه مدهوشًا.

«حسنًا، هذا صحيح، مع أنه زاوية غريبة للنظر منها إلى الموقف».

«الموقف ذاته غريب كذلك».

«حسنًا، ليس كما تظنين. إنها ليست الوحيدة في شيل ماهتاب التي قتلت زوجها. على الرجال حماية ظهورهم هذه الأيام».

«هذا فظيع»، قالت بصراحة.

عاد إلى الخلف في جلسته، شرد ذهنه في ذكرياته البعيدة.

هل أنقذتِ حياة أخي؟ لأنني أظن أنكِ فعلتِ. أوه، أردت أن أسألك عن هذا طوال العمر الماضي.

«سيادة القاضي».

«نعم؟» تنحنح وأخذ رشفة من كوبه. سمع أنها فقدت زوجها حين كان أطفالها صغار وتساءل ماذا حدث لزوجها.

«كنت أقول، ابنتي ليست مجرمة. أنا أطلب منك العفو عنها. إنها امرأة مؤمنة وأمّ مخلصة. أطفالها يحتاجون إليها».

«هل قتلته؟»

طرفَت عينيها مرتين. طرف متعمد بطيء لتمنحه الوقت للاعتذار عن السؤال.

«حسنًا، سؤال أبسط. لقد لاحظتُ أنكِ لم تشيدي بها بوصفها زوجة. هل كانت زوجة صالحة معه؟»

رجل فقط من يسأل ذاك السؤال الغبي، فكرت جلناز.

«أنا أمها يا سيادة القاضي. ما الذي يجعلك تظن أن إجابتي عن هذا السؤال ستفيدكم في شيء؟ لم أكن هناك لأرى ماذا حدث. وحتى لو كنت هناك، في هذا السياق، ورأيت زيبا تقتل زوجها، فأنا امرأة واحدة، وعلى حد علمي، سنظل في حاجة إلى امرأة أخرى لتؤكد شهادتي».

هـذا حقيقـي، أومـأ القاضـي برأسـه. شـهادة المـرأة بنصـف شـهادة الرجـل. هـذا ليـس قـراره. بـل هـو الشـرع.

«نقطـة مثيـرة للجـدل يـا خانـوم، أعـرف أنـك لـم تكونـي هنـاك حيـن قُتـل زوجهـا».

«ولا أي أحد آخر، ومع ذلك، العالم مستعد لإدانتها».

«علينـا النظـر فـي الموقـف. كانـت فـي البيـت معـه ووُجـدت والـدم علـى يديهـا وملابسـها».

«إنه زوجها. ستحمله وهو يموت».

«الأمر الذي يترك السؤال عن هوية القاتل».

«يمكننـي إخبـارك بشـيء واحـد يـا سـيادة القاضـي، بمـا أنـك رجـل تخشـى الله. لـو كنـت عرفـت الرجـل، لربمـا كنـت قـد قتلتـه بنفسـك».

«لماذا؟» سـأل وهـو يميل إلى الأمام. «لمـاذا تقولين هـذا؟»

هـزت رأسـها.

«لـم تكن ابنتي بخيـر فـي الأشـهر القليلـة السـابقة لمقتـل زوجهـا. زرتهـا مـرات قليلـة، لكنهـا كانـت بالـكاد تفتـح لـي البـاب».

«لأمها؟»

«الحقيقـة يـا حضـرة القاضـي، أنـه فـي حيـن تعـد شـهادة المـرأة بنصـف شـهادة الرجـل، لكـن شـهادة الأم هـي القصـة الكاملـة. أقـول لـك إن زيبـا كانـت مضغوطـة بشـدة، وأن زوجهـا هـو السـبب الرئيـس فـي هـذا».

« ماذا كان خطبها في ظنك؟»

«يصعب القول. لكنني أخشى أنه ربما قد أرهق ذهنها».

«فهمـت»، قـال وهـو يعـود إلـى الخلـف. «امـرأة مسـتنزفة تقتـل زوجهـا؟ أهـذا مـا تظنيـن؟»

«أنا لا أظن أنها قتلته، ولم أقل هذا. أنا أريد التحقيق في قضيتها. وأطلب منك أن تضع في الحسبان أي نوع من الأزواج كان معها. أنا أخبرك بأنني لم أكن أراها كثيرًا، لكنني حين كنت أراها، كنت أعرف أنها تخاف منه على حياتها».

أومأ برأسه.

«أتودين المزيد من الشاي؟» عرض عليها وأشار إلى الغلاية المطلية بالنيكل على اللفات الحمراء لسلك السخان الكهربائي إلى جانب كرسيه.

وضعت يدها أعلى كوبها الذي لم تمسه.

ساد الصمت لوهلة. انتظر كل منهما أن يتحدث الآخر.

كسر هو الصمت. لو كانت زوجته هنا لترى كيف يتصرف لكانت سبته. في هذه السن، كان الأمر شائنًا بلا شك.

«سنناقش كل المعلومات حين ننظر في القضية كلها رسميًا. لكنه، حتى لو كان قد ضربها، فهذا لا يبرر قتله، وقريتها تعرف هذا. هؤلاء الناس، جيرانها وعائلة كمال، يريدون الثأر بالتأكيد».

«بالطبع. قد يكون جثمان الرجل باردًا ومدفونًا لكن عائلته موجودة وبحال جيدة. أنا متأكدة من أنهم يملؤون رؤوس أحفادي بأكاذيب كريهة».

«خانوم، قد لا أكون في عينيكِ سوى رجل عجوز، لكنني أعرف حقائق قليلة أيضًا، وهذه حقيقة سأخبرك بها: الأطفال دائمًا يغفرون لأمهاتهم. هكذا خلقهم الله. يمنحهم ذراعين ورجلين وقلبًا يظل يناديها حتى اليوم الذي يتوقف فيه. قد ينمو لابنتك قرنان في رأسها، لكن أطفالها سيظنونهما تاجًا».

نظرت إليه؛ تشعر بوخزة في جلدها. ماذا يعرف عن الغفران؟ تذكرت وجه زيبا خلف سور السجن. دفعها أصابعها من بين أسلاك السور لتلمس أصابع جلناز. أكان ذلك غفرانًا أم يأسًا؟ هل رغبت في لمس أمها فقط لأنها كانت في شيل ماهتاب؟

«مع احترامي الشديد لك سيادة القاضي، يُولد الكثير من الأطفال بلا ذراعين ولا رجلين».

ضحك القاضي بصوت عالٍ.

«هذا حقيقي. لكن لا أحد منهم يُولد بلا قلب. ما زلت على قولي. تظل الأم أمًا حتى النهاية».

فردت ظهرها. لم تلحظ مسمارًا بارزًا في الكرسي كان طوال الوقت ينغز رجلها. تحركت لكن بدا أنه يلاحقها.

حين نهضت لتنصرف، أجبر نفسه أن ينظر بعيدًا وهي تتجه نحو الباب. كان يتصرف كتلميذ. لكنه لم يطلب منها أن تأتي إلى مكتبه لتطلب منه خدمات شخصية. أي امرأة بهذه الجرأة على أي حال؟

«خانوم جلناز»، بدأ قوله وشعر أنه قد تجاوز حدود اللياقة بالفعل. «أسعدني التحدث معكِ، ويسعدني أنكِ طلبتِ من محاميك ترتيب هذا اللقاء».

نظرت إليه، النظرة الجريئة نفسها التي نظرتها إليه حين تقابلا وجهًا لوجه في فناء صفوت الله.

«جئت من أجل العدالة»، أوضحت بتأكيد. «العدالة الحقيقية، النادرة في هذا البلد كمحارة في البحر. أملي الوحيد أن تقتنع أن زيبا ليست المسؤولة عن موت كمال، تمامًا مثلما لم تكن المسؤولة عن حياته».

ثم أدارت ظهرها له. تضع نهاية محادثتهما. شعر بصدره يضيق لتفكيره في لحظة خروجها من باب مكتبه بلا رجعة. كيف تراه؟ ما زال لا يمكنه تحديد هذا من طريقة كلامها.

توقفت جلناز، يدها ترتاح على إطار الباب. نقرت بإصبعها مرة، ثم أخرى، ثم استدارت وسألته سؤالاً آخر بطبيعية:

«بالمناسبة يا سيادة القاضي، من الوقاحة أن أغادر دون أن أسأل. كيف حال أخيك الصغير الآن؟»

الفصل 23

كان بصير في العاشرة من عمره حين اكتشف اكتشافًا مهمًا: الكبار الذين طالما وثق بهم يكذبون دائمًا. في الواقع لم يكن الكذب احتمالاً بقدر ما كان نزعة. كانوا يكذبون في الأمور الصغيرة التافهة ويكذبون في الحقائق الكبرى التي من شأنها تغيير الحياة. أقسم، حين اكتشف الكذبة الأولى، أن يظل متنبِّهًا للثانية. وبعد أن لاحظ الثالثة والرابعة، قرر أنه لن يثق بأي شيء يخرج من أفواه الكبار أبدًا.

يزعم كاكه متين أنه ذهب إلى الحرب، لكنه في الحقيقة هرب إلى إيران، تُقسم خالة شكرية أنها أعدت له ساندوتشات البطاطس المحمّرة بنفسها، لكنه يعرف أنها اشترتها من بائع في الشارع. تقول أمه إنها تحب كل أطفالها بالتساوي لكنه يعرف أن شابنام لها معزّة خاصة في قلبها.

لم يقل شيئًا في وجه الكذب، كان أعقل من أن يعارض أقاربه. كان يومئ ببساطة ويزم شفتيه لئلا يخرج منها لفظ نابي.

عقَّد قرار عدم الثقة ذاك حياته، كان يتحقق من أي شيء يخبره به أي شخص. كان أحيانًا يتمنى أن يصدق بسهولة، لكنه حين يستشعر وجود فجوات في القصة، لا يهدأ له بال حتى يضع يده على كل فجوة صغيرة ويتأكد من رؤية كل ما يمكن رؤيته. صارت الحقيقة هوسه، والتدقيق لزامًا عليه. جعله هذا الإلزام يحتفظ بصندوق سري بين الشجيرات في فناء العمة تامينا الصغير.

قبل أشهر من اليوم الذي دخل فيه بيته ليجد رأس أبيه مشجوجًا، كان قد سمع من صديق له أن أنثى العقرب تأكل صغارها. بدا هذا بالنسبة إليه، من رأى كلبات يتشممن جراءهن ودجاجات يحتضن فراخهن الصغيرة، غير طبيعي. العقارب كائنات شريرة بلا شك، لكن هذا لا يبرر لهن الخروج عن النظام الذي وضعه الله للأشياء. تبذل الأمهات الجهد كله في ولادة أطفالهن ورعايتهم. حتى أمهات العقرب لن يأكلن أولادهن. هذا بمثابة عودة إلى الوراء ولا يمكن أن يكون حقيقة.

بدأ رحلة استكشاف الحقيقة بنفسه.

قضى تسعة أيام في تقليب الحجارة إلى أن عثر على أنثى عقرب حامل سمراء ووضعها في صندوق. تكور ذيلها وهو يتجه يمينًا ويسارًا، لكنها لم تجد مخرجًا. وضع بصير حجرًا ثقيلًا أعلى الصندوق لئلا يمكنها الهرب ووضع الصندوق خلف بيته، حيث لا يجرؤ أحد من أسرته على الاقتراب. كان الأمر خطِرًا، يعرف، لكن فضوله أملى عليه المخاطرة.

كان يلقي فضلات الطعام في الصندوق كل بضعة أيام و ينكز العقرب بعصا طويلة من مسافة آمنة. كانت تكرهه لأنه حبسها. لاحظ هذا من ذيلها، الوضع الانتقامي الذي تتخذه حين يرفع غطاء الصندوق.

ستقتله لو منحها أدنى فرصة. لكن ماذا ستفعل بأطفالها؟ ما زال لا يعرف.

ظل يتفقد أسيرته يومًا بعد آخر. حين ينهي ملاحظته، يعيد تغطية الصندوق بالحجر الثقيل. ظل الصندوق نفسه بعيدًا عن

النظر تمامًا، في ركن مهجور. مع ذلك، ظل حضوره يقلقه، وتمنى أن تسرع العقرب في ولادتها لينهي تجربته تلك.

حين كان في الفناء ذاك اليوم، خطر له لجزء من الثانية أن عقربه هي المسؤولة عن المشهد الدموي. كأنه كان يتوقع بجزء من عقله أن اختباره لشيء ما خطِر مثل العقرب سيكلفه، يومًا ما، حياة أحد أفراد أسرته. كاد ينهار تحت ثقل ذاك الخاطر، ظن أنه خطؤه هو، حتى رأى الفأس.

حين ذهب هو وأخواته ليقيموا عند عمة تامينا، ظلت عقربه في صندوقها.

خرج من بيت عمته ذات مساء، ودون تخطيط مسبق، قادته قدماه إلى بيت أسرته. كان الظلام قد خيم تقريبًا، ولم يلحظ أحد الفتى النحيل وهو يتسلل من البوابة الخارجية.

وقف في الفناء بلا حراك. توقع بجزء منه أن يرى أباه أو أمه يخرجان من الباب، وهما يرشفان الشاي ويوبخانه على البقاء في الخارج بعد حلول الظلام. لكن أحدًا لم يخرج. دخل البيت فقابلته رائحة بصل متعفن فظيعة. بدت مريحة على نحو غريب لفتى يتوقع اكتشاف شيء ما أسوأ. هاون أمه ومدقها النحاسيان على ورق جرائد، بجواره حفنة صغيرة من الكمون. بطانية ريما الصوف الوردية ملقاة عند الحائط.

تقدم خطوات قليلة. لسنوات، ظلّ مُلزمًا بالبقاء بين جدران هذا البيت، ويتلقى التوبيخ لبقائه في الخارج وقتًا طويلًا خلال فترات الظهيرة. الآن يشعر أنه يرتكب خطأ بالوقوف هنا. نظر إلى الغرفة الصغيرة التي كانت غرفة والديه ذات يوم. طاقية

أبيه الصوفية ووشاحه على التسريحة التي فقدت أحد أدراجها. مراتب النوم على الأرض الباردة، تحدد الوسائد أماكنهم كشواهد القبور.

دقق في المكان كمن ينظر في صورة قديمة. لماذا قرر أبوه الانتقال بعيدًا عن بقية العائلة؟ سمع والديه يتجادلان من قبل. كان أبوه غاضبًا ورأى كيف كانت أمه تتجنب لكماته. كان يرى أمه ماكرة لكنها مخلصة، ومستفزة لكنها سليمة النية. مزاج أبيه عنيف، لكن لماذا لا تستطيع أمه -بعد كل سنوات زواجها به- تجنب إثارة غضبه؟ هل فاض الكيل بأمه الرعديدة أخيرًا؟ هل قررت أن تواجهه بتحدٍ لمرة واحدة وأخيرة؟

إنه لا يعرف والديه جيدًا. اعترف لنفسه.

خرج من الباب الخلفي مسافة مترين من حيث كانت جثة أبيه، ما زال التراب داكنًا مكان رأسه. جفت أعواد النعناع ونبتة الفلفل الحار المهملة، تحولت الأوراق إلى البني وتجعدت وتناثرت في نصف دائرة على الأرض. بدت ثمار الفلفل الحمراء كخناجر صغيرة متجعدة. شجيرة الورود التي زرعتها أمه في ركن من الفناء هي الوحيدة الناجية. بدت غافلة تمامًا عن كل ما حدث في مجالها.

مال برأسه يرفع أذنه إلى السماء، يحاول سماع أي شيء. ليس سوى صوت بعيد لتلفاز الجيران. تخيلهم يشاهدون برامجهم المفضلة، يشربون الشاي، يتسلون بتناول اللوز ولعب الورق، كأن شيئًا لم يحدث. هل سمعوا أي شيء ذاك اليوم؟ هل يعرفون أكثر منه عن المصيبة التي حلت بأسرته؟

سار نحو المرحاض الخارجي، حرص ألا يطأ بحذائه على مكان سقوط أبيه. كان الصندوق الصغير خلف جدار المرحاض. أزاح الحجر الثقيل عن الغطاء. رفعه وأرهف سمعه لأي علامة على الحياة.

سكون تام.

أخذ الصندوق إلى منتصف الفناء حيث نور القمر المكتمل. رفع الغطاء، وأطلق شهقة.

كانت العقرب الأم حية تمامًا، ظهرها مثقل بعقارب صغيرة، نحو عشرين كائنًا من الكائنات الصغيرة الشاحبة التي تشبه الخنافس. كسر غصينًا جافًا من شجيرة الورود ونكز به الأم. أخرجت كماشتيها وتحركت إلى ركن من الصندوق، ذيلها متكور على أهبة الاستعداد.

لا، فكر بصير، حتى أطفال العقرب يمكنهم الاطمئنان لوجودهم في حضن أمهم.

كان بوسعه تدمير الجمع كله. لا مجال للرحمة حين يتعلق الأمر بمخلوقات يمكنها صرع الرجال بلدغة من ذيلها. كان عليه صب الزيت على الأم وأطفالها وإلقاء عود ثقاب عليهم. تلك هي الطريقة الفعالة للتخلص من العقارب وتوفير قدر من التسلية بالنسبة إلى غالبية الأطفال، حين يستمعون لفرقعة هياكلها في النار.

لكنه شعر بالذنب قليلًا. لقد حبسها في صندوق صغير أشهرًا، فقط لأنه كان يشك في أنها قد تناقض كل ما هو طبيعي وتأكل صغارها. لكنه مخطئ. حتى العقارب يعرفن كيف يكنّ أمهات.

سار طريق العودة إلى بيت عمته حاملًا الصندوق. خبَّأه بين الشجيرات خلف الجدران الطينية لئلا يعثر عليه أبناء عمته. الاحتفاظ بالصندوق هنا مخاطرة أكبر. سيأخذه في الصباح إلى أقصى طرف القرية حيث لا يوجد شيء سوى فضاء من الصخور ليطلق سراحها هناك.

كان كاكه فريد في انتظاره في الفناء. صارت من عادته المرور ببيت العمة تامينا ليسأل عن أخبار القضية.

«أين كنت؟»

شعر بصير بسخونة تتصاعد في صدره. بذل جهدًا ليمنع نفسه من الركض إلى الخارج مجددًا. ما زال يتذكر أصابع كاكه فريد على عنق أمه.

«كنت في الخارج أتمشى»، غمغم.

«لماذا لم تخبر عمتك؟ أنت تعيش هنا، ينبغي ألا تدخل وتخرج كما تشاء».

«سوف أعتذر لها»، قال بصير وهو يسير نحو الباب. أراد أن ينصرف قبل أن يقول كاكه فريد أي شيء آخر. كانت تلك ثالث مرة يلتقيه منذ أن انتقل وأخواته إلى بيت عمتهم. حتى هي نفسها، تتنهد بثقل حين يظهر.

في آخر مرة كان هنا وصف زيبا بأنها لصة ومجرمة. كمال يدين له بنقود، أقسم على ذلك، والأغلب أن زيبا قتلته لتجمع كل شيء وحدها.

لم يحتج بصير إلى قدر كبير من التقصي ليعرف أن هذا كذب.

حين دعا كاكه فريد أمه مجرمة، عض بصير شفته. كاد يصيح فيه أنها ليست كذلك، لكنه لم يفعل. بل صاح فيه أن يكف عن الحديث عنها.

«أين كنت؟» سأله مجددًا. وهو يجز على أسنانه ويميل برأسه.

«في الأنحاء، كاكه جان. كنت أتمشى فقط. أردت شم بعض الهواء».

«أنت كاذب سيئ مثل أمك»، قال بخبث.

عض بصير شفته بقوة حتى ذاق دمه. بدأ فريد يتبجح كأن انتظاره عودة بصير قد زاد من غضبه.

«تمامًا مثل أمك. أكاذيب أكاذيب أكاذيب، احترس وإلا ستصير مجرمًا مثلها. تلك العاهرة تستحق الموت. ليعيننا الله بتلك المحاكم وهؤلاء القضاة الذين يجلسون على مؤخراتهم طوال اليوم دون فعل شيء. كان لدينا عدالة حقيقية في البلد. ذهبت الآن، وتلك العاهرة تسمن في السجن فيما نعتني نحن باليتامى. لقد قتلته. كان عليَّ أن أقتلها حين كان بوسعي».

حتى الآن لم يفعل بصير شيئًا أكثر من مغادرة الغرفة حين يبدأ أبناء عمومة أبيه خطبهم المسهبة العنيفة عن شخصية أمه. كان وأخواته يعتمدون على عائلة أبيهم، وكان يخشى أن يصل الأمر بهم إلى الشارع لو دافع عن والدتهم.

كان من الصعب بما يكفي سماع كاكه فريد يدعو أمه لصة أو مجرمة. وكان الأمر مختلفًا تمامًا حين يدعوها عاهرة. كانت كبرياؤه الغضة تنمو بتحدٍّ.

«تباً لك»، قال بصير بهدوء وحزم، جسده يرتعش. صفعه كاكه فريد، دون أن يتردد لحظة، على وجهه بظهر كفه.

«أنت ابن حرام!»

جاءت عمة تامينا إلى الفناء فورًا لسماعها الصياح. رأت بصير على الأرض، يغطي وجهه بيديه. عينا كاكه فريد الحمراوان تحدقان إليه بحنق، مستعدًا لصفعه ثانية. وقفت بينهما وهي ترفع طرفي طرحتها على كتفيها.

«فريد، ماذا حدث؟»

تجاهل أسئلتها وظل ينظر إلى بصير.

«نصب كمال وزوجته عليَّ. والآن، أطفالهما المتطفلون هنا، وهذا لديه الشجاعة ليرد عليَّ. سألقنك درسًا!»

زعق فريد في بصير.

تقدمت عمة تامينا خطوة أمام كاكه فريد، يداها مرفوعتان لأعلى اعتراضًا.

«إياك أن تلمسه!» صاحت فيه.

اشتعل غضبه. نهض بصير. كانت عمته بنصف حجم فريد فقط.

«لا تقفي أمامي يا ابنة عمي! هذا بيني وبين ابن كمال. أنسيتِ أنهم قتلوا أخاكِ؟»

ارتعش صوتها، لكنها لم تتزحزح.

«لست هنا للدفاع عن شرف كمال. لقد كنت تكرهه. لم تسعكما غرفة أنتما الاثنين ما لم تكونا سكرانين ولا تريان أمامكما».

«اخرسي!»

«إنها الحقيقة. وتأتي الآن تريد استرداد دين مضى عليه قرن من أطفاله؟ اخرج من بيتي. لا يعنيني أنك ابن عمي. أنا لن أدع سكيرًا يعذب ابن أخي!»

كان وجهه على مسافة بوصة من وجهها. بذلت قصارى جهدها لئلا تتراجع إلى الخلف.

«أنتِ مجنونة»، قال ببطء. «لا تتحدثي معي هكذا!»

وقف بصير إلى جانب عمته. الأمر كله مألوف. التوتر نفسه الذي عاشه في بيته آلاف المرات.

«هذا بيتي، وسأتحدث كما أشاء!» أجابت تامينا.

سيظل ما كان فريد سيفعله في تلك اللحظة مجهولًا، إذ خرج كاكه متين من البيت. سمع الصياح ورأى كيف يواجه فريد قامة زوجته الصغيرة الحجم على نحو تهديدي، فأمسك بفريد من قفاه ودفع به نحو الباب.

«ماذا ...» صاح فريد.

«اخرج من بيتنا!» هدر متين قائلًا. رفع فريد يديه إلى أعلى مستسلمًا.

«أنت تستحق أولاد الكلب هؤلاء».

لم يفتقد بصير أمه مثلما افتقدها في تلك اللحظة، في فناء عمته المعتم، حيث الهواء محمل بالسخط والغضب.

ذهب فريد. كانت الفتيات يختلسن النظر عند الباب، أنصاف وجوه تتطلع لترى ماذا يحدث.

تنحنحت عمة تامينا.

«عُدن إلى الداخل يا فتيات. تأخر الوقت ويجب أن تنمن الآن. هيا». قالت وهي تدفعهن إلى داخل البيت. «لا شيء آخر في الخارج هنا».

«أنا... أنا آسف عمة جان»، قال بصير بتردد.

استدارت عمته لتنظر إليه، شفتاها مشدودتان من الغضب. لديها كل الأسباب لتكرهه. كاكه فريد محق. لقد فقدت أخاها وأمهم سجينة بتهمة قتله. كيف لا تكره أطفال زيبا؟

«اسكت»، قالت متألمة. «هذا يكفي الليلة».

وضع كاكه متين يديه في خصره.

«ماذا أغاظه هكذا في جميع الأحوال؟»

«هذا الولد»، قالت تامينا بهدوء. «يعود إلى البيت في وقت متأخر هكذا ولا يقول أين كان».

«لقد كنت... كنت أتمشى فقط»، غمغم بصير. «كان يجب أن أخبرك، لكنني لم أرغب في إزعاج أحد».

«فريد يكره كمال، وهو يصب غضبه علينا جميعًا الآن». تنهدت تامينا، استعاد صوتها بعض الثبات.

شعر بصير برغبة في قول شيء ما. دافعت عمته عنه ويريد أن يخبرها بأنه يقدر لها هذا. لو لم تكن قد قررت أنه وأخواته ليسوا أطفال زيبا بل أبناء أخيها، لكانوا الآن في حال يرثى لها. وهو لن يستطيع تحمل مسؤولية أخواته. «عمة تامينا جان، أنا... أردت فقط أن أعتذر. أنا آسف لأنني السبب في ما حدث. أعرف أنكِ غاضبة من أمي، لكن...»

«أنت لا تعرف شيئًا»، قالت فجأة بيأس. «تظن أن الأمر بسيط لكنه ليس كذلك!»

تراجع خطوة إلى الخلف. هذا تحديدًا ما كان يخشاه. إنها الشخص الوحيد الذي عرضَ أخذهم، لكن حتى كرمها له حدود.

وضع كاكه متين يده على كتف زوجته.

«لا تزعجي نفسك كثيرًا بهذا الأمر يا تامينا، سأدخل».

تفرقت الفتيات عند الباب ليفسحن له للمرور. بالكاد نظر إلى شابنام وكريمة، لمس رأس بناته فقط وأخبرهن جميعًا أن يذهبن إلى النوم.

«أنت لا تفهم»، قالت عمة تامينا بصوت سمعه بصير فقط في الفناء المصمت كالحجر. «لا يمكنك أن تفهم ما فعلته أمك».

انتظر بصير. حتى حين اختفت داخل المنزل، ظل واقفًا بلا حراك. ستعود، توقع، لتخبره أن يذهبوا جميعًا إلى حال سبيلهم. أو ربما كانت في انتظاره بالداخل. أو ربما كانت تجمع ملابسهم القليلة على ضوء المصباح حتى تتخلص منهم في الصباح.

جلس على أحد الكرسيين البلاستيكيين.

ماذا تفعل مادر جان الآن؟ أتفكر فيه وفي الفتيات؟ ألديها أدنى فكرة عن ضعف موقفهم الآن.

لماذا لم تخبري الجميع بما حدث مادر جان؟ لا بد من وجود حقيقة تفسر كل هذا.

حقيقة. عرف بصير حقائق عن أبيه أكثر مما قد يعترف به.

كان هو وأمه يحاولان إنقاذ أحدهما الآخر، فكان ذلك يعود عليهما بالمزيد من الكدمات والصيحات العالية وشتائم أقبح. تذكر عبث الأمر، والمرات التي اختار فيها الانزواء بعيدًا حين

شعر بالرياح الباردة مع عودة والده إلى البيت. لم يكن أنبل شيء ليفعله، لكنه كان يحد من الضرر على الأقل.

خلال العام السابق على مقتل والده، جرب بصير أساليب مختلفة عدة. بدأ -بدلًا من التحالف مع والدته- يمد يده نحو أبيه. إن لم تعرف أمه كيف تتجنب غضب أبيه ربما أمكنه ضرب مثل لها. أخذ على عاتقه تلميع حذاء أبيه في الصباح، كأنه ذاهب إلى مكتب في المدينة وليس ورشة حدادة. كان يعد له الشاي ويرتجل مما وجد في المطبخ من طعام ليضعه في طبق أمامه فور عودته.

وقد نجحت خطته. ورغم كونه مراهقًا، كان يستمتع بكل يوم هادئ كما قد يستمتع جنرال بنصره الاستراتيجي. كان يبتسم في وجه أمه ولا يفهم لماذا لا تشاركه سروره. بدت قلقة. لم يتحدثا عن التوازن الدقيق للقوى في بيتهم الصغير. كان الأمر بالمثل في بيوت أخرى كثيرة يحكمها آباء بقبضة من حديد. مدد السلام فواصل راحة بين العواصف.

لم تكن تدوم وقتًا طويلًا قط. كان كمال ممن يحبون ممارسة سلطتهم ليؤكدوا لأنفسهم أنهم قادرون على شيء. كان يريد من زوجته وأطفاله أن يتصرفوا في حضوره بشكل يؤكد أنه الحاكم. الرجل على صواب لأن أحدًا لم يخبره بالعكس. وكان لديه أسرار، أسرار قذرة وشائنة. وكان يغفر لنفسه كل ذنوبه حين يكون سكرانًا أو غاضبًا أو مشغولَ البال. لكن ظلت لحظات نادرة موجودة، إفاقة صغيرة لضمير أعمق لم يأبه لمواجهته كثيرًا. في تلك اللحظات كان وجهه ينضح بالعار، وقامته تنحني من الرعب.

كان أمرًا لا يُحتمل. لم يكن يتسامح مع أي شخص يلمح إلى أدنى نقص فيه لشعوره بأن ذلك سيجعله ينهار تمامًا. مثلما قد يشد المرء طرف خيط سترة صوفية فتتحول إلى كومة خيط.

لم يكن أبوه سهلًا ليحبه، أقر بصير. *لكنه ربما كان سيتغير. ربما كانت الأمور ستتحسن.*

نهض مع أول أضواء للصباح، رماح صفراء تعبر سماء بنفسجية مغبشة. جلس متربعًا في غرفة المعيشة، حيث ينام ليلًا، بعيدًا عن أخواته وأبناء عمته. ما زال البيت على تنفسه الجماعي. عشيرة نائمة. يكاد يشعر بالجدران تميل وتنحني مع صعود وهبوط صدورهم.

تذكر صندوقه، التجربة التي تركها في الخارج. فكر في أبناء عمته الصغار وأخواته وقرر أنه من الأفضل أن يتخلص من العقرب على الفور، قبل أن تجد هي أو أطفالها مخرجًا من سجنهم. خرج وتوجه إلى خلفية البيت. سيحررها قبل أن يجدها أحد.

كان الصندوق حيث تركه منذ ساعات عدة. ركل بطرف صندله الحجر الذي وضعه على الغطاء ثم استخدم غصينًا ليرفع الغطاء. قفز بصير السجان إلى الخلف، اصطدمت قدمه بجانب الصندوق. شهق برعب لا حدود له وهو يتعلّم حقيقة مريرة.

اندفعت العقرب خارج الصندوق لا تلتفت إلى شيء، تاركة في أعقابها نحو عشرين من العقارب الصغيرة ميتةً نصف مأكولة.

الفصل 24

حدقت زيبا في أمها.

«وماذا قال القاضي؟»

«لم يقل الكثير. لكنه لن يكون أكبر مشكلاتك».

«ماذا فعلتِ؟» سألتها تشعر ببهجة قديمة تنمو بداخلها.

«لا شيء. كان غالبية حديثنا عن حاجة أطفالك إليكِ، قالت جلناز وأشارت برأسها سريعًا نحو الفناء، قبل أن تطرح زيبا سؤالًا آخر. «لماذا يحدق هؤلاء الفتيات؟»

نظرت زيبا من فوق كتفها. فأبعدت لطيفة نظرها فجأة وتظاهرت نفيسة أنها تنظر إلى شيء ما بعيد. لا عجب أن زجّ بها في السجن. الفتاة لا يمكنها الكذب للنجاة بنفسها.

«ربما لأنني حدثتهن عنكِ»، اعترفت زيبا. «أنتِ من الشخصيات اللائي تحب النساء السمع عنها، خاصة من لديهن مشكلات».

«أوه، أهكذا إذن؟ شيء لطيف جدًا أن أعرف أنني ما زلت مثيرة للاهتمام حتى في تلك السن»، قالت وهي ترفع حاجبيها متسلية.

«بالطبع، لطالما ظللت كذلك، حتى وابنتك متهمة بالقتل، ما زلت الأكثر إثارة للاهتمام».

«أأنتِ متأكدة أنهن يحدقن إليَّ أنا؟»

«متأكدة تمامًا».

أحست بتغيير أصاب ابنتها. ظهرها أكثر استقامة قليلًا، عيناها أقل انخفاضًا. زمت جلناز شفتيها.

«لقد فعلتِ شيئًا ما». أعلنتْ.

أخفت زيبا ابتسامة خجلة. فتأكد حدس جلناز.

«ماذا فعلتِ؟» أصرت.

هزت زيبا رأسها، لكن لمعان عينيها كان جليًا.

«زيبا»، همست جلناز بفرح.

«حسنًا يا مادر جان، سأخبرك»، همست زيبا على مضض نصف حقيقي. «كانت فتاة هنا؛ حمقاء، حامل، لديها مشكلات في الحب. مع أن عليَّ أن أعترف أنها ماهرة بطريقة ما. تدبرت أن تزج بنفسها وحبيبها في السجن بعد أن سلَّمت نفسها له. وكان عليه أن يتزوجها ليُطلق سراحه».

«أنتِ تمزحين».

«إطلاقًا»، أجابتها زيبا ببهجة. «أرادت أن تتقدم أسرته لطلب يدها وقد حدث».

«ليتهم لديهم سجن للأزواج معًا»، قالت جلناز. «مع أن الزواج في حد ذاته سجن، أليس كذلك؟»

لم تدهش زيبا. حين اختفى أبوها لم ترَ أمها تنوح على موته كما تفعل الأرامل الأخريات. بل بدت مرتاحة في الحقيقة.

«أخبريني ماذا فعلتِ؟» قالت جلناز مبهورة.

عضت زيبا شفتها السفلى. شعرت كطفلة أمسكتها أمها وهي تحاول تقليدها.

«حدثتها عن الخيط وريش الدجاجة».

«أخبرتها؟»

«أخبرتها».

بدت جلناز حائرة.

«من أين تعلمتِ هذا؟»

«منكِ بالطبع. جعلتني أنزع ريش الدجاجة بنفسي حين فعلناها لنورية جان».

«أوه، كنت قد نسيتها»، شردت جلناز ببصرها في الأفق. كان في الهواء ضباب، كأن السماء قد تمطر. «لم يكن لطيف سيتزوجها قط لولا مساعدتنا. كانت الشائعات في البلدة عن علاقتها به وبابن عمه سيئة جدًّا».

«لو كانت قد فعلت هذا في أيامنا هذه لكانت معي الآن في السجن. عشر سنوات لجريمة الزنا. إنها محظوظة أن اختارت الرذيلة في وقت أفضل. كيف حالها بالمناسبة؟ لا بدّ أن لديها أحفادًا الآن». سألت زيبا بمزاج يميل إلى الدردشة.

«ماتت منذ سنوات. تزوج زوجها المخلص بعد ذلك بثلاثة أشهر».

«ثلاثة أشهر كاملة؟ الحب جميل، أليس كذلك؟» قالت بخبث.

ابتسمت جلناز ابتسامة واهنة. متى صارت زيبا ساخرة هكذا؟ ماذا حدث لابنتها الطيبة؟ التي ظلت دائمًا بعينين دامعتين حتى وهي تغلق الباب في وجه أمها؟

«عمومًا، نفَّذت صاحبتي ووالدتها كل ما أخبرتهما به. لقد فوجئت -لأقول لك الحق- حين سمعنا أن أسرته ذهبت إلى بيتها لطلب يدها. لم أكن متأكدة من أنه سيفلح حقًّا».

«سبع عقد؟»

«سبع عقد»، أكدت زيبا. فابتسمت جلناز بفخر.

«لا بُدّ أن يفلح إذن».

«حقًا... إنها صغيرة جدًا لتدمر حياتها هكذا. ناهيك بالطفل».

«كانت ستدمر حياتها بالفعل لو لم تسحبي مؤخرتها من النار. تخيلي فتاة تختار كل هذه المعاناة»، قالت جلناز بهدوء. «لحظة حرجة واحدة في الظلام».

«إنها محترمة يا مادر جان»، قالت زيبا بنبرة هادئة. نظرتْ إليها جلناز بحاجبين مرفوعين. واصلت زيبا: «لكنني أشك كثيرًا في أنها كانت لحظة واحدة -وبالتأكيد لم تكن- في الظلام».

ضحكت جلناز ضحكة عالية خالية من الهموم. أغمضت عيناها ومال رأسها إلى الخلف قليلًا.

كان عليها التقاط أنفاسها. فما من سور ولا سجن الآن. كانت الأم وابنتها فحسب، تثرثران في وهج الشمس الدافئ. هدأت آلام عظام جلناز وارتخت عضلات عنقها المنقبضة بما يكفي فقط ليمكنها القهقهة دون ألم. سرى نبض دمها إلى أطراف أصابعها، فتحولت إلى اللون الوردي. كانت، في تلك اللحظة العادية، أكثر حيوية مما شعرت به لسنوات.

حين رأت زيبا حال أمها قهقهت بصوت عالٍ كتلميذة.

اغرورقت عينا جلناز بدموع الفرح والأسى. نظرت الأم والابنة إحداهما إلى الأخرى مستمتعتين بصوت الابنة الضائعة. ذاب العالم المحيط بهما.

«مادر، هل أنتِ بخير؟» سألتها زيبا بتردد.

«آه يا زيبا، أنت ابنتي رغم كل شيء، ألستِ كذلك؟»

منذ ستة أشهر، كانت زيبا لتغضب لسماعها هذا. لكنها الآن -لدهشتها- شعرت بفخر. غمزت وفردت قدميها. كانت أرض السجن ملأى بالحصى ولم تحضر معها بطانية.

«لقد تحدثت مع قاضيكِ ومحاميكِ. ذهب المحامي إلى القرية الآن، سيحاول العثور على أي شخص يرى أنك بريئة أو أي شخص يعرف أي شيء مفيد».

«لن يتحدث معه أحد».

«غالبًا. ويبدو أنه ممن يتحمسون حين يشمون رائحة أدنى فرصة. قد يفيدك هذا».

«توجد صفات أسوأ. على ما أظن».

«هل أنت على استعداد لإخباري بما حدث؟» بادرتها جلناز برفق. «قد يمكنني مساعدتك بشكل أفضل إن عرفت».

«تبدين مثله». قالت زيبا وتنهدت.

«ظني كذلك»، قالت جلناز ودست يدها في جيبها لتخرج ثلاث قطع من الشوكولاتة مغلفة بورق أحمر. «أحضرت لكِ شيئًا ما. لتحلية لسانك في ذاك المكان المرير».

أزلقت جلناز قطع الشوكولاتة من خلال السور. أخذتها زيبا من أصابع أمها وتمنت لو أمكنها شدّ يد أمها كلها وذراعها وجسدها أيضًا من بين أسلاك السور.

«أنا أعرفك يا زيبا. قد تظنين أنني لا أعرفك، لكنك دمي. روحك تتحدث معي حتى وإن لم تتحرك شفتاك. لطالما ظللت كذلك».

رفعت زيبا نظرها إلى أعلى. لماذا تردد أمها أشياء غريبة كهذه دائمًا؟ لماذا ظلت عائلتها كلها تعتمد على كونها أكثر ورعًا أو مهارة من الآخرين جميعًا؟

«لا أعرف عمَّا تتحدثين يا مادر. أنا أخبرك بما أفكر فيه ولا شيء أكثر من هذا. أيًا كان ما يتردد في أذنيك منكِ أنت، لم تسمعيه مني».

فضت زيبا غلاف قطعة شوكولاتة وتناولتها كاملة، كانت طرية قليلًا من دفء جسد جلناز. كورت الغلاف في راحتها وشعرت بالشوكولاتة تذوب في خديها من الداخل.

«زيبا، أنا هنا لنفكر في ما يمكنني فعله لك. ثقي بأنني أعرف».

أمها مخطئة. لم تسمعها من قبل قط. ولماذا ستسمعها إن كانت تعرف؟ كانت هي من تتخذ جميع القرارات، ومن باب جنون الاضطهاد، كانت تضع مسافة بينهما وبين أي فرد آخر من العائلة قد ينظر إلى زيبا بقدر من العطف.

«أنتِ دائمًا تعرفين، أليس كذلك؟» قالت زيبا ساخرة.

عضت جلناز شفتها. زيبا جريحة بشدة. أين أخطأت جلناز؟ لماذا عليها أن تخطو بحذر في حديثها مع ابنتها؟

«زيبا، أنا لم آت إلى هنا لأتجادل معكِ».

«لماذا جئتِ إذن يا مادر؟ أأنتِ هنا لأنك لا تريدين رؤيتي في السجن، أم لأنك -جلناز المشهورة- تريدين إخراجي من هنا بسحرك القوي.

أخذت جلناز نفسًا عميقًا.

«لقد ذهبت للحديث مع القاضي يا زيبا، لأنني كنت أعرفه من قبل. قابلته منذ سنوات، قبل ميلادك، جاء لزيارة صفوت الله الكبير ذات مرة برفقة أبيه. كانا يبتهلان لشفاء أخيه الأصغر من

مرض شديد. كان الولد يحتضر، حسب ما أتذكر».

انزعجت زيبا، يصعب الاستماع لأمها فيما يغلي بداخلها مقدار ثلاثين عامًا من السخط.

«يظن أخوه الأصغر أنه نجا بفضل جدك، المرشد».

«ما علاقة هذا بي؟» سألت زيبا بشفتين مشدودتين.

«أُنقِذت حياة. الناس لا ينسون مثل هذه الأمور».

نظرت زيبا خلفها إلى الفناء، تسمع جلناز بنصف اهتمام. رأت لطيفة جالسة على الأرض تستند بظهرها إلى الجدار. بين أصابعها سيجارة غير مشتعلة، طريقتها في الاحتفاظ بها لأطول مدة ممكنة. عيناها مغمضتان عن الشمس نصف المختبئة، وتبدو كالنائمة. هل شعرت بسلام هكذا خلال حياتها قط؟ من وصفها لعائلتها، في الغالب لا.

أرادت أن تنهض وتذهب إلى لطيفة لتجلس بجانبها، تتلامس كتفاهما، ووجهاهما للسماء.

ربما يمكنها منح أمها فرصة واحدة أخيرة. فضت غلاف قطعة الشوكولاتة الثانية. مذاقها بائخ ولا تشعر برغبة فيها، لكن تناولها أسهل من التفكير في مشاركتها مع صاحباتها في السجن.

فردت جلناز أصابعها على أسلاك السور. ظلت زيبا عنيدة كجثة. يوجد احتمال ضئيل أن هذا ما ستكونه بالتحديد إن ظلت أصابع الاتهام موجهة نحوها.

أحفادي المساكين، فكرت جلناز. *لن يروا أمهم مرة أخرى أبدًا*.

«كنت أنا وأبوك زوجين سيئين»، قالت بتردد.

ظلت زيبا صامتة.

«في البدء، كنا محترمين معًا. كنا صغيرين، وبدا الزواج مهمًا وجديدًا. لم أكن أعارضه ولم يكن يعارضني. فعلنا ما ظننا أن على الزوج والزوجة فعله. أنا أطبخ. هو يعمل. نزور أهلنا في الأعياد. لكننا كنا مختلفين. كنا نتجادل. كنا نتجادل حول جدالاتنا. ظل كل منا يجد الأسباب لجعل الآخر غاضبًا.

«كنت إذا عرفت أنه يريد أرزًا على العشاء، أعد حساءً. وكان يترك قشور اللوز على الأرض فقط لأنني أخبرته بألا يفعل ذلك. وصلتُ إلى نقطة حيث لم أعد أحتمل رائحته، لأقول لك الحقيقة. كنا طوال الوقت على قيد شعرة من أن يخنق أحدنا الآخر. تلك أمور فظيعة لأقولها الآن، لكنها الحقيقة».

هدأ غضب زيبا. نبرة صوت أمها مختلفة عن أي وقت سمعتها من قبل.

«لماذا كره أحدكما الآخر بهذا القدر؟ هل فعل شيئًا ما؟»

رفعت جلناز كتفيها.

«أنا لم أكرهه لسبب محدد قط. ولا أعرف من منا توقف عن حب الآخر أولًا. ولكن، ما إن بدأ ذلك حتى فُقد الأمل في التراجع. حين أنظر إلى الأزواج الآخرين من حولي، أرى الكثيرين مثلنا تمامًا؛ يزعق أحدهما في الآخر، يجلس كل منهما في أحد جوانب الغرفة بعيدًا عن الآخر. كنا مثلهم، وإنما بجرأة أكثر. كنا نحن الاثنان نعترف أننا سيئان معًا».

«أتظنين أنه اختار الذهاب إلى الحرب بسبب شجاركما؟»

«من يدري؟»

«لا بدّ أن لديك فكرة ما. لا بد من وجود شيء ما لم تخبريني به».

«أنتِ الآن -من بين الجميع- من تظنين أنني أخفي جزءًا من القصة؟» قالت جلناز مستنكرة.

سكتت زيبا لوهلة ثم سألت: «لماذا لم تخبريني بكل هذا من قبل؟»

«فيمَ كان سيفيدك؟ كان قد رحل. مع ذلك لم يكن أبًا سيئًا لك في تلك السنوات الأولى. لكنك بعد رحيله، صرت بلا أب، لم يكن من سبب للتحدث عنه».

«لكنك تدعينه أبي».

«الأفضل لي أن أدعوه أباك من أن يدعوك الآخرون بنت حرام».

تعرف زيبا أنها محقة، لكنها لم تجرؤ على موافقتها. أنكرت حكمتها منذ وقت طويل مضى. سيكون التعافي بطيئًا.

تقوس ظهرها. شعرت بجسدها متخشبًا. كيف يمكن لجلناز أن تبدو مرتاحة تمامًا وقتًا طويلًا هكذا؟ ألا يضغط الحصى في لحمها كما يفعل بزيبا؟

«ألم تستطيعي إصلاح الأمر معه؟» سألتها وهي تفكر في كمال كما في والدها.. «كنتُ وأنا صغيرة أظنك قادرة على إصلاح أي شيء».

ألقت غيمة عابرة بظلها على وجه جلناز. نبش سؤال زيبا جرحًا قديمًا لم يندمل. لماذا لم تفعل أي شيء بشأن شجارهما؟ بادرت ذات مرة. نزعت خصلة من شعره وهو نائم ومزقت لباسه

التحتي إلى شرائط. قليل من الرماد، قليل من الدم، وسوف يصبح رجلًا مختلفًا.

لكنها لم تزد عن تلك الخطوات الأولى البسيطة. بل تركته يذهب بدلًا من ذلك. كان الأمر بسيطًا كترك حبل طيارة ورقية لتحملها الريح. كل ما عليها ألا تفعل شيئًا البتة.

«كان عقلانا وَحْشيْن، وكنا نروضهما بالخوف من الله ومن عقوبته، لكنهما كانا أحيانًا لا يخشيان شيئًا. حينها كان الأمر يسوء حقًّا».

فهمت زيبا أمها بوضوح. في الأشهر الأخيرة التي قضتها مع زوجها، كانت تشعر بقبح استثنائي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل 25

كان الوقت منتصف الظهيرة في شيل ماهتاب قبل أيام قليلة من عيد الأضحى. ارتفعت درجة الحرارة في السجن إلى ما يزيد على المئة. النساء اللاتي يجب أن يكن في بيوتهن للتحضير للعيد يذبلن داخل جدران السجن العالية بدلًا من ذلك. كان من المفترض أن يجعلهن الحر هامدات، لكنهن لم يكنّ كذلك.

أضاء نجاحُ زيبا مع مزجان سجنَ النساء بنور الأمل.

ظل فيض ثابت من النساء يتدفق إلى زنزانتها. في البدء، حاولت الحارسات منعهن من التجمع، لكنهن سرعان ما استسلمن. كانت النساء مصرات وكانت الحارسات فضوليات.

«هل ستدعينني أتحدث؟ لقد نلت فرصتك!» قالت بيبي شيرين -امرأة عجوز في سن جدة زيبا- وهي تدفع النساء من طريقها لتتقدم إلى أول الصف. «زيبا جان أنتِ أمّ. يجب أن تفهمي، لقد وقع ابني في حب فتاة، وحين هربا معًا وجدهما أخوها وقتله. لقد سجنوني لأن ابني قُتِل ويجب عليهم سجن شخص ما، ويريدون تزويج ابنتي لأحد القتلة ثأرًا من ابني. ظللت هنا ثلاثة أعوام وما زال أمامي سبع وعشرون أخرى. أترين شعري؛ أبيض كقشر الثوم؟ سأموت هنا! ماذا يمكنك فعله لي؟»

«إنهم حمقى. بيبي شيرين، لم يكن لدي أدنى فكرة أنّ أمامك سبعًا وعشرين سنة أخرى. هذا عار»، قالت لطيفة بقرف واضح. كانت تجلس على حافة فراشها تستمع للالتماسات. تكتشف عن السجينات أشياء لم تعرفها خلال الثمانية عشر شهرًا التي قضتها في شيل ماهتاب.

«أخبريني زيبا جان. ماذا أفعل؟ سمعتُ ذات مرة أن ريش الحمام الأبيض يجلب العفو، لكنني لا أثق بمن أخبرني بذلك. أما أنت فسأفعل كل ما ستقولينه».

استمعت لها زيبا بهدوء ثم أجابتها: «سأفكر مليًا في موقفك».

جاءت النساء زرافات بأنواع الالتماسات شتى. سرعان ما اعتادت زيبا مَن يردن موافقة العائلة على الحبيب. ولكن، في السجن نساء متهمات بما هو أكثر من تعقيدات الحب. الكثيرات منهن، بسبب جرائم متنوعة، محكوم عليهن بتهمة الزنا الفضفاضة. بعضهن بالشروع في الزنا، وأخريات بمساعدة أخريات على الزنا. فتاة في الثامنة عشرة من عمرها هربت من زوجها العجوز. امرأة تركت زوجها بعد أن زوّج ابنتهما ذات الاثني عشر عامًا مقابل المال. وأخرى قبض عليها لأن شخصًا غريبًا بلّغ الشرطة أنه رآها تغادر مكتبًا خاصًا برجل.

توسلن جميعهن لزيبا أن تساعدهن. يردن رفق القاضي. تفهُّم عائلاتهن. الطلاق. كان السجن يعج بالحكايات عن الجنس والحب والطلاق.

زنا. زنا. زنا.

جاءت إليها امرأتان معًا.

«هيا، أخبريها أنتِ»، قالت الأكبر سنًا منهما، كاحلاها مخضبان بالحناء. ظنتهما زيبا في البدء أمًا وابنتها لكنها عرفت سريعًا أنها مخطئة.

«قُتِل زوجنا على يد أبناء عمومته، لكن عائلته اتهموننا. هم الآن أحرار ونحن هنا. لم نفعل شيئًا، لكن لا يبدو أن أحدًا يهتم بشيء. ماذا نفعل؟»

«كنتما أنتما الاثنتان زوجتيه؟»

«نعم»، أجابت الأكبر . «كنت أنا زوجته الأولى. ثم تزوجها. كان رجلًا محترمًا. كان لديه قطعة أرض ظل أبناء عمومته يطمعون فيها لسنوات. في النهاية قتلوه بسببها. جاء ثلاثة منهم إلى البيت وقيدوه وقتلوه. باتهامنا نحن الاثنتين يسهل عليهم المطالبة بالإرث».

عضت زيبا شفتها.

«دعاني أفكر في الأمر»، قالت. «لست متأكدة مما سيكون الأفضل...»

لم تكن تعرف شيئًا في الحقيقة. لم تتعامل جلناز مع مشكلات من هذا النوع قط، لكن هذا لا يعني أنها هي لا يمكنها. لم تسنح لها الفرصة فقط.

مادر، كنتِ ستقضين أفضل أوقات حياتك في هذا المكان.

جمعت زيبا الوصفات من طفولتها، تذكرت ماذا فعلت جلناز في مواقف مشابهة.

«هذا المكان، تلك الجرائم... كل ما يحدث هنا ظلم»، أعلنتْ. ترددت موافقة كورس نسائي في الزنزانة الصغيرة. «إنه عبء كبير أن يُولد المرء امرأة».

ما لا يمكنها النطق به يأتيها أحيانًا في قافية.

يعرفون أنها نعمة كبرى أن وُلدوا ذكورًا

لأنهم من دونها سيحكم عليهم بقسوة سريعًا».

انفجرن جميعًا بضحك.

«ماذا قالت؟» تناقلن المقطع كحلقات السلسلة من الزنزانة إلى الرواق، صالون التجميل، وما وراءه. كررنه لأنفسهن، لا يردن نسيان الكلمات التي يجب تعليقها شعارًا تحت اسم السجن.

«زيبا، لن تغسلي ملابسك بنفسك مرة أخرى، سأغسلها لكِ بمسحوقي الخاص إن ساعدتِني».

قالت امرأة تقف أمامها وبجوارها طفلان لكل منهما عينان واسعتان. بدوَا كفرخين صغيرين يختبئان تحت جناحي أمهما. لاحظت زيبا ضمادة على معصمها الأيسر. كانت قد رأتها تفك شريط القطن ذاك وتلفه مجددًا حول معصمها ذات يوم في الحمامات، تدير ظهرها لتحظى بخصوصية. ما زالت تتذكر منظر صف ضئيل من علامات تشريح متقرِّحة يبدأ من منتصف ساعدها حتى معصمها.

«ملابسي؟» سألتها زيبا بدهشة.

«الآن هذا عرض يستحق التفكير فيه، لو كنت مكانك لوضعت طلبها أعلى القائمة أيًّا كان. لكن هذا رأيي أنا». قالت لطيفة وهي تدير قرص التلفاز بين المحطات. حين وصلت إلى قناة تولو، توقفت فجأة وصفقت بيديها. حولت زيبا والنساء الثلاث اللاتي في انتظار التحدث إليها انتباههن جميعًا إلى التلفاز.

«إنها النهائيات! سيعلنون عن الفائز اليوم»، أعلنت لطيفة. «كيف نسيت هذا؟»

وقف شابان على خشبة المسرح، كل منهما يمسك بميكروفون بتوتر وينقل وزنه من قدم إلى أخرى. يقفان أمام هيئة تحكيم فخيمة مكونة من ثلاثة رجال وامرأة، من أشهر الشخصيات في

عالـم الموسـيقى فـي أفغانسـتان. يرتـدي أحـد الرجـال توكسـيدو، والاثنـان الآخـران يرتـدي كل منهمـا قميصًـا بياقـة كأجنحـة الفراشـة تحـت سـترة، أعناقهـم مزدانـة بحلـيّ فضيـة لامعـة، النـوع الـذي يفضلـه الموسـيقيون فقـط. ترتـدي المـرأة ذات العينيـن المكحلتيـن بشـدة قميصًـا لونـه بيـج بكميـن طويليـن لامعيـن ولفـات مـن سلسـلة ذهبيـة رفيعـة. تتدلـى خصـلات شـعرها الأسـود الداكـن علـى كتفيهـا كخلفيـة لقرطهـا الذهبـي المتدلـي.

اسـمها فريحـة، وتمثـل كل مـا يفتقـر إليـه نسـاء السـجن. تتزيـن بالحلـي وتجلـس فـي غرفـة مـلأى بالرجـال. جمهـور يحـب صوتهـا. تجلـس فـي كرسـيها مسـتندة للخلـف بأريحيـة حاكـم لا ينافسـه أحـد. تـألقـت وهـي تهنـئ المتنافسيْن علـى أنغـام صوتهمـا وأدائهمـا. فركـت يديهـا معًـا وأخفضـت أهدابهـا المكحلـة وأعلنـت: «أنـا أختـار... عيسـى جـان هـو الفائـز!»

تحركـت الكاميـرا إلـى عيسـى، شـاب بشـعر مجعـد وابتسـامة خجـول. رفـع المذيـع يـد عيسـى اليسـرى فـي الهـواء بانتصـار. وقـف الجمهـور -شـباب فـي عشـرينياتهم- وصفـق بقـوة.

«عيسـى!» صاحـت لطيفـة. «كنـت أعـرف أنـه سيفوز. إنـه الأفضـل حتـى الآن. أتعرفـن أنـه مـن بلـدة أمـي».

«أوه، حقًّـا؟ مبـارك للعائلـة كلهـا إذن»، غمغمـت نفيسـة. جلسـت متربعـة أمـام فراشـها، تقلـب فـي مجلـة نسـائية.

«زيبـا جـان»، واصلـتِ المـرأة كلامهـا. «وكنـت أقـول، سـأغسـل لـكِ ملابسـك إن سـاعدتني علـى الخـروج مـن هنـا قبـل أن يبلـغ ولـداي السـابعة ويُؤخـذان منـي».

جعلت حقيقة أن الولدين توأمان الوضعَ أكثر بؤسًا بطريقة ما.

«كم عمرهما الآن؟» سألت زيبا وهي تلمس رأس أحدهما. كان السجن مملوءًا بعدد لا يُحصى من الأطفال يسيرون هنا وهناك في الغرف على نحو يذكر زيبا بالمدرسة الابتدائية.

«خمس سنوات، وقد بدأت الحارسات بالفعل التحدثَ عن إرسالهما إلى دار الأيتام مع آخرين»، قالت المرأة بصوت متهدج. «لا يمكنني تركهما. لقد ظللت على قيد الحياة حتى الآن فقط لأنهما معي».

«أمكثتِ هنا ست سنوات؟»

أومأت المرأة برأسها. كانت أصغر من زيبا لكنها غضَّة كالمراهقات. لكن بالحكم من سن ولديها، لا بدّ من أنها في عشرينياتها.

«لماذا أنت هنا؟»

التصقت لطيفة بالتلفاز. كان الفائز في المسابقة -عيسى- يشدو بأغنية نصره. يصفق الجمهور معه، يهللون له. وكانت فريحة تتمايل بكتفيها مع اللحن استحسانًا.

نظرت الأم الصغيرة إلى ولديها ثم حولها في الغرفة. تحدثت بهدوء شديد إلى حد أن كان على زيبا نفسها أن تميل لتستمع إلى قصتها المؤلمة جيدًا.

«لقد هاجمني ابن عمي في البيت. حاصرني في ركن في غرفة وأخبرني بأنه سيقتلني لو صرخت. لم تصدقني عائلتي وحين ذهبت إلى الشرطة، ألقوا القبض عليَّ».

«ألقوا القبض عليكِ؟»

«لا أحد رأى أو سمع ما حدث. قالت الشرطة إنه لو كان اغتصابًا لكنت صرخت. قبضوا عليَّ بتهمة الزنا لأنني لم أصرخ. كنت في السجن بالفعل حين عرفت أنني حامل. وما إن عرفت عائلتي بهذا لم أسمع منهم شيئًا قط».

راقب الولدان زيبا، يترقبان رد فعلها. ابتسمتْ لهما سريعًا. لقد سمعا القصة من قبل، يمكنها ملاحظة هذا.

«لأنك لم تصرخي...» رددت زيبا. هزّت الكلمات وجدانها. «لكنك لم تصرخي لأنك كنت مرعوبة؟»

«كان معه سكين»، قالت بفتور. شعرت زيبا بأنها قالت هذا آلاف المرات بلا جدوى.

فركت عينيها، قصص كثيرة جدًا، أكثر من أن تحتمل. لن يستطيع سحرها إطلاق سراح سجن كامل من النساء المحكوم عليهن. لا عمل سيغير واقع قياس قيمة المرأة، وبدقة علمية، بالدم. المرأة صالحة بمقدار قطرات الدم التي تسقط منها ليلة زفافها، بمقدار الدم الذي تفقده مع كل تحول للقمر، والنهر الصغير المنسكب منها حين تمنح زوجها أطفالاً. بعضهن يحكم عليهن بنهاية حتمية، تفريغ عروقهن من الدم، للتكفير عن ذنوبهن أو عن ذنوب الآخرين.

«لم تقولي شيئًا عن إطلاق سراحك»، لاحظت زيبا. «أتريدين أن يظل الولدان معك فقط؟»

«سراحي؟» ضحكت بهدوء وهزت رأسها. «إطلاقًا. أنا لا أعرف ماذا سأفعل إن خرجت من هنا. لن تقبل بي عائلتي. ليس لديَّ أصدقاء لاستضافتي. لديَّ ولدان وقصة لا أحد يرغب في

سماعها أو تصديقها. سيُؤخذ الولدان مني حين يتمان السابعة، وأنا -رغم كل شيء- لا يمكنني... لا يمكنني تخيل حياتي هنا دونهما».

جفل الولدان. ارتعشت شفة أمهما السفلى.

كانت لطيفة تقلب المحطات مجددًا. تظاهرت نفيسة أنها تتصفح المجلة لكنها كانت تنظر إلى المرأة وولديها. بدت مرتاحة لأنها ليست في موقفها. كرهت زيبا أن تنهي حوارها مع كل واحدة بلا شيء سوى الوعد، لذلك فكت الحجاب الذي شبكته بدبوس أمان في جيب صدر ثوبها. وخزت الإبرة إصبعها فسالت قطرة دم. مسحتها زيبا في تنورتها وشبكت الحجاب الذي أتتها به أمها من جواد في ياقة المرأة الشابة من الداخل.

«خذي هذا الآن. سأفكر جيدًا جدًّا في ما يمكننا عمله». وعدتها زيبا وأحست حتى وهي تردد الكلمات بمدى عبثها.

جلب اليومان التاليان المزيد من القصص. صار فيض النساء أكثر ثباتًا. كن يتبعن زيبا إلى زنزانتها أو يجدنها في الفناء أو يتقربن إليها في الأروقة. لم تكن معتادة على هذا القدر من الاهتمام. كن يشددن على يديها بين أيديهن. أحضرن لها مرايا صغيرة وأصابع أحمر شفاه. عرضن عليها أن يغسلن لها شعرها أو أن تستخدم هواتفهن المحمولة المهرَّبة، ما لم يجدها أي نفع. ليس لدى تامينا هاتف، وحتى إن كان لديها، الأرجح أنها لن تجيبها. حاولت رفض الهدايا والخدمات لكنهن كن يتركن لها الهدايا على الفراش دون اسم أو يؤدين لها الخدمات قبل أن يمكنها الاعتراض. إن كانت الرشوة ممارسة موجودة في العالم الخارجي، فهي فن مُتقن في السجن.

«لديَّ مشكلة مشابهة، لكنها تتضمن زوجي وعروسه الجديدة. لقد زَجّ بي في السجن ليتزوجها دون أن أقف في طريقه. إن زفافهما الليلة، وأنا أريد عملًا يجعله رخوًا كالشعيرية».

كانت امرأة أخرى تدفع بمرفقيها النساء في طريقها داخل الغرفة.

«أنا لا أحاول تدمير حياة أحد، لديَّ فقط طلب بسيط. ظل شعري يتساقط على هيئة كتل منذ جئت إلى هنا. انظري يا أختاه. انظري إلى هذا فحسب!»

أخفضت رأسها أمام زيبا وأزلقت طرحتها على عنقها. حركت أصابعها في شعرها لتُريها رقعًا بيضاء من فروة رأسها.

«غسلته بالطين الأحمر. وبالبيض النيئ. أحضرت لي أختي زجاجة زيت شعر من الهند، لكن لم يفلح شيء. لا بدّ من أنك تعرفين شيئًا ما لمساعدة شعري، أرجوكِ!»

نظرت زيبا إلى لطيفة وتنهدت بعمق.

صارت لطيفة مديرة أعمالها. كانت تجلس بجوارها وتحدد لكل زائرة دورها. حين ينال التعب من زيبا ولا يمكنها الاستماع للمزيد من القصص كانت تنظر إليها. بإيماءة من رأسها، تبدأ لطيفة في صرف النساء خارج الغرفة.

«حان وقت الانصراف!» أعلنت لطيفة تصفق بيديها السمينتين. أطفأت التلفاز ودفعت المرأة إلى الخارج بيدها على ظهرها قائلة: «لقد خلق الله الحجاب لمثل هذه الحالات، سبحانه، ألا ترين حكمته؟ وخانوم زيبا ليست طبيبة أو صيدلانية، وإن سألتني رأيي، سأخبرك بأن عليكِ الكف عن النميمة. ما تقولينه عن

صاحباتك في السجن، عار عليك. في الغالب عملت إحداهن عملًا لشعرك. ألم تفكري في هذا من قبل؟»

تجهمت المرأة في وجه لطيفة ودفعت يدها بعيدًا عنها.

أرادت زيبا أن تساعدهن جميعًا، لكن الالتماسات كثيرة جدًّا ولم يكن حتى سحر جلناز يعمل طوال الوقت. كان أحيانًا ما يغلبه عمل أقوى، كما أوضحت جلناز من قبل، وأحيانًا يُبطله الله. كذلك تعرف زيبا أنها ليست جلناز. عيناها بنيتان عاديتان، بشرتها تشي بسنها، قناعتها يُضعفها الشك. إنها تلميذة في حين تحتاج النساء إلى أستاذ. مكتبة سُر مَن قرأ

أغلقت لطيفة باب الزنزانة.

«شكرا لكِ». قالت زيبا بهدوء.

رفعت لطيفة كتفيها. راضية تمامًا بمنصبها الجديد. تعرف زيبا أن لطيفة هي الأخرى أُغرقت بهدايا النساء اللاتي يردن زيبا أن تصغي إليهن. يتلقى الجميع الهدايا طوال الوقت، حرس السجن، ضباط الشرطة والقضاة. وبالنسبة إلى لطيفة، فأن تأخذ دورها في هذا، يعني ترقّي مكانتها.

«أريد أن أخرج من هذه الغرفة قليلًا»، قالت زيبا وهي تروِّح عن نفسها بمجلة مجعدة. توقفت المروحة الكهربائية في غرفتهن عن العمل منذ أسبوع. «أريد بعض الهواء».

«بالطبع»، قالت لطيفة، «سأذهب إلى صالون التجميل لأرى ماذا يفعلن هناك».

الأرجح أنها سترتب بعض أعمال الغد، عانت زيبا شعورًا كالغرق حين خرجت من الزنزانة. ليس لديها طاقة للمواجهة.

تريد بشدة أن تساعدهن جميعًا، أن تفتح الباب وتطلق سراحهن أو تعدهن بأن أطفالهن سيبقون معهن إلى الأبد. لكنها ليست محامية أو قاضية. لا يمكنها فعل شيء بالرّشى المقدمة لها، ولا تعرف حتى إن كانت سترى أطفالها مرة أخرى أم لا. كان السجن، بصالون تجميله وأجهزة تلفازه والرسومات الملونة على جدرانه، قبوًا. امتص الظلم بداخله طاقتها كلها. مررت يدها على كتابة بقلم أحمر خطَّها طفلٌ بدأ تعلم الأبجدية لتوه. الأطفال هنا من يثيرون حزنها أكثر من أي شيء.

«مادر جان!»

التفتت زيبا بسرعة. شابنام؟ كريمة؟

«مادر!»

يُضعفها أي صوت طفل يتردد في الرواق البارد، حتى وإن لم يكن طفلها. تلتفت كل مرة، رغم مرور وقت طويل جدًّا منذ أن ناداها أحد.

جاءت فتاة في السادسة من عمرها، بصندل بلاستيكي، وثوب بألوان زاهية تركض في الرواق. بدا أن طرفي بنطالها التحتي سيعلقان تحت قدميها.

«على مهلك! على مهلك!» حذرتها زيبا.

أبطأت الصغيرة ركضها ونظرت إلى زيبا بفضول. ذكرت استدارة وجهها وخصلات شعرها المتطايرة وغمازتاها زيبا بكريمة. فدمعت عيناها.

«ماذا يا حلوتي. لماذا تنادين أمك؟ أتفتقدينها؟»

«لا، أنا... أوه... أنا أريدها فحسب».

دار رأس زيبا قليلًا. لم تتناول غداءها بسبب زيارات النساء. جلبت لها لطيفة ماءً، لكنها لم تلمسه.

«ثوبك جميل جدًّا».

كانت كريمة ترتدي ثوبًا كثوب تلك الفتاة يوم موت كمال. كان ثوب شابنام قبل أشهر قليلة مضت. لا بدّ من أنهما كبرتا منذ أن تركتهما. لا بدّ من أنّ ريما تعلمت كلمات قليلة الآن. ربما بدأت تركض.

لم تستطِع صرفهم عن ذهنها. هل تعتني بهم تامينا حقًّا؟ حين تبكي ريما ليلًا، هل يهدهدها أحد؟ هل تعمل الفتاتان في البيت كالخادمات، هل ستزوَّجان ثأرًا لمقتل أبيهما؟ ليسوا سوى أطفال. دعتْ بتضرع أتقى المؤمنين ألا يلومهم أهل أبيهم على مقتله.

تذكرت وجهي الولدين التوأمين، كيف جفلا لسماع الجرم المرتكب في حق أمهما. أكتاف ضئيلة تحمل عبئًا مهولًا.

ركعت على ركبتيها، أمسكت يدي الفتاة الصغيرة المذهولة بين يديها، قلبتهما وحدقت إلى راحتيها الورديتين.

للأطفال أيادٍ رائعة جدًّا، ناعمة جدًّا ومتلهفة للتعلق بأي شخص يحبهم. هل تمسك ريما يدي عمتها؟ هل حاولت التقام ثدي عمتها؟ هل جذبتها عمتها إليها لتنسى زيبا أم دفعتها بعيدًا عنها وتركتها لتتساءل لماذا؟

جاء ولد صغير. من طريقته في إمساك يد الفتاة الصغيرة والسير بجانبها إلى حد تلامَست كتفاهما، خمنت زيبا أنه لا بدّ من أن يكون أخاها رغم أن فارق السن بينهما لا يتجاوز عامًا.

«أنت أخ جيد جدًا! جميل منك أن تعتني بأختك الصغيرة. سيجازيك الله خيرًا لاهتمامك بها. ما اسمك؟»

تبادل الأخ والأخت نظرة ثم أجاب الأخ ببطء: «اسمي بشير».

مالت زيبا برأسها إلى الخلف وضحكت. مسحت دموعها ثم مالت إلى الأمام لتحكي قصتها.

«ابني اسمه بصير! أتعرفا هذا؟ إنه أكبر منكما. ولد رائع هو الآخر. كان وهو في سنك يعتني بأخواته الصغيرات. لا بدَّ من أن أمكما تحبكما أنتما الاثنين كثيرًا. لا تتركاها أبدًا، أتسمعان؟ أيًا كان ما سيقوله الآخرون عنها، لا تصدقوهم. حتى ولو قالوا عنها عاهرة أو كاذبة أو قاتلة أو....»

نظر الطفلان إلى ما وراءها، الحارسة ويوسف. يقفان خلفها، يستمعان لتحذيراتها الشديدة اللهجة.

لم تسمعهما زيبا يناديانها.

«إن الناس لا يعرفون شيئًا. يقولون أشياء فظيعة، لكنهم لا يعرفون ما حدث حقًّا».

تراجع الطفلان خطوة إلى الخلف، ثم خطوتين.

«أأنتما خائفان مني؟ لا تخافا أرجوكما! أنا لست مخيفة! أنا آسفة جدًّا. أردت فقط أن أتحدث معكما!»

شعرت بأيدٍ على مرفقيها، تعينها لتنهض على قدميها.

«لماذا تهربان مني!» صرخت زيبا. «لست أنا من عليكما الركض منها! أقسم لكما أنني لستُ أنا!»

سمعت صيحات، نداءات للحارسات ليأتين للمساعدة، شعرت بالمزيد من الأيدي عليها حتى وهي تركل بقدميها. سقطت طرحتها على الأرض.

«دعوني! دعوني! أنا لم أقتله!»

مالت عليها لطيفة.

«اخرسي زيبا! أنتِ تخيفين الطفلين! انظري إلى ما فعلته!»

لكنها لم تكن قد فعلت أي شيء. لماذا لا يفهم أحد هذا؟ لماذا يواصل الجميع لومها هي؟»

«زيبا»، قال يوسف. كانت أسما وحارسة أخرى يمسكان زيبا من مرفقيها. ركبتاها مثنيتان، وتتلوى في قبضتهما. «قفي بشكل سليم!»

أمسكت لطيفة وجه زيبا بيديها؛ يدان سمينتان ذكوريتان جعلت قدم زيبا تركلها في ساقها، فتركتها متألمة بشدة.

آلم زيبا رأسها أيضًا، شعرت برغبة في ضربه بالحائط لتُخرج منه السم. *الجماجم البشرية ليست بأقوى من قشر البيض في جميع الأحوال*، فكرت. *وحتى الطفل يمكنه كسر البيض*.

«أبعدوا أيديكم عني! أنتم من جلبتم تلك القذارة إلى بيتنا. كان بإمكاني تذوقها وشمها ولمسها وأخبرتوني بأنها لا شيء! كان عليَّ قتلكم منذ وقت طويل!»

«خانوم زيبا، أرجوكِ، كفى صراخًا...»

«خذها إلى غرفة المقابلة وراقبها حتى تهدأ. أنا لن أتسامح مع هذه التصرفات في السجن هنا»، قالت المديرة عاقدة ذراعيها على صدرها. أخرست كلماتها الصراخ وجعلت زيبا تهدأ. فردت رجليها، ووقفت على قدميها وحدها.

«هذا ليس سجنًا. السجن في الخارج، هناك»، قالت زيبا بصوت مبحوح. «لست أمَة أحد. لست سجينة أحد. اللّه شهيدي، أنا حرة طليقة!»

«ليس لوقت طويل، أنا متأكدة. بربك يا زيبا. أنت مجنونة كما كنا نظنك دائمًا»، صاحت لطيفة من مسافة بعيدة بما يكفي عن مرمى قدم زيبا.

راقبها يوسف بحرص والحارسة تقودها في الرواق، ظهرها الآن مستقيم بكرامة لا يبديها سوى المجانين. ربما كانت لطيفة محقة، فكر.

ربما، ربما فحسب، كانت زيبا مجنونة كما تبدو حقًّا.

الفصل 26

وقف يوسف مع المأمور حكيمي عند باب بيت زيبا.

دفع حكيمي الباب.

«هذا هو مسرح الجريمة»، أعلن بشكل مسرحي. «جمعت ما أمكنني من أدلة. كان واضحًا أنها قتلت زوجها».

دخلا الفناء، صدم غياب الحياة يوسف بأقوى مما صدمته ظلال الموت. كان ذلك بيتًا، ويبدو أن أشباح قاطنيه حاضرة. كاد يسمع أصوات الحياة اليومية في الفناء: صوت احتكاك المغرفة بالإناء الألومنيوم، الرائحة اللاذعة للبصل والثوم المشوحين، الضحكات الناعمة لأخوات يتشاركن الأسرار، همهمة أم لأطفالها عند قدميها.

ذهبوا جميعًا.

«أين كانت خانوم زيبا حين وصلت؟»

«هناك»، قال حكيمي وهو يشير إلى الجدار الأمامي للبيت. «كانت تجلس على الأرض والجيران جميعًا حولها. كان أطفالها يرتعشون. كانت في حالة مزرية. كان الدم على يديها قد جف بالفعل. الطفلة تبكي. لم أعرف منذ متى كانت تجلس هكذا. لم تقل الكثير».

الحمد لله على هذا، فكر يوسف.

«كان الناس قلقين جدًا. لا أحد يعرف ماذا يفعل. لم يحدث شيء كهذا في بلدتنا من قبل. لم تستطِع النساء تصديق ما فعلته، لكنه يحدث».

«ما الذي يحدث؟» قال يوسف دون أن يلتفت إلى المأمور. شعر بأن النظر إلى هذا الرجل في عينيه لا يريحه، وأراد أن يسمع أفكاره بلا تنقيح.

«تفقد النساء صوابهن. ربما فعل شيئًا ما ليجعلها هكذا. لا أعرف. لم أكن أعرف أيًّا منهما جيدًا، لكنني أعرف بقية عائلته. هذا الأمر صعب جدًّا عليهم».

«تظن إذن أن خانوم زيبا ثارت ثائرتها وقتلت زوجها؟»

«نعم، هذا... حسنًا، لماذا إذن ألقيت القبض عليها!» أجاب حكيمي بدفاعية.

«بالطبع. كان أي شخص في موقفك ليفعل ما فعلته»، أكد يوسف. أبقى نبرته عادية وودودة. «كما تصف الأمر، لا يوجد سبب واضح للتفكير في أن خانوم زيبا *ليست* من قتلت زوجها. لكن دعني أسألك سؤالًا. بينما كنت هنا مع الجيران والأصدقاء، هل جاءك أي أحد ليقول إنه سمع الصياح أو رأى شيئًا غير طبيعي ذاك اليوم؟ ربما شخص ما آخر يدخل إلى البيت أو يخرج منه؟ أنا لا أقول أنك كنت مخطئًا، لكنني مهتم فقط بمعرفة الجوانب الأخرى للقصة التي يجب التحقيق فيها».

تخشبت كتفا حكيمي.

«أنا لست في انتظارك لتخبرني أنني فعلت الصواب. أنا أعرف أنني فعلت الصواب. أنا مأمور الشرطة هنا. ينبغي أن تسأل عمَّا فعلته عزيزتك خانوم زيبا، وليس عمَّا فعلته أنا! من أين أنت، في جميع الأحوال؟»

جاء دور يوسف ليحتد.

«أنا لا أحقق معك. هذا سوء تفاهم. أنا فقط أحاول أن أحيط بالقصة كلها لأتمكن من أداء واجبي والدفاع عن خانوم زيبا بشكل معقول».

«افعل ما ينبغي لك إذن. سأنتظرك هنا حتى تنتهي»، تأفف حكيمي واستدار ليجلس على دلو بلاستيكية مقلوبة في الفناء. «لا تلمس أي شيء. سأراقبك».

«بالطبع. سأستغرق دقائق عدة فقط».

قال يوسف وأخذ نفسًا عميقًا. كيف سارت المحادثة على هذا النحو السيئ؟ كان ينوي مصادقة حكيمي، جعله حليفًا. تجول في البيت. لا شيء غير عادي. تنتشر في منطقة المطبخ الصغيرة أشياء قليلة، كأن أحدهم سيعود إليها في أي لحظة ليستأنف ما كان يفعله. الغرف صغيرة وبسيطة بوسادات أرضية وأريكة صغيرة بذراعين خشبيتين. يوجد ترموس على الأرض في غرفة المعيشة بجواره كوب زجاجي ملطخ بدوائر بنية. يوجد بساط مزخرف باللونين البني والأصفر معلق على الحائط بمسامير، طباعة هندسية تتناسب مع طباعة السجادة. خرج من الباب الخلفي إلى الفناء الصغير خلف البيت. تعرف على المشهد من وصف رفيع ومن تقرير الشرطة. كان المرحاض حيث توقع أن يكون، وكذلك شجرة الإجاص. في الركن أجمة الورود المنعزلة، تبدو كأنها تحاول التقهقر بعيدًا عن البيت تقريبًا.

أهنا حيث وجدت جثة كمال؟ كاد يرى بقعة الدم على الأرض رغم مرور أسابيع عدة وهطول الأمطار مرات عدة منذ مقتل كمال.

«هذا هو كل شيء».

أذهل صوت حكيمي يوسف، الذي كان يجثم على الأرض عند موضع العثور على الجثة.

«نعم، لا شيء غير طبيعي، أردت فقط أن أرى بعيني».

«لنذهب إذن. لا أريد أن يظن الجيران أن مأمور الشرطة يساعد محامي زيبا».

«بالطبع. لكنني أعتقد أنها بريئة، وجمع المعلومات مسألة مهمة للدفاع عنها. أنت شخص عادل، ألاحظ هذا».

«أنا كذلك»، وافقه حكيمي، يداه في خصره. «لهذا أنا في هذا المنصب. إنها مسؤولية كبيرة، لكنني آخذها بجدية. أغلب من في منصبي لا يفعلون هذا وهذه هي المشكلة».

«أنا متأكد من هذا»، قال يوسف وهو يومئ برأسه. «ما زال لديَّ سؤال واحد يا حكيمي صاحب. في أي وضع كانت جثة الزوج حين وُجِدت؟»

«لم يكن يتحرك. كان ميتًا فقط».

بدا استخفافه بيوسف واضحًا تمامًا في نبرة صوته.

«أعرف أنه كان ميتًا حين وجدتموه، أقصد كيف كان وضع جسده؟ كان هنا، صحيح؟»

رفع حكيمي ذقنه ونظر شزرًا.

«كان... كان على بطنه، رأسه مائل في مواجهتنا».

«أين كانت الفأس؟»

«هناك»، تحرك حكيمي نحو الجدار الخلفي للبيت، ليس بعيدًا عن الباب الذي خرج منه يوسف لتوه.

«وهل هناك أي أدلة أخرى؟ أي شيء آخر وجد هنا أو في الداخل قد يبدو غير طبيعي؟»

«بدا كل شيء مثلما هو فقط. ما تراه الآن هو ما رأيته أنا ذاك اليوم، ما عدا الزوج الميت والزوجة والفأس. لا يمكنك تعقيد ما هو بسيط بطرحك الكثير من الأسئلة».

«أنا لا أحاول هذا. فقط لم تسنح لي الفرصة لرؤية الأمر بعينيّ لذلك أسألك. هل كان في داخل البيت دم؟»

«لا»، قال حكيمي، لكنه في الحقيقة لم يتفقد البيت. فيمَ يهم هذا؟ إن كانت زيبا قد لطخت البيت بالدم، هل سيجعلها هذا مذنبة أكثر أو أقل؟

تنهد يوسف.

الطب الشرعي في أفغانستان أمامه طريق طويل. عرف أنه لن يتمتع برفاهية تحليل الحمض النووي. ربما بصمات الأصابع، لكن أحدًا لم يهتم برفع شيء.

«كيف حال الأطفال؟ أعرف أنهم يعيشون مع عمهم. هل سمعت عنهم أي شيء؟»

«ماذا سأسمع؟ فقدَ المساكين أباهم وأمهم. على الأقل لديهم مكان يعيشون فيه. لا يرحب الكثيرون باستضافة أبناء قاتلة».

«لكنهم أقاربهم».

«نعم، لكن الظروف مختلفة».

«أود أن أتحدث مع أطفال خانوم زيبا. إنهم الوحيدون الذين يعرفون كيف كان الأمر بين أمهم وأبيهم. كيف يمكنني الوصول إليهم؟»

ضحك حكيمي باستخفاف وهو يهز رأسه، أشار ليوسف نحو الباب.

«هذا سخف شديد، إنهم مجرد أطفال. لا يعرفون شيئًا عن والديهم، ولم يكونوا هناك حين قُتل أبوهم، الحمد لله على هذا. من المستحيل أن يدعك فريد تقترب من الأطفال. الأفضل أن تجد شخصًا آخر للتحدث معه».

تركه حكيمي، فقرر يوسف أن يواصل تحقيقاته. طرق باب البيت المجاور لبيت زيبا من ناحية اليسار. سمع وقع خطوات صغيرة قبل أن ينفتح الباب. ولد صغير، لا يزيد عمره على ست سنوات، ينظر إليه من خلف الباب.

«سلام!» قال بمرح.

«وعليكم السلام»، أجابه يوسف وهو يمنع ابتسامة. ظلت رؤية الأولاد الصغار تُدهشه منذ عودته، كأنه يعود إلى الخلف في الزمن ويرى نفسه وهو طفل.

«من أنت؟» سأله الولد. ليس من المألوف رؤية الغرباء عند الباب.

«اسمي يوسف. هل أبوك في البيت؟»

«لا، إنه في العمل»، أجاب الولد. حينها ظهرت أمه خلفه، وهي تضع طرحتها على رأسها.

«معذرة، من أنت؟ ماذا تريد؟» قالت فجأة وهي تسحب ابنها بجانبها وتغلق الباب قليلاً.

تراجع يوسف خطوتين إلى الخلف.

«سامحيني خانوم، أنا أحقق في المأساة الفظيعة التي حدثت في البيت المجاور لكم. كنت أتساءل إن كنتِ وزوجك لا تمانعان

مساعدتي. لديَّ أسئلة قليلة فقط ولن آخذ الكثير من وقتك».

ضيقت المرأة عينيها.

«لا، لا شيء لديَّ لأقوله عن الأمر. إنه شأن الشرطة»، أجابت وهي تغلق الباب بهدوء في وجه يوسف.

تلقى رد الفعل نفسه من البيوت الأربعة التالية. في البيت الخامس لم يفتحوا له الباب. بدأ يتساءل إن كان يضيع وقته بالمجيء إلى القرية. لم يعرف شيئًا من زيارة البيت. لماذا يُحجم الجميع عن التحدث عن أسرة زيبا؟ أين ماكينة الشائعات حين يحتاج إليها المرء؟

على مسافة شارعين من بيت زيبا، تغير حظه.

امرأة عجوز نشيطة لم يكن عليها القدوم إلى الباب بنفسها لكنها كانت في الفناء تقطف بعض أوراق النعناع وكانت في الغالب سعيدة بوجود شخص ما لتتحدث إليه. مال يوسف بعنقه ليتحدث إليها.

«نعم، أنا أعرف هذه الأسرة. بربك، نحن جميعًا نعرفهم! نحن قريبون بما يكفي لنعرف حين يحرقون عشاءهم».

ابتسم يوسف بسرور.

«كيف كانت خانوم زيبا؟ هل كنت تتحدثين معها في العادة؟»

«من أنت؟ أنت لست ضابط شرطة. لماذا تسأل أسئلة خاصة كثيرة؟»

«لا، ومعذرة لأنني لم أقدم لكِ نفسي بشكل لائق. اسمي يوسف. أنا محامي أعمل على القضية».

رأى أنه من الأفضل ألا يوضح، مباشرة، في صف من يقف.

«أوه، محامي. لست من البلدة إذن» استنتجت وهي تتفحصه بإمعان. «من حسن حظك. هل أنت متزوج؟ من أين عائلتك؟»

شعر أنها تقيمه. توقع بنصف عقله أن تخرج شابة ذات شعر داكن من البيت وتطرف بعينيها نحوه. هل تخيل الأمر أم تحركت الستائر بالفعل؟

«أنت امرأة كريمة، تُذكِّرينني بخالتي»، ناور محولًا دفة المحادثة. «كانت ودودة دائمًا مع جيرانها هي أيضًا. الجميع يحبونها».

«هل ماتت؟»

«لا، لا... لا قدر الله. إنها على ما يُرام». أُخِذ يوسف بسؤالها.

«أوه، هذا جيد».

«لماذا؟»

«طريقة تحدثك عنها. الناس يقولون أمورًا جيدة عن الموتى فقط، لذلك لا تعرف الحقيقة أبدًا. قد تكون وغدًا في حياتك، لكن ما إن تموت، يسامحك الجميع على كل شيء. كان هذا الأمر يثير جنوني، لكنني الآن عجوز وأعرف ما يقوله الناس عني، ويسعدني هذا».

«أنا متأكد من أنهم يقولون عنك أشياء جيدة فحسب»، جاملها يوسف بأدب. «لكن ما رأيك في خانوم زيبا، بما أنها ما زالت على قيد الحياة، هل كانت شخصًا جيدًا؟»

«كنت أراها من حين لآخر. بما يكفي لأعرف أنها امرأة جيدة، مؤدبة دائمًا. تعرف الله».

«وماذا عن زوجها؟»

«إيه، كان رجلًا. لا شيء خاص بشأنه».

«هل كانا يتشاجران؟ هل كان يضربها؟»

أطلقت ضحكة ساخرة.

«أيها الشاب، لقد خرجت لأقطف بعض النعناع» قالت وهي تلوح بالعيدان الخضراء في وجهه. «أترى هذا؟ إن نصفه عشب لأن عينيّ لا تريان الفارق. حتى لو كنت رأيتهما بذراعي أحدهما حول الآخر لم أكن لأميز أكانا يتعانقان أم يتشاجران».

«ظني أن لكل أسرة أسرارها».

«بالطبع. وذاك الرجل كان سيئًا، حتى بعينيّ المرهقتين العجوزتين هاتين، يمكنني رؤية هذا».

«لماذا تقولين هذا؟!» سألها يوسف مدهوشًا.

«بادئ ذي بدء، جاؤوا إلى هذا الحي ليبتعدوا عن عائلته. لم يقولا قط إن هذا هو السبب، لكنني عرفت لأنني كنت أعرف أمه. أخت كَنَّتي صديقة أخته. لا أحد من أهله يطيقه».

«أتعرفين لماذا؟»

هزت رأسها ولوحت بيدها في الهواء بحزم.

«يجب أن يحب الإخوة أحدهم الآخر، لكن البعض ينشغل بشدة بحماقاته لحد أن ينسى إخوته. فيصيرون جميعا حمقى في نظر جميع من حولهم. لكنني ربيت أبنائي بشكل مختلف، الحمد لله. أولادي وبناتي يتفقون معًا جيدًا. حين كانوا صغارًا، كنت أقول لهم...»

«أنا متأكد من أن أبناءك مختلفون»، قاطعها بهدوء. «كيف كانت زيبا حين انتقلا إلى الحي؟ هل تحدثتِ معها حينها؟»

«كان ذلك منذ سنوات. كانت ودودة في الحقيقة. ظلت دائمًا مؤدبة معي. أخبرتني ذات مرة أنني أُذكّرها بوالدتها».

«حقًّا؟» لم يرَ يوسف أدنى قدر من الشبه بين المرأة وجلناز.

«نعم، وقد ظننت من طريقتها في قول هذا أن أمها متوفاة. لكنني قابلتها ذات مرة حين جاءت لزيارة ابنتها وأحفادها. أمها أصغر مني بكثير. وظني أن بصرها بخير تمامًا. كل منا أرملة، مع هذا. ربما لهذا أُذكر زيبا بها. لا يمكنني تخيل شيء ما آخر».

«أنا أيضًا تشرفت بمقابلتها وهي سيدة رائعة بالفعل، مثلك تمامًا».

«فهمت. أنت أحد هؤلاء الشباب الذين يعرفون ماذا يقولون»، قالت بابتسامة ماكرة، «أنا أحب هذا».

ضحك بارتياح.

«آمل أن أعرف ماذا أسأل أيضًا»، قال محاولًا البقاء على مساره. «متى لاحظتِ تغيّرًا في خانوم زيبا؟ هل حدث شيء ما؟»

تحولت ابتسامة العجوز إلى تقطيبة سريعًا.

«لم يعد بمقدورها تحمل المزيد، هذا ما حدث. كان زوجها بالكاد يلقي السلام على ابنيّ حين يمر بهما في الشارع. كان يتظاهر أنه لم يرَهما، لكنني كنت أراقبه من هنا وكان يحدق إليهما ما إن يديرا له ظهريهما. كان يفعل المثل مع الجميع، خاصة الشابات. لا أخلاق. لا، لم يكن رجلًا صالحًا، وأنا أعرف الفارق لأنني كنت متزوجة برجل صالح. قضينا معًا اثنين وثلاثين عامًا حتى أخذه الله مني. كان يعرف الجميع ويعرفونه. كان سيكره زوج زيبا. أخبرني مرة بأن الزوجة حين لا تحب زوجها، فلا بدّ من وجود سبب وجيه لهذا دائمًا».

«يبدو أن زوجك -رحمه الله- كان رجلًا حكيمًا». علّق يوسف.

«كان كذلك بالفعل».

«ماذا في رأيك كان بين زيبا وزوجها؟»

«همف»، قالت وهي تعقد ذراعيها النحيلتين على صدرها. «أتعرف، لقد خلق الله السلاحف بصدفة صلبة. السلاحف في حاجة إلى تلك الصدفة. النساء لا يُولدن هكذا. زوج مثل كمال قد يدمر زوجته. لقد كان وحشًا. لم أكن أراها كثيرًا مؤخرًا، وحين كنت أراها كانت تهرول في طريقها إلى البيت، تخشى أن تكون قد تأخرت كثيرًا. كانت متوترة جدًّا. وزوجها...»

انطلق صوت من الداخل قبل أن يسألها يوسف سؤاله التالي.

«مادر، مع من تتحدثين؟»

جاء ابنها إلى الفناء ونظر إلى يوسف بريبة. رفع يوسف يده، محاولًا توضيح الموقف قبل أن يفقد الفرصة.

«سلام يا أخي. اسمي يوسف وكنت أتحدث فقط مع والدتك العزيزة...»

في لحظة، كان يوسف في الشارع، يسمع الابن يؤنب أمه لإدخالها جاسوسًا أجنبيًّا إلى البيت.

سار في الشارع بخطوات ثقيلة. لم يمكنه طرق أبواب بيوت أخرى، ليس الآن. لا، يكفيه ما حدث اليوم. مر بالمدرسة التي تذهب إليها ابنتا زيبا، وحاول ألا يوقف رجلًا كان يدفع عربة محملة بالفاكهة الطازجة والزبيب الطري الشهي.

الفصل 27

في اليوم التالي، سار يوسف في الشارع الرئيس في القرية. شم رائحة زيت محركات الديزل اللاذعة ممزوجة برائحة الخبز الساخن. وسمع صلصلة زجاجات المياه الغازية في صندوق فيما يفتح رجل يرتدي بنطالًا وقميصًا رماديين كُشكه.

تشبع المحامي الشاب بكل ما يحيط به، بما في ذلك التراب. كانت رائحة الفرصة والتغيير والأمل. ظل يحلم بتلك اللحظة سنوات، تخيل السير في شوارع مثل هذا الشارع في كفاحه لممارسة القانون هنا كما يسافر الأطباء المغامرون في بعثات ميدانية إلى إفريقيا ليصقلوا مهاراتهم.

الأمر مثل الوصول إلى سر الصنعة. السر في الشجاعة. في الصدق.

كان قد تخيل بحسن نية كتابة مسودات المرافعات وبناء الدفاعات والبحث عن سبل لتطبيق قانون العقوبات الأفغاني. وأنه سيزيح ببساطة الأعشاب السامة للظلم والفساد ليدع العدل والحق يريان ضوء الشمس.

لا تشبه الفترة التي قضاها في أفغانستان كل هذا في شيء. حاول ألا يحزن لهذا. تلك هي العوائق التي ستجعل الأمر يستحق التعب في النهاية. هذه هي التحديات التي جاءت به إلى أفغانستان في المقام الأول. لو كان الأمر سهلًا لكان قد حققه الآخرون بالفعل. لكان المحامون هنا قد تدبروا الأمر.

لم يكن سهلًا. لهذا كانت زيبا في حاجة إليه. لهذا كان هذا المكان يناديه.

أراد أن يصنع لنفسه اسمًا وأن يفعل هذا في أفغانستان. أكان ذلك زهو الشباب؟ لا، أكد لنفسه. لو كان زهو الشباب لأراد بدلة مخططة أو مكتبًا في ركن ما في إحدى ناطحات السحاب.

هذا شرف وتركة. هذا يمنح أمه شيئًا تتفاخر به أمام صديقاتها. هذا ما ينقذه من أن يبدو ، كأبيه، محبطا من مسار حياته.

مع ذلك، عليه أن يعترف أن زيارة القرية لم تكن مثمرة كما تمنى. لقد تأكد من أن الشرطة لم تجمع أي أدلة، يمكنه استخدام هذا في دفاعه مع أنه يتخيل القاضي بالفعل وهو يهز رأسه.

ليس لدى الشرطة الوقت أو الإمكانات لجمع الأدلة، أخبرته أنيسة وهو منكب على محضر القبض على زيبا. ما دام الضباط قد حصلوا على شهادة مكتوبة من المتهم، فلا داعي إطلاقا لتضييع الوقت في البحث عن أدلة لن توجد في الغالب أو لن يمكن تفسيرها بشكل علمي.

لا بد من أن وكيل النيابة قد عرف الآن بزيارة يوسف إلى القرية لتقصي الحقائق. كان بلا شك يتسلى بجهود يوسف الساذجة. يمكن لوكيل النيابة كتابة قضيته على ورق تواليت وتقديمها للقاضي، وستظل حينها أقوى من دفاع يوسف.

مر به رجلان يسيران في الاتجاه المعاكس. لأحدهما لحية بيضاء ويرتدي قبعة كاراكول مثلثة، ذكّر يوسف بجده. الآخر ذقنه حليقة ويسير ويداه مشبوكتان خلف ظهره. منحهما سيرهما المتمهل الفرصة كاملة لملاحظة هيئة يوسف غير المألوفة.

«السلام عليكم»، قال يوسف وهو يومئ برأسه.

ردا تحيته وظلا ينظران إليه بلا خجل دون أن يتوقفا.

كان يريد العودة إلى حي زيبا اليوم. يتمنى أن يقابل أحدًا ممن كانوا في البيت بالفعل ذاك اليوم حين تجمع الجيران حول مشهد الجريمة، قد يصل إلى شيء ما. لا بدّ من وجود شيء ما يمكنه استخدامه.

كان غائبًا في أفكاره وبالكاد لاحظ صوت قعقعة عجلات تقترب منه. لفتت الرائحة الخشبية للوز الطازج انتباهه وجعلته يتوقف فجأة. مرت عربة ذات ثلاث عجلات بالقرب منه على نحو مغوٍ.

«آغا، انتظر. دعني أرى ما لديك»، صاح يوسف.

توقف الرجل مبقيًا يديه على مقبضي العربة، مرفقاه مثنيان وملتصقان بجانبيه. يرتدي قبعة صوفية مستديرة بالكاد تقي وجهه من الشمس. كان الوقت في الصباح المبكر، لكن جبينه ينضح بحبات العرق اللامعة بالفعل.

تقدم يوسف نحو العربة خطوات قليلة، مال عليها ليتفحص حمولتها في الأكياس البلاستيكية الطويلة. حمص وزبيب أخضر طويل ولوز وبندق.

«السلام عليكم»، شعر يوسف بعيني الرجل عليه.

«وعليكم»، أجابه الرجل. مرت لحظة صمت قبل أن يتحدث مجددًا. «هذا الزبيب حلو جدًّا، ستظن أن عليه سكر، لن تجد مثله في مكان آخر، أضمن لك».

«حسن جدًّا»، أومأ يوسف برأسه. «سآخذ منه وبعض اللوز أيضًا».

فتح البائع المتجول كيسًا ورقيًا ووضع فيه لوزًا. يداه سمراوان ووجهه لوحته شمس لا ترحم لوقت طويل. يصعب تقدير سنه. بدا في منتصف الأربعين، لكن يوسف صار يعرف أن الجميع في أفغانستان يبدون أكبر من سنهم الحقيقي بعشر أو عشرين سنة، وقليل من تجاوز الخامسة والستين. كأن الزمن يمر هنا بالحركة السريعة، مع ذلك لم يبدُ أن أحدًا مهتم بفعل المزيد خلال الوقت القصير المتاح. سحب البائع كيسًا ورقيًا آخر وهمّ بفتحه لكنه توقف.

«من أين أنت؟» سأل بفضول.

«أنا زائر»، أجابه يوسف آملًا تجنب السؤال. يمكنه الإجابة بذكر مسقط رأسه في أفغانستان لكنه يعرف أنه لا يسأل عن هذا.

«لماذا أنت هنا؟» ضيق الرجل عينيهِ وهو ينظر إلى يوسف، الذي يولي ظهره للشمس، ويزيد طولًا عن البائع بست بوصات تقريبًا.

«جئت لأسأل البعض عن أمر»، أجابه غير عابئ بتحديد الكلمات. «أنا متأكد من أنك تعرف بحادثة مقتل رجل في بيته منذ وقت ليس بطويل».

«مم».

«أحاول معرفة ما حدث. يقول الناس إن زوجته قتلته، لكن أحدًا لم يرَ شيئًا».

هرش الرجل لحيته.

«أنا وليد».

«يسعدني لقاؤك وليد جان»، أجاب يوسف. لم يكن وليد أكبر منه سنًا، أدرك ذلك حين نظر إليه عن قرب. «أنا يوسف».

مد يوسف يده. صافحه وليد بيده المعروقة الجافة.

«أنت لست ضابط شرطة»، لاحظ وليد. «لماذا تسأل أسئلة؟»

«لا، لست ضابط شرطة. لكنني أريد الحقيقة لتحقيق العدل».

«هل أرسلتك الحكومة؟»

«ليس تمامًا. منظمة. نحن نعمل من أجل العدالة».

مناورة أخرى.

«هل أخبرك أحد بما حدث؟»

هز يوسف رأسه وقطب جبينه.

«ليس بعد. إن كان لديك شيء ما لتخبرني به، سيسعدني جدًا أن أسمعه. أكنت تعرف القتيل أو زوجته؟»

«أنا أعرف كل من يأكل اللوز والزبيب».

«أنا متأكد من هذا. ما رأيك فيه؟ رحمه الله»، أضاف ليكون موضوعيًا.

«نعم، ليرحمه الله»، ردد وليد ببرود. «كان رجلًا محظوظًا. لديه زوجة وأطفال. ابنه البكر فتى جيد، يعتني بأخواته الآن بعد غياب أمهم».

«أرأيت أطفاله مؤخرًا؟»

أومأ وليد برأسه.

«رأيتهم منذ أسبوعين. إنهم مع عائلة أبيهم. يبدون بخير بما يكفي».

يمكن ليوسف إخبار زيبا بهذا. لم يكن بالشيء الكثير لكنه متأكد من أنها سترحب بأي خبر عن أطفالها.

«هـذا جيـد. لقـد مـروا بالكثيـر، أطفـال مسـاكين. ليـس لديهـم لا أب ولا أم الآن».

أومـأ البائـع المتجـول برأسـه وأمسـك بمقبضـي عربتـه. مـال إلـى الأمـام كأنـه يهـم بدفـع العربـة لكنـه فكـر فـي شـيء آخـر وتوقـف.

«أي حقيقة التي تبحث عنها؟» سأل.

فوجئ يوسف بالسؤال.

«الحقيقـة فحسـب. أريـد أن أعـرف إن كانـت هـي مـن قتلتـه حقًـا أم لا. أن أعـرف إن كانـت تسـتحق العقوبـة التـي سيحكم بهـا القاضـي عليهـا إن أدانهـا أم لا».

«سيعدمونها، أليس كذلك؟»

«ربما».

«كيف تقول ربما؟ لماذا قد لا يعدمونها؟»

«يوجـد دائمًـا احتمـال أنهـا ليسـت الفاعلـة، علـى مـا أظـن. وحتـى إن كانـت القاتلـة، ربمـا يوجـد سـبب لا نعرفـه».

«سبب».

«نعم، سبب».

«أي سبب في ظنك؟»

«لقـد جئـت كل هـذه المسـافة لأطـرح أسـئلة لأننـي ليـس لـديَّ كل الإجابـات».

مـر بهمـا كلـب شـارع مسـرعًا، عـلا صـوت أطفـال مـن بعيـد. انتصبـت أذنـا الكلـب وركـض فـي الاتجـاه المعاكس بنظـرة خـوف مـن تعـرض لـلأذى مـن قبـل. شـعر يوسـف أن زمـام المحادثـة يفلـت منـه.

«بالطبـع لديـك أسـئلة. الجميـع يتسـاءلون. لا أحـد يتخيـل امـرأة

محترمة تفعل هذا»، قال وليد وهو ينقل وزنه من قدم إلى أخرى.

«تمامًا».

«وماذا قال جيرانها عن الأمر؟»

«يدهشني أنك لا تعرف ماذا قال جيرانها عن الأمر».

«أنا لا أسمع كل شيء»، قال كأنه يعترف بنقص لديه.

«لم يقولوا الكثير. يبدو أن لا أحد يريد التحدث عن الأمر».

«أنا متأكد من أنك عثرت على أحد لتتكلم معه. العجوز التي تسكن آخر الشارع لديها دائمًا شيء ما لتقوله، حتى وإن لم يكن ذا صلة بأي شيء».

شعر يوسف بدغدغة في قفاه.

«لقد رأيتني بالأمس». كان سؤالًا في صيغة بيان.

سكت وليد. أثار انتباه يوسف بالفعل، هذا هو كل ما يريده من توكيد. فتح يوسف الكيس الورقي، نظر فيه، وهزه قليلًا ليظهر اللوز. أخذ لوزتين ووضعها في راحته.

«قالت إن زيبا امرأة مهذبة. بدا أنها لا تحبذ الخوض في شؤون عائلية في الشارع».

«في الشارع؟»

«نعم».

«ظني أن الشارع هو الذي خاض في بيتهم، لأقول لك الحق»، أجابه وليد بسرعة. بنبرة سخرية.

«ماذا تقصد بذلك؟»

أخذ وليد نفسًا عميقًا وعدَّل وضع كيس بندق كان مهددًا بالسقوط.

«آخ، لا شيء. فقط أن... لا شيء حقًا. لكن أناسًا كثيرين كانوا في بيتهم بعد الصياح. هرع الجميع ليروا ما حدث».

«أكنت هناك ذاك اليوم؟»

«في بيتهم؟»

«نعم. سمعت أن الكثيرين اندفعوا إلى هناك. أكنت واحدًا منهم؟»

هز وليد رأسه.

«لم أدخل البيت. عملي في الشارع لذلك أظل في الشارع. أنا أعرف مكاني».

«ألم يراودك الفضول لتعرف ماذا حدث؟»

مسح وليد جبينه بظهر يده.

«سمعت ما يكفي».

«ما يكفي إلى حد أنك لم ترغب في الرؤية بعينيك»، حزر يوسف.

ابتسم وليد. يتكهن كل منهما بما في دخيلة الآخر.

«يبدو أنك لا تظن أنها من قتلته. أسئلتك مختلفة. هل أنت محاميها؟»

ألقى يوسف اللوزتين في فمه بأريحية. حمصتهما الشمس، كانتا ممتعتين حقًا.

«أنا كذلك بالفعل».

«سمعت أنها اعترفت بقتله».

«لم أكن لأقول هذا».

«ماذا كنت ستقول؟»

«أنه توجد أشياء كثيرة جدًّا غير منطقية وأن شيئًا ما فيها يجعلني مهتمًّا بالأمر جدًّا. إنها ليست بخير منذ أن دخلت السجن».

«ليست بخير؟»

«يا صاحبي، المرء تحت الضغوط الشديدة هش جدًّا. قد ينهار».

«فيمَ يهم هذا؟ إن كانت قتلته، فقد قتلته. من ذا الذي يهتم بحالها؟»

كان توتر وليد يزداد. تنفسه يزداد صعوبة، احمرَّ ثقبا أنفه قليلًا.

«حسنًا. لا أظن أنها بكامل قواها العقلية، في الوقت الحالي. وأتساءل أيضًا إن كانت في حالتها العقلية السليمة وقت مقتل زوجها».

«تظن إذن أنها قتلته».

ابتسم يوسف وهز رأسه.

«لا، أنا لم أقل هذا. حتى لو كانت قد فعلت. ليس صوابًا ولا قانونيًا أن تُدان لو كانت مجنونة».

نظر إليه وليد بتشكك.

«إن ما تقوله ليس معقولًا بالمرة».

«إنه القانون»، أوضح يوسف. «قانون هذا البلد ينص على أنها بريئة من الجريمة لو كانت فاقدة صوابها وقت ارتكابها».

«هذا ليس حقيقيًا».

«بـل حقيقـي. إنـه مكتـوب فـي النظـام القضائـي الوطنـي. علينـا احترامـه. لكـن أخبرنـي آغـا وليـد، أخبرنـي عـن القتيـل. أكان يفضـل اللـوز أم البنـدق؟»

نخـر وليـد، ردًا علـى فكـرة وجـود قانـون قـد يحكـم هـذا البلـد بأسـره وأيضًـا علـى سـؤال يوسـف الغريـب. تحـول نخـره إلـى سـعال هـز جسـده كلـه. انتظـره يوسـف حتـى التقـط أنفاسـه وأجـاب:

«كان ذوقه غريبًا، لم يحب ما أبيعه».

«ماذا تعني بغريب؟»

رفع وليد كتفيه.

«لم يكن يهتم كثيرًا ببضاعتي، لذلك لا أعرف».

نظـر وليـد إلـى الطريـق أمامـه. حملـت أم صغيرتهـا علـى ذراعهـا. كانـت الطفلـة كبيـرة بمـا يكفـي لتسـير وحدهـا لكـن ليـس بالسـرعة الكافيـة لتلحـق بـالأم. لكنهـا حتـى الآن، يمكنهـا حملهـا بسـهولة.

الحديـث عمًـا رآه لـن يفيـد أحدًا، عـرف وليـد. الأفضـل لتلـك الفتـاة المسـكينة ألا يعـرف أحـد مـا حـدث، ولا حتـى والديهـا. لديـه خمسـة أطفـال، مـن بينهـم فتاتـان. أصغـر بكثيـر مـن تلـك الفتـاة التـي رآهـا ذاك اليـوم، مـع ذلـك يظـل الأمـر يجعلـه يقشـعر.

ليتـه فقـط اختـار مسـارًا مختلفًـا ذاك اليـوم، لصـار أسـعد بكثيـر الآن. لكن مـا حـدث جعـل نومـه سـيئًا مؤخـرًا. هـزت زوجتـه رأسـها، حيـن سـمعت حكيـه لمـا حـدث ذاك اليـوم، ونظـرت إليـه بلـوم. جذبـت إليهـا ابنتيهـا البالغتيـن مـن العمـر أربـع سـنوات وعاميـن، فأغضبتـه تلـك الحركـة. هـل تبعدهمـا عنـه؟ ليـس هـو مـن يمثـل خطـرًا.

ماذا كان عليَّ أن أفعل؟ لقد كان يتحدث معها فقط!

وليد. لقد كانت مجرد فتاة. والآن تلك المرأة المسكينة...

كان ذكيًا بما يكفي ليعرف قَدْره. إنه رجل بسيط يبيع اللوز والجوز والفاكهة. يعمل بيديه وظهره حتى يطعمَ أسرته بالكاد. ليس عرافًا، ولا ذا سلطة. نقم على زوجته لتلميحها أنه كان بوسعه فعل شيء حتى وإن ظلت الفكرة نفسها تكدره منذ ذاك اليوم. لو لم يكن يعرف، فلماذا انتصبت شعيرات قفاه بانتباه حين سمع ذاك الرجل يتحدث مع الفتاة؟

لو لم يكن يعرف، لماذا استدار بعيدًا بسرعة شديدة؟ لماذا دفع عربته في الاتجاه الآخر في الشارع بسرعة كما فعل، ثبَّت عينيه على بضاعته كأنها هي ما تحتاج إلى النجدة؟ لم يكن على الله دفعه إلى ذاك الشارع في ذاك اليوم. لم يكن من داعٍ لوجوده هناك. لم يكن قد باع هناك أكثر من حفنات قليلة من أي شيء طوال أشهر. كان خطأ.

وقف يوسف يراقبه، ينتظر بصبر أن يكسر وليد صمته، الذي استمر طويلًا حتى اتضح تمامًا أن لديه شيئًا ما ليقوله. كان الشارع خاليًا على نحو غير متوقع، والشمس عالية في السماء، لا تؤثر فيها غيوم ناعمة. لا يوجد ولا ذرة غبار حتى.

«يمكنني إخبارك بهذا...»

لكن ماذا عساه يقول؟ ليس عليه أن يقول من كانت الفتاة. ليس عليه اقتياد يوسف إلى بيتها لينبشا عن أشياء لا يجوز كشفها. المرأة. كيف يمكنه مساعدة تلك المرأة؟

«لم يكن كمال، رحمه الله»، قال وليد بارتباك، «لم يكن رجلًا صالحًا. كنت أعرف هذا. آخرون يعرفون هذا. وأنا واثق بأن زوجته تعرف هذا أيضًا».

شـعر يوسـف بثقـل فـي قـاع معدتـه. حـاول ألا يبـدو متحمسًـا. أومـأ برأسـه، إيمـاءة صغيـرة، بـدا أنهـا مـا يحتـاج إليـه وليـد ليواصـل كلامـه. هبـت نسـمة هـواء، كتنهيـدة راحـة، حركـت التـراب حـول كاحليهـم. وحينهـا، تحـت شـمس سـاطعة متوهجـة، بـدأ وليـد الكشـف عـن قصـة زيبـا وكمـال.

الفصل 28

عادت مزجان إلى عائلتها بعد هوجة من الأحضان والقبلات والوعود باللقاء مجددًا خارج أسوار السجن. سيُعقد زفافها الحقيقي خلال شهر، لكنهما الآن هي وحبيبها، قد أرضيا القاضي بزواجهما الشرعي. ضغطت خدها في خد زيبا قبل أن تذهب وحاولت تقبيل يدها لكن زيبا تراجعت.

«أنا عاجزة عن شكرك حقًا»، قالت، «ولأعبر لك عن قدرك عندي، سأريكِ ما فعلته».

رفعت مزجان طرف كمها فشهقت زيبا. كان وشمًا نُقِش حديثًا، برزت من جلدها كتابة سوداء تحيط بها هالة حمراء. خط سيئ ككتابة طفل لكنها واضحة بما يكفي لقراءتها؛ زيبا. لم تتخيل زيبا مدى حماقة الفتاة، أن تجلس لسجينة أخرى لتثقب جلدها بالإبرة وتقطر مطاطًا ذائبًا مخففًا بالشامبو في كل ثقب، أن تنقش حروف اسمها على جسدها الصغير.

«مزجان... لماذا؟» سألتها زيبا مأخوذة. «لماذا كتبت هذا على ذراعك؟»

الكثيرات في شيل ماهتاب لديهن وشوم؛ اسم الحبيب، رسم قلب أو أي رمز آخر. لكن زيبا لم تتوقع قط أن ترى اسمها على جلد شخص آخر.

«أنا لم أقابل في حياتي امرأة قوية مثلك»، قالت مزجان. «إن فيكِ شيء ما خاص جدًا. عرفت هذا من أول يوم لك هنا في الزنزانة. لديك سحر. أنت قوية. انظري فقط إلى ما فعلتِه من

أجلي! وأنا أعرف أنه أيًا كان ما فعلته بزوجك، فقد فعلته بأمر الله. والجميع هنا يوافقنني على هذا. كلهن».

راقبت زيبا صاحبتيها الأخريين تجلسان متربعتين على الأرض. كان الوقت صباحًا، توقيت غريب للعب الورق، لكن غياب مزجان يترك فراغًا لم تتوقعه أيّ منهما وسبل ملء الفراغ في السجن قليلة. كانت لطيفة قد اقترضت حزمة ورق لعب من امرأة في زنزانة في الطابق الثاني. سُجِنت لتركها زوجها بعد أن طعنها في بطنها. وسجنت جارتها أيضًا، فتاة كانت تعرفها منذ سنوات، لمساعدتها على الهرب.

«لن أدعكِ توزعين الورق مرة أخرى أبدًا» قالت نفيسة بضجر.

رفعت لطيفة حاجبيها مرحًا. كان الجو في الزنزانة حارًا وخانقًا.

«أتتهمينني بالغش؟ لا تجاملي نفسك، لست بحاجة إلى الغش لأهزمك في لعبة كهذه. أنتِ أسوأ من مزجان حتى».

وضعت نفيسة مروحتها الورقية على قلبها ونظرت إلى فراش مزجان الخالي بأسى.

«أنا سعيدة جدًا لها»، قالت. «ستتزوج حبيبها قريبًا. لكنني أفتقدها مع هذا».

ألقت لطيفة بورقة ملكة القلوب على ورقة رقم تسعة الخاص بنفيسة.

«قتلتُ هذا أيضًا»، قالت بشراسة قبل أن تلقي بجاك الديناري أمام صاحبتها المحبطة. «لا تفكري فيها كثيرًا، أنا متأكدة من أنها لم تضيّع ثانية واحدة في التفكير فينا».

«أنتِ حقودة!» صاحت نفيسة.

«لكنها الحقيقة! ماذا ستفعلين إن أطلقوا سراحك اليوم؟ سأخبرك بما ستفعلين»، قالت لطيفة بثقة رجل سياسة: «ستديرين ظهرك إلى هذا المكان وكل من فيه. لن يمر اسم شيل ماهتاب على شفتيك ثانية أبدًا. ستتكرين أنك كنت هنا يومًا، مثلما تتكرين ما جاء بك إلى هنا في المقام الأول».

«لن أفعل هذا!» قالت نفيسة منزعجة، وبثقة مماثلة. «لن أنكرك أبدًا يا لطيفة. وإن ظللتِ طيبة، سأكتب لك وسأزورك، وربما حتى سأجلب لكِ حلوى زفافي، حين ينعقد. لن أرغب في نسيانك، حتى وإن كنت تغشين كلصة».

ضحكت لطيفة باستهزاء وحركت فخذيها على الأرض. أبقت عينيها على ورقها، لكن وجهها لان.

لم يكن لعب الورق في وقت مبكر من الصباح مريحًا كما توقعت، ليس والسجن مملوء بنساء يطلبن من زيبا مساعدة لا يمكنها تقديمها. لو كانت قوية كما يتخيلن لكانت قد ساعدت نفسها. لا تهتم نساء شيل ماهتاب بهذه النقطة الصغيرة مع ذلك. طغى احتياجهن إلى الإيمان بزيبا على كل الشكوك. فكرت زيبا، مجددًا، في اسمها المنقوش على ساعد مزجان الصغير كثناء دموي.

حين جاءت أسما، الحارسة، وقرعت بابهن، لم يخِب ظن زيبا.

«زيبا، تعالي، محاميك هنا لمقابلتك».

لم تتوقع زيبا رؤيته بسرعة هكذا، لم يمضِ أسبوع على آخر زيارة له. كلما التقيا، غادر محبطًا لكن عازمًا. لا تعرف ماذا يفعل في الفواصل بين الزيارات وليست متأكدة من أنها تريد أن تعرف.

«محاميّ؟ أأنت متأكدة؟»

ضحكت أسما.

«انهضي يا زيبا. لا داعي لإبقاء الشاب الوسيم منتظرًا».

كان يوسف يذرع الخطا في الغرفة حين دخلت زيبا. حقيبته معلقة على ظهر الكرسي. دفتر ملاحظاته الأصفر مملوء بخطه العصي على الفهم. تبدو الصفحة العليا منه مجعدة قليلًا فأرادت زيبا في تلك اللحظة أن تراهن بأي شيء على أنه سقط في النوم بوجهه على هذه الصفحة من قبل.

نظر إليها، متجهمًا.

«يجب أن نتحدث يا خانوم زيبا. يجب أن نتحدث».

جلست على الكرسي المقابل للكرسي الذي علق عليه حقيبته. تلكأت أسما عند الباب حتى شكرها يوسف بحدة على إحضار زيبا إلى الغرفة.

لاحظت أسما حدة نبرته، لكنها أغلقت الباب خلفها وسارت خطوات قليلة في الرواق. راقبتها زيبا من زجاج الغرفة وهي تبتعد ثم عادت تنتبه إلى يوسف. لديه ظلال أسفل عينيه.

«ماذا يحدث؟ هل حدث شيء؟»

رمقها بنظرة منزعجة.

«لم أطلب منك سوى أن تكوني صريحة معي. أوضحت لك منذ البداية أن بإمكاني مساعدتك لو صارحتِني بكل شيء. كان يمكنك أن توفري على كل منا متاعب كثيرة لو وثقت بيَّ منذ البداية. «هذا هو الطريق الوحيد لـ...» ثم حرك أصبعه في المسافة بينه وبين زيبا، «لننجح».

«قل ما تريد قوله».

توقف فجأة. تنفست بسهولة قليلًا. ذرعه الخطا يوترها دائمًا. سحب الكرسي إلى الخلف بسرعة، احتكت قوائم الكرسي ببلاط الأرضية. سقطت حقيبته على الأرض لكنه لم يهتم.

«لقد ذهبت إلى قريتك»، قال وهو ينظر إليها مباشرة.

شعرت بانقباض في معدتها. انتظرت.

«ذهبت إلى بلدتك، وإلى بيتك. طرقت أبواب جيرانك. قابلت امرأة رائعة تسكن في نهاية شارعك، كانت تراكِ تمرين ببيتها وهي تعتني بنباتاتها».

تعرف عمّن يتحدث بالتحديد. رأتها تلك المرأة مرتين، كانت زيبا فيهما مندفعة هي وأطفالها خارج البيت بشكل مفاجئ تقريبًا. كان ذلك حين يعود كمال إلى البيت بعينين حمراوين وقدمين ثقيلتين. كان عنفه العشوائي يجعلها تخاف على الأطفال. كان الشرب يمنحه طاقة هائلة يليها تعب شديد. وإذ تعرف أنه لن يلاحقهم، كانت تلقي بطرحتها على رأسها وتهرول مارة ببيت تلك المرأة، دموعها تسيل على وجهها وهي تنظر خلفها بقلق. رأت المرأة تنظر إلى الشارع كأنها تتوقع رؤية مشهد مثير كهذا تحديدًا.

«وهناك المزيد»، قال يوسف. «لقد تحدثت مع رجل كان يقف خارج بيتك يوم مقتل كمال. كان خارج بابك مباشرة تلك الظهيرة. يقول إنه يعرف ما حدث».

رجل. عادت زيبا بذهنها إلى ذاك اليوم. ماذا قد يسمعه رجل أو يراه من خارج جدرانهم؟ لا يمكن أن يكون قد رأى الفأس وهي تشق رأس كمال.

«أي رجل؟ هل يقول إنني قتلت كمال؟» كانت على حافة نوبة غضب، اشتعل غضبها فجأة لفكرة أن رجلًا قد تقدَّم بشهادته ليدينها. «أنا لا أعرفه، لكنه كاذب!»

«لقد رأى شيئًا ما. رأى أحدًا يدخل بيتكم، خانوم زيبا».

ظلت جالسة، شفتاها مزمومتان في خط رفيع وردي. هل رآها رجل حقًّا؟ هل أخبر أحدًا آخر؟ لا يمكن أن تذهب كل أيامها الماضية التي قضتها بعيدًا عن أطفالها وكل أيامها التالية التي ستقضيها لتتعفن هنا وحدها، لا يمكن أن يذهب كل هذا سدى. لن تترك يوسف أو ذاك الرجل، أيًّا من كان، يفسدان تضحيتها.

شعر يوسف من نظرتها الحادة بذوبان آخر ذرة شك في ما حكاه وليد.

«لا أريد التحدث الآن حقًّا» قالت زيبا بحزم هادئ. عقدت كاحليها وشبكت يديها معًا بقوة، طريقتها في منع جسدها من الكشف عن أكثر مما قالته بالفعل. ليته يفهم كم هي في أمسِّ الحاجة إلى إخباره. لكن يبدو أن الحقيقة لن تجدي، ليس لمن يعتبرون شهادتها نصف شهادة الرجل. في ومضة يأس، جاءتها الكلمات:

«ما جدوى قول المرأة الحقيقة
في حين لن يُعتد به ولو لدقيقة؟»

نظر إليها يوسف مذهولًا.

«أين سمعتِ هذا؟»

«إنها كلماتي»، قالت بشجاعة. «لكن النساء جميعًا يعرفنها».

كانت محققة، اعترف لنفسه. شهادة المرأة لا قيمة لها هنا. النساء أنفسهن، يبدو أن لا قيمة لهن هنا. لكنه لن يتوقف الآن. سيضغط عليها لأنه يريد الوصول إلى الحقيقة. قد تكون هذه هي لحظة إعادة تعريف القضية. قد تنهار زيبا وتصارحه بكل شيء، فيضع دفاعًا رائعًا، لم يُر لِه سابقة في هذه البلدة، وربما حتى في هذا البلد.

«اسمعي. إنها قضية جديدة تمامًا الآن. لديَّ...»

رفعت زيبا رأسها فجأة. بسرعة.

«هل رأيته؟»

«من؟»

«ابني، بصير. هل رأيته؟» كانت تميل إلى الطاولة، راحتاها على سطحها الخشبي.

«لا. لم أرَه. هل سمعت ما قلته؟»

«هل سمعت شيئًا عنه؟ هل هم بخير؟ هل حدثك أحد عنه أو عن الفتيات؟ قلت إنك تحدثت مع أناس. لا بدّ من أن أحدًا يعرف أخبارهم».

أخذ يوسف نفسًا عميقًا وأطلقه ببطء. من حقها السؤال عن أطفالها، حتى وإن كان للمناورة.

«أنا آسف، لكن ظني أنهم في بيت عائلة كمال. لم أحظَ بمعلومات كافية من أي شخص، لكن أحدًا لم يقل شيئًا مقلقًا أيضًا. أنا متأكد من أنهم بخير في حدود ما تسمح به الظروف».

«نعم، إنهم في الغالب بخير»، غمغمت.

«خانوم زيبا، من الضروري أن نركز الآن على موقفك أنت»، قال بهدوء. «أعتقد أن هنالك طريقة للدفاع عنكِ».

خطر لها أنها منذ دقائق قليلة فقط كانت تراقب لعبة ورق حمقاء. كيف انتقلت من تلك اللحظة إلى هذه دون سابق إنذار؟

«أنا أعرف بشأن الفتاة».

حدقت إلى الطاولة حتى تغبش بصرها. قالت تنهي الأمر، تتجاوز أسئلته لتصل إلى الخلاصة الحتمية.

«حتى لو خرجت من هنا، لن أستعيد أبنائي. إن لم يكن استعادة أبنائي فلا أريد الخروج من هنا».

عاد إلى الخلف في جلسته. إنها محقة. احتمالية أن تعيد عائلة كمال الأطفال إلى أمهم، في حال أُطلِق سراحها، ضئيلة جدًّا. قال مرة أخرى:

«خانوم. قلت إنني أعرف بشأن الفتاة».

الفتاة. كل هذا بسبب فتاة صغيرة حمقاء بما يكفي لتقع في متناول يد كمال. لا تعرف كيف أغواها بالدخول إلى فنائهم لكن هذا ما حدث. كانت المسكينة مرعوبة. ما زالت ترى عينيها، ذليلتان وشائنتان. كانت تشبه فتياتها كثيرًا. كان من الممكن أن تكون شابنام أو كريمة. يستغرق الشعور وقتًا وجهدًا أقل بكثير من التفكير. لم تتوقف زيبا لتتساءل. رأت ما يجب رؤيته على وجه الفتاة، بؤسها وهي تمسك بسروالها الداخلي في يدها.

وكمال. كان كمال يقف أمامها، ظهره لشمس الظهيرة. ليس سوى رسم ظلي، تكوين قاتم لرجل بالكاد تعرفه. كان ينفض سرواله الداخلي، ارتبك فقط، ليس أكثر من هذا. بدأ يغمغم بشيء ما، لكنها لم تسمعه من الضجة في أذنيها، التي علت لتغرق أي مبرر قد يقدمه لها لتغض الطرف عن المشهد البشع الذي رأته لتوها.

أرادها كمال أن تكون شخصًا آخر، أن تكون المرأة التي تغض الطرف إلى الأبد.

لكنها رأت كل شيء. وكانت ريما على مسافة أمتار قليلة. كيف يمكنها تبرير هذا للفتيات؟ لن تبرره لهن أبدًا. سيُدفن معها.

جرى الكثير جدًّا في غضون ثوان، نطاق زمني ضيق جدًّا ليشمل أفكارًا لكنه فسيح بما يكفي لردود أفعال لا إرادية.

متى أمسكت الفأس؟ أغمضت عينيها. لا يمكنها التذكر بالتحديد. لا تتذكر حتى رؤيتها عند الجدار. لا بد من أن كمال مَن تركها هناك، مع أنها لا تتذكر متى كانت آخر مرة رأته ممسكًا بها. كم من مرة طلبت منه أن يبعدها لئلا يجرح الأطفال أنفسهم بها؟

راقب يوسف موكلته تتراجع. تركها وشأنها، على أمل أن تقودها أفكارها إلى حيث قد يفيده شيء.

«الفتاة يا خانوم. كانت السبب في كل هذا».

أكان يسألها أم يطلب منها التأكيد؟

كانت صغيرة جدًّا لتتعرض لهذا. أكانت المرة الأولى؟ كان الأوان قد فات لتسأل كمال. أكانت تلك هي المرة الأولى لتهجمه على تلك الفتاة؟ تظن زيبا ذلك من تعبير وجه الفتاة.

«لا توجد أي فتاة»، قالت بفتور.

«لا توجد فتاة؟»

«لا توجد فتاة»، قالت، تنضح كل كلمة من كلماتها بالإصرار.

جلس يوسف قبالتها مباشرة. تقابلت أعينهما، يتحدى كل منهما الآخر أن يخفض عينيه.

«لكنها كانت هناك، وتلك الفتاة تغير كل شيء».

«هل تحدثت مع أحد آخر؟»

. «ماذا تعنين؟»

«هل تحدثت مع أحد آخر في قريتي؟»

نقر يوسف بإصبعه على الطاولة، تكات بندول.

«لم أتحدث مع عائلة الفتاة، إن كان هذا ما تسألين عنه».

تمنت، من أجل الفتاة، أن يكون بمقدور الإنسان نسيان شيء ما بهذه البشاعة والتظاهر بأنه لم يحدث قط. إنها في حاجة إلى حقيقة كهذه.

«لماذا لا تريدين إخبار القاضي بما حدث؟ قد تكون هذه الفتاة طريقك إلى...»

تجهمت. حدقت إليه مباشرة وقالت بوضوح صارم:

«إنها فتاة صغيرة وأنا لن أفعل هذا بها. أنصت إلي يا يوسف. لا توجد فتاة».

أخفض صوته. فهم، بطريقة ما، أنها تحاول حماية الفتاة، لكنه لن يدعها تضحي بنفسها على نحو غير ضروري.

«أنا متأكد من أنه بإمكاننا فعل هذا دون أن نلفت إليها الأنظار أو التسبب لها في أي مشكلات. قد لا نحتاج إلى التحدث معها حتى. لكن علينا الكشف عن تلك المعلومات إن كنا ننوي الدفاع عنك بشكل منطقي. لا سبيل آخر لإخراجك من هنا. لقد قُتل رجل».

قطبت جبينها.

«أي شيء سأقوله سيدمرها. لا أعرف إن كان أهلها يعرفون أم لا. ماذا لو كانوا لا يعرفون؟ ماذا لو كانت بخير الآن؟ هذا

الاحتمال هو كل شيء بالنسبة إليَّ. أنا أعرف ما قد يفعلونه بها لو عرفوا. قد لا تعرف أنت، لكنني أعرف. كل امرأة في شيل ماهتاب تعرف. كل امرأة وفتاة في أفغانستان تعرف!»

عض شفته. إنها محقة في هذا. هذه حقيقة فهمها ما أن وطأت قدمه هذه الأرض. الأمر كله عن الشرف. الشرف صخرة يضعها الرجال على أكتاف فتياتهم وأخواتهم وزوجاتهم. قصص شيل ماهتاب الكثيرة دليل على هذه الحقيقة. تلك الفتاة لطخت شرف أبيها في فناء بيت زيبا. إن عرف أبوها بما حدث لها -دون أدنى اهتمام بالتفاصيل- فلن يسامحها، حتى وإن كانت بريئة.

أيًا كان ما فعله كمال بتلك الفتاة، سيعدّ بداية مأساتها.

شخصت زيبا ببصرها. مرت حارسة بالغرفة ببطء، بخطوات ثقيلة جدًا إلى حد متعمَّد بالتأكيد. راقبتها زيبا، عاد بصرها يتغبش مجددًا. بدا الأمر بسيطًا لها. بدا منطقيًا تمامًا في تلك اللحظة.

«أتظن أن كمال كان الوحيد الذي قُتِل ذاك اليوم؟» سألت بصوت بليد وبارد. «لا لم يكن كذلك. لقد مت في اللحظة التي سال فيها دمه. تلك الفتاة ماتت في اللحظة التي صارت فيها وحدها معه. وُجدت ثلاث جثث في بيتي، واحدة فقط من تم دفنها والحداد عليها بشكل لائق. لقد صلوا عليه. وما زالوا يدعون له، أحيوا أربعينه كأنه شخص محترم. سيهزون رؤوسهم ويتحدثون عن عار فقدان أخيهم، ابن عمهم، خالهم. إنهم لا يعرفون ما هو العار، ولا يعرفون أن للموت وجوهًا كثيرة».

سكت يوسف. اختفت الحارسة بالخارج في أحد المنعطفات لدقائق قليلة ثم عادت. نظرت إلى الغرفة وواصلت سيرها، توقفت لوهلة لتعدل حزام زيها الرسمي.

لـم يكـن يوسـف ليجـادل بشـأن وصـم الفتيـات اللائـي يتعرضـن للإسـاءة. إن كان شـيء مـا سـيحدث لتلـك الفتـاة الصغيـرة، فهـو لا يريـد أن يكـون المسـؤول عنـه أيضًـا. مـع ذلـك يوجـد احتمـال أن تكـون عائلتهـا مختلفـة.

«أسـمعتِ عـن الفتـاة ذات الأعـوام التسـعة التـي اغتصبهـا المـلا فـي قريتهـم منـذ عـام مضـى؟ كان أبواهـا يدفعـان لـه مقابـل تحفيظهـا القـرآن. قيـدوه بكرسـي وقطعـوا لـه أنفـه وأذنيـه. وهنـاك قضيـة كنـدز. شـهدت فيهـا فتـاة فـي العاشـرة مـن عمرهـا أمـام القاضـي، وحُكِـم علـى مغتصبهـا بالسـجن عشـرين سـنة. ليـس كل عائلـة تعـدّ هـذا عـارًا لا يمكـن محـوه. توجـد عدالـة ممكنـة».

«أنـت تتحـدث عـن قضيتيـن بيـن ملاييـن. كيـف يمكننـي وضـع الفتـاة فـي تلـك المخاطـرة؟»

وقـف محبطًـا. سـار بطـول الغرفـة الصغيـرة ثـم عـاد إلـى كرسـيه بيـأس.

«أنـا لا أعـرف كيـف أدافـع عنـكِ بغيـر هـذا»، أقـر. مـرر أصابعـه فـي شـعره بعصبيـة، يشـعر بمهنيتـه تبارحـه. ربمـا كانـت أنيسـة محقـة فـي تحذيرهـا لـه مـن هـذه القضيـة. كان قـد دفـع بهـا أكثـر ممـا قـد يفعـل أي شـخص آخـر، ولـم يعـد ذلـك عليـه إلا بمعلومـات لا يمكنـه اسـتخدامها.

«أنـا التـي لـم أفعـل شـيئًا مـدة طويلـة»، همسـت. «عشـت بعينيـن وأذنيـن مغلقتيـن، فـي حيـن كان علـيَّ أن أنتبـه. كان يجـب أن أعـرف قبـل هـذا. لكننـي لـم أكـن يقظـة. وإن كنـت لـم أفعـل شـيئًا حينهـا. فعلـيَّ ألا أفعـل شـيئًا الآن. لـن أفعـل شـيئًا ولـن أقـول شـيئًا. لا أريـد جلـب المزيـد مـن العـار علـى أطفالـي».

استند بمرفقيه إلى الطاولة، أساور قميصه مرفوعة. يعرف أنها لن تتزحزح، لكنه ليس مستعدًا لتركها تمامًا. دفعه علمه بشأن الفتاة للدفاع عنها أكثر. لا يمكنه تخيل معاناة الفتاة الصغيرة. العالم مكان سيئ حقًا لأنه لن يقف ويصفق لزيبا على ما فعلته.

«هل تقولين لي إنك قتلت زوجك؟»

«يبدو هذا، أليس كذلك؟ لماذا تشك في الأمر فيما يؤكده الجميع؟ لقد اعترفت به حتى طبقًا لمحضر الشرطة. يجب أن تترك هذه القضية».

«لن أتركها»، قال بثقة. «سيكون عليَّ وضع دفاع يتصدى لقضية النيابة».

«ليعينك القدير، يوسف جان»، قالت وهي تدفع بكرسيها إلى الخلف وتنهض لتتصرف. «يوجد الكثير من الأبرياء لتدافع عنهم. كف عن تضييع وقتك مع المذنبين».

الفصل 29

«لم تحضر والدة متهمة الجلسات قط»، قال القاضي. مسح يديه في طرف قميصه الطويل وتعجب من تعرقهما على هذا النحو. رمقه وكيل النيابة بنظرة فضولية.

جلست جلناز بظهر مستقيم مثل ظهر الكرسي نفسه. عيناها مكحلتان بكحل خفيف؛ ما جعل القاضي نجيب يرغب في لمس خدها وهو يحملق إلى أغوارهما الخضراء. تنحنح ومد يده ليلتقط مسبحته الكهرمانية من فوق مكتبه.

«أنا متأكدة من أنني لست أول أم تهتم بقضية ابنتها»، قالت جلناز وهي تضع حقيبتها على الأرض بجوارها.

«بلى. لست الأولى»، وافقها وكيل النيابة وهو يمد يده إلى طبق البسكويت الموضوع على طاولة في منتصف الغرفة. قضم واحدة وشعر بمذاق ذوبان الزبدة في فمه. لاحظت جلناز إعجابه من حركة رأسه.

«هذا البسكويت لذيذ يا خانوم»، أعلن وكيل النيابة.

«يوسف جان، لم تتذوقه بعد، أليس كذلك؟» سألته جلناز برقة.

هز يوسف رأسه.

«بلى يا خانوم، تناولت طعامي للتو، لكن شكرًا لكِ»، قال بضيق. إن طبق بسكويت لصرخة بعيدة كل البعد عن الرشوة إن كان هذا ما تحاول جلناز الوصول إليه.

«ربما في ما بعد إذن»، قالت جلناز.

«لا تعرضي عليَّ» قال القاضي نجيب قبل أن تعرض عليه جلناز بالفعل. رفع وكيل النيابة الطبق وراقب القاضي يأخذ قطعتين ويضعهما على منديل أمامه. «حين كنت طفلًا لم أكن أستمتع بشيء أكثر منه في رمضان. كانت أمي تعد لي كوبًا من الشاي بالسكر والقشدة قبل الفجر وتتركني أتناول ما يمكنني تناوله من بسكوتها الذي أعدته في البيت. كان جزء مني ينتظر رمضان لهذا السبب تحديدًا».

«أعددته لعائلتي في رمضان أيضًا. قالوا لي إنهم لا يطيقون انتظار الإفطار لتناوله».

لم تطلب جلناز شيئًا أكثر من مجرد حضورها الجلسة، خاصة بعد أن اتضح أن زيبا لن تستطيع الحضور. حين سمع القاضي بانهيارها الأخير في رواق السجن، قرر إعفاءها من حضور الجلسات.

«أتمنى أن تستعيد عافيتها سريعًا. سيكون علينا المواصلة في غيابها، ولا أظن أن أحدًا يريد تأجيل هذه القضية وقتًا أطول».

«لقد أرادت الحضور»، قال يوسف، «لكنها لم تتحدث منذ يومين. تفقدتها مجددًا هذا الصباح، لم تتحسن إطلاقًا. بل ازدادت حالتها سوءًا، كما رأيت. أخبرتني مديرة السجن بأنها ظلت تأن وترتعش في الزنزانة. وقالت صاحباتها إنهن استيقظن ليلًا فوجدنها تهمس لنفسها وأنهن خائفات».

«مم يخفن؟» سأل القاضي وهو يزيل الفتات عن مكتبه.

كان يوسف يراقب زيبا وهي تغادر غرفة المقابلة يوم أن واجهها بشأن الفتاة. سارت، كأنها تبذل جهدًا كبيرًا في كل خطوة، نحو

الجدار ومالت عليه، بحثت أصابعها عن شيء ما تتشبث به. ألح عليها أن تتحدث معه، لكنّ عينيها توحشتا. ظلت تغمغم بكلمات غير مسموعة، وما سمعه لم يكن مفهومًا في جميع الأحوال. خافت صاحباتها بالفعل حين رأينها.

«إنهن خائفات لأنها غير مستقرة. كنت هناك، سيدي، ويمكنني التأكيد لك بأنها ليست في كامل قواها العقلية. لست في حاجة لتذكيرك بما حدث حين كانت هنا آخر مرة في مكتبك. وإن كنت رأيت ذلك سيئًا، فسينتابك الرعب لرؤيتها الآن».

اختلس يوسف نظرة سريعة إلى جلناز، التي جلست تستمع وشفتاها مزمومتان. كانت عيناها مخفضتين، تحدق في رسومات الزهور في السجادة الصغيرة تحت قدميها. لم يبدُ عليها الدهشة أو الحزن لسماعها عن حالة ابنتها.

«هذا لا يؤثر في شيء، يمكننا مواصلة النظر في القضية، كما قال حضرة القاضي»، أكد وكيل النيابة بتلويحة من يده. «لن تستغرق وقتًا طويلًا في جميع الأحوال. لدينا اعتراف موقع منذ يوم القبض عليها ولدينا زوج ميت. دعونا نجمع كل هذا معًا ليمكننا الوصول إلى الحكم».

«لا أظن الأمر بهذه البساطة»، قال يوسف. استجمع شجاعته لرد الفعل الذي يهم به. «أنا لا أظن أن خانوم زيبا في كامل قواها العقلية، لذلك لا يجوز مثولها أمام القضاء».

«عن ماذا تتحدث؟ ما علاقة قواها العقلية بأي شيء هنا؟» سأل وكيل النيابة متشككًا. مال القاضي إلى الأمام كأنه لم يسمع يوسف جيدًا.

«هل تقول أن علينا تأجيل هذا مجددًا؟»

«قاضي صاحب، أنا أقول ببساطة إنها عاجزة عن المثول أمام القضاء، ما يعني أننا لن نستطيع النظر في القضية الآن. هذا لا يعد تأجيلًا حقًّا بقدر ما هو اتخاذ الإجراء المناسب.

«الإجراء المناسب؟ إن ما تقترحه قد يكون أي شيء ما عدا الإجراء المناسب»، صاح وكيل النيابة.

«إنها مكلومة»، وافق القاضي. «لكن هذا لا يعني أن نتجاهل ما حدث».

«إنها أكثر من مكلومة»، أوضح يوسف. «مما رأيته، إنها تعاني خللًا عقليًا. وفي اعتقادي أن هذا الخلل العقلي بدأ قبل دخولها سجن شيل ماهتاب. أعتقد أنه كان في داخلها قبل يوم مقتل زوجها. لهذا أزعم أنها لم تكن في كامل قواها العقلية ذاك اليوم، وقد رأينا جميعًا أنها ليست في كامل قواها العقلية الآن، أيضًا. ظني أن علينا إخضاعها للفحص الطبي بشكل رسمي وعلاج حالتها. هذا ما ينص عليه القانون في هذه الظروف».

الحقيقة أنه لم يكن متأكدًا تمامًا من جنون زيبا. لكنه بنى عليه دفاعه بالفعل، مع ذلك، رأى بعد علمه بما مرت به، أنها تصرفت بعقل تقريبًا. كانت تعيش مع رجل يشرب ويضربها. أنجبت منه أربعة أطفال. سارت إلى فناء بيتها لتجده يُسيء إلى طفلة بأسوأ طريقة يمكن تخيلها. ربما لم تكن تلك أول مرة. وفتياتها الثلاث، هل أساء إليهن أيضًا؟ اثنتان منهن قريبتان في السن من الفتاة التي وصفها بائع الزبيب المتجول. إن كان الخاطر قد عبر ذهن يوسف فلا بدّ من أنه أشعل في ذهن زيبا نيران الهلع.

بأمانة شديدة، الأرجح أنها قتلته. عليه الاعتراف بهذا بعد علمه بدافعها وبمشهد الجريمة، ماذا غير ذلك سيُعد منطقيًا. كانت ستجن حقًا لو لم تفعل شيئًا. لو كان يوسف في مكانها، لشق رأس كمال بالفأس بكل سرور.

إن مهمته الدفاع عنها، وليس لديه الكثير لاستخدامه. إن كان هذا تسويفًا، فليكن كذلك.

راقبت جلناز وجوه الرجال. بدا أنهم نسوا وجودها، ما يناسبها تمامًا. لا تريد سوى أن تسمع ما يقولونه.

قال وكيل النيابة: «القانون؟ اسمع، أنا لم أعارضك كثيرًا حتى الآن، لكن من الواضح أنك أتيت إلى هنا بأجندة أمريكية من نوع ما».

جز يوسف على أسنانه. كانت قضية وكيل النيابة حفنة من الوثائق المكتوبة بخط اليد، ليس بها شيء تقريبًا سوى «اعتراف» زيبا، الذي كتبه ضابط شرطة. لم تكن قضية أساسًا. في أي مكان آخر في العالم، لم يكن ليجرؤ على الزعم بأنه رجل قانون حتى، لكن الأمر هنا مختلف، هنا يجلس في مقعد مريح سخيف ويتهم يوسف بتمثيل مصالح أجنبية.

«أنا هنا لأدافع عن امرأة متهمة بجريمة بشعة وأُخِذ منها أطفالها. أنا هنا لأننا إن أردنا تحقيق أي تكامل في النظام القضائي الأفغاني، فعلينا اتباع قانون الإجراءات والتعامل مع المتهمين طبقًا لإجراءات قانونية. أنا أعرف أنك لا تهتم كثيرًا بالإجراءات القانونية، لكنها مهمة».

«أنا أؤدي عملي. ليس لك الحق في التشكيك في مهنيتي».

«حقًا؟ إن عملي أن أتساءل عن مدى جودة عملك. ولديَّ الكثير من الأسئلة في هذا الشأن». علا صوت يوسف في الغرفة فجأة كصوت تهشم زجاج. حتى جلناز تأثرت.

«أي أسئلة؟»

ظل وكيل النيابة في مقعده، لكنه ثنى مرفقيه ووضعهما على مسندي المقعد كأنه يهم بالنهوض. نظر إلى القاضي نجيب الذي استند بظهره إلى كرسيه وعقد رجليه قائلًا بهدوء.

«أنا أيضًا مهتم بمعرفة أسئلتك».

تأفف وكيل النيابة منزعجًا إذ كان يتوقع أن يُنهي القاضي النقاش.

«أولا، أنا أتساءل إن كانت النيابة قد أجرت أي تحقيقات حقيقية. تنص المادة 145 من قانون الإجراءات الجنائية على أن تحقق النيابة في جميع الجنايات والجنح وبحضور محامي الدفاع عن المتهم وفقًا لأحكام هذا القانون»

«تحقيقات؟ إن لدينا اعتراف بتوقيع خانوم زيبا!» أصر وكيل النيابة وهو يلوح بورقة مطوية في الهواء.

«لم تكتبها بخط يدها. إنها ليست أمية، يمكن لوالدتها التأكيد على هذا ويمكنها إثبات هذا بنفسها، إن كان هذا اعترافها فيجب أن يكون مكتوب بخط يدها».

«مما سمعته، كانت في حالة هستيرية لذلك قام الضابط الذي قبض عليها بما عليه وسجل أقوالها. هذه بصمتها أسفل الصفحة»، صاح وكيل النيابة وإصبعه تشير إلى بقعة حبر أزرق.

«لماذا ستبصم إن لم يكن ذلك اعترافها؟»

«كانت في حالة هستيرية حين قُبض عليها؟ أتعني بذلك أنها مجنونة؟ هذا هو قصدي تحديدًا يا صديقي، أنا سعيد أنك توافقني».

«أنا لم أقل هذا. أنت تحاول وضع الكلام في فمي!»

«دعني أواصل. تتحدث المادة 145عن إجراءات أخرى قليلة للتحقيق. هل ذهبت النيابة إلى موقع الجريمة لجمع الأدلة؟ هل استدعت أيًا من الجيران؟ هل حاولت التأكد من وجود أي دافع آخر محتمل وراء الجريمة؟ هل عرضت خانوم زيبا على المتخصصين لتقييم حالتها العقلية؟ هل قامت النيابة بشيء من هذا سيدي القاضي؟»

«إنك أنت من يحتاج إلى تقييم حالته العقلية. إن الشرطة هي المسؤولة عن التحقيقات. إنها قضية بسيطة بالأبيض والأسود، وأنا واثق من أن القاضي رأيه من رأيي».

«سأتحدث أنا عن نفسي!» تدخل القاضي نجيب. لم يتوقع أن تكون جلسة اليوم بهذه الحيوية، خاصة في حضور جلناز التي لم تتأثر -كما يرى- بمباراة الصياح كثيرًا.. ظلت رابطة الجأش تنصت باهتمام.

واصل القاضي كلامه: «لنواصل. لقد أجريت التحقيقات التي تجرى في العادة في القضايا الشبيهة. إن موكلتك متهمة بارتكاب الجريمة. نحن نعرف أن الجريمة حدثت. لدينا شهادة مكتوبة تعترف فيها موكلتك بقتل زوجها».

«سيدي القاضي، هذه الورقة اعتراف من امرأة بأنها ضربت زوجها بفأس أعلى رأسه».

«نعم؟»

«توفي كمال على إثر ضربة فأس في خلفية رأسه، لأسفل بما يكفي ليقترب من عنقه. إن كانت قد اعترفت، فستعرف أين الجرح؟ أليس كذلك؟»

«أعلى رأسه... في خلفية رأسه... أنت تماطل حقًّا». وكيل النيابة، «لماذا نضيع وقتنا في هذا؟»

«أنا لا أعتبر عملي مضيعة للوقت»، صاح فيه يوسف. «ربما عليك أن تسأل نفسك إن كنت أنت تؤدي عملك».

مسد قاضي نجيب لحيته وشعر ببعض الفتات بين أصابعه. بالطبع، قضية تتضمن ابنة المرشد لن تكون بسيطة. يمكنه ترك المحاميين يتبادلان الصياح لكنه سيفعل ذلك بنحو ينقذ ماء وجهه.

«هات ما عندك يا يوسف».

تأفف وكيل النيابة ومال إلى الخلف في مقعده، عقد ذراعيه على صدره وتمتم قائلًا:

«هذا ما يحدث حين ندع الأجانب يحشرون أنوفهم في شؤوننا».

بدأ يوسف: «تنص المادة السابعة والستون من قانون العقوبات لجمهورية أفغانستان»، ثم ردد وعيناه على وكيل النيابة «أن لا مسؤولية جنائية على من يرتكب جريمة وهو فاقد رشده أو صوابه بسبب جنون أو أي خلل عقلي آخر، ويجب ألا يُعاقب».

«أنا لم أسمع بمثل هذا من قبل»، قال وكيل النيابة ضاحكًا. لاحظ كل من القاضي ويوسف جلنازَ تثبّت عينيها عليه.

«وأنـا لـم أنظـر فـي قضيـة كهـذه مـن قبـل»، أوضـح القاضـي. «يوسـف، هـذا ليـس نـوع الدفـاع الـذي كنـت أتوقعـه. ربمـا عليـك إعـادة التفكيـر فـي الأمـر. إن خانـوم زيبـا مكلومـة بالطبـع، لكـن قـد يكـون ذلـك لأنهـا تفكـر فـي اليـوم الـذي شـجت فيـه رأس زوجهـا بفـأس. النسـاء يجـن جنونهـن لأمـور أتفـه مـن هـذا بكثيـر، أنـا متأكـد مـن أننـا جميعًـا نتفـق علـى هـذا».

أخـذ رشـفة مـن شـايه. كان البسـكويت -علـى مذاقـه الطيـب- جافًـا، وبـدا أنـه عالـق بحلقـه مـن الداخـل. مـع ذلـك، وجـد نفسـه يمـد يـده إلـى قطعـة أخـرى.

«هـذا البسـكويت لذيـذ يـا خانـوم»، قـال بشـرود. «حتـى بسـكوت أمـي -رحمـة الله عليهـا- لـم يكـن طيبًـا هكـذا. مـاذا وضعـتِ فيـه؟»

«بالهنـاء والشـفاء قاضـي صاحـب»، أجابـت جلنـاز بـأدب. «إنـه لا شـيء سـوى دقيـق وزبـدة وسـكر».

«ممـم، لذيـذ». قـال القاضـي ومسـح فمـه مـن الفتـات قبـل أن يتحـدث ثانيـة. «لـديَّ صديـق جيـد يعالـج المجانيـن. حقـق نجاحًـا كبيـرًا بالفعـل فـي عـلاج أشـخاص مختليـن حقًّـا. ربمـا يمكننـا أن نطلـب منـه تقييـم حالـة خانـوم زيبا. لماذا لا نتبـع الإجراءات القانونية السليمة فـي هـذه القضيـة؟ ربمـا يمكننـا صنـع اسـم لأنفسـنا هنـا».

«صنـع اسـم لأنفسـنا؟ سـيدي القاضـي. ظننـت أننـا سـنبتُّ فـي هـذه القضيـة اليوم أو الأسـبوع القـادم. إن كان يطلـب الرفـق لأنهـا أم أو لزعمهـا أن زوجهـا حـاول قتلهـا، فربمـا وجدنـا شـيئًا مـا لنتحـدث بشـأنه، لكـن هـذا... هـذا... الدفـع بالجنـون...»

«إنه القانون»، قال القاضي مستمتعًا. «لا يمكننـا الجدل في هذا».

ذُهل وكيل النيابة. يشتهر القاضي نجيب بكونه موضوعيًّا وصعبًا -مع أنه ليس من المستحيل رشوته - مع ذلك، يظل هذا الرأى غير متوقع منه.

«قاضي صاحب، هذه فكرة رائعة!» قال يوسف بحماس. إن ظلت زيبا على حالها، فقد يخلص التقييم سريعًا إلى ما في صالحها. «هل صديقك طبيب؟ هل يعمل في المستشفى في المدينة؟»

«إنه أفضل من الأطباء»، قال القاضي بفخر. «الأطباء لا يمكنهم فعل شيء للمساكين الذين فقدوا صوابهم، يمكنهم بالكاد إصلاح ساق مكسورة. إنه مُلا بموهبة خاصة في شفاء المجانين. قابلته منذ سنوات حين كنت أعيش بالقرب من بيت أبي».

«أنا لا أفهم».

«لا تقلق. إنه الشخص المناسب لهذا». بدا القاضي مسرورًا من نفسه على نحو خاص، كأنه فك وحده اللغز وتوصل إلى قاتل كمال.

«مع جزيل احترامي يا سيدي القاضي، هذا ليس أمرًا يحتاج إلى تقييم. هل كانت مجنونة؟ لقد قتلت زوجها في بيتهما، بالطبع مجنونة! لكن هذا لا يعني أنها بريئة». وجه وكيل النيابة كلامه إلى يوسف. «وإن كنت تقول إنها مجنونة، فهل تقر بأنها قتلت زوجها أم ما زلت تصر على أنها لم تفعل؟»

أخذ يوسف نفسًا عميقًا. هذا هو السؤال الذي كان يتمنى ألا يسأله وكيل النيابة. تدخّل القاضي ويوسف يهم بفتح فمه للإجابة.

«مضى وقت طويل جدًا منذ أن تحدثت مع صديقي. ظني أن هذه علامة لأسأل عنه. الله كريم يا أصدقائي. سنصل إلى الحل سريعًا. أنا أعرف أن عائلة المجني عليه ستنتظر بثقة في أننا سنتخذ القرار السليم».

«بالضبط!» قال وكيل النيابة. «ماذا سنقول لهم؟ إن القاتلة كانت في مزاج سيئ؟ إن جنًا تلبسها وحولها إلى قاتلة متعطشة إلى الدماء؟»

«لن نخبرهم بأي شيء»، قال القاضي. «سنأخذ خانوم زيبا إلى المقام ليلقي الملا نظرة عليها. إن رأى أنها ليست مجنونة، فلن نتحدث عن الأمر ثانية، سنعيدها إلى السجن ونقرر عقوبة جرمها على أساس ما لدينا».

روَّح يوسف عن وجهه بدفتر ملاحظاته. لا يريد تعليق دفاعه برأي دليل روحي.

«ماذا عن المستشفى؟ يوجد أطباء نفسيون يمكننا العمل معهم. مع شديد احترامي، سيدي القاضي، يوجد أطباء في هذا البلد ليخبروننا بما نريد معرفته».

«نحن لم يسبق لنا القيام بأي شيء كهذا، آغا جان»، أوضح القاضي ببعض تسامح. «وأقرب مستشفى على مبعدة يومي سفر تقريبًا من هنا، وليس فيه مكان دائمًا. الملا موثوق به. سنصل إلى رأي متخصص بسرعة».

عدل يوسف عن الضغط على القاضي لئلا يخسر تلك الانفراجة الضيقة. أدرك أن عليه الاستسلام، إن كان يريد أدنى فرصة لزيبا.

«خانوم جلناز، هل كانت ابنتك تعاني أيَّ مشكلات عقلية عندما كانت طفلة؟»

فركت جلناز يديها معًا. غلف الغبار جلدهما أثناء سفرها الطويل من بيتها إلى مكتب القاضي.

فكرت في ما يمكنها قوله. كانت زيبا تتحدث مع نفسها وهي طفلة صغيرة. استيقظت ليلًا ذات مرة وهي تصرخ أنها رأت جنًا في غرفة النوم. زعمت أنها رأت حروفًا في ألسنة النار تحت إناء الألومنيوم. كان بإمكانها استخدام كل ما علمتها إياه جلناز طوال السنين، لكنها اختارت العيش بلا حول ولا قوة. حتى الآن، ترفض الكشف عمَّا حدث حقًّا في ذاك الفناء. أليست تلك سمات الخلل العقلي؟

«كانت طفلة عادية جدًا، سيدي القاضي»، قالت بحزن. «لكنها الآن ليست كما كانت. لقد حدث لها شيء فظيع ولا يمكنني أن أتخيل ماذا قد يكون. كأن ذهنها تسمَّم».

«أنا لا أصدق أننا نناقش هذا بالفعل. أخبراني، ماذا سيحدث إن ثبت بالفعل أنها مجنونة؟» سأل وكيل النيابة.

نظرت جلناز إلى القاضي وتحدثت قبله:

«لكن هذا خطأ، أرسلوها إلى مستشفى، كان أبي ليخبرك بأن ما يفعله هؤلاء الشيوخ باسم العلاج ليس من الإسلام».

نظر القاضي في عينيها وشعر بتعرق راحتيه مجددًا، الرعشة في قفاه مجددًا.

«إن الملا معالج ممتاز وأنا أثق بتقديره. ستكون زيبا بين أيد أمينة».

«وإن ثبت أنها مجنونة ويمكن علاجها، حينها سيمكننا محاكمتها. حسن. أخطروني حين تريدون عقد جلسة أخرى»، قال وكيل النيابة بنفاد صبر. «سواء أكان اليوم أم الشهر القادم، ستُدان بجرمها».

وقف يوسف ووكيل النيابة. التقطت جلناز حقيبتها عن الأرض وعلقتها على ذراعها. شعر القاضي بدفء يسري في وجهه وهو يراقبها، كأنه يتلصص عليها وهي تخلع ثوبها وتعري كتفيها.

هل يشيب المرء وتغزو وجهه التجاعيد لتخطر له مثل هذه الأفكار؟ لا حيلة له في هذا.

أمسك مسبحته وبدأ يحرك خرزاتها، شعر ببرودتها تهدئ راحته المتعرقة. سيفكر في جلناز لاحقًا، يعرف، حين ستقابله زوجته بنظرتها البليدة وتقطيبتها الدائمة. فكر في مقدار سعادته لو كان متزوجًا من جلناز طوال تلك السنوات. كانا سيعيشا سعيدين. ابنة المرشد المبجل وهو، الابن الواعد لرجل عصامي. فك رجليه المعقودتين ونظر إلى ساعة الحائط، يتقدم عقرب الثواني إلى الأمام بلا توقف. لا سبيل لعودة الزمن إلى الوراء.

رغم جهوده كلها، يفتقر العالم إلى قدر كبير من العدالة.

الفصل 30

«**الزبيب، الجوز واللوز! الزبيب مفيد لمرض السكري، الجوز** يعالج الروماتيزم واللوز يُحسِّن مزاج زوجتك! الصنوبر، الحمص المحمص، والخوخ المجفف! الصنوبر الطازج سيجعلكم تأتون إليَّ في منتصف الليل لطلب المزيد!»

شعر وليد بحلقه يجف. سعل قليلًا وأخذ رشفة ماء من زجاجة بلاستيكية مجعدة يبقيها بجوار أكياس الجوز. كان يصيح بالكلمات نفسها التي ظل يرددها لسنوات، لكنها لم تعد تجعل الناس يبتسمون كما كانت. لم يعد الناس يضحكون أو يتحدثون. بدوا جميعًا ضجرين جدًّا من كل شيء.

سار في سحب الغبار العالقة في الهواء من عجلات عربته والرياح الخفيفة الآتية من الجبال إلى الغرب. كان يقترب من المكان نفسه للمرة الثالثة اليوم، في العادة لا يمر بالشارع سوى مرة واحدة فحسب.

«رمضان قريب! لاتصوموا قبله بيوم!»

مر به تلميذان يتسابقان، يمرر أحدهما للآخر كرة قدم ينقصها الهواء. وضع وليد طرف كمه على فمه وأنفه. لطالما ظلت رئتاه سيئتين. أخبرته أمه أن سبب هذا لأنها شهدت إحدى أسوأ العواصف الترابية في التاريخ حين كانت تحمله. اعتاد شعوره بأنه يمتص الهواء من ماصّة. لكن اليوم تنفسه صعب بشكل خاص.

أوقف عربته ووضع يديه عند خصره بحزم. كان أمام بيتهم. أين الفتاة الصغيرة؟ أكانت في المدرسة؟ أكانت على مقربة أقدام قليلة فقط من... قريبة بما يكف لتسمع صياحه؟

سعل وشعر بشيء ما ينبسط في صدره. استقر الغبار قليلًا. فأخذ نفسًا عميقًا من بين شفتين مزمومتين.

لماذا صار عليه -هو البائع المتجول المصدور- أن يحمل أسرارها؟ يمكنه إعالة أسرته بالكاد. إنه رجل بعيوب كثيرة. يروج أقاويل ويسب. تثور ثائرته على زوجته وأطفاله. لم يحرك ساكنًا من أجل أخته حين توسلت إليه أن يتحدث مع زوجها لأنه يضربها. غش جميع أهل القرية تقريبًا في مناسبة ما أو أخرى، يرفع السعر على بعضهم حين لا تروقه نظراتهم إليه أو حين لا يشترون منه وقتًا طويلًا. كان يكذب بشأن منشأ الجوز الذي يبيعه وبشأن طزاجته. حين يجد عفنًا بين الثمار، يزيل الفاسد منها ويترك البقية في الكيس على العربة، يفكر في البطون الجائعة الكثيرة التي تنتظر عودته إلى البيت. كان يصلي وعلَّم أطفاله الصلاة. لم يكن متعلمًا وكان يخشى أن تعاني أسرته بسبب هذا. رجل عديم النفع.

تبكي زوجته أحيانًا، قلبها يتمزق على فتاة ليست ابنتهما. لماذا عليهما أن يتحملا هذا؟ أليس لديهما ما يكفي ليقلقا بشأنه تحت سقفهما الصغير المتهالك؟

«الزبيب، الذهبي كشعر الشقراوات وحلو مثلهن تمامًا! الأخضر الذي يُنسي الرجال متاعبهم! والأسود ليجعل عودك مثل نجوم السينما!»

بُحَّ صوته. كان قد فكر في اصطحاب أحد أبنائه معه في جولاته. إن استطاع تعليم ابنه ترديد صيحاته في الشوارع، يمكنه توفير جهده لدفع العربة. لكن الفتى ما زال صغيرًا، ووليد يريده

أن يذهب إلى المدرسة. إن استطاع أطفاله أن يقرؤوا ويكتبوا، فقد يكون أمامهم فرصة، وقد يحتاج إلى رعايتهم له حين تتقدم به السن، ما يبدو أنه يحدث سريعًا.

سيكون أمامه الكثير ليُسأل عنه يوم القيامة. ماذا قد يفعل أتقى المتّقون في هذا الشأن؟ هل يوجد حل أفضل من الوقوف خارج باب الفتاة المسكينة وتذكيرها بالزبيب الذي دمَّر حياتها؟

سيبتعد عن بيتها. لن يسير بزبيبه ومكسراته في هذا الشارع ثانية أبدًا. سيخفض صوته لئلا يعذبها بنداءاته السخيفة. سيترك الفتاة المسكينة في سلام. هذا ليس حلًا، لكنه أفضل ما يمكنه.

سمع صرير باب معدني من خلفه.

يجب أن يفرح. قضى أعوامًا ينادي في الشوارع ليسمع هذا الصرير، علامة أنه سيبيع كيسًا من الجوز أو نصف كيلو من الزبيب. فيبتسم ويضحك ويضع ثمار الجوز في الكيس الورقي البني. يأخذ النقود القليلة ويعرف أنه سيشتري أرزًا وطماطم وبصلًا للغد أو لبعد غد. سيكون لديه سبب للاستيقاظ غدًا والدفع بعربته في الشوارع طوال نهار آخر. كان صوت باب ينفتح -في العادة- بشيرًا.

عرف -دون أن ينظر- أن أحدًا ما يقف عند ذاك الباب. أحد ما يحدق إلى ظهره في انتظار أن يستدير إليه.

سمع صوت الباب مرة أخرى، ببطء متعمد. أطلق تنهيدة ارتياح حين سمع الباب ينغلق. لقد تحرر. لن تجري محادثة اليوم، وقد أقسم على نفسه آلاف المرات، خلال الثواني الثقيلة الماضية، أنه لن يدفع بعربته أمام هذا البيت مرة أخرى أبدًا.

أمسك بمقبضي عربته. انقبضت عضلات كتفيه بحزم. دع *الناس لشؤونها الخاصة*، قال لنفسه. كان هذا هو الفعل المحترم الوحيد. ستفهمه زوجته. ستكف عن النظر إليه وإلى ابنتهما بتلك النظرة المغتمة.

لم يكد يتحرك قليلا حتى توقف فجأة.

«آغا صاحب، لا تذهب».

أخذ نفسًا عميقًا واستدار. لم يكن الباب المعدني قد انغلق تمامًا. بل كان مفتوحًا، فتحة ضيقة جدًا فلم يستطِع رؤية وجه من يتحدث، لكنها واسعة بما يكفي ليصب قلب أمّ ما فيه من أحزان مكتومة على الشارع غير المرصوف.

الفصل 31

شعر يوسف بالسيارة ترتج على الطريق الوعرة. يـزداد قناعـة مـع كل اهتـزازة أن المجـيء إلـى المقـام فكـرة أسـوأ ممـا يتخيـل.

قعقعت السيارة على طريق مترية طويلة إلى مبنى صغير من الجدران الطينية بطابق واحد، إطارات نوافذ زرقاء، وباب مقوس. ظهر رجل ما إن توقفت السيارة.

حدقت زيبا في الخارج من النافذة وتمتمت بهدوء: «يوسف، لماذا تركتهم يأتون بي إلى هنا؟»

«لم يكن أمامي حل آخر»، أجابها. لو كان قاضيًا آخر ينظر قضيتها لم يكونا ليأتيا، يعرف هذا. مع ذلك، كان أي قاضٍ آخر سيحكم على زيبا منذ وقت طويل.

«مرحبًا»، قال الرجل ليوسف وزيبا ووكيل النيابة وحارس آخر ترجل من السيارة. «أنا الملا حبيب الله. مرحبا بكم في المقام».

كان كاحلا زيبا مقيدين معًا. لم يلحظ يوسف ذلك لتشتته بمحيطه الجديد، تململت لتقترب منه أكثر من الحارس.

صافح وكيل النيابة حبيب الله ووضع يده عند مرفقه.

«شكرًا لك ملا صاحب. أنا متأكد من أن صديقك المبجل -سيادة القاضي نجيب- قد أوضح لك الموقف. نحن هنا لأخذ رأيك في حالة هذه المرأة»، قال وهو يشير برأسه نحو زيبا. «لقد قتلت زوجها وظلت تتصرف برعونة. نحن نريد رأيك إن كانت مجنونة أم لا».

تقدم يوسف نحو حبيب الله بيد ممدودة صافحها حبيب الله بحزم.

«أنا محامي الدفاع عن هذه المرأة»، أوضح يوسف.

«هذا ما ظننته»، قال حبيب الله بما بشبه ابتسامة.

حول الملا حبيب الله انتباهه إلى زيبا، تفحصها وهي تحدق إلى الأرض. كان نحيلًا، يرتدي قميصًا وبنطالًا باللون البيج، وسترة عسكرية زيتونية بجيوب ذات سحابات. يتدلى طرف عمامة صغيرة من خلف أذنه اليسرى ليصل إلى لحيته الرمادية.

«سامحني يا ملا صاحب، لكن كم سيستغرق منك الأمر لتقييم حالتها؟ أريد أن أعود إلى المكتب عند الظهيرة».

لمرة واحدة فقط كان يوسف ووكيل النيابة متفقين. وعد يوسف بتقديم تقريره إلى أنيسة التي بدت مستمتعة بقرار تقييم حالة موكلته في مقام محلي.

سيجدها مجنونة فقط إن أراد إنقاذها، تنبأت أنيسة. *لكنني ما زلت لا أرجح أن يأخذ القاضي بدفاع الجنون. إنها خطوة، حتى لشخص متفائل مثلك.*

«سيدي المحترم، أنا أشعر بشكوكك. دعني أريك المكان، وأنا متأكد من أنك ستطمئن».

سار حبيب الله، يشبك أصابعه بهدوء خلف ظهره، نحو مبنى صغير يقف وحده في ظل شجرة أكاسيا باسقة.

رمق الرجلان أحدهما الآخر بنظرة قبل أن يتبعاه.

«أحضِراها»، صاح حبيب الله دون أن يدير رأسه. أطلق حارس السجن تنهيدة ثقيلة. انحنى وفك قيد كاحلي زيبا، ووضعهما في

معصميها. حين انتهى، أشار لها أن تتبع الآخرين.

مالوا برؤوسهم وهم يعبرون الباب الواطئ. داخل الضريح، كان السقف مرفوعًا، وفي أحد جوانب الغرفة توجد دكة صغيرة في الجدار الطيني. في منتصف الغرفة مقبرة أسمنتية، مغطاة بعناية بقماش أخضر موشّى بكتابة ذهبية لآيات من القرآن. كانت الغرفة تسعهم جميعًا بالكاد. انثال شعاع شمس رفيع من النافذة المستطيلة ولمع على العلم الأخضر، على رقعة ظلت تُبلي بمرور الزمن.

استدارت زيبا بعيدًا عن المقبرة. يوجد قدر كبير جدًا من الموت في هذه الغرفة الصغيرة. وقعت عيناها على سطور صغيرة مكتوبة بخط اليد على الجدران.

لا إله إلا الله

إن الله عليم رحيم.

«هذا يا أصدقائي قبر حضرة رحمن. كان رجلًا حكيمًا ومتعلمًا، من أهل القرآن الكريم حقًا. حج عشرين مرة في حياته، ومن المعروف للجميع أنه مؤسس هذه القرية».

نظر يوسف إلى زيبا، التي تحركت من الركن إلى النافذة الصغيرة. كانت تحدق إلى سور الأسلاك بالخارج بشرائط النذور من شتى الألوان معلقة عليه، تتطاير أطرافها في النسيم الهادئ بأمل. خلف السور مباشرة فناء مفتوح بمبنى من طابق واحد على شكل حرف L في أحد أطرافه. رأى يوسف عينيها تضيقان نحو المبنى، يكاد ارتفاعه يكفي لوقوف رجل فيه. لاحظ تسارع أنفاسها.

«ما هذا المبنى هناك يا ملا صاحب؟ ذاك الذي خلف السور...»

أشار الملا إلى الباب.

«لنخرج أولًا وسوف أخبرك».

سُرَّت زيبا لخروجها من الغرفة الخانقة.

«هناك أعالج بعض الأشخاص الذين يأتونني بمتاعب كبرى في الذهن والروح»، أوضح بصوت واثق وفخور. «هذا المقام أقوى من أي دواء، حين يؤمن به المرء».

«أي نوع من العلاج تمارسه؟» سأل يوسف، كاد يختنق وهو ينطق كلمة «علاج».

يؤمن الكثير جدًا بالأحجبة والتمائم والخرافات. فكر يوسف. لكنه هو نفسه يتردد في انتقادها. كان وهو طفل يعاني مشكلات في التنفس. حين كان عمره عامين أتته نوبات سعال حادة جعلت والديه يخافان على حياته. أخذته أمه إلى طبيب، وصف له دواءً لم يجدِ إلا قليلًا. حين رأت أمه بطنه ثقيلًا وصدره يقعقع بالسعال، أخذته إلى مقام في كابول حيث دعا له مُلا وكتب له آخرُ حجابًا. قطعة ورق صغيرة مطوية وملفوفة في قماش شبكتها أمه بدبوس في قميصه من الداخل، أعلى جانب صدره الأيسر تمامًا. خلال يومين هدأ السعال، وفي السنين التالية، قلت نوبات الربو كثيرًا وصارت تأتي بدرجة معتدلة إلى حد كبير. تعتقد أمه أنه الحجاب وليس دواء الطبيب ما حقق التحسن. سمع يوسف تلك القصة عشرات المرات في طفولته، فتقبلها كحقيقة.

«الدعـاء أقـوى بكثيـر مـن أي وسـيلة وأي دواء وأي سـلاح. أنـا أدعـو للفقـراء الذيـن يأتـون إلـى قبـر حضـرة رحمـن هنـا والذيـن يعلقـون أمانيهـم بالسـور. والله يسـمع دعـوة الـداع إذ دعـاه، دائمًـا».

«ومـا هـذا؟» سـأل يوسـف وهـو يقـي عينيـه مـن الشـمس بيـد ويشـير بالأخـرى إلـى المبنـى الـذي لاحظتـه زيبا مـن داخـل الضريـح. يبـدو صفًّـا مـن الزنازيـن الصغيـرة مفتوحًـا علـى الفنـاء المسـور.

سـارت زيبـا إلـى صخـرة كبيـرة وجلسـت عليهـا. تركـت رأسـها يسـقط علـى ركبتيهـا. رمقهـا حـارس السـجن بنظـرة متشـككة لكنـه تركهـا وشـأنها.

«أعالـج هنـاك الحـالات الأشـد خطـرًا»، قـال المـلا وهـو يميـل برأسـه جانبًـا. «الدعـاء لا يعالـج جميـع العلـل. أحيانًـا يتطلـب الأمـر وقتًـا لتطهيـر الذهـن والجسـد. أحيانًـا يحتـاج المرضـى إلـى مـكان منعـزل يمكنهـم فيـه اسـتجماع قواهـم وتوجيههـا لمعالجـة العلـل. هنـا.. فـي هـذا المـكان».

«هل يوجد أشخاص في الداخل؟»

«نعـم» قـال مـلا حبيب الله. «أحيانًـا يتجولـون فـي الفنـاء، وأغلـب الوقـت ينامـون أو يتحدثـون مـع أنفسـهم».

«مـاذا عـن الطعـام والشـراب؟» سـأل يوسـف. وقـف وكيـل النيابـة يسـتمع. كان يعـرف الضريـح جيـدًا، مـع أنـه لـم يـأتِ إلـى هنـا مـن قبـل.

«يأكلـون خبـزًا وفلفـلًا أسـود مـع الكثيـر مـن المـاء. هـذا هـو عـلاج الذهـن. الأطعمـة الأخـرى قـد تفسـد العـلاج أو تؤخـر الشـفاء. هـذه هـي الطريقـة المثلـى للراحـة الحقيقيـة».

«خبز وفلفل أسود؟ أهذا كل ما يأكلونه؟» سأل يوسف مذهولًا. «كيف يوجد هذا المكان حقًا؟ توجد مستشفيات في كل مدينة كبرى، وأقرب مستشفى من هنا لا يبعد كثيرًا عن هذا الضريح. لماذا لا يأخذ الناس مرضاهم إلى هناك؟»

«أمام كل مريض تعالجه المستشفيات يوجد مئة آخرون ينتظرون الفحص. أنت تشك في الفكرة، وهذا لأنك لم ترَ ما بإمكان هذا المكان تحقيقه. أنا أؤكد لك، إن تحدثت مع المرضى الذين مكثوا هنا، سيخبرونك بمدى شكرهم لشفائهم هنا».

سكت يوسف.

«ملا صاحب»، قال وكيل النيابة بأدب. «أنا سعيد جدًّا لرؤية الضريح ولسماعي عن عملك. لقد أشاد القاضي بمهاراتك ونحن في انتظار سماع رأيك في هذه المرأة. ماذا عليك فعله لتقييم حالتها؟»

«نعم، المرأة». حول الملا انتباهه لزيبا، التي رفعت بصرها إلى دائرة الرجال الواقفين على مسافة أقدام منها. «دعاني أتحدث معها. تفضلوا، اشربوا الشاي لإنعاش أنفسكم».

نظر يوسف إلى صف الزنازين خلف السور، تساءل إن كان بإمكانه لمح أحد المرضى الذين يعالجهم الملا لكنه لم يرَ ولو ظل حركة. قد يكون كلام الملا محض هراء، فكر. *قد لا يوجد فرد واحد هناك.*

دخلا إلى غرفة مفروشة بسجادة بلون عنابي بنمط قدم الفيل. على الأرض أيضًا مرتبتان ووسائد مكسوة بالصوف تستند إلى الجدار.

جلس وكيل النيابة على الأرض، جاء من غرفة خلفية فتى لا يزيد عمره على عشرة أعوام، يحمل صينية فضية عليها أربعة أكواب شاي صغيرة. وضع كوبًا أمام كل محام وأخذ الكوبين الآخرين إلى المائدة والكرسيين البلاستيكيين بالخارج حيث يجلس الملا حبيب الله في مواجهة زيبا. وقف حارس السجن على مقربة أقدام قليلة، يتحدث بهدوء في هاتفه المحمول.

«ما رأيك في هذا المكان؟» سأل الملا.

رفضت زيبا مبادلته نظرته. كانت تحدق إلى أفرع شجرة الأكاسيا. ارتفع حاجباه باهتمام.

«بأي جريمة أنتِ متهمة؟» عيناه ناعمتان ومطمئنتان.

خرج صوتها مبحوحًا. جفف الهواء المغبر حلقها، لكنها لم تلمس كوب الشاي الكهرماني الذي يتصاعد منه البخار.

«ماذا تريد مني؟»

فوجئ الملا حبيب الله بلهجتها العنيفة. لم يكن حتى أكثر المرضى جنونًا بهذه الوقاحة.

«لماذا تسألين؟»

شخصت ببصرها. كأنها فقدت اهتمامها بسؤالها نفسه.

«لماذا أنت في السجن؟» كرر سؤاله.

«لا بدّ من أنه أخبرك».

«أريد أن أسمع منكِ».

تكلفت ابتسامة وقالت: «لأنها إرادة الله أن يزج بي في السجن، وأنا أطيعه. لأن لبعض الرجال مئة وجه. لأن محاميّ يظن أنه سينقذ حياتي، مع أن أمي وجدي، بكل حيلهم مجتمعة، لم يستطيعا فعل شيء لي».

ضيق الملا عينيه.

«أمك وجدك؟»

مال إلى الأمام ليمعن في النظر إليها جيدًا فيها إلى حد أن تململت في جلستها وأدارت له كتفها. أخفضت عينيها.

«من جدك؟»

«جدي صفوت الله، المرشد. إنه ليس معروفًا هنا. هنا بعيد جدًا عن قريتنا».

أومأ برأسه ببطء وهمس:

«فهمت». نهض وسار بعيدًا عنها خطوات قليلة. وقف بظهره لها وشخص ببصره إلى شجرة الأكاسيا.

«يقولون إنك قتلت زوجك، فهل فعلت ذلك حقًا؟»

قالت بسخرية: «يريدون جميعًا التحدث عن زوجي، ما عداي أنا».

«أكان رجلًا سيئًا؟»

«قلت إنني لا أريد التحدث عنه. اسمعني يا ملا صاحب، أنا لست مجنونة. لا داعي لوجودي هنا. إن كان يجب سجني، فأرسلني إلى السجن، أرجوك».

تنحنح قبل أن يواجهها مجددًا.

«لا بد من أنك تعرفين ما حدث لزوجك. هل أخبرت عائلتك بأي شيء؟ أمك أو جدك؟»

«ليس لديَّ شيء لأقوله. لديهما تقارير الشرطة».

«سمعت ذلك»، قال وهو يعود إلى كرسيه. قرّبه من زيبا بوصات عدة قبل أن يجلس. حاولتْ ألا تنكمش بشكل ملحوظ. ذكرت نفسها أن يوسف ووكيل النيابة في الداخل.

«كيف ترى عائلتك الأمر؟ هل يصدقون أنك بريئة؟»

«أمي...» بدأت زيبا. دهشت لسماعها صوتها يتهدج بمشاعرها نحو أمها. «تؤمن دائما بأنني بريئة. ليس كمثلها أم. وأخي وكّل لي محاميًا. إنهما كل عائلتي. ليس لي أحد غيرهما».

«وجدك؟»

«سواء أكان يعتقد أنني بريئة أم لا فهذا شأنه. لا يسعه فعل شيء لي».

«أهذه كراهية في صوتك؟»

«لجدي؟» فوجئت بملحوظة الملا.

«لا، ليس لجدك. لزوجك»، قال بتأمل. «الشريك الخطأ قد يصيب المرء بالجنون. أو على الأقل يدفعه لارتكاب أمور مجنونة».

«أخبرتك»، قالت زيبا من بين أسنانها. «أنا لست مجنونة».

الجنون نهر. ينجرف البعض في تياره، يُغرقهم رغم تشبثهم بصخور. لو تركتْ نفسها تفكر طويلًا في ما حدث لكمال أو في ما فعله كمال أو في ما آل إليه أطفالها أو في ما قد يكون قد حدث لهم بالفعل، ستشعر بجريان الماء الذي لا تخطئه بين أصابع قدميها، يتصاعد شيئًا فشيئًا حتى سمانتيها، بارد ومنذر.

كانت تقاومه.

«كخاتم زمرد»، تمتمت.

«ماذا قلتِ؟» سألها.

«أتعرف أنك لو أطعمت دجاجة حجر زمرد، سيمر بأمعائها ويخرج من الطرف الآخر كما هو، بعد أن تمسح عنه الخراء بالطبع. ما عليك سوى أن تصبر وتثق بأن أمعاء الدجاجة ستعيد إليك الحقيقة. وستعرف حينها أنه زمرد حقيقي».

قطب الملا لسماعه ألفاظًا مقززة.

«أتقترحين عليَّ أن أطعمك لدجاجة؟ هل ستخرجين من الطرف الآخر دون أن تتأثري؟»

جعلتها فكرة انحشارها في أمعاء دجاجة تبتسم. وارت فمها بطرف طرحتها. كانت هكذا تبقي الماء الجاري بعيدًا. تجد أسبابًا للابتسام، حتى وإن كانت تجلس على مسافة أمتار قليلة مما يبدو كصف من السراديب.

لاحظ الملا التغضن عند زاويتي عينيها وهو ينظر إليها بفضول.

«ألا يمكنك معرفة هذا من مجرد النظر إليَّ؟ ألا تعرف حقًّا؟» سألته ساخرة وهي تدفع بكرسيها إلى الخلف. «ملا صاحب، لقد مررت بالفعل بأمعاء وحش. لا داعي لاختباري مرة أخرى».

أمسك الملا الترموس الذي تركه ابنه على المائدة وأعاد ملء كوبه. انسكبت حفنة من الأوراق السوداء، آلاف الأعلام الملتفة. لم تكد تستقر في الكوب حين سمعت زيبا صوت سلاسل فالتفتت نحو صف الزنازين. تتبع الملا نظرتها، ثم عاد ينظر إلى وجهها وإلى الظلال أسفل عينيها. تشبه بومة، بعينين مستديرتين داكنتين ومنبت شعر مثلث. بشرتها الزيتونية ناعمة، لكن الأسابيع الأخيرة الماضية استنزفت حيوية الوجنتين.

سمعا صيحة، صوت رجل. لم تستطِع زيبا تحديدها في البداية. ركزت نظرها ولمحت حركة عند فتحة أحد السراديب، حركة خفيفة جدًّا إلى حد أن ظنت أنها تتخيل. جاء الصوت مجددًا، أنين عالٍ بطيء.

«يا رب، يا رب، ماذا فعلت لأنال هذا؟ أعنّي يا رب! ليساعدني أحد ما أرجوكم!»

تلاه صوت آخر، يجرّ سلسلة في سرداب هو الآخر.

«اخرس، اخرس، اخرس! إن الله لا يحبك!»

لكن الصوت لم يخرس، بدا أن صاحبه قد جلس عند حافة سردابه مباشرة، قريب بما يكفي ليسقط ضوء الشمس على جزء صغير من جسده. ميزت زيبا ظهرًا منحنيًا بانهزام، وذراع هزيلة ورأس مطرق.

«لا أطيق الوحدة! أرجوك لا تدعني وحدي وقتًا أطول! أقسم لكم أنني شُفيت! أرجوكم دعوني أخرج... سأموت هنا!» كان صوتًا بشريًا لكنه بدا لزيبا كثغاء خروف يُجرّ إلى الذبح، تحتك قائمتاه الأماميتان بالروث ويختلج حلقه الذي سيُنحر قريبًا بخوف غريزي.

تسارعت أنفاسها. عضت لسانها.

رشف الملا من شايه بشفتين مزمومتين وبصوت مقزز جعلها ترغب في الإلقاء بكوبه على جذع شجرة الأكاسيا.

«إنه مريض. أحضره أهله إليَّ، كان يتحدث مع شياطين لا يراها أحد غيره. لم يكن يجيب أمه وأباه حتى. لكنه تحسّن كثيرًا في التسعة والعشرين يومًا التي قضاها هنا. هذا ما أفعله»، قال وهو يلوح بيده بفخر. «إنها رسالتي. لقد تخليت عن... الكثير جدًا من أجل هذا العمل. أحيانًا يجب أن نضحي لنعثر على قدَرنا الحقيقي، أتفهمين؟ لقد هداني الله إلى هذا العمل، والأمر يعود إليّ في الطاعة. أنا أجعل الناس يتحسنون هنا».

شعرت زيبا بعقدة كبيرة تنقبض في معدتها . انتصبت شعيرات ذراعيها . داخل تلك السراديب عزلة تامة. رأت من الفتحات الخط المتعرج للجبال التي تفصل هذا العالم عن العالم الآخر.

ورأت في عيني الملا أنه اتخذ قراره بالفعل. لا شيء قد تقوله الآن قد يغير شيء. سيندهش يوسف، لكنها هي لم تندهش. تلك مشكلة يوسف. يرسم خططًا ويتوقع من بقية العالم الالتزام بها .

جاءتها الكلمات في ومضة:

المرأة الغاضبة مجنونة

وهذا الفرض الساذج هو منبع أسانا .

وقف يوسف ووكيل النيابة عند الباب. نفد صبرهما وما لديهما من محادثات صغيرة، خاصة بجلوس ابن الملا صامتًا في ركن الغرفة.

تنحنح وكيل النيابة قائلًا : «ملا صاحب، معذرة على المقاطعة، لكن...»

أخذ الملا رشفة أخرى طويلة من شايه بصوت عالٍ، «سيديَّ»، قال وعيناه على زيبا، «اذهبا أنتما، هذه المرأة ستمكث هنا معي».

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل 32

«لكن... لكن... لكن لمدة أربعين يومًا؟» سأل يوسف بعصبية. «بعد أربعين يومًا، سنجر جثتها من هناك جرًا! هل هذه هي خطتك لتقييم حالتها؟»

كان القاضي نجيب مرتبكًا بشدة. هرش قفاه ونظر، مشتتًا، في حُجة أرض على مكتبه. ضيق عينيه ليدقق جيدًا في قائمة التوقيعات أسفلها. عليه البت في هذا النزاع على الملكية خلال أيام قليلة وإلا ستقع جريمة أخرى.

«أيها الشاب، أنت تتجاوز الحد بتحدثك معي بهذه الطريقة».

مضى أسبوع منذ أرسلت زيبا إلى المقام. لسبعة أيام، ظل يوسف يذرع الخطا خارج مكتبه. كان الحارسان -شابان طويلان في العشرين من عمرهما بسلاحيهما معلقين في خصريهما- يراقبانه باستمتاع وهو يعترض القاضي لدى دخوله مكتبه. لا يوجد قضاة آخرون للجوء إليهم، وفرص التقدم إلى محكمة الاستئناف معدومة. قال يوسف بنبرة حاول أن تكون هادئة.

«أرجوك سيدي القاضي. أنا أطلب منك مراعاة حالتها الصحية. لن نستطيع إجراء محاكمة عادلة إن بقيت جائعة ومقيدة لأربعين يومًا».

«الأربعون يومًا هي مدة العلاج القياسية. لقد أوضح ملا حبيب الله ذلك وهي بالتأكيد ليست مريضته الأولى. لقد ظل يعالج الناس هناك لسنوات ويتمتع بسمعة جيدة جدًّا في المنطقة». كان القاضي حازمًا كأنه لم يفاجأ بأدنى قدر لسماعه قرار الملا بإبقاء زيبا للعلاج.

قال وكيل النيابة ساخرًا: «هذا ما أردته تحديدًا، أليس كذلك؟» يلقي اتهامه من جلسته المريحة على المقعد ذي الذراعين. ظل يعقد رجليه النحيلتين ويفكهما، برزت ركبتاه كمنقارين وهو يميل إلى الأمام ليلقي بملفه على الطاولة الصغيرة. «أردت أن يقول شخص ما إنها مجنونة وها قد حدث. وهي الآن تتلقى العلاج، تمامًا كما قلت وكما كان سيحدث لو كانت متهمة في أمريكا. إن كان لأحد أن ينزعج من كل هذا، فهو أنا».

لم يصدق يوسف المنحى الذي اتخذته قضيته. كأن النظام القضائي ليس سيئًا بما يكفي، ليضطر الآن إلى الرضوخ لرأي دليل روحاني محلي. تأفف ووضع يديه على خاصرتيه، رابطة عنقه مفكوكة.

صاحبته جلناز في تلك الزيارة إلى القاضي. كان يخشى إخبارها بقرار الملا والقاضي بشأن زيبا، لكنها تلقت الخبر بشكل أفضل مما توقع. كانا في غرفة المقابلة في السجن، وكانت تضع كلتا يديها على صدغيها ورأسها مخفضًا. حين رفعت بصرها أخيرًا، لم يرَ يوسف أي دموع، بل عزم متجهم.

«ليكن الله في عونها»، همست بحزن قبل أن تخرج من الغرفة، تعرف جيدًا أن لا أحد سواه قد يفعل.

تحدثت أكثر اليوم.

«قاضي نجيب، ماذا قال هذا... هذا... الملا عن حالة ابنتي بالتحديد؟»

حول القاضي انتباهه إليها. تساءل إن كانت قد اعتنت بمظهرها على نحو خاص اليوم. هل فكرت فيه وهي ترتدي

حمالـة صدرهـا؟ انعقـد حاجباهـا بشـدة، فتنحنـح القاضـي وانتبـه، قلقًـا مـن أن تكـون قـد قـرأت أفـكاره.

«لقـد أوضـح لـي أنـه قضـى وقتًـا فـي ملاحظتها منـذ اليـوم الأول. وكتـب لـي أيضًـا تقريـرًا أرسـله إلـيَّ مـع رسـول. كان القاضـي يعنـي بكلمـة «تقريـر» فقـرة مكتوبـة بخـط اليـد علـى صفحة كراسـة مدرسـية وبكلمـة «رسـول» ابـن المـلا نفسـه الـذي قـدَّم لهمـا الشـاي. «مـن وجهـة نظـره المهنيـة أنهـا تعانـي مرضًـا عقليًّـا عميقًـا، وفـي اعتقـاده أنهـا علـى الأرجـح لـم تكـن فـي كامـل قواهـا العقليـة وقـت مقتـل زوجهـا. الخبـر الجيـد أنـه يـرى أن بإمكانـه مسـاعدتها علـى التعافـي».

عـاد يوسـف إلـى الخلـف فـي جلسـته وتنفس بعمـق. كيـف سـيمكنه إخـراج زيبـا مـن حجزهـا ذاك دون أن يلقـي بالقضيـة كلهـا بيـن يـدي وكيـل النيابـة؟

«مـع كامـل احترامـي سـيدي القاضـي، إنـه ليـس طبيبًـا ولا يمكنـه البـت فـي هـذا الأمـر حقًّـا. لقـد أردت شـخصًـا مؤهـلًا علميًـا لتقييـم حالتهـا. المستشـفى ليـس بعيـدًا. إن أمكننـا إرسـالها إلـى هنـاك، فيـه طبيبـان مؤهـلان ظـلا يعالجـان مرضـى بمختلـف الأمـراض العقليـة. لديهـم حتـى وحـدة داخلية لإيـداع المرضـى للعلاج بشـكل معروف...»

قاطعتـه جلنـاز: «أنـا، خلافًـا لمحامـي ابنتـي الشـاب، لا أشـك فـي قـدرات المـلا». صوتهـا حـازم وثابـت وتنظـر مباشـرة إلـى القاضـي. «فـي الحقيقـة، أنـا أثـق بـه بشـدة وأثـق أنـه سـيمكنه علاجهـا فـي أقـل مـن أربعيـن يومًـا. أرجـو منـك أن توصِّـل إليـه رأيـي هـذا. لقـد سـمعت أنهـا المـرأة الوحيـدة فـي المقـام الآن، وكمـا قـد تـرى، أنـا قلقـة بشـأن سـلامتها. تلـك الظـروف ليسـت سـهلة علـى امـرأة».

«لقـد صممـت الظـروف لتناسـب متطلبـات العـلاج والمريـض»، أوضـح القاضـي برفـق. «إنهـا هنـاك آمنـة، وسـوف يعتنـي بهـا جيـدًا».

«مـاذا يعنـي هـذا فـي قضيتهـا إذن؟ لقـد راجعنـا قانـون العقوبـات بالفعـل. إن ثبـت جنونهـا بتأكيـد خبيـر موثـوق بـه، فلـن يجـوز إدانتهـا». أصـر يوسـف.

«حتـى الآن»، صحـح لـه وكيـل النيابـة. «كمـا قلـت مـن قبـل. سـتعالج ثـم سـيمكننا محاكمتهـا وإدانتهـا. وسـيحدث ذلـك رغـم كل هـذا التسـويف».

«صديقـيّ، نحـن نصنـع التاريـخ»، قـال القاضـي نجيـب بفخـر. نظـر حولـه فـي الغرفـة ككيميائـي وصـل لتـوه إلـى تركيبـة جديـدة. «نحـن ننفّـذ العدالـة الحقيقيـة كمـا ينـص عليهـا قانـون الإجـراءات الجنائيـة. هـذا عصـر جديـد للنظـام القضائـي، أيهـا الشـابان. لـم أظـن أننـي سـأشـهده قـط. إن ثلاثتنـا مـن الـرواد!»

كانـت جلنـاز تنصـت باهتمـام، فكـرت فـي البسـكويت الـذي أحضرتـه فـي الاجتمـاع الأخيـر. كان القاضـي رجـلًا نحيـلًا فلـم تتوقـع أن يـأكل الكثيـر منـه كمـا فعـل. جـاءت اليـوم خاليـة اليديـن وتسـاءلت إن كان هـذا القـرار حكيمًـا.

«يوجـد موضـوع آخـر علينـا مناقشـته»، قـال القاضـي وهـو يميـل إلـى الأمـام فـي كرسـيه. وضـع مرفقيـه علـى مكتبـه ومسـد لحيتـه مرتيـن قبـل أن يواصـل كلامـه. «لقـد تلقيـت تقريـرًا مـن مأمـور الشـرطة بقريـة خانـوم زيبـا. لقـد تقـدم أشـخاص عـدة بشـهاداتهم للمأمـور حكيمـي، فـي قضيـة زيبـا».

شـعر يوسـف بشـعيرات قفـاه تنتصـب. اختلـج وجـه جلنـاز مـرة واحـدة فقـط، مـا اعتبرتـه فـألًا جيـدًا.

« أي شهادات؟» سأل وكيل النيابة.

«شهادات قليلة في الحقيقة، لكنها من أفراد كثيرين لا يمتون بصلة للمتهمة. ملاحظات بشأن سلوكها في الأسابيع السابقة على مقتل زوجها، وعليَّ القول، إنها ملاحظات مهمة».

«ماذا يقولون؟» سأل يوسف بحرص.

«سأقرأ لكم مقتطفات»، قال القاضي ووضع نظارته على أنفه وسحب أوراقًا عدة من ملف. «هاكم الأولى. من امرأة تعيش بالقرب من بيت المتهمة، تقول: «لاحظت هذه المرأة تتبعني إلى المنزل مرات عدة. انتبهت للأمر لأنني أعيش وحدي مع أطفالي بعد وفاة زوجي منذ سنوات. حاولتُ اختلاس النظر من شق في بوابتي وشاهدتها تقوم بالمثل عند بيوت جيراني. كانت تتحدث إلى نفسها، وحين طلبت منها أن تبتعد، لم يبد عليها أنها سمعتني».

ذهل يوسف للحظة.

«وأخرى تقول: «لم أعرفها جيدًا لأن بيتها يبعد عن بيتي بمسافة، لكنني كنت أراها من حين إلى آخر في السوق. رأيتها أكثر من مرة تهمس لزجاجات الزيت وأكياس الدقيق في المحلات. لم تلاحظني أراقبها وأنا لم أقصد التطفل لكنها كان لديها ابنة في سن ابنتي، لم يسعني سوى ملاحظتها».

«هذا لا يمكن أخذه على محمل الجد في القضية»، قال وكيل النيابة ناحبًا.

«ولماذا لا؟ إذا أردنا تطبيق قانون الإجراءات، فعلينا أن نعد هذا دليلًا. هذا جزء من التحقيقات. هذه شهادة شهود. هكذا ستنجز الأمور في أفغانستان الغد وسوف نبدأ من هنا، اليوم!»

شعر القاضي بحماسة شباب، كأنه في بداية مساره المهني وليس بالقرب من نهايته. رفعت جلناز حاجبًا. انتفخ صدر القاضي نجيب قليلًا، إذ فسر إيماءتها بتفاؤل.

«هذه أكثر الشهادات إثارة: «رأيت خانوم زيبا مرتين في تجوالي ببضاعتي في البلدة. كانتا قبل مقتل زوجها مباشرة. كانت تسير في الشارع، وبعد كل مسافة قصيرة، كانت تتوقف وتلتقط حجرًا صغيرًا أو حفنة تراب وتضعها في فمها. سألتها لماذا تفعل هذا، لكنها عوت نحوي مثل كلب شارع وأسرعت تبتعد قبل أن أسألها أي سؤال آخر. رأيت الجنون في عينيها ذاك اليوم. الأعمى فقط من لا يمكنه رؤيته».

«جميعهم إذن يقولون إنها كانت مجنونة؟» سأل يوسف. ماذا حدث في تلك القرية؟ فكر في محادثاته معهم وتساءل عن السبب في تطوع الكثير منهم للشهادة بسلوكيات زيبا الغريبة الآن؟

أخرجت جلناز منديلًا من حقيبتها ومسحت به جبينها، كان الجو خانقًا في مكتب القاضي. لا عجب من فقدان ابنتها صوابها هنا.

«هذا ما يقوله الكثيرون، وقد أخبرني مأمور الشرطة، حكيمي، أن كل من هؤلاء الشهود قد جاء إليه وحده. كان بعضهم مرتبكًا، حسب تقرير المأمور. وآخرون يقولون إنهم يشعرون بالذنب لوجود المرأة في السجن لأنها لم تبدُ عاقلة البتة. الأنكى من هذا، أن أحدًا لم يقل شيئًا جيدًا في حق زوجها، ما يُعدُّ غريبًا، مع كونه المجني عليه. لا أحد يتحدث بالسوء عن الموتى، لكن بعضهم قال عنه إنه محتال وكاذب أو فاجر».

«هذا لا يعني أن تقتله»، أكد وكيل النيابة، من باب أداء الواجب أكثر من أي شيء آخر.

نظرت جلناز إلى يوسف. كان المحامي الشاب قد ذهب إلى القرية وطرق الأبواب. سار في بيت ابنتها وقابل حكيمي شخصيًا. ماذا فعل هناك؟ كل هؤلاء الذين يدعون جنون زيبا كعاصفة رملية... أكان كل هذا نتيجة عمله؟ هل هذه الشهادات حقيقية؟

عادت تنظر إلى الأرض. اغرورقت عيناها بالدموع.

لم يزاولها ألم رحيل زوجها. لكم تمنت لزيبا حياة خالية من اللعنات القاتمة. كانت بداخلها سعيدة بابتعاد زيبا عن سحرها الذي كانت تمارسه في البيت. حين احتقرتها زيبا لم تغضب منها. كانت زيبا تظن أن أمها غاضبة منها لوضعها مسافة بينهما، لكن هذا ليس حقيقيًا. لقد ظلت جلناز طوال الوقت غاضبة من نفسها فقط.

كان حملًا ثقيلًا، كل ما تسببت فيه من متاعب وما سعت له من انتقام. لم تكن تسقط في النوم إلا بعد مضي وقت طويل من الليل حين تنتهي من الجرد العقلي لآلام قلبي طفليها وكل الأمور التي تعجز عن تغييرها. حين يهدأ كل ما حولها تقريبا، تجد نفسها عند نافذة غرفتها التي تشغلها في بيت ابنها الصغير، ترهف السمع لليل في الخارج بحثًا عن صوت ما يخاطبها هي فقط: ضحكة، عواء، اعتذار من القلب.

تجلس الآن، بركبتين متخشبتين وكتفين محنيتين، تسمع الناس يتحدثون عن شياطين تلبست ابنتها. أهذا كل ما قدر لها أن تراه على هذه الأرض؟ والأهم من هذا، أهذا جزاء أعمالها؟ أكانت تحاول مساعدة ابنتها أم كانت تحاول إثبات ذاتها؟

كان قصدهـا، فـي كل خطـوة اتخذتهـا فـي حياتهـا، أن تفعـل الصـواب فحسـب. لـم تقصـد سـوى درء عيـن حاسـدة، منـع زواج غيـر مرغـوب فيـه أو عقـاب أحـد مـا أسـاء لأسـرتها. حتـى الآن لا تريـد سـوى إنقـاذ ابنتهـا. ليسـت شـيئًا دون سـحرها، تعـرف جلنـاز هـذا. إنـه كالنبـض، ثباتـه يمنحهـا الحيـاة.

يصـر القاضـي نجيـب علـى صنـع التاريـخ مـن خـلال قضيـة ابنتها. الرجـال خائفـون دائمًـا مـن فَنائهـم إلـى حـد الهـوس بسـبل الخلـود: أبنـاء يورثونهـم أعمالهـم، أحفـاد يحملـون اسـمهم، تخليـد أسـمائهم علـى الكتـب أو الشـوارع أو فـي الصحـف. بعضهـم يصيبـه اليـأس حيـن يتحـول شـعره الأسـود إلـى فضـي.

بـدا يوسـف متـرددًا فـي قـول مـا يفكـر فيـه. الأمـر بالنسـبة إليـه كلعبـة الشـطرنج لأنـه، هـو الآخـر، يتـوق إلـى لحظـة مجـد. هـل كانـت جلنـاز مثلـه؟ هـل تسـتغل أزمـة ابنتهـا لاختبـار سـحرها مـرة أخـرى؟

أحيانًـا لا تعرفيـن أيـن تتوقفيـن، أخبـرت نفسـها. سـحبت نفسًـا عميقًـا. كان لديهـا الكثيـر لتقلـق بشـأنه وقوتهـا تكفيهـا بالـكاد.

لا هـواء في المكتب.

وقفـت والتقطـت حقيبتهـا عـن الأرض. التفـت إليهـا الرجـال فـي انتظارهـا أن تتحـدث، لكنهـا لـم تتحـدث. خرجـت مـن مكتـب القاضـي نجيـب دون أن تنبـس بكلمـة أو توضـح شـيئًا.

«خانـوم؟ خانـوم، إلـى أيـن تذهبيـن؟ أأنـتِ بخيـر؟» صـاح القاضـي مـن خلفهـا.

لـم يدهـش يوسـف حيـن لـم تسـتدِر ولـم تجِـب. زيبـا وأمهـا، كمـا أدرك منـذ وقـت طويـل، قُدَّتـا مـن طيـن واحـد صعـب المـراس.

الفصل 33

خلال النهار، تراقب زيبا السحب الكثيفة تعبر السماء كقطيع يسوقه راعٍ يحمل نايًا. لم تنم في أول ليلتين. ظلت تراقب عقربًا مرت بكهفها، توقفت لترمق زيبا وذيلها معقوف في الهواء، رشيق مثل الخط العربي. شتتها هذا عن وجبات الخبز (الجاف عادة)، والفلفل الأسود والماء. جعلها الفلفل الأسود تعطس، خمسة أو ستة انفجارات لجسدها خلال ثوانٍ قليلة. كل عطسة كأنها عملية صغيرة لطرد الأرواح الشريرة. جُلِب الماء من بئر، خمنت زيبا أنها لا بدّ من أنها عميقة جدًّا في الأرض؛ إذ لمائها حلاوة معدنية، ويبدو أنه رشح عبر طبقات من تربة خصبة. ذكرها الماء بابن عمها.

كان صغيرًا، تفصل بينهما سنوات كثيرة. تتذكر زيبا أنها كانت تحمله في حجرها وهي فتاة. سافر وهو شاب إلى المدينة ليعمل في حفر الآبار. مات، بالقرب من الماء بقدم واحدة، جرفته غازات الأرض. بكت زيبا عليه، تساءلت عن الشعور بالوصول إلى لب الأرض ولمس مائها المفعم بالحياة، فقط ليدرك أنه لن يعيش ليتذوقه.

في جنازته، كانت النساء يعزين أمه النائحة بوعود مجيدة.

«لقد مات وهو يجلب الماء للناس. وسيأخذ ثواب عمله في الجنة».

كان قولًا كريمًا، أفضل بكثير من القول بأنه مات بلا سبب.

خلال فترات الظهيرة، تسمع الملا يدعو لكل شخص. يجلس أمام كهف كل منهم ويتلو آيات بصوت ناعم وهادئ. يطلب من كل

واحـد أن يتحـدث عمـا يزعجـه، أن يصـف الـرؤى أو الأصـوات، أن يلتمس السـلام فـي القـرآن. كان يأتـي بالمـاء البـارد الـذي جلبـه ابنـه مـن البئـر ليسـاعدهم على بلـع وجباتهـم مـن الخبـز الجـاف والفلفـل الأسـود الخشـن.

ظنـي أن المـلا أيضًـا يريـد الثـواب عـن عملـه فـي هـذا العالـم، فكـرت.

لـم تكـن الليلـة الأولـى صعبـة كمـا ظنـت. كانـت الزنزانـة بطـول فرديـن لكـن سـقفها واطـئ، وكان علـى المـلا أن ينحنـي ليدخـل. قضـت زيبـا وقتهـا متكـورة علـى سـجادة صغيـرة أتـى بهـا حبيـب اللّه.

صـاح أحدهـم بعـواء ظنتـه زيبـا الأذان الـذي يـردده المـلا مـن أعلـى المئذنـة. تبعـه الآخـرون كأنهـا دعـوة للصـلاة حقًّـا. امتـزج النحيـب والبـكاء والضحـك مـن مصـادر غيـر محـددة فـي الفنـاء المضـاء بوهـج القمـر. لـم تسـتطِع زيبـا تخميـن عددهـم وافترضـت أن لا امـرأة بينهـم. كانـت تشـغل آخـر زنزانـة فـي الصـف، أقـرب مريـض منهـا علـى مبعـدة أكثـر مـن ثـلاث زنزانـات خاليـة، ترتيـب يناسـبها.

شـعرت بارتيـاح تقريبًـا لمغادرتهـا شـيل ماهتـاب، بعـد أن ازداد قلقهـا مـن أن يكـون سـحرها نسـخة مقلـدة مـن سـحر أمهـا. هـؤلاء النسـوة فـي حاجـة إلـى قـدر أكبـر بكثيـر ممـا يسـعها منحهـن.

ذكرتهـا آلام جوعهـا الشـديد برمضـان، الشـهر الكريـم الـذي كانـت ترحـب بـه بذراعيـن مفتوحتيـن دائمًـا. كانـت فرصتهـا لتسـتعرض قوتهـا، لتصـوم مـن شـروق الشـمس وحتـى غروبهـا دون أن تـدع ولـو قطـرة مـاء واحـدة تعبـر فمهـا. كانـت تتفاخـر بكونهـا لـم تفطـر يومًـا واحـدًا، حتـى وهـي صغيـرة. الدقائـق التـي تمضيهـا فـي هـذه الزنزانـة رمضـان

مختلف، لكنها تجلب الخواء الحارق نفسه لمعدتها. كانت تتوق إلى الشعور بالجوع والعطش الحقيقيين، إذ يُبقي ذهنها بعيدًا عن المنطقة الخطرة لرثاء الذات. يبدو الصيام مقدسًا وضروريًا وعادلًا.

ضغطت جبينها بالأرض الباردة ودعت الله أن يبرأها في الوقت الذي ستقضيه في المقام، إن كان ذلك ممكنًا.

كان كل يوم تسامحت فيه مع إدمانه الخمر ويده الثقيلة اعترافًا منها بضعفها.

كان من المحتمل أن تكون تلك الفتاة ابنتها. الحقيقة أن زيبا، حين سارت إلى الفناء، ورأت الفتاة الصغيرة. بطرحتها الخضراء وساقيها العاريتين، وقبضتيها المكورتين، تخيلتها ابنتها. ذُعرت لتفكيرها في أنها ترى شرف ابنتها الصغيرة يُدمره رجل أطعمته وتحملته وأطاعته. رأت قطرات قرمزية من العار تسيل على الساق الصغيرة البيضاء.

حين رأت وجه الفتاة، كان السيف قد سبق العذل. لا رجعة. كانت هي وكمال قد انتهيا حين لفت أصابعها حول يد الفأس الخشبية. رأى كمال زوجته شخصًا جديدًا تمامًا في تلك اللحظة، حدق إلى التواء شفتيها تحت ثقل الفأس المرفوعة وأدرك للمرة الأولى أن لزيبا أسنانًا أيضًا.

شتتها صوت همس عصبي عن أفكارها.

«إنه هنا! لقد رأيته! ابتعد عني!»

هزت رأسها للتفكير في جيرانها الذين تطاردهم الأشباح.

«أرجوك لا... أرجوك لا تأخذني. سأبقى هنا إلى يوم الدين. لا يمكنني الذهاب معك!»

في حين كانت أغلب الليالي ساكنة وهادئة، كانت تندلع نوبات من حين إلى آخر. جعل الصياح -الذي علا على آلام معدتها- قرع الطبول في رأسها أقوى شيئًا فشيئًا.

«أرجوك يا إبليس، ليس أنا! لا تأخذني إلى الجحيم!»

«اخرس اخرس اخرس!» هدر مريض آخر، بمرض من نوع مختلف. كان بعضهم مذعورًا، يتحدثون مع أشخاص لا أحد غيرهم يمكنه سماعهم أو رؤيتهم. وآخرون مكتئبون فيبكون وينامون أغلب اليوم. قدرت زيبا أن في المقام معها نحو ستة رجال في المجمل، مع أنها لم تتحدث معهم قط.

«إن جاء لأخذك، أسدِ لنا جميعًا معروفًا واذهب معه»، صاح رجل آخر. ترددت ضحكات وحشية في الظلام.

أنَّت وتقلبت على جانبها، السجادة خشنة تحت خدها. شعرت بعضلاتها ومفاصلها كلها متخشبة. فركت عضلة عنقها الطويل. فقدت الكثير من وزنها في تلك الأيام الإحدى عشرة إلى حد أن صارت تلمس العضلات والأوردة تحت جلدها، حتى بطنها -الذي ازداد ترهلًا مع كل حمل- انكمش على نفسه مثل حبة زبيب. اختفت الخطوط الناعمة التي ظهرت مع كل طفل بين الطيات.

كان الملا يدعو لها كما يفعل مع الآخرين. أكد عليها وهو يقيد كاحليها أن تبقى في زنزانتها. بقية المرضى رجال ولا يجوز لها الاختلاط بهم.

«إن يوم الدين لآت. ليعينني الله، أنا على استعداد. أرسل الرياح والأمطار والنيران. أنا انتظرها، لكن أبعد هذا الشيطان عني!»

«*إمشـاب بـا قصـه إي ديل إي مـان جـوش ميكونـي...*» غنـت زيبـا بهـدوء، تأمـل أن تُغـرِق نحيـب جارهـا وصيـاح الآخريـن الغاضـب عليـه ليسـكت. «*فـردة، مـان را شـو قصـه فيرامـوش ميكونـي...*»

الليلـة، ستسـمع آلام روحـي، تقـول كلمـات الأغنيـة. *وغـدًا ستنسـى كل شـيء*.

بدا اللحن الهادئ أكثر حزنًا قياسا لصلصلة القيود والنحيب.

أربعـون يومًـا، أعلـن المـلا. أربعـون يومًـا قبـل اسـتكمال علاجهـا وعودتهـا إلـى السـجن لمواجهـة أيًـا مـا كان فـي انتظارهـا هنـاك. منحتهـا حقيقـة أنهـا قضـت أحـد عشـر يومًـا أمـلًا قليـلًا لتمضـي بـه التسـعة والعشـرين يومًـا الباقيـة.

جـاء المـلا ليلقـي نظـرة عليهـا فـي وقـت سـابق مـن النهـار، يـداه مشـبوكتان معًـا خلـف ظهـره ويحـدق إليهـا كأنهـا حيـوان مـن فصيلـة جديـدة فـي حديقـة الحيـوان خاصتـه.

«فتاتي العزيزة، في كرب شديد. أين يأخذك ذهنك؟» سألها.

«أيـن قـد يأخذنـي؟» أجابتـه. «أنـا أثقـل مـن هـذا الجبـل خلفـك. ذهنـي لا يسـتطيع تحريكـي».

فكر في ردها قليلًا قبل أن يسألها سؤالًا آخر.

«زيبـا، أأنـتِ بائسـة هنـا؟ لقـد أحضـرت لـكِ طعامًـا. أعـرف أن الخبـز لا يمـدك بالكثيـر، وعليـكِ الاحتفـاظ بقوتـك. هـاكِ، تناولـي هـذا *البولانـي*. مـا زال دافئًـا».

ضحكـت لرغبـة المـلا المفاجئـة فـي إراحتهـا. لا، قـررت أن لا تأخـذ منـه شـيئًا، ليـس وهـي سـجينته.

«سـأتركه لـك هنـا»، قـال بهـدوء حتـى لا يسـمعه الآخـرون. ثـم أدخـل الخبـز المحشـو إلـى زنزانتهـا ملفوفًـا فـي ورقـة جرائـد.

«خذه من هنا!» همست بحنق، مع أن رائحة البطاطس المتبلة والعجينة المقلية أسالت ريقها.

«لماذا تعاندين هكذا؟» سألها غاضبًا. «أعرف أن المكان ليس مريحًا، لكنني أفعل هذا كله لصالحك. إن استطعت أن تفهمي هذا، ستكونين شاكرة».

«الحمد لله»، قالت، «لحكمته الكبرى في تقسيم الوقت إلى أيام والأيام إلى ساعات والساعات إلى دقائق لأنني لولا مرور الثواني لكنت في الغالب سأموت في انتظار مضي الأربعين يومًا».

سكت لبرهة ثم تركها، أكان لأن ما قالته منطقيًا أم العكس، لم تهتم بالأمر. لقد قالت ما في ذهنها، ما أشعرها ببعض السلام.

واصل الملا زيارة مرضاه الآخرين، يدعو لكل منهم ويناوله حصته من الخبز والفلفل. استمع لتساؤلاتهم الذهنية، لبكائهم وغضبهم. تحدث معهم عن السلام، لكنه لم يفك قيودهم. كان معهم طوال اليوم لكنه يعود إلى بيته.. إلى زوجته وأطفاله في المساء. حينها يترك المرضى وحدهم في مقره الخالي، تحت حراسة صاحب الضريح المدفون فقط.

شردت زيبا في الغناء، ثقلت عيناها ولم تتذكر بقية كلمات الأغنية. علقت لسعة الفلفل الأسود في لسانها. ستشرب غدًا مزيدًا من الماء، قررت. لم تشرب اليوم بما يكفي وقد ندمت على ذلك. الجو ليلًا حار وخانق. شعرت برطوبة تحت إبطيها وفي حقوها حين تحركت. جلست مستندة بظهرها إلى الحائط وفردت ساقيها أمامها. سالت قطرة عرق وحيدة على عنقها من الخلف فامتصها ثوبها القطني.

«لقد رأيته! لقد رأيته! إنا قادم لأخذي!» ما زال الرجل يردد ناحبا لكن بصوت أهدأ. بدا مهزومًا. «ملا صاحب، أين أنت؟ ساعدني!»

حين كانت صغيرة كانت عائلتها تجتمع في ليالي المناسبات، العمات والأعمام وأبناء العمومة والأصدقاء المقربون. كان عمها قد علَّم نفسه عزف الأرغن. ما زالت تتذكر هبات الهواء المندفعة من الفتحات الخلفية للصندوق الخشبي المصقول. كانت يد عمها اليسرى تسحب المنفاخ وتتركه فيما تلاعب أصابع يده اليمنى الاثنين والأربعين مفتاحًا الأبيض والأسود، فيحث المحيطين به على الغناء ويذكرهم بالكلمات حين ينسونها. كان تناغم أصواتهم يخفي حقيقة أن لا واحد منهم يمكنه إصدار نغمة مضبوطة.

كان ابن عمها البكر قد تعلم قرع الطبول، طبلة قصيرة عريضة وأخرى أطول. يضرب بأصابع مثنية جلد الماعز المشدود. بإيقاعات موجودة منذ آلاف السنوات. كانت زيبا تراقب أصابعه وهي ترفرف، تفعل شيئًا ما لا تحلم بفعله. كانت تثيرها رؤيته يضرب العين السوداء الواحدة التي لا تغمض للطبلة.

كانت عمتها تعزف على الدايرة، دُف بضعف حجم رأسها، بأزواج صناج ضئيلة تصلصل بطول القرص كله. كانت البلد في حالة حرب حينها، وقد استولى المجاهدون على الجبال لمحاربة الجنود الروس ودباباتهم. كانت تربة أفغانستان تمتلئ ببطء بالشهداء؛ ما جعل الرقص والضحك أهم من أي شيء، إذ يعرفون أن الحرب ستصلهم سريعًا. كان أبوها يبتسم أكثر من المعتاد في تلك الأمسيات.

غني، زيبا جان! لا تكوني كئيبة كأمك. غني من قلبك!

لا أعرف كلمات الأغنية، همستْ لأبيها.

تعرفين كيف تصفقين، أليس كذلك؟ أجابها بغمزة من عينه. *الموسيقى سهلة.*

جلست بجانبه وظلت تصفق حتى احمرت راحتاها وحرقتاها، تتمايل من جانب إلى آخر كالآخرين في حركة ليست صلاة. ليس في رأسها ما يكفي من موسيقى لجلب هذا النوع من السلام.

لو عدت إلى السجن سأجعل النساء يغنين. سأُجلسهن في دائرة وسنجد دايرة، حتى ولو اضطررت إلى سلخ الماعز بنفسي لذلك.

توقفت الذكريات. أكان ذلك صوت خطوات في الفناء؟ أرهفت السمع فسمعت صوت انسحاق التراب تحت صندل جلدي. شحذت العزلة حواسها فلم تعد بحاجة إلى البصر لتميز ما يحدث حولها. ليس الملا. خطواته أبطأ، يثقلها الورع والعقيدة. كذلك ليس أحد السجناء الآخرين. خطواتهم خائفة ومترددة، ولم يبد أن بإمكان أحدهم فك قيده بنفسه.

أمسكت بالدلو في ركن زنزانتها، قبضت بيديها على مقبضه.

خطوتان أخريان، أقرب هذه المرة. هذه الخطوات خفيفة، تساءلت إن كان حيوانًا صغيرًا. ربما هبط أحد الودان من الجبل ليرى المخلوقات الغامضة التي تُكسر صمت الليل بنحيبها.

«انصرف ولا تعد أبدًا يا شيطان!» صرخ رجل على مسافة أمتار منها. تسارعت دقات قلبها. كان صمته مخادعًا. ما زال منهارًا، ربما لأنه لم ينَم لأيام.

توقفت الخطوات. هل أخافه الرجل؟ لا تعرف إن كان عليها أن تشعر بالخوف أم بالارتياح.

أغمضت عينيها وأخذت نفسًا عميقًا، سحبت هواء الليل الحار إلى جسدها وأطلقته أكثر حرارة. ليتها فقط تبقى وحيدة مع موسيقاها، فكرت بأسى.

حين فتحت عينيها، شهقت لرؤيتها قامة تقف أمامها. كانت القامة مكللة بضوء القمر، فلم تستطع رؤية الوجه. لكنها مع ذلك، كانت تعرف قامته جيدًا جدًّا فلم تكن في حاجة إلى أي تأكيد آخر.

يا للجنون، فكرت، *أن يظن شخص حتى ولو كان مجنونًا أن هذا شيطان.*

«أنت! ماذا تفعل هنا؟» همست بعصبية في الظلام.

الفصل 34

«كان عليّ أن أراكِ»، همس بصير. كان عند فتحة زنزانتها، ورغم عدم وجود أسوار أو أبواب بينهما، بدا مترددًا في عبور عتبة لامرئية.

«كيف وصلت إلى هنا؟» سألته زيبا. اقتربت منه ببطء، أوقفتها صلصلة قيدها. لم ترَ ابنها منذ أشهر. آلمها فراقها عن أطفالها، رغم المسافات التي قطعتها بعيدًا عنهم. تعرف أنها لا بُدّ تبدو في حالٍ مزرية، شعرها ليس مغسولًا ولا مصففًا، ملابسها قذرة. لم تكن لتتخيل لقاءً مهينًا أكثر من هذا.

«وجدت طريقي»، قال بصير وهو يرفع كتفيه.

«لكن الوقت متأخر جدًّا وأنت بعيد جدًّا عن البيت!» قالت بأسى وهي تفكر في مشقة السفر من بيت عمته إلى المقام. «هل اصطحبك أحد إلى هنا؟ إن الحافلات لا تقترب من هنا...»

«أنا هنا يا مادر. لا تفكري في الأمر».

«أنا آسفة لأن عليك رؤيتي هكذا».

«أنا أيضًا»، وافقها بهدوء. حنى ظهره ودلف إلى زنزانتها فسقط ضوء القمر على وجهه. رأت زيبا الشعيرات النامية على شفته العليا. مالت إلى الأمام، نسيت حالتها.

«لقد افتقدتكم كثيرًا»، بكت بهدوء. «أنت وأخواتك. أهن بخير؟ هل حدث لهن شيء؟ ألهذا أنت هنا؟»

«إنهن بخير ، لم يحدث لهن شيء».

«أأنت متأكد؟ أنت لا تكذب عليَّ، أليس كذلك؟»

عبس، فابتسمت لرؤيته ينظر إليها بهذه الطريقة.

«يا له من قول يا مادر».

«آسفة»، حركت رجليها. خلال أحد عشر يومًا، كانت تلك أشد لحظاتها بؤسًا، ليس بسبب الحصى أو الحر. بل لأن ابنها بدا متعبًا، وليس بيدها شيء لتفعله له. «بنيّ، إنها لنعمة كبرى أن أنظر إليك».

أشاح ببصره بعيدًا بحدة.

حين عاد ينظر إليها، لمعت عيناه الدامعتان في نور القمر.

«نحن نفتقدك بشدة يا مادر»، قال بصوت متكسر. ثم ألقى بنفسه بين ذراعيها. بكت، غطت فمها بيديها لتكتم الصوت. لا تريد أن يأتي الملا ليجد بصير معها، وجيرانها قلقون بالفعل الليلة.

لف ذراعيه حول خصر أمه، دفن رأسه في بطنها. لمست وجهه بيد وضغطت خدها في ظهره بقوة حتى شعرت بعظام عموده الفقري.

جذبت وجهه إلى أعلى نحوها ومسحت دموعه.

«الأمر كله صعب عليك، أنا أعرف»، تمتمت. لا تعرف من أين تبدأ. هل يكرهها؟ هل سامحها؟ ليست متأكدة من شيء، حتى وهو يتعلق بها في جنح الليل.

عاد يجلس، مسح أنفه وتنحنح. نظر بعيدًا للحظة ليستجمع نفسه ثم تحدث بنبرة حازمة جدًّا. لاحظت تحوله.

«جلبتُ لكِ بعض الطعام». قال وهو يمد يده إلى كيس بلاستيكي خارج زنزانتها. «يوجد بعض كعك ماء الورد، وثمرتا طماطم وصحن أرز».

«جلبت طعام؟»

رفع كتفيه بخجل.

«سمعت بما يفعلونه هنا. كنت أريد جلب المزيد لكنني لم أجد الكثير مما يمكن حمله...»

«لا، لا، لا»، قالت وهي تهز رأسها. «بني، أنا ممتنة لك جدًا. حقًا. أنا فقط لا أصدق أنك جئت كل هذه المسافة وفكرت في إحضار طعام. أنت فقط... أنت فقط... لا أعرف ماذا أقول لك».

زم شفتيه.

«سمعتُ أنهم لا يسمحون لكم بالطعام هنا، لكنني لم أعرف إن كنت تريدين شيئًا ما». وضع الكيس أمامها وراقبها وهي تأخذ ثمرة طماطم، قلَّبتها في راحتها وشمت عبيرها الأرضي. أمكنها تقريبًا تذوق عصارتها، شعرت بها تسيل على ذقنها دون أن تقضم منها قضمة واحدة. أعادتها إلى الكيس وأخرجت صحنًا مستديرًا. فتحت غطاء الإناء وشمت رائحة الأرز البني بالسكر المحمّر والمُتبّل جيدًا بالكزبرة والقرفة والقرنفل. كان الأرز باردًا لكنها تخيلته دافئًا وهي تغمس أصابعها في الصحن لتتذوقه.

قررت أنها لن تلتزم بقواعد المقام. خاصة وقد حمل ابنها لها طعامًا كل هذه المسافة.

كان الأرز شهيًا. لطالما كانت تامينا موهوبة في الطبخ.

«أرز عمتك»، قالت ورأسها يميل إلى الخلف، «ظل دائمًا أفضل من أرز أي واحدة أخرى لكن هذا... هذا أفضل شيء تذوقته في حياتي».

«لن يمكنني إخبارها بهذه الإشادة للأسف».

ابتلعت بصعوبة.

«كيف الحال مع عمتك؟ هل تعاملك جيدًا؟»

«إنها طيبة جدًّا معنا».

تساءلت إن كان يكذب عليها. لا شك في أن أهل كمال مقتنعون أنها هي من قتلته. أكانوا بقلوب كريمة ليفهموا أن الأطفال ليس لهم شأن بهذه الفوضى؟

«هل قالت... هل قالت شيئًا عني؟»

هز رأسه.

«لا، لم تتحدث عنك قط».

دهشتُ.

«أين تنام؟ عندهم ثلاث غرف فقط. هل أفسحت لك مكانًا؟»

«ربما تنام معها في غرفتها. وشابنام وكريمة تنامان في غرفة الفتيات أغلب الوقت. أحيانًا ترغبان في البقاء بالقرب مني، لكن عمة تامينا لا تحب ذلك. وأنا أنام في غرفة الجلوس وحدي».

«وهل تطعمك؟»

«نأكل معهم. ليس بأكثر ولا بأقل من الآخرين».

الحمد لله، فكرت وتنهدت براحة.

«ظللت أتوقع أن تطردنا»، قال بهدوء. «لا أعرف لماذا لم تفعل حتى الآن؟»

لمستْ ساعد ابنها. خطر لها أنها ربما قد عبرت الحدود إلى الجنون التام، وأن الفتى الجالس أمامها من نسج خيالها. بدا هذا أكثر معقولية من أن يترك بصير كنف عمته العطوف ويأتي إلى أم مجرمة في مقام للمسوسين.

سحب ذراعه بعيدًا.

«عليكِ تناول المزيد، مادر. تبدين مريعة».

ندت عنها ضحكة صغيرة.

«الشهية شيء غريب»، قالت بعفوية. «تأتي وتذهب دون سبب. أأنت جوعان؟ لا بدّ من أنك جوعان. لقد سافرت مسافة طويلة».

مدت يدها له بالصحن، لكنه رفع يده. إيماءة مهذبة، مهذبة جدًّا بين أم وابنها. انكسر قلبها لها، لكنها عضت لسانها وأعادت تغطية الصحن.

«هل ستخبرينني بما حدث لأبي؟» قال بصير، صوته متوتر وجاف.

ظلت تسأل نفسها هذا السؤال آلاف المرات، خلال الأشهر التي قضتها في السجن، ووصلت إلى آلاف الإجابات المختلفة. ستخبر أطفالها بكل شيء. لن تخبرهم بشيء. ستخبر بصير فقط أن أباه كان وحشًا. ستخبر الفتيات أيضًا. ستختلق تفسيرًا لما حدث ذاك اليوم. ستخبرهم بأن كمال حاول قتلها أم أنه تعثر وسقط على الفأس. كان الأمر حادثا فظيعًا، وأن أباهم كان رجلًا طيبًا ومحترمًا.

«حسنًا؟»

نظرت إلى السماء الخالية من السحب. أين قد تجد إجابات؟

«بني، لقد تمزقت أسرتنا. لم أرغب قط في فعل أي شيء قد يضرك أو يضر أخواتك».

جلس ساكنًا تمامًا، نظره مثبت على المساحة المظلمة بين رجليه المعقودتين.

«ذاك اليـوم... كان يومًـا فظيعًـا علينـا جميعًـا. لا أعـرف لمـاذا حلـت بنـا مصيبـة كهـذه، لكـن هـذا قضـاء الله وقـدره».

«هل ستجيبين سؤالي أم ستظلين ترددين الهراء؟»

«بصيرا» تجهمت له. لم ينطق بألفاظ نابية في حضورها قط.

«جئت إلى هنـا لأسـألك عمـا حـدث. هـل سـتخبرينني أم لا؟ لأنـك لـو لـم تخبرينـي فسـأضطر إلـى التخمين بنفسـي».

«بصيـر. عزيـزي. توجـد بعـض الأشـياء بيـن الكبـار وأنـا لا أريـد أن...»

«لم يكن ذلك بين كبار فقط يا مادر».

استقام ظهرها بحدة.

«ماذا تقصد؟»

«لـم يكـن هـذا بيـن الكبـار. لقـد رأيتـه. رأيـت مـا... مـا... مـا أصابـه. إنـه ليـس شـخصًا غريبًـا. لقـد غسـلت عنـه الـدم ولففتـه فـي كفنـه. لقـد دفنـت أبـي، وعلـيَّ الآن أن أسـتمع لبـكاء أخواتـي فـي الليـل. أيًـا كان مـا حـدث، فقـد حـدث لنـا جميعًـا، لذلـك مـن فضلـك لا تخبرينـي أن الأمـر بيـن الكبـار».

كان محقًـا. مـن حقـه أن يعـرف، لكنهـا كافحـت تفكيرهـا فـي مـا قـد يحـدث لـه لـو سـمع الحقيقـة. هـل سـيحاول معرفـة مـن كانـت تلـك الفتـاة؟ هـل سـيظن أن أمـه كاذبـة ويحتقرهـا حتـى؟ هـل سيشـعر بعـار كبيـر مـن أبيـه إلـى حـد لـن يتعافـى منـه أبـدًا؟ هـل سـينزلق لسـانه ويخبـر أحـدًا آخـر بالعـار الـذي لحـق بأسـرتهم؟ غضبـه غضـب رجـل كبيـر لكـن حكمتـه وعقلـه ليسـا كذلـك.

كم سيكون سهلًا لو كانت مجنونة تمامًا مثل جيرانها!

ضج قلبها. في لحظة، سيكون عليها إما أن تخبره بكل شيء وإما بلا شيء. وفي لحظة، سيكون عليه إما أن يكرهها وإما أن يبكي من أجلها.

هل زادت الجبال طولًا منذ آخر مرة نظرت إليها؟ بدا أنها طالت في الخلفية، كأنها تحاول أن تطول القمر.

عادت إليها الأغنية.

الليلة سأخبرك بأحزاني. وغدًا ستنسى كل شيء.

سمعت قرع طبلة واهن في الليل، زجرتها عين الطبلة الوحيدة التي لا تغمض. تلاها نحيب الأرغن الجنائزي، وداعبت نسمة هواء جاف وجهها.

ثم جاءت صلصلة الدف وتهليل الجوقة.

إن فقدت ابنها وأطفالها، فلن يبقَ لها شيء. هل تحبهم بما يكفي لتنجو من كل هذا؟ جلس ابنها أمامها متحفزًا، يراقبها كأنها عقرب تهم بضرب ضربتها. أخبرها الرضيعان اللذان فقدتهما أن عليها الكف عن البكاء. انصبت عليها أعين فتياتها الباكيات، يخبرنها أنها مذنبة مثل كمال.

«هل ستجيبينني؟» سألها.

إنه يستحق أفضل من هذا. إنه ابن بار.

ملأت رئتيها بهواء الليل الحار واتخذت قرارًا كانت متأكدة من أنها ستندم عليه.

الفصل 35

«**أنا لا أعرف ما الأمر**»، **قال حكيمي**. كان حائرًا حقًا. كان الرجل الماثل أمامه هو الخامس الذي يأتيه للغرض نفسه. ومنذ متى يشعر الناس بأهمية الإبلاغ عن سلوك جارة مجنونة؟ إن جاره هو نفسه يربي على السطح ما يزيد على خمس وعشرين حمامة ويدعو كل واحدة باسمها. جادله من قبل في أنه من المستحيل تمييز طائر عن الآخر لكن الرجل أصر على أنه بإمكانه التمييز بينها تمامًا كما يمكن لحكيمي التمييز بين أطفاله.

«إنها الحقيقة»، قال الرجل وهو يفرك يديه ويرفع كتفيه. «لم أفكر في الأمر حينها لأنني لا أريد حشر أنفي في شؤون الآخرين الخاصة. لكن الآن...»

«نعم، ما الذي جعلك تأتي إلى هنا لتخبرني بهذا الآن؟» سأله حكيمي وهو يميل إلى مكتبه ليسمع إجابة الرجل جيدًا.

«حسنًا، الأمر أنه دارت أقاويل كثيرة وأنا لست متأكد مما هو حق. ما أعرفه أن القاضي يجب أن يعرف كل شيء عنها قبل الحكم عليها، على ما أظن. نعم، وإن كان سيحكم عليها، فعليه معرفة ما رأيته».

«حسنًا. أخبرني بما رأيته. لا أعرف إن كان القاضي سيهتم بالأمر أم لا، لكن يمكنك البدء بإخباري أنا».

أمسك حكيمي بدفتر ملاحظات وقلم حبر جاف. خط شيئًا ما في ركن الصفحة، فلم يكتب القلم. دس سن القلم في فمه. نفخ في طرفه هواء حار، ثم لعقه بطرف لسانه قبل أن يعيده إلى

الصفحة مجددًا. كتب القلم -بامتعاض- دائرة زرقاء غير تامة.

قلب صفحة جديدة. كان يحتفظ بملف للشهادات الأخرى التي سجلها. هل سيضمها القاضي إلى ملف قضية زيبا أم سيلقي بها دون أن يقرأها، يستحيل الجزم. لا يهتم حكيمي بالأمر حقًّا في جميع الأحوال. بدا فعله هذا جيدًا بما يكفي، كأنه يجمع أدلة على نفوذه في المنطقة وليس للقضية.

«الآن، أخبرني بما رأيت».

«أنا... مم... أنا لا أعرف اسمها. نحن لسنا أقاربهم بالطبع. لكنهم يعيشون بالقرب منا وقد رأيتها مرات قليلة. لا أتذكر في أي يوم كنا، لكنني كنت خارج من بيتي إلى العمل، وسمعت ضجة. التفتُّ فرأيتها. كانت طرحتها ساقطة عن وجهها لذلك عرفتها. حين رأتني غطت وجهها بطرحتها على الفور ونظرت بعيدًا».

«ماذا كانت تفعل؟»

«كانت... كانت تحفر خلف باب جيرانهم، بأصابعها. بدا أن... بدا أنها تبحث عن شيء مهم حقًّا مدفون هناك. وأنها تريد الوصول إليه بسرعة».

«غريب. هل قالت لك أي شيء؟»

«لا. لم تقل شيئًا. بل... نظرت إليَّ كما ينظر كلب شارع إلى عُصبة من الفتية. بدت على استعداد لمهاجمتي إن اقتربت منها. لكنني لم أتحرك».

«بالطبع لم تتحرك». أومأ حكيمي برأسه. «هل ظللت تراقبها أم تركتها هناك؟»

«وقفت بعض الوقت، أقصد، لقد سألتها بالفعل ماذا تفعل وإن كانت في حاجة إلى شيء ما. بدت متوحشة.... ليست كشخص سليم. كانت تحفر في الأرض بأصابعها. حين لم تُجبني، سألتها إن كان زوجها يعرف أين هي. افترضتُّ أن لديها أسرة».

«ماذا قالت؟»

«لم... آه... لم تقل شيئًا. ألقت بحفنة تراب في فمها وركضت كمن سرق شيئًا ما».

«ألقت التراب في فمها؟» ردد حكيمي بدهشة. ليت كل يوم كهذا اليوم. ليته يستيقظ كل يوم ليسجل قصصًا مجنونة عن أهل قريته، يضع القلم على الورقة ليحول الأقاويل إلى شهادات رسمية. كان شعورًا قويًا، تمامًا مثل لمعة شارته أو وزن مسدسه.

«ألم تمسح فمها بيدها فقط؟»

«لا. لا. ألقت به في فمها، تناولته كأنه... كأنه أرز».

اتسعت عينا حكيمي باهتمام.

«هذا سلوك غريب ومقلق جدًا. وهل وقفت تراقبها وهي تهرب؟»

«نعم».

«أين ذهبت؟»

«لا أتذكر».

تنفس حكيمي من بين شفتيه المزمومتين. مال إلى الخلف في كرسيه ونقر بقلمه على الصفحة.

«حسنًا، إن لم تتذكر، فلا أعرف إن كان بإمكاني...»

«آه، نعم، ركضتُ في اتجاه دكان الإسكافي المواجه للمدرسة. تذكرت الآن لأنني كنت في طريقي إلى العمل ومررت بالمدرسة».

«فهمت»، قال حكيمي ببطء، كأن هذه التفصيلة تغير كل شيء. أضاف سطرًا إلى ما يسجله، خط يده متذبذب. لم يكن قد تخرج تمامًا في المدرسة العليا، لكنه أدرك في ما بعد أن ثمة سبل كثيرة ليبدو المرء كرجل متعلم. كان يتفاخر بتلك التفاصيل. يمكن ملاحظة هذا من طريقة تلميعه حذائه بنفسه، إذ لا يثق بأطفاله لإجراء هذه المهمة جيدًا. مهمة تافهة بالنسبة إلى معظم الرجال ذوي المناصب، لكنه يرى أن تأثيرها مهم جدًّا.

«سأرسل تلك المعلومات إلى القاضي»، قال. «الآن، هل لديك شيء آخر لم تذكره بعد...»

«لا، هذا كل ما أعرفه. إنها مختلة عقليًا بالتأكيد، وقد كان ذلك قبل أسابيع عدة من مقتل الرجل».

«مفهوم. حسنًا، شكرًا لك على قدومك»، قال حكيمي، نزع الصفحة من الدفتر ووضعها في مشبك مع رزمة أوراق مشابهة.

«صاحب، اسمح لي أن أسألك سؤالًا واحدًا... من باب الفضول. هل أتتك بلاغات أخرى عن زوج المرأة؟ لم أكن أعرفه حقًّا».

«أتعني المجني عليه؟ -رحمة الله عليه-. لا، لا يبدو أن أحدًا لديه شيء ليقوله عنه، لكنني لم أسأل مع ذلك. إن كان يوجد أي شيء واضح في هذه القضية فسيكون أنه هو المجني عليه».

«بالطبع»، غمغم تيمور، وقبل أن يفكر مرتين وجد نفسه يواصل كلامه. خطر له الأمر فجأة وبدا أنه مخاطرة، لكنه كان

مثل زجاجة المياه الغازية. وبطريقة ما، كانت تلك لحظة نزع سدادتها. قال «لكنني يدهشني أنك لم تسمع ما يقال عنه».

«ما يقال؟ ماذا يقال؟» سأل حكيمي وهو يضيِّق عينًا واحدة.

«ربما ينبغي ألا أقول أي شيء. لأنني لم أرَ شيئًا بعيني، لكنني سمعت من الآخرين. كان ذلك منذ أشهر قليلة، وكان أمرًا فظيعًا إلى حد أنني لم أصدقه».

«أخبرني بما سمعت. إن عملي تنقيح الحقيقة من الأقاويل».

لم يقل تيمور شيئًا، يعرف أن حكيمي لا يمكنه تمييز الياقوت من رمل الصحراء.

«سمعت شيئًا قميئًا، فظيعًا إلى حد يؤلمني أن أكرره حتى».

«هات ما لديك يا أخي. لديَّ أعمال أخرى هنا». قال حكيمي نافد الصبر.

«بالطبع؛ حسنًا. كان معروفًا بكونه فاجرًا، وأنه في إحدى نوبات غضبه أحرق صفحة من المصحف الكريم».

اعتدل حكيمي في جلسته فجأة، ضغط براحتيه على مكتبه. هذه أخبار صادمة، حتى وإن كانت مجرد أقاويل.

«أحرقها! لا سمح الله! لماذا قد يفعل شيئًا كهذا؟»

هز الرجل رأسه. تعرقت راحتاه، فمسحهما في بنطاله في غفلة من حكيمي.

«ليس لدي أدنى فكرة. أنا بصفتي رجلًا يحب القرآن من صميم قلبه، لا أتخيل ما الذي قد يدفع برجل لفعل شيء مروِّع كهذا. قلت لك إنه أمر سيئ».

«سيئ؟ هذا يفوق السيئ بكثير. هذا أعلى درجات الكفر! ولم يعد حيًا حتى لنسأله أو لمعاقبته. ماذا عليَّ فعله بهذه المعلومة؟ من يمكنه تأكيد هذا؟»

«أنا... أنا لا أعرف من يمكنه تأكيدها. كما قلت، كان ذلك منذ أربعة أشهر في السوق ولا أتذكر ممن سمعته، مع ذلك أنا متأكد من أنني سمعته من أكثر من شخص. عدت إلى البيت ذاك اليوم وقد نسيت ماذا كنت أريد من السوق، إلى هذا الحد ساءني ما سمعته». مكتبة سُر مَن قرأ

«ومن الذي لا يسوءه هذا؟» قال حكيمي ومرفقاه على المكتب الآن. تململ في جلسته، حاولت ذراعاه ورجلاه إيجاد موضع معقول خلافًا لما يسمعه. خطرت له الفكرة فجأة. «أكانت زوجته تعرف بهذا؟»

«زوجته؟» رفع تيمور كتفيه بحيرة. «لا أعرف. ظني أنها ربما كانت تعرف. ربما رأته وهو يفعلها حتى. لا بدَّ من أنه كان عبئًا كبيرًا عليها وعلى أطفالها. يسرني أن الأمر لم ينتشر في البلدة كلها من أجل مصلحتهم هم».

«هذا سيئ. هذا سيئ جدًّا».

هذا الكفر لا يسامح فيه في أفغانستان. تذكَّر كل منهما المرأة التي اتهمت منذ عام ونصف بإحراق صفحة من المصحف في مسجد في كابول. كان المُلا هو من أشار إليها بأصابع الاتهام، فأثار غضب مجموعة الغوغاء -أغلبهم من الرجال- فهاجموها بالهراوات والحجارة الكبيرة والأحذية. جروا جسدها بسيارة قبل أن يلقوا به في مجرى نهر جاف ويحرقونه. بدأت التحقيقات في

الاتهام بعد ذلك مباشرة، للتأكُّد من إن كانت قد أحرقت صفحة من المصحف بالفعل أم لا.

حين ثبت بطلان الاتهام أُلقي القبض على من هاجموها وأُدينوا، لكنهم -بمضي الشهور- أُطلِق سراحهم بهدوء، أو خُففت الأحكام عليهم إلى حد كبير. كان دافعهم واضحًا، محاربة الكفر والدفاع عن القرآن. أليس من المحتمل أن تكون زيبا غاضبة من تصرفات زوجها؟ سمع حكيمي الكثير عن معاقرة كمال الخمر. ليس أمرًا شائعًا في بلدتهم، لكن رجالًا قليلين يسقطون في حب الزجاجة. إنه ذنب -بلا شك- لكنه باهت بالقياس إلى هذه التهمة الجديدة. من أي نوع من الرجال كان كمال حقًّا؟

«هذه أخبار مروعة. أنا أتفهم ترددك في الإبلاغ عنها. مع ذلك لا أظن أن عليك ذكر الأمر لأي شخص آخر. فقد تثير غضب الكثيرين، بمن فيهم عائلة القتيل».

تململ تيمور في جلسته قائلًا:

«لا أريد إزعاجهم، لكن ألا تظن أن القاضي يجب أن يعرف؟ من المحتمل أن زوجته.... أقصد، لست متأكدًا، لكن أليس من المحتمل أنها تعرف عن هذا و...»

«بلى، محتمل. لكن لندع الأمر للقاضي». كان ذلك أكثر مما يريد حكيمي التعامل معه. هز رأسه ليؤكد لنفسه أنه يتخذ القرار السليم. «لا يمكننا المخاطرة برد الفعل تجاه هذه الأقاويل. وما زالت مجرد أقاويل، صحيح؟»

«ظني كذلك. مع أنني سمعتها من أكثر من شخص».

«لقد قلت ذلك بالفعل».

«بالطبع»، قال تيمور بفم جاف. «أنا آسف. أنا فقط، بصفتي مسلمًا، أجد صعوبة في ترك أمر كهذا. أشعر بأن عليَّ مسؤولية قول شيء. من يتصدى لجريمة بهذه الفظاعة سيكون له ثوابا في الحياة الدنيا وفي الآخرة أيضًا، على ما أظن».

سكت حكيمي، فكر في كلمات تيمور ثم قال: «أنا... أنا أفهمك تمامًا. وأشعر بالمسؤولية نفسها. ظني أنني أستطيع تمرير الرسالة إلى القاضي بهدوء».

«سأترك الأمر لتقديرك»، قال تيمور بلا مبالاة. «أنا ممتن لأن هذه المسؤولية ليست على عاتقي الآن».

تنهد حكيمي وجال ببصره حوله في قسم الشرطة الصغير الذي يترأسه. هذا حقيقي، فكر في نفسه، لا أحد في هذه البلدة يعرف شيئًا عن أعباء منصبه.

«لقد أخذت ما يكفي من وقتك، حكيمي صاحب. لكن ما زال لدي سؤال إن لم تمانع. ماذا عن المرأة... زوجته. هل ذكر آخرون أنهم لاحظوا أي سلوك غريب منها؟ كنت فقط أتساءل إن كنت الوحيد الذي رآها».

«لست الوحيد على الإطلاق»، قال حكيمي ضاحكًا، ارتاح لانتقالهما إلى التفاصيل الأخف وطأة. «أنت خامس شاهد جاءني خلال الأسبوع الماضي. ظني أن الأمر كله معقول. لا بد من أنها جنت لتشق رأسه بالفأس. المسكين، ليرحمه الله. أتساءل إن كان يعرف أنها مجنونة أم أنها فاجأته. النساء مخلوقات عجيبة، أتعرف. يُجدن الإخفاء على نحو مرعب. لا تعرف أبدًا ما قد يدسسنه في طيات تنورتهن. هذا ما كان أبي يقوله دائمًا».

ابتسم تيمور بأدب، ارتاح لمعرفة أن آخرين قد جاؤوا من قبله، تماماً كما وعده وليد.

«نعم»، قال وهو يومئ برأسه موافقا، دفع كرسيه إلى الخلف وجذب طرفي سترته الكتان. ستكون هذه أول أخبار جيدة تدخل بيتهم منذ مدة طويلة. وقد نجوا طوال تلك المدة بعد ما حدث لليلى، فقط لأن زيبا حفظت سر ليلى. ظلت نرجس تُذكر تيمور بهذا كلما عدل عن المجيء بهذه القصة عن مشاهدته زيبا تأكل التراب. «النساء مخلوقات عجيبة بالتأكيد».

سار تيمور إلى البيت، ليس متأكداً من الحكمة في الاستجابة إلى توسلات فتاة محطمة وأمها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل 36

«زيبا! زيبا!»

كان خداع النوم، فكرت زيبا، لأنها سمعت صوت أمها يناديها في هذا المكان. شعرت برأسها أخف مما كان عليه في الليالي القليلة الماضية.

«أنا أبحث عن ابنتي!»

نهضت زيبا تجلس شاهقة. نظرت أسفلها فرأت وسادة صغيرة مستديرة وُضِعت تحت رأسها. هل وضعها الملا وهي نائمة؟ ارتعشت للتفكير في يديه ترفعان رأسها. كيف لم تستيقظ للمسة غريب؟

«هل يوجد أحد هنا؟»

زحفتْ زيبا إلى فتحة زنزانتها مثلما كانت ربما تحبو نحوها، خطر لها سريعًا.

«هنا! أنا هنا، مادر!» صاحت بتردد. أول مرة يعلو صوتها عن مستوى الهمس منذ دخولها الزنزانة. تعرف أن الآخرين قد يثيرون الشغب لسماعهم صوتها، صوت امرأة، لكنها أجابت أمها غريزيا.

رفعت عنقها لتنظر من الفتحة. وقف رجلان في الفناء الرئيس ينظران بفضول نحو المقام ومقر الملا. يتجه الزوّار إلى المقام مباشرة، يتجنبون النظر نحو وادي المجانين.

لوحت بذراعها، طرفت عيناها من ضوء الشمس.

«هنا! مادر جان، أنا هنا!»

عرفت من ميل رأس أمها أنها لفتت انتباهها. تحركت أمها نحوها بخطوات سريعة. بدأ الصياح، فهوت معدة زيبا.

«مادر؟ أهذا أنتِ، مادر؟» صاح رجل غير مرئي، تهدج صوته وهو يصيح نحو جلناز: «أجئتِ إليَّ بعد كل هذا الوقت؟»

«إنها ليست أمك. إنها هنا من أجلنا جميعًا. لقد جاءت لترعانا جميعًا»، صاح آخر بسرور.

«حمقى!»، صاح آخر بكآبة. «اليائس يرى اليَم في الصحراء».

تجاهلتهم جلناز وسارت بعيدًا عن زنازينهم، بوجه صارم وهي تقترب من الزنزانة الأخيرة، كهف ابنتها.

«من هؤلاء النساء؟» صلصلت أغلالٌ، وظل الصوت بلا وجه.

رأت زيبا الملا يهرول من باب مقره وابنه إلى جانبه. ومع أنها لم تستطِع تمييز تعبيرات وجهه، لكنه بدا مرتبكًا. نكز الولد ليعود إلى الداخل فيما وقف يراقب دون أن يتحرك، كأنه مقيد ببيته بأغلال لا مرئية.

«زيبا، أأنتِ بخير؟ ماذا فعلوا بكِ؟ يا الله يا رحيم، انظري إلى هذا المكان!»

زحفت جلناز تدخل الزنزانة دون لحظة تردد. أحاطت ابنتها بذراعيها ثم تراجعت إلى الخلف، أزاحت خصلات الشعر المنكوشة التي تخفي وجهها.

«مادر... مادر...»، قالت زيبا ناحبة. دفنت وجهها في كتفي أمها. وحين أبعدته لتتنفس سحبت يدي أمها إلى وجهها ولثمت راحتيها، أغمضت عينيها، وأبقتهما على خديها. مسحت جلناز دموع ابنتها بأطراف أصابعها.

«أنـا لسـت مجنونـة مـادر جـان»، همسـت. «يقولـون إننـي مجنونـة لكننـي لسـت كذلـك!»

«سيجن جنونك إن أبقى عليكِ هنا»، قالت جلناز بنبرة جليدية.

أومـأت زيبـا برأسـها باكيـة، أدركـت فجـأة أنهـا الآن دون اسـتحمام لمـدة طويلـة، تبـدو مجنونـة بـلا شـك.

«معـك حـق. أنـا لا أعـرف لمـاذا أبقانـي. لـم أقـل أو أفعـل شـيئًا غيـر عـادي. أنـا ... أنـا ...»

«بالطبـع. أنـا أعـرف كيـف يعمـل هـؤلاء. يزعمـون أنهـم يقومـون بعمـل اللّٰه مقابـل أسـعار جيـدة». خرجـت الكلمـات مـن فمهـا كطلقـات ناريـة. «لا بـد مـن أن أحدهـم قـد دفـع لـه ليبقيـكِ هنـا. هـل ذكـر المحامـي أي شـيء عـن النقـود حيـن أتـوا بـكِ إلـى هنـا؟»

هزت زيبا رأسها.

«أوف! أنـا لا أصـدق أن يوسـف تـرك هـذا يحـدث. مـا خطـب ذاك الفتـى؟»

ضغطـت جلنـاز جبينهـا بباطـن يدهـا كأنهـا تعيـد أفكارهـا العاصفة إلـى رأسـها. حيـن رفعـت بصرهـا، كانـت قـد اسـتعادت رباطة جأشـها، وبـدت كالأم التـي تتذكرهـا زيبـا مـن طفولتهـا. «سـوف أتحـدث مـع المـلا بنفسـي».

«أتظنين أنه سيستمع إليكِ؟»

أخرجـت جلنـاز مـن حقيبتهـا قطعـة خبـز طريـة مطويـة نصفيـن ومحشـوة بالحلـوى.

«كلي هذا يا عزيزتي»، همست. «يجب أن تحتفظي بقوتك».

أسقطت زيبا رأسها جانبًا وتنهدت بعمق. أخذت الخبز من أمها ورفعته إلى شفتيها. لمع الدقيق والسكر بدبقهما. غرفت أمها أجزاءً من قاع الإناء، بلون بني أغمق محمَّص. طالما كانت تلك الأجزاء هي المفضلة لدى زيبا. لم يدهشها أن أمها تذكرت هذا.

بلعت بصعوبة، حلقها جاف.

أخرجت جلناز زجاجة مياه غازية صغيرة بنكهة البرتقال ووضعتها على الأرض أمام زيبا.

«لم أعرف ماذا أجلب أيضا. هل أفتحها لكِ؟»

أدارت الغطاء بسرعة ففار السائل وارتفع إلى الفوهة بصفير غازي. أخذت زيبا رشفة طويلة، سرت الفقاقيع في فمها فارتعشت فتحتا أنفها.

«شكرًا لكِ يا مادر»، قالت لاهثة. كانت معدتها شاكرة أكثر مما يمكنها التعبير عنه. لم يكن سهلًا رفضها الطعام من الملا. «جاء بصير إلى هنا منذ يومين، ظننت أنني أتخيل. ما زلت أظن أنني تخيلته بالفعل».

«حقًا؟» شعرت جلناز بغصة في حلقها لتفكيرها في إقدام حفيدها على قطع تلك المسافة الطويلة لرؤية أمه. تمنت لو كان بوسعها اصطحابه معها.

«ماذا قال؟»

«قال إنهم بخير بما يكفي. أدعو الله أن يكون صادقًا. لقد... لقد جلب لي طعامًا»، قالت بصوت متكسر.

أنتَ لست أباك، أخبرته زيبا ثم ندمت من فورها على ما قالته. انتفض بصير بكيانه كله كأن الأمر لم يخطر له قط حتى ذكرته أمه. كان ذلك خوفها هي وليس خوفه.

كيف يمكنك الجزم؟ سألها بحدة. *قد تكوني مخطئة! من أنتِ لتحكمي؟*

تمتمت تبحث عن الكلمات المناسبة وتتساءل إن كانت توجد أساسًا.

طرقعت جلناز بلسانها وتنهدت قائلة.

«ليحفظه الله».

«هل سمعت أي شيء عن الأطفال يا مادر؟ هل جاءك أي خبر من بيت تامينا؟»

نظرت جلناز في الأرض.

«لقد اتصلت بفهيمة صديقتي التي تعيش بالقرب منهم، لكنها قالت إنها لم ترَ تامينا ولم تتحدث معها منذ العزاء. قالت إنها ما زالت في الحداد. أخبرتها أننا... أننا قلقتين جدًّا على الأطفال. طلبتُ منها أن تمر ببيت تامينا وترى إن كانت ستسمع أي شيء. وعدتني أنها ستفعل لكنني لم أسمع منها شيئًا. ظني أنها لم ترَ أي شيء مقلق. أنا متأكدة من أنهم جميعًا بخير».

لم تكن زيبا متأكدة من شيء، كانت قد سأمت عبارات تهدئة أمها الواهية. إن غياب الصراخ لا يعني أن كل شيء بخير، لكنها ليس لديها القوة لتشير إلى هذا. كانت قد أنهت الحلوى والخبز وقررت ألا تمسح الدبق عن شفتيها المتشققتين.

«بنيتي، دعيني أتحدث مع الملا. سأرى إن كان بوسعي إقناعه بإعادتك إلى السجن. هذا ليس مكانًا لأم لأربعة أطفال. هذا ليس مكانًا لأي أحد في الحقيقة». وضعت جلناز يديها وركبتيها على الأرض القاسية. دفعت نفسها لتنهض، وطرفت بعينيها.

أرادت زيبا أن تشدها لتبقى معها، لكنها لم تفعل. بقيت جامدة تراقب محاولات أمها سحبها من الرمال المتحركة التي سقطت فيها. سارت جلناز بخطوات واثقة نحو القامة الواقفة على التل. قبضت على حقيبتها إلى جانبها ورمقت الزنازين الأخرى بنظرات جانبية طويلة. رآها الملا قادمة فلم يحرك رأسه. وضع قدمًا خلف الأخرى وتراجع إلى الخلف، ببرود، نحو البيت. هل يتجنب الحديث مع جلناز؟ ضيقت زيبا عينيها لترى جيدًا، جسدها كله تقريبًا عند فتحة الزنزانة. قوَّست ظهرها، عضلاتها متخشبة من الجلوس معظم الوقت. لم تتخيل أن تفتقد شيل ماهتاب بشدة هكذا.

سمعت صوت أمها. كانت جلناز قد بدأت التماسها قبل حتى أن تصل إلى الملا. لوَّحت بذراعها إلى الخلف نحو زيبا. كانا بعيدين جدًّا لتسمع زيبا كلامهما، لكنها رأت حركات أمها. عينا الملا مثبتتان في الأرض. تشير جلناز إلى السماء، تُشهد اللّٰه على كلامها.

كان كل هذا متوقعًا. لكن اللحظة التالية جعلت معدة زيبا تهوى مجددًا. رفع الملا بصره ببطء. كان يحاول أن يتحدث، لم تدعه جلناز. لكنها لم تنهِ كلامها أيضًا. تقدم نحوها خطوة ووضع يده على ذراعها. سحبت جلناز ذراعها بحدة ووقفت تحدق فيه. امتدت يدها إلى فمها وحركت قدمها اليسرى إلى الخلف، ثم قدمها اليمنى. اقترب منها الملا أكثر، رأسه مائل جانبًا. وضع يديه الاثنتين على ذراعيها كأنه يمنعها من الركض. تدلى رأس جلناز كدمية انقطعت خيوطها.

لماذا يلمسها؟ جرَّت زيبا نفسها لتخرج من الزنزانة. احتكت القيود بجلد كاحلها الرفيع كالورقة وآلمتها. كان الملا يشير إلى المقر المجاور للمقام. ثم مد يده، على نحو مستحيل، ليلمس خد جلناز. جفلت جلناز لكن قدميها ظلتا مثبتتين بالأرض.

أرادت زيبا أن تصرخ. أرادت أن تركض عبر الفناء الخالي، أن تصعد ذاك التل الصغير، وتنقضّ على الملا. أرادت أن تسحبه بعيدًا عن أمها التي بدت منزعجة بشدة للمسته. شدت قيدها، دون جدوى.

«آيي!» زمجرت بإحباط. كورت يديها حول فمها وهتفت. «مادر! مادر!»

التفتت جلناز نحوها، أصابعها على فمها. رفعت يدها لها ببطء كأنها تخبرها بأن كل شيء بخير. مع أنه من الواضح أن لا شيء كذلك. ماذا يفعل؟ قاد الملا جلناز إلى المبنى المكون من غرفتين مفروشتين بوسادات أرضية وستائر على النوافذ، الذي رأته زيبا حين جاءت إلى المقام أول مرة. سارت أمها بخطوات ثقيلة. وضع الملا يده على ظهرها ليقودها، فجفلت جلناز مجددًا لكنه أزاح أصابعه إلى مرفقها. توقفت عن السير مرة أخرى وحدقت فيه. كان يشير إلى الباب.

«عودي يا مادر!»

ضج قلبها بشعور طاغٍ أن أمها في خطر جسيم. ماذا يريد منها هذا الرجل؟ كانوا في الخلاء، حرفيًا. لم يأت مريدون إلى المقام اليوم، بسبب الحر. الوحيدون الذين يسمعون صراخها مقيدون في زنازينهم مثلها.

هتفت: «مادر... مادر! لا تذهبي، مادر!». تردد صياحها في الفناء ليحرك أوراق شجرة الأكاسيا. التفتت جلناز مرة أخرى وأومأت برأسها قبل أن تختفي خلف الباب الخشبي لمقر الملا.

الفصل 37

«أطال الله عمرك يا بنيّ العزيز. كنت لتوي أفكر فيك حين رن الهاتف».

ابتسم يوسف. لم يكن متأكدًا من قدر الحقيقة في تلك الخرافة القديمة، خاصة في أفغانستان.

«أنا أعرفك، كنت تفكرين في كوني ابنًا عاقًا لعدم اتصالي بك منذ وقت طويل».

«إيه، أنت تعرف أمك جيدًا». تنهدت قائلة. «وما حيلتي؟ حتى ولو سمعت صوتك كل يوم، لن يكفيني هذا».

«ألا تهتمين بأبنائك الآخرين إطلاقًا؟» سألها وهو يستلقي على فراشه مرة أخرى. يستمتع بالمزاح مع أمه. يظل حسها الفكاهي يُدهش أغلب الناس.

«صدف في علاقة غرام مع هاتفها الخلوي، وأخوك لا يحب طعامي ليأتي إلى البيت ولو مرة في أسبوع. وستارة لا تفكر إلا في نفسها كعادتها. هل تحدثت معها بالمناسبة؟ هل عرفت أنك ستصبح خالًا قريبًا؟»

«حقًّا؟» قال مدهوشًا. لا يتخيل أخته أمًّا. كانت هي وزوجها ما زالا يعيشان كمراهقين مع أنهما أكبر منه بعامين. «واو، هذه أخبار مثيرة!»

«إنها نعمة. وستكون نعمة أكبر لو لم يرث الطفل كسل أبيه. يحسب ذلك الرجل أن التحرك من غرفة النوم إلى غرفة الجلوس يوم عمل كامل».

«أوه، مادر. إنه ليس بهذا السوء. إن لديه وظيفة جيدة في البنك».

«نعم، بنك. الرجل يقضي طوال النهار محاطًا بالأموال، ومع ذلك ليس لديه منها سوى القليل. يريد أن يشتري مهدًا مستعملًا للرضيع. لو كانت قد سمعت كلامنا وانتظرت لكانت تزوجت بطبيب. تخيل مدى نفع أن يكون في العائلة طبيب. ابنة عمي في كاليفورنيا لا يوجد أسعد منها. تزوجت ابنتها من طبيب قلب. أم كان طبيب رئة؟»

«ربما طبيب تجميل؟» سألها ساخرًا.

أنا لا أمزح، أيًا كان، ما دام لن يقترض لينجب طفلًا. على كل حال، كفى كلامًا عنهما. قل لي ما أخبارك؟ هل وجدت طريقة لمساعدة تلك المرأة؟»

نهض يوسف ليجلس، ووضع وسادة خلف ظهره وعقد ساقيه المتمددتين. كان قد دعاه محاميان آخران لتناول العشاء معهما في مطعم، لكنه رفض على أمل أن يساعده قضاء أمسية هادئة في البيت على إيجاد حل عبقري لإخراج زيبا من ذاك المقام.

«ما زلت أعمل على ذلك. لا أصدق كيف سارت تلك القضية. كأن السجن لم يكن سيئًا بما يكفي، أرسلوا المرأة إلى مقام لعلاجها من الجنون. إنها الآن مقيدة بالسلاسل وتعيش على الخبز والماء».

طرقعت أمه بلسانها بحزن.

«أوه، أنا لا أصدق هذا! هذا يبدو كالأساطير. كنا نذهب إلى أحد المقامات في كابول لكن للصلاة فقط. لم أسمع قط بمقام لعلاج المجانين. أهذا حقيقي؟»

«حقيقي جدًا. ظني أنه المقام الوحيد في البلد الذي يفعل ذلك، لكنه موجود. وهي الآن هناك. أفغانستان اليوم قد تدهش أغلب الأفغان الذين رحلوا منذ سنوات. إنها مختلفة تمامًا الآن».

«صرت أنا وأبوك نتابع القنوات الفضائية أكثر منذ سفرك، وبالفعل أشعر أحيانًا وأنا أستمع بأنهم يتحدثون عن بلد لا أعرفه. لكن، هل أنت في أمان؟ هل تأكل *أنت* شيئًا آخر غير الخبز والماء؟»

«أنا آكل جيدًا، جيدًا جدًا ربما». كان كذلك بالفعل. كان قد أصابه الإعياء قليلًا خلال أسبوعه الأول في كابول، لم يعتَد جهازه الهضمي على الأحياء المجهرية للبلد. لكنه لم يواجه مشكلات منذ ذاك الحين. ظل حريصًا في تناول الفاكهة والخضراوات النيئة، ما عدا ذلك كان كل شيء آخر يمر في أمعائه بسهولة.

«أين أنت الآن؟»

«في البيت»، قال مدهوشًا من خروج الكلمة بعفوية شديدة. «أعني في شقتي».

مع ذلك شعر بأنه في البيت. كان قد اكتسب روتينًا. يعرف السائقون إلى أين يوصلونه، ولدى مروره بعدد من المحلات يتوقع أن يحييه أصحابها بالاسم. يعرف الشوارع الغارقة في القمامة والشوارع النظيفة. يعرف أفضل عربة شطائر بولاني في الشارع، والأماكن التي لا يلتقط فيها هاتفه أي شبكة.

ابتسم حين تذكر يوم وصوله إلى المطار، ذاك المزيج المثير من التحفز والقلق. أصبح يشعر براحة أكبر لوجوده هنا. وسيشعر براحة أكبر لو أمكنه توجيه هذه القضية في المسار الذي يريده.

«ماذا سيحدث إذن لتلك المرأة المسكينة؟ هل أخبرتك لماذا قتلت زوجها؟»

فكر يوسف -الذي تربى على المفهوم الغربي لخصوصية العلاقة بين المحامي وموكله- في قدر المعلومات الذي يمكنه مشاركتها مع أمه. لكنه حسبَ الأميال التي تفصل بينهما ونظر من النافذة إلى شارع مملوء بالنخيل المشحم وقرر أنه لا ضرر في الكشف لها عن تفاصيل قليلة.

«لم أخبرك بما عرفته، أليس كذلك؟ تبين أنها رأته وهو يتحرش بطفلة صغيرة، بأسوأ طريقة ممكنة». كان حريصًا في كلماته. لا توجد كلمة بالدارية بمعنى الاغتصاب، أدرك ذلك حين بدأ العمل هنا، كأن عدم تسمية الفعل ستنفي وجوده. حتى في العالم القضائي، يُشار إليه عادة بالزنا، أو الجنس خارج نطاق الزواج، لمساواة الجريمة بفعل زوجين شهوانيين لا يمكنهما الانتظار فمارسا الجنس قبل الزفاف بيوم واحد. كان مصطلح الزنا فضفاضًا يغطي كل شيء ما عدا رغبة الزوج في زوجته.

«أوه لا! ليلعنه الله ابن الحرام ذاك!»

«نعم. لم تخبرني بالكثير، لكن مما استطعت جمعه معًا، فقد قتلته دفاعًا عن الفتاة، إحدى زميلات ابنتها في المدرسة. وهي لا ترغب في الكشف عن شيء مما حدث للقاضي».

«هذا لصالحها»، قالت أمه بتنهيدة. «لقد قتلت شخصًا بالفعل. لا داعي لتقتل آخرين».

«أعرف، لكنه أمر فظيع أن الحقيقة لا تساعدها في شيء».

«الحقيقة سلعة يندر بيعها. أنت تعرف كيف نحن. نفضل أن نكون مؤدبين وأن نصون شرفنا. هل أخبرنا أحدًا بأننا لا نرغب في زواج أختك بذاك الخائب؟ لا، لأن الابنة العاقة أسوأ من الصهر الكسول. لا يمكننا العيش دون أكاذيبنا».

سكت يوسف يتفكر في هذا، الأكاذيب هي ما تجعل الأرض بأسرها تدور حول محورها. ليس في أفغانستان فقط.

«إنها ليست شخصًا سيئًا مادر. إنها ساحرة قليلًا أيضًا، هل أخبرتك بهذا؟»

«حقًا؟ موكلتك ساحرة أيضًا؟ امرأة ذات مواهب عديدة!»

«ورثت ذلك عن أمها في الحقيقة».

«ومن أين سيأتي الأبناء بمواهبهم؟» قالت بتأكيد.

«انتظري حتى أخبر أبي بهذا».

«إنه يعرف أنها الحقيقة. أنت ورثت شعرك عن أبيك، يجب أن تشكره على هذا، إنه الرجل الوحيد في سنه الذي يمكنه الخروج من المسجد دون أن تنعكس الشمس على صلعته. الآن، لم أسألك منذ وقت طويل لأنني لا أريد أن أكون من الأمهات اللاتي يحشرن أنوفهن في شؤون أبنائهن، لكن كيف تسير الأمور مع مينا؟»

جفل. فكر هل يخبر أمه بأن مينا تحب شخصًا آخر أم لا. لم يكن متأكدًا تمامًا من أنها لن تخبر الخالة زينب.

«لسنا مناسبين لأحدنا الآخر، لذلك سأُخرِج الفكرة من رأسك. أتعرفين، الخالة زينب لم تخبر مينا حتى أنها ستعطيكِ رقمها».

«أهذا ما قالته مينا؟ ربما خجلت فقط فأخبرتك بذلك. كيف لا يناسب أحدكما الآخر؟ كنتما رائعين معًا عندما كنتما طفلين،

وأنتما الاثنان زوج رائع الآن. ماذا تريد أكثر من هذا؟»

هز رأسه.

واصلت كلامها: «ثم إنك -يوسف- لا يمكنك اتخاذ قرار بناء على مكالمة واحدة فقط».

«لم تكن مكالمة واحدة مادر. لقد تأكدنا من أن الأمر ليس مقدرًا له فحسب».

«وماذا أعرف أنا في جميع الأحوال؟ لست سوى امرأة ظلت متزوجة لأكثر من ثلاثين سنة». تنهدت بحدة. «آه، بني. متى ستكتفي من ذاك المكان؟ القصص التي تحكيها والفوضى التي نسمع عنها في الأخبار تقلقني. كيف يمكنك التعامل مع هذه الأمور؟»

لولا تقطع الاتصال وتفاصيل القضية، لشعر بأنه على مسافة رحلة قطار قصيرة من أمه، كما كان وهو في واشنطن. أمكنه تصورها، جالسة على أريكة غرفة الجلوس، أمامها سلة من ملابس أبيه التحتية البيضاء، ما زالت دافئة من غسالات القبو التي تعمل بالعملات. يعرف أنها حين ستضع السماعة سترتسم على وجهها خطوطٌ من ضغطها السماعة على أذنها. تصور تغضن جبينها ويعرف أنها في الغالب تكور يدها اليمنى على السماعة، عادتها التي اكتسبتها حين كانت المكالمات العابرة للقارات تنتقل عبر ألياف ضعيفة بدلًا من الأقمار الصناعية.

كاد يرى نافذة بيتهم، تخطط قضبان معدنية سميكة المنظر من الطابق الرابع. رغم أن المنظر لم يكن بالكثير، لكنه قضى ساعات عند تلك النافذة يتأمل المباني المقابلة والمباني التي

تتفرع منها. حين كان في الثانية عشرة، أهداه أبوه منظارًا مقرِّبًا، آملًا أن ينمي اهتمامه بالطائرات التي تحلق على مستوى منخفض أعلى رؤوسهم. لكنه لن يصير مهندسًا، على الرغم من تشجيعات أبيه. استخدم المنظار بدلًا من ذلك للتلصص على نوافذ الآخرين.

راقب المرأة التي كانت تفك حزام روبها الوردي لترضع صغيرها كل صباح. رأى الرجل الشائب الذي يظل يقلب قنوات التلفاز بذهن شارد وبيد ممسكة بالريموت والأخرى في بنطاله. رأى الفتاة المراهقة النحيلة التي كانت تخرج ذراعها ووجهها بأكبر قدر ممكن من سلك النافذة لإبعاد دخان السيجارة. لم يشعر بكونه متلصصًا وهو يراقب تلك الحيوات الخاصة، بل كان أقرب إلى حافظ الأسرار.

لكنه ليس في أفغانستان من أجل ذلك. لم يترك بيته ويأتي كل هذه المسافة ليقع فريسة ذنوب الآخرين هنا. لدى الجميع ذنوب بالقدر نفسه في نيويورك وواشنطن. أصدقاؤه، أبناء عمومته، والداه، زملاؤه في العمل... رددت مئات الأصوات السؤال نفسه ما إن حجز تذكرة الطائرة إلى أفغانستان.

لماذا تريد العمل هناك؟

«مادر جان، هناك سيمكنني إنجاز شيء حقيقيّ. البلد في حاجة إلى نظام قضائي حقيقي ليتقدم المجتمع حقًّا. أريد أن أشارك في هذا. إنه إعادة بناء أمة، وليست مجرد أمة... إنها أمتنا. سيكون من العار أن نترك الأمر كله لينجزه الأجانب؟»

«أنا فخورة بك يا يوسف. نحن جميعًا فخورون بك. يجب أن تسمع كيف يتحدث عنك أبوك مع أصدقائه وأعمامك. ذهبنا الأسبوع الماضي إلى حفل زفاف، فقابلَ هناك صديقًا قديمًا من أيام المدرسة العليا. «إن ابني بطل»، هذا ما قاله له، بأمانة».

غص حلق يوسف. فرك جبينه واعترف لنفسه أنه يفتقد بيته حقًّا. يفتقد رائحة معطر الغسيل في ملابسه التحتية، يفتقد الشعور بدواسة البنزين تحت قدمه. يفتقد الطرق المرصوفة وعلامات الانتظار الدقيقة وجداول تنظيف الشوارع.

يفتقد إيلينا. ظن أنها ستحاول الاتصال به حتى بعد انفصالهما. لم تتصل قط، حتى حين عرفت أنه سيسافر إلى أفغانستان. بدت كأنها تتفق معه على أنهما مختلفان تمامًا أحدهما عن الآخر ليظنا أن بإمكانهما أن يكونا معًا. لم يندم على قراره. ندم فقط على تركه ما بينهما يصل إلى ما وصل إليه إذ سبب ذلك لكل منهما آلامًا لم يكن من داعٍ لها.

حين كان جالسًا في مطار كينيدي في انتظار طائرته إلى دبي، أخرج هاتفه الخلوي وألغى حسابه على الفيسبوك. كانت لحظة حادة، لم يخفف من حدتها سوى من مروا به دون ملاحظة المحامي الشاب اللامع الذي فصل نفسه لتوه عن ذاك العالم. ربما لم يكن قرارًا هائلًا مع ذلك. مسح التطبيق من هاتفه. سيُغرق نفسه في عمله، قرر، وسيكون من الأفضل ألا تشتته صور زملاء الدراسة السابقين وهم يرفعون كؤوسهم في مطاعم خافتة الإضاءة في الإيست فاليج في نيويورك، أو وهم يقودون دراجاتهم في متنزه الروك ريك في دي سي.

«أنا لن أمكث هنا إلى الأبد يا مادر جان. سأعود حين أشعر بأنني حققت شيئًا ما هنا».

سمع تنهدها الثقيل، إذعانها لرأي ابنها.

«أنا أعرف هذا البلد أكثر منك»، قالت. «ستحقق الكثير هناك، لكنك ما أن تبتعد، سيبدو كأنك لم تفعل شيئًا على الإطلاق. ستكون مثل النملة المسكينة التي تجر حمولات من التراب بثلاثة أضعاف حجمها لبناء بيت ستهدمه خطوة أحدهم دون أن يلتفت. سيكسر هذا قلبك، وهذا أكثر ما يقلقني عليك».

حين أنهى الاتصال، شعر بثقل الهدوء في الغرفة. نهض وذهب إلى الراديو على التسريحة، ظل يدير القرص يقلب بين المحطات، توقفت أصابعه حين سمع صوت شاب.

«لقد اتصلت براديو سبأ»، أعلن المذيع. «تفضل قل كل ما في قلبك».

«هذه أول مرة أتصل»، كان الصوت متوترًا فأغمض يوسف عينيه. يمكنه تخيل المتصل، شاب ببنطال قطني داكن وحذاء مطاطي، تيشيرت بولو بعلامة كوكاكولا على الجيب. يتحدث من هاتفه الخلوي، مختبئًا في غرفة جانبية في بيته لئلا يسمع إخوته ووالداه اعترافاته.

«أنا أحب فتاة منذ أن كنت طفلًا. أحب كل شيء فيها؛ حاجبيها، صوتها، ابتسامتها. اعتدت أن أتبعها كلما خرجت من بيتها، لتعرف فقط كم أهتم بها. حين لاحظتني نظرت إلى الخلف وابتسمت وبدا كأن... كأن قلبينا قد تشابكا معًا في تلك اللحظة».

«آه، حب صغير». قال المذيع بتنهيدة. «تفضل واصل كلامك».

«في العامين الماضيين، كنا نتحدث كل يوم تقريبًا. كنا نتحدث عن دراستنا وأهلنا وطموحاتنا في المستقبل. أريد -إن شاء الله- أن أنشئ عملي الخاص ذات يوم: مطعم أو محل أثاث».

ابتسم يوسف لنفسه، ترك القرص وعاد إلى الفراش.

«أتخيل نفسي أفعل هذا وهي معي، بجانبي. لا يمكنني تخيل حياتي دونها. لم أحب أحدًا آخر قط، لم أنظر حتى إلى فتاة أخرى كما أنظر إليها هي».

«يبدو أنها تحبك هي الأخرى. هل يقف شيء في طريق ارتباطكما؟» سأله المذيع بصوت مبالغ في التعاطف.

«توجد مشكلة كبيرة. خطبتها عائلتها مؤخرًا لشخص آخر، فتى لا تحبه. إنه في ألمانيا وسوف يأتي خلال أسبوعين لعقد الزفاف. بعد ذلك، ستغادر معه إلى أوروبا خلال مدة قصيرة. هي لا تريد أن تذهب. أخبرتني بهذا، لكن عائلتها مصرة».

«يا له من ألم!»

«بالفعل. أنا لا يمكنني النوم ولا تناول الطعام. بالكاد أقوم بعملي. لو تركتني، أنا متأكد من أنني سأظل وحدي لبقية حياتي. لا شيء سيملأ فراغ قلبي».

«قول جميل، صديقي الشاب»، قال المذيع. همس بشيء ما بعيدًا قليلًا عن المكروفون وتنحنح. «أتمنى ألا يقف في طريقك أنت وتلك الشابة أي شيء، إن كان أحدكما مقدرًا للآخر، فلا شيء سيمكنه الوقوف أمام إخلاصك. هذه ليلة القلوب في راديو سبأ. سنستقبل اتصالًا آخر الآن».

طرقع يوسف بلسانه لنفسه بهدوء، يفكر في فتى وفتاة يتحدثان على الهاتف سرًا، يرمق أحدهما الآخر بنظرات حارة ويظنا أنهما يعرفان الحب الحقيقي. مع ذلك، ماذا يدريه هو؟ لقد اختار الابتعاد عن إيلينا وآلمه أكثر أنها لم تعترض. دعته أحمق، ضيعت وقتها معه ومضت قدمًا في طريقها، ببساطة شديدة. فكر في النساء في شيل ماهتاب، اللاتي جسرن على الهروب مع الرجال والمخاطرة بحريتهن وحياتهن من أجل ذلك. أي حب قد يكون ملزمًا هكذا؟

الفصل 38

«ماذا فعلت بأمي؟» سألت زيبا بغضب. «أخبرني!»

أجابها الملا من بين شفتين مزمومتين.

«لم أفعل شيئًا لأمك. تحدثنا عن موقفك. زيبا جان أنا أريدك أن تبقي في أمان»، قال بهمس متآمر على نحو غريب. «يقول محاميك إن الجنون قد يفيد للتساهل معك في قضيتك. ظني... ظني أن عليك المكوث هنا مدة من الوقت لئلا يشكّوا في جنونك. لقد وعدت أمك أنني سأرعاك. وسوف أفي بوعدي».

«لن يسامحك الله على هذا أبدًا»، زمجرت قائلة. «ولو صليت ملايين السنوات، لن يغفر لك الله أيًّا كان ما فعلته بأمي».

بصقت عند قدميه بما أمكنها من فمها الجاف، تقرفها ذكرى طريقة وضع يديه على أمها.

فرك صدغيه.

«نحن جميعًا أسرى ذنوبنا يا زيبا، لكن الأمر كله لله الحكم العدل. نحن نعجز عن الفهم بحواسنا الخمس فحسب. ستعود أمك اليوم. ستعرفين منها».

أدارت له ظهرها وظلت جامدة حتى تأكدت من خروجه.

يعرف المرضى الآخرون بوجودها الآن وأحيانًا يدعونها بـ«المرأة». لم تجبهم. توجد طرق كثيرة جدًّا لزيادة موقفها هذا سوءًا. الأفضل لها أن تصون عزلتها التي ترغب فيها. كان يجب أن تكون الليالي مدد راحة، لكن بدا أن الجنون يصل أوجه تحت نور القمر.

كانت قلقة وعجزت عن النوم. تريد أن تطمئن على أمها، أن تعرف ماذا فعل بها الملا الذي لفه بالفعل غشاء من الخطيئة السامة يجعلها تتمنى أن يعود كمال إلى الحياة. إلى هذا الحد كانت يائسة. لم تشك في أسباب أمها لعدم صفع الملا على وجهه أو النكوص على عقبيها. فهمت الآن أن كل ما فعلته جلناز، كل فعل غريب أو تصرف جنوني، كان بدافع الحب.

حين اعتلت الشمس كبد السماء، شعرت زيبا بقشعريرة. جلست ساكنة تمامًا وفهمتْ -بحدس امرأة تحملت الكثير خلال الأسابيع الماضية القليلة- أنها ستشهد خلال دقائق تحولًا هائلًا آخر في حياتها. بذلت جهدًا لتحافظ على هدوء تنفسها وضغطت بظهرها على الجدار الطيني.

ثمة راحة معينة تأتي من المقام، أقرت، قبل أن يقود الملا أمها إلى مقره على نحو مخزٍ. آلمها أسفل ظهرها. دفعت بكتفيها إلى الخلف وشعرت بآلام الغضب الحادة في عضلاتها.

الفصل 39

«أيّها السيدان المحترمان»، قال القاضي نجيب. «تلقيتُ بعض المعلومات المهمة بخصوص قضية زيبا خانوم. ظني أن علينا توخي الحذر الشديد بشأن ما سأطلعكما عليه الآن. قد يتطور الموقف على نحو سيئ جدًا، كان ذلك ليحدث لو لم يكن زوجها قد مات ودُفن بالفعل».

استمع يوسف باهتمام. كان القاضي قد دعا لعقد هذا الاجتماع على نحو مفاجئ، وكان يوسف يتوقع أن يسمع خبر وفاة زيبا من الجوع في ذاك المقام. كان يشعر بالذنب بالفعل لعجزه عن إخراجها من هناك.

«لقد تلقيت مكالمة من مأمور الشرطة، حكيمي، إن كنتما تتذكران اسمه من محضر القبض. لقد جاءه عدد من أهل القرية ليشهدوا برؤية كمال يحرق صفحة من المصحف منذ أشهر عدة. لكنهم لا يعرفون بالتحديد متى أو لماذا فعل ذلك».

«يا الله يا رحيم، توبة، توبة....» زمجر وكيل النيابة وهو يهز رأسه.

عض يوسف شفته السفلى وعقد حاجبيه. حرق صفحة من القرآن الكريم جرم لا يغتفر. لم يستبعد يوسف الأمر، خاصة مع كل ما يعرفه عن كمال. مع ذلك، انقبض قلبه بانزعاج.

«أنا لا أريد تحميل القضية بهذا العبء الثقيل، لكن أخشى أننا لا يمكننا تجاهل الأمر أيضًا. علينا أخذه في الحسبان».

انتصبت أذنا وكيل النيابة لهذا التصريح وقال.

«الجريمة جريمة».

مال القاضي نجيب إلى الأمام على مكتبه ينظر من فوق عدستي نظارته المخدوشتين.

«أنتما تعلمان بقدر ما أعلم أن الجريمة ليست جريمة».

أومأ وكيل النيابة موافقة. هذه حقيقة يمكن لثلاثتهم الاتفاق عليها.

«ماذا قال حكيمي أيضًا؟» سأل يوسف. تمنى لو كان مأمور الشرطة قد اتصل به مباشرة ليمكنه سؤاله بنفسه.

«لقد ظل يحقق مع نصف أهل البلدة، ويبدو أن الكثير منهم سمعوا بتلك القصة. يقول إنه من الصعب عدم تصديقها مع عدد الذين يومئون برؤوسهم حين يسألهم عنها».

تخيل يوسف الأمر بسهولة. تبدأ الإشاعة بفرد واحد، تنتقل إلى اثنين آخرين، ثم عشرة حين يبدأ حكيمي أسئلته. يعرف أن أسئلة حكيمي هي ما أضافت الوقود، سواء إلى الإشاعة أو الحقيقة، أيًا كانت. رأى في ما مضى حدوث أمر مشابه. مجرد السؤال عمَّا إذ كان كمال قد أحرق صفحة من المصحف أم لا يجعل الأمر محتملًا ببساطة. أضف قليلًا من اهتمام أهل القرية وسيضرب الاحتمال بجذوره. سرعان ما ستمتد تلك الجذور في الأرض وتنبت البذور من التربة لتخرج إلى ضوء النهار.

«قال عدد كبير -على نحو مدهش- من الأشخاص، إنهم سمعوا بالأمر من آخرين. قال أحدهم إنه رأى كمال ذات مساء منذ أشهر يدخن سيجارة وكانت يداه متسختين برماد، كان قد دفن دليل إدانته في الغالب. قال رجل آخر إنه سمع كمال يقول

إنه ليس لديه وقت للصلاة. والأسوأ من هذا، أن قال بعضهم إنه سكير. كان يشرب الخمر بشكل منتظم، مع ذلك لم يذكر أحد من أين كان يأتي به».

وضع يوسف يدًا على فمه. يواري ابتسامته، لم يكن يبتسم لتحسن موقفه في الدفاع عن زيبا، بل لذهوله من قوة تأثير إشاعة في تغيير مسار الأمور. ثبت عيناه على دفتر ملاحظاته لئلا تفضحاه.

«في سياق آخر، سمعت من أحد الحراس أن صحفيًا يسأل عن القضية. يبدو أنه ذهب إلى شيل ماهتاب ليسأل عن النساء هناك. أنتما تعرفان كيف هم هؤلاء الصحفيون. التقط الصحفي همسًا عن قضية زيبا، لذلك لن أُدهش إن تلقى أحدكما مكالمة بشأن هذا، أنا ها هنا أحذركما، خاصة بعد ما سمعناه عن كمال وقصة تلك المرأة في كابول التي قتلها الغوغاء. قد يسوء هذا الموقف بشدة».

«يسمع الناس بهذا الكفر فيريدون الدم، لكن من الصعب سفك دماء رجل ميت». قال وكيل النيابة مستمتعًا.

«باختصار. دعونا نلخص الأمر قبل أن ننجرف بعيدًا بتلك المعلومات الجديدة»، قال القاضي نجيب بجدية أكثر من أي وقت مضى. «علينا النظر في هذه القضية بحرص شديد. لا شهود للدفاع عن زيبا، لكن الظروف قد اتضحت بشدة إلى حد أن صار لا داعي للشهود. تقدم يوسف بحجة عدم كونها في كامل قواها العقلية وقت ارتكابها الجريمة. اعترفت بالفعل بارتكابها الجريمة في محضر الشرطة ولم تنفي عن نفسها التهمة حقًا بأي طريقة مقنعة. يصعب عدم اعتبار هذا اعترافًا، إذن».

هز يوسف رأسه.

«أنا أعترض على هذا، لقد ثبت من وجهة نظر متخصص يثق به القاضي أنها ليست بكامل قواها العقلية، لذلك يجب استبعاد اعترافها وقت القبض عليها. كيف لشخص مجنون أن يكتب اعترافًا حقيقيًا؟ لقد رأيت بنفسك سيدي القاضي. هل تظن أنها كان بإمكانها الإدلاء بشهادة دقيقة لضابط الشرطة ليسجلها؟ كانت بالكاد تعي ما يحدث حتى وهم يطبعون بصمتها بالحبر على الورقة».

«كفى يا يوسف»، قاطعه القاضي. «دعني أتحدث. لدى وكيل النيابة قضية قوية. وأنا أحاول تحري العدل والتحلي بذهن متفتح للنظر في هذه القضية. حتى وإن ثبت جنونها الآن، لن يكفي هذا لإنقاذها من الإدانة بالجريمة. الآن، لم يتبق لنا الآن سوى التفكير في تلك الأخبار عن كمال بصفته سكيرًا ربما ارتكب بالفعل إثمًا شنيعًا».

اعتدل يوسف في جلسته فجأة.

«أتعرفان، كانت قضية المرأة التي قتلها الغوغاء في كابول مثيرة للاهتمام. في البدء حكم القاضي على القتلة بالإعدام، ثم خفف الأحكام، وأوقف تنفيذ بعضها حتى»، أضاف القاضي.

أومأ وكيل النيابة.

«كانوا مجانين. سمعوا أن أحدهم تجرأ وحرق كلمات الله فثارت ثائرتهم. عُدّوا مدافعين عن الله».

«هذا ليس عذرًا لارتكاب جريمة»، أجابه يوسف بحدة.

«حسنًا، يبدو أن الناس يأتون بشتى أصناف الأعذار لارتكاب جريمة، أليس كذلك؟» سأل وكيل النيابة بحنق.

قاوم يوسف رغبته في وضع قطرة في عينيه وهو في مكتب القاضي. فرك عينيه الملتهبتين وهو يعرف أنه يزيد الأمر سوءًا فقط. فهم فجأة لماذا يبدو الجميع في هذا البلد أكبر من سنهم الحقيقية بعشرين عامًا. تذكر أطفال الشوارع الذين تزاحموا عليه في كابول، أولاد وبنات في سن المدرسة لم يكن ليُسمح لهم بعبور الشارع وحدهم في نيويورك. هو نفسه خدعته نساء كثيرات في السجن، أجسادهن وأطفالهن، تجعل من في الثانية والعشرين منهن تبدو كأنها تخطت الأربعين. الرجال، نحيلون ومنهكون من وظائف تجعل العشية وضحاها تبدو كثلاثة أيام. تمر حياتهم بإيقاع سريع لكن، من ناحية أخرى، يبدو أنهم لا يتحركون البتة. أكان هذا ما يقلق أمه، أن يقضي أفضل سني حياته في الكد في أرض لن تمنحه شيئًا في المقابل؟ مستحيل، لكنه اعترف لنفسه إنها محقة. لكنه ما زال ليس مستعدًا للاستسلام.

«ماذا تريد أن تفعل إذن؟ أتفضل إعدام زيبا غدًا؟ أتظن أن أطفالها سيكونون بخير دونها؟ أهذا هو العدل بالنسبة إليك؟»

هز وكيل النيابة رأسه.

«لا يمكننا التسامح مع النساء اللاتي قتلن أزواجهن. وأنا لست بلا قلب يا صديقي. أنا أؤدي واجبي فقط... مثلك».

«أنا أؤدي واجبي وأريد العدل أيضًا». جاء صوت يوسف أجش ومتوترًا. فتنحنح وبدأ مجددًا. «أعرف أن هذا ما تريده أيضًا. لنبحث عن حل يرضي جميع الأطراف. لقد لفتنا النظر الآن، ولا أعرف إن كان هذا الصحفي ومتابعته قضية زيبا أمرًا جيدًا أم لا».

كان في الحقيقة على يقين من أن متابعة الصحافة للقضية ليست في صالح زيبا. كانت محاكمة قتلة المرأة في كابول ما زالت في ذاكرة الناس. طلبة الجامعة متحفزون. منظمات حقوق المرأة على أهبة الاستعداد لشن المسيرات ورفع اللافتات. ما قد يبدأ بامرأة ضحية العنف تقتص من زوجها الكافر قد يتحول سريعًا إلى ملاحقة ساحرة لحرقها. تخيل، دون أن يجهد خياله كثيرًا، مجموعة من الغوغاء يجرون جسد زيبا في الشارع ويتناوبون ضربها بالهراوات والحجارة ويدهسونها بسيارة.

«ماذا يريد الصحفي بالتحديد؟» سأل يوسف. «هل سمع ما يقوله الناس عن الزوج؟»

«لست متأكدًا»، أقر القاضي نجيب. «لكن إن كان أحد هؤلاء اللحوحين من المدينة، فسيكون لديه الكثير من الأسئلة، ومن المحتمل أن يكون على علم بهذا. دهش حكيمي جدًّا من عدد الأشخاص الذين جاؤوا إليه بخصوص هذه الكارثة».

دوّر يوسف أطراف أصابعه حول صدغيه، مرفقاه على ركبتيه. كان يومًا حارًا، وأزيز المروحة الكهربائية في غرفة القاضي يشن حربًا طاحنة لتحريك الهواء الساخن نفسه في المساحة الصغيرة بين الرجال الثلاثة. شعر بالرطوبة في ياقة قميصه وتحت إبطيه.

لقد حدث شيء ما في القرية بعد زيارته. بدا كأن أهل القرية كانوا يمسكون ألسنتهم في انتظار إشارة البدء للصياح بذنوب كمال.

«سأخبركما بما أشعر»، قال القاضي نجيب، ومسح حاجبيه بمنديله القماشي. «لقد تعبت من كيفية سير الأمور. يظن الناس

-لأنني قاضٍ- أن كل ما أملكه أتاني من الرشوة. أنا لا ألومهم لتفكيرهم هذا. يعرف الجميع التفاصيل المالية لكسب قضية أو إخراج أحدهم من السجن. لست معصومًا. أنا أقر بهذا القدر».

نظر المحاميان أحدهما إلى الآخر نظرات قلقة. بدا أن القاضي نجيب لا يتحدث إليهم تحديدًا في جميع الأحوال، بدا كأنه تدرب على هذه السطور في ذهنه ويريد استغلالهما كجمهور حيّ.

«أنتما شابان، أتعرفان ماذا يحدث حين تتقدم بكما السن مثلي؟ تنامان أكثر، تأكلان أقل، تختاران معارككما بحرص، وتفكران في ما سيقوله الناس في جنازتكما. أنا أريد أن أخلد ذكراي. أتذكران المقام؟ حضرة رحمن، خلد ذاك الرجل ذكراه وما زال الناس يفكرون في حكمته ويصلون عند قبره. أنا لا أطلب مقامًا»، ابتسم رغما عنه. «لكنني أريد أن أترك شيئًا ما يتذكرني به الناس».

«قاضي صاحب. ماذا تقترح تحديدًا؟» سأل يوسف بحرص.

«بإمكاننا تسيير هذه القضية بنحو أفضل مما سارت عليه قضيةُ كابول، حتى وإن كانوا من العاصمة. أتعرفان ماذا فعلوا في تلك القضية؟ حين فرّغوا العقوبات من محتواها وخففوا الأحكام، لم يستشيروا النيابة، ولم يخطروا أهل المجني عليها. لاحظ الناس ذلك. *تحدثوا* عنه. أنا لن أتصرف مثل هذا القاضي. إن كان الناس سيلاحظونني أو يتحدثون عني أريد أن يكون ذلك لسبب جيد».

«حسنًا، لكن إن كان الأمر كذلك، فمن الأفضل نقل خانوم زيبا من المقام، إن أردنا لهذه القضية أن تغدو سابقة جيدة. لا يمكننا

ترك المتهمة تتضور جوعًا في مقام قديم. لقد تحدثت مع رئيس المستشفى المحلي -سيدي القاضي- وهذه ليست طريقة لعلاج الخلل العقلي».

أومأ وكيل النيابة في موافقة نادرة. فرد القاضي نجيب ساقيه المعقودتين ومال إلى الخلف في كرسيه. مرر مسبحته بأصابعه، وصل إلى منتصفها قبل أن يرد على يوسف.

«أعرف. أيها السيدان المحترمان، لا واحد منكما رأى ما رأيته، خاصة في العشرين سنة الماضية. إن عملي ليس سهلًا. عليَّ الموازنة بين التقاليد والتقدم في بلد يشك أهله في كل شيء. نحن نكره دوام الحال بقدر ما نكره التغيير. أتعرفان ما المشكلة الحقيقية في الفساد؟ ليس المال الذي تدفعه لتسيير أمورك. يمكنك اعتباره نفقات معيشة. المشكلة هي أننا جميعًا دُمى. لدينا جميعًا خيوط في رؤوسنا وأذرعنا يتحكم فيها شخص آخر: الروس، الأمريكان، زعماء الحرب، الشيوخ، طالبان. من ذا الذي ليس عميلًا لجهة ما؟ أنت يا يوسف، سيدعونك الجاسوس الأمريكي، أرسلوك إلى هنا لإفسادنا بقوانين الغرب. لقد مكثوا طويلًا جدًّا. انسحبوا مبكرًا جدًّا. قتلوا أناسًا أبرياء. تخلصوا من طالبان. كانت مهمتهم برمتها بلا طائل. نحن الشعب لسنا على قلب واحد».

«مع احترامي سيدي القاضي، أنا أختلف معك» قال يوسف. «أنا متأكد من أنني لست دمية أحد ولا أظن أن زميلي هنا كذلك أيضًا. أعتقد أن الكثير يعملون من أجل مصلحة البلد والشعب. أعتقد أننا جميعًا نريد الشيء نفسه».

«في النهاية يا يوسف لن يثق بك أحد. إنهم بالكاد يثقون بي. إن كنت لا تفهم ذلك الآن، ستفهمه سريعًا».

تنهد يوسف بعمق. إن القاضي محق وهو يعرف هذا. رأى ذلك في نظرات حارسات السجن، في رفض أهل القرية فتح أبوابهم له بأكثر من شق رفيع، في نظرات سائق التاكسي إليه في المرآة.

«لكن الآن اذهب إلى المقام وأعد زيبا إلى شيل ماهتاب. أعرف كيف حالها الآن». توقفت المروحة عن الحركة. ثبتت في اتجاه واحد، تكت وأزت بلا جدوى، بالكاد يمكنها تحريك صفحات دفتر ملاحظات يوسف. لم يبد على القاضي أنه لاحظ. واصل: «سأفكر في هذا الأمر بعض الوقت، ثم سأتحدث مع حكيمي لأرى إن كان قد جد جديد في القرية».

غادر يوسف مكتب القاضي وتوجه إلى الحمام مباشرة. بلل منديلًا ورقيًا ومسح وجهه وعنقه. أخرج من حقيبته زجاجة قطرة العين، هزها، ومال برأسه إلى الخلف ليلتقط القطرات بين جفنيه. طرف بعينه سريعًا، يستشعر برودة القطرات وهي تسيل من بين أهدابه على خديه كالدموع.

الفصل 40

راقبت جلناز من بُعد، تمنت لو كان بمقدورها الرؤية عبر جدران البيت الخارجية. لا سبيل لمعرفة من في الداخل، زاد خوفها إلى حد كبير وهي جالسة في سيارة الأجرة.

أغمضت عينيها وتخيلت حفيدها وحفيداتها. بصير يشبه خاله رفيع بشكل غريب. كانت أحيانًا وهو رضيع تخطئ وتناديه باسم ابنها. تعرف أن هذا حنين قلبها إلى حين كان يمكنها لف ذراعيها حول طفل وتنفس عبير شعره الدافئ من الشمس أو الشعور بجسده يستقر تمامًا في حضنها. كان أطفال رفيع نعمة، لكنهم ابتعدوا عنها بسرعة. تعرف أن هذا بسبب أمهم. تتسامح شكرية مع وجودها وتتصرف كما ينبغي للكنّة الجيدة، لكنهما لم تكونا بالقرب الذي تتوق إليه جلناز. تعرف شكرية أنها لن تحل محل زيبا أبدًا، وقد أبقتها جلناز على مسافة ذراع منها، كأن فعل أي شيء آخر قد يعد خيانة لابنتها.

لا خيمياء يمكنها تغيير الماضي. لا يوجد سوى الأيام القادمة، طالت أم قصرت. لا يوجد سوى الأمل في انبعاث جمرة من الرماد وعودة الحياة مجددًا. لذلك، ستقف أمام بيت تامينا وتطرق بابها. أرادت أن تنتظر وقتًا أطول، لكن الشمس حامية وليس من اللائق أن تتجول سيدة في مثل سنها في حي غريب في هذا الوقت.

توجهت إلى البيت، تحدد كلماتها مع كل خطوة. طرقت البوابة وتراجعت إلى الخلف، عدلت طرحتها وفردت ظهرها. مسحت

حبات العرق عن شفتها العليا بمنديل قماشي وأعادته إلى حقيبة يدها السوداء المعلقة بمرفقها.

سمعت صوت خطوات وصيحات. لم يحدث قط في جميع المرات التي طرقت فيها باب ابنتها أن سمعت صوت الفرح الطفولي، علامة أكيدة على أن زيبا وبصير والفتيات كانوا يخجلون بشدة من الزيارات. كانت زيبا دائمًا ما تفتح الباب بمقدار شق صغير، بما يسمح لها برؤية الطارق فحسب. وكان الأطفال يسترقون النظر من النوافذ أو الرواق الداخلي. كانت زيبا تتراجع على مضض وتسحب الباب المعدني لتفتحه على اتساعه بصرير. يتواطأ الباب هو الآخر معها في الممانعة.

كانت جلناز تعرف أن شيئًا ما خطأ، لكنها لم ترَ سوى جزءٍ صغيرٍ من الصورة. ترتعش للتفكير في قدر ما لم تره.

«سلام»، قالت فتاة صغيرة في سن كريمة تقريبًا. كانت الشمس خلف جلناز؛ ما جعل الفتاة تضيِّق عينيها وتلوي نصف فمها في ابتسامة جانبية تحتفظ بها للغرباء.

«وعليكم يا صغيرة». حاولت جلناز اختلاس النظر خلف الفتاة بسرعة. بدا الفناء الصغير نظيفًا. لا أثر لأي فوضى. «هل أمك موجودة في البيت. جئت لزيارة أحفادي. بصير والفتيات، هل هم هنا؟»

«نعم يا خالة جان»، أجابتها الفتاة بأدب.. أشارت إليها بالدخول بحركة واحدة واسعة من ذراعها. «تفضلي بالدخول».

«لا أريد إزعاجكم»، قالت جلناز. «أرجو منك أن تناديهم، سأنتظرهم في الخارج هنا».

ارتبكت الفتاة. كانت في العاشرة من عمرها تقريبًا وتعرف جيدًا أنه لا يجوز ترك سيدة كبيرة تقف في الشارع. أفسحت بجسدها وحاولت مرة أخرى.

«أرجوك خالة جان، لا يوجد إزعاج. تفضلي بالدخول وسوف أناديهم. إن الشمس شديدة عليكِ».

تناهى من البيت صوت ضحكات. دفع ذلك جلناز لتتقدَّم رغم كرهها دخول بيت أخت كمال. قد تطردها في أي لحظة. خرجت تامينا لترى من القادم ما إن دخلت جلناز الفناء. كانت تجفف يديها في تنورتها ولم تميز جلناز على الفور. احتكت كتفها بأفرع شجرة كمثرى قليلة الأوراق. توقفت فجأة حين عرفت الزائرة.

«تامينا جان»، قالت جلناز بهدوء. «معذرة لقدومي فجأة هكذا».

اتسعت عينا تامينا وتباطأت أنفاسها. وقفت ساكنة تمامًا.

كانت مهمة جلناز أن تملأ الصمت بتوضيح سبب زيارتها.

«أنا هنا لأرى أحفادي فقط. لا أريد التسبب بإزعاجك أو إزعاج أسرتك بأي شكل. إنه لكرم منكم رعايتهم بعد ما حدث لأخيك، رحمة الله عليه».

ظلت تامينا جامدة، فكرت جلناز في الانصراف. لن تتوسل، لكن الموقف مختلف. تعرف جيدًا جدًّا أن ابنتها قتلت شقيق تامينا الكبير والوحيد. يحق لعائلته الأخذ بثأره، حتى وإن لم يحكم القضاء في الأمر بعد. أخذت نفسًا عميقًا وواصلت كلامها.

«لم يخطر لي قط أن يحدث كل هذا السوء لهذه الأسرة، خاصة الأطفال. إنهم أرواحٌ بريئة. هل يمكنني رؤية بصير والفتيات من

فضلك، لا أريد أن أزعجكم. يمكنني أخذهم لنتمشى قليلًا في الخارج لئلا نزعجك أنت أو أطفالك».

نظرت جلناز إلى البيت سريعًا. تصلها الأصوات من الداخل، أصوات حديث وضحك. تمنت ألا يكون زوج تامينا في البيت. لا تريد مواجهة أخرى مع أحد من هذه العائلة.

«مادر جان»، قالت الفتاة الصغيرة بهدوء. «هل أنادي بصير والآخرين؟»

أخذت تامينا نفسًا عميقًا وهزت رأسها.

«أنا لا أصدق أنك جئت إلى هنا»، قالت تامينا بصوت طحنه الغضب. «لقد سافرت طريقًا طويلة لرؤية أحفادك».

تنحنحت جلناز وقالت:

«بالفعل».

دائمًا ما يندهش الآخرون من سفرها مسافات طويلة، كأن المسافة الفيزيقية هي أكبر مشاكلها.

«ماذا يجعلك تظنين أنه لا بأس بقدومك إلى هنا... في بيتي؟» نظرت تامينا إلى ابنتها وأشارت إليها بدخول البيت. انصرفت ابنتها دون اعتراض، تعرف أنها إن أرادت مواصلة الاستماع لهذه المحادثة فعليها ذلك من الداخل. تحركت تامينا. سارت خطوات عدة نحو جلناز، وقفت على مسافة قريبة منها.

«لست هنا سوى لرؤية أحفادي»، كررت جلناز بهدوء. رفعت يديها بإشارة استسلام. «لست هنا لتبرير أي شيء أو توصيل رسائل اعتذار. لن أزعجك بأي كلام فارغ للعزاء».

«عـزاء؟» رددت تامينـا باحتقـار. وضعـت يديهـا فـي خصرهـا وهزت رأسـها. طرحتهـا منسـدلة علـى عنقهـا. «لسـت بحاجـة إلـى عزائـك. أريـدك أن تغـادري بيتـي. مـاذا سـيقول النـاس؟ مـا زال جثمـان أخـي لـم يتحلل فـي قبـره وأنـا أقـدم الشـاي لأم قاتلتـه فـي بيتـي؟»

«تامينـا جـان، لا أحـد يعـرف أننـي هنـا. لا أحـد مـن عائلتـي ولا حتـى ابنـي. وجيرانـك لا يمكنهـم الرؤيـة عبـر الجـدران».

«الجـدران مفتتـة كأكيـاس الشـاي»، انفجـرت تامينـا، «أتعرفيـن مـاذا حـدث فـي هـذه البلـدة؟ أتعرفيـن مـا يقولـه النـاس عـن أخـي ومـاذا فعـل هـذا بعائلتنـا؟ يقولـون إنـه كافـر، إنـه حـرق المصحـف، أسـتغفر الله!»

قرصـت تامينـا شـحمتي أذنيهـا بأصبعيـن وتطلعـت إلـى السـماء، طريقتهـا فـي الاسـتغفار لترديدهـا تلـك الكلمـات الفظيعـة.

صُعقـت جلنـاز. لـم تسـمع بشـيء كهـذا مـن قبـل، لـم يمـضِ أسـبوعين علـى تحدثهـا مـع زيبـا أو يوسـف. هـل حـدث ذلـك حقًّـا؟

«أنـا.... أنا لم أسمع كلمة واحدة عن...»

«هـذا مـا يقولـه النـاس هنـا فـي هـذه القريـة. ينظـرون إلـيَّ الآن كأننـي أنـا مـن ناولتـه عـود الثقـاب. لـم أسـمع عنـه شـيئًا كهـذا مـن قبـل قـط! أيًـا كان مـا فعلـه، لـن أدع ذنوبـه تمـس أبنائـي. صـرت أخشـى الخـروج بأطفالـي مـن بيتـي. تلطـخ اسـم عائلتنـا بالعـار! لا يتحدثـون مـع زوجـي، وأختـي تعيـش بالعـار بيـن أهـل زوجهـا. أغرقـوا جدراننـا بالبصـاق واللعنـات. إنهـم يكرهوننـا، كأن لـي أي صلـة بجنـون أخـي. مـاذا تريديـن أيضًـا؟ مـاذا أيضًـا؟»

ثارت ثائرتها الآن، فاض بها الكيل وتثاقلت أنفاسها إلى حد أن رأت جلناز ارتفاع وهبوط صدرها تحت عظمتي ترقوتها. تكورت يداها في قبضتين مشدودتين.

«لم أكن أعرف»، غمغمت جلناز، غطت وجهها بيديها. سقطت حقيبتها على الأرض بضجة مكتومة ومهزومة. وضعت إصبعين على فمها. عليها إعادة النظر إلى الخطة. لن يجدي أحفادها شيئًا أن تنكز راعيتهم بعصا. «لم يكن صوابًا أن أتيت».

التقطت حقيبتها عن الأرض، آلمها ظهرها.

«أنا أطعم أطفاله طعامنا نحن. أجئتِ إلى هنا لتشكريني أم لتتفقدي ما أفعله؟ اذهبي بلا رجعة! إن كنت تهتمين بهم فدعيهم وشأنهم!»

توقعت جلناز أن تتلقى قبضتي تامينا على ظهرها وهي تغادر الفناء بسرعة. سمعت صرير الباب ينغلق خلفها وسارت حتى نهاية السور دون أن تتوقف لمسح دموعها عن خديها. متى كانت ضعيفة هكذا؟ متى فقدت السيطرة على كل شيء في حياتها؟

وقفت واستندت بظهرها إلى جدار طيني. يمر الشارع الصغير بشارع عمومي يعج بالمحلات وضجيج السيارات. مرت بها سيارة تويوتا كورولا، أبطأ السائق ليلقي عليها نظرة جيدة وهي تخطو بتثاقل في الزقاق. وضعت طرف طرحتها على أنفها وفمها وأطلقت أنة طويلة خافتة غرقت في صخب البلدة.

كانت قريبة جدًا من أحفادها. أكان قرارًا سليمًا أن غادرت ولم تصر على رؤيتهم؟ ربما تامينا في حاجة إلى مزيد من الوقت. ربما سيهدأ غضبها حين تهدأ الشائعات عن أخيها.

تخيلت إحباط زيبا. أرادتْ جلناز أن تعانق الأطفال وأن تخبرهم بأن أمهم تفكر فيهم طوال الوقت. تعرف أن أكثر ما تخشاه زيبا أن تنظر إليها فتياتها كما كانت هي تنظر إلى أمها، تخشى اليوم الذي سينظرن فيه لها ببرود أو يرفضن فتح الباب لها حين تزورهن، إن قُدِّر لها ذلك.

ما زالت زيبا في المقام. تساءلت جلناز عما قاله لها الملا بعد أن غادرت. لم تستطِع مواجهتها حينها. على الأقل وعدها الملا، رغم كل شيء، بأن يعتني بزيبا جيدًا.

لم تسمع وهي مستغرقة في أفكارها صوت خطوات خلفها. حين لمستها يد، جفلت وتراجعت.

«بيبي جان».

أطلقت شهقة صغيرة. حدَّقت في وجه الفتى قبل أن تمد يديها لتلمسه. حدق إليها بدوره وانتظرها حتى تتحدث.

«بصير...»

لم تستطِع قول شيء آخر قبل أن يغص حلقها بشدة إلى حد أبطأ أنفاسها. لمست كتفيه بتردد. طرف بعينيه، ببطء، دون أن يتراجع. جذبته إليها بعد أن سمح لها بهذه الإيماءة الصغيرة وأمسكت وجهه بين يديها. أغمض عينيه، فسالت من عينيه دمعتان ساخنتان.

«حفيدي الغالي». أزاحت شعره عن وجهه. قبلت جبينه وأحست بشعيرات وجهه تقشعر لملمس شفتيها كما حدث ذات مرة مع رفيع.

طوال حياتها لم تنفصل عن طفليها قط. ظلا دائمًا إلى جانبها، خاصة حين اختفى أبوهما. شعرت أحيانًا بأن غيابه خير لأنه وطد علاقتها بهما. لا يوجد شخص آخر ليعيد النظر في قراراتها. أو لتبدو حادة بالقياس إليه. أدركت الآن، بأثر رجعي، كم كان سهلًا نسبيًا أن تسدل الستائر لتنأى بعالمهم الصغير عن العالم.

«بيبي جان، لم أظنك ستأتين».

هزت رأسها.

«بالطبع سآتي. أنا جدتكم»، قالت بهدوء. «أيًا كان ما حدث أو أينما كنتم فلن أدير لكم ظهري أبدًا. أمك أيضًا قلقة عليكم جدًا».

«أعرف»، قال. «لقد... لقد ذهبت لرؤيتها».

«أخبرتني بذلك».

رفع بصره إليها فجأة.

«هل ذهبتِ لرؤيتها؟»

«نعم. وكانت سعيدة جدًا لأنها رأتك على الأقل. إنها مسافة طويلة من هنا ورحلة خطرة بالنسبة إلى فتى».

عبس لوصفها له بفتى.

«كان عليَّ أن أذهب».

«ظننت هذا»، وافقته. «كان لديك أسئلة، أليس كذلك؟ هل أجابتك؟»

«ليتني لم أسألها عن شيء»، أقر بصير كارهًا. هرش رأسه، لا يريد مشاركة ما أخبرته به أمه. بدا كعار شخصي، كأن جدته قد تصفعه لخطايا أبيه. كان هذا العار ما جعله يصدق كل كلمة من كلمات أمه حتى مع انفجاره بالغضب تلك الليلة.

«أنت محق في طرحك أسئلة، ومحق في خوفك الشديد من الإجابات. لقد منحك الله أبويك، لكن لست مؤولا عن شيء مما فعلاه»، قالت بتوكيد. لن تكرر على مسامع الفتى اسم خطيئة أبيه.

أومأ برأسه، لا يجرؤ على رفع عينيه في عيني جدته.

«عمتك تامينا غاضبة مني بشدة لمجيئي دون اتصال. معها حق في غضبها بعد ما حدث لعائلتها».

«لقد ظلت تبكي كثيرًا».

تنهدت.

«لقد فقدت أخاها». قالت ببساطة.

رفع بصره إليها. حاجباه منعقدان باعتراض.

«لست متأكدًا من أن هذا هو سبب بكائها. تقول أشياء حين تحزن... تقول... تقول إن أبي لم يجلب شيئًا لعائلته سوى المتاعب».

«إنها حزينة. أتمنى ألا يطاوعها قلبها في التنفيس عن غضبها عليكم أنت وأخواتك».

«إنها طيبة معنا أغلب الوقت. أخبرتُ أمي بهذا أيضًا».

«أغلب الوقت؟» لفتت العبارة الصغيرة انتباهها، ومزقت نياط قلبها كأظفر شبك بقماش شيفون.

«نعم، إنها طيبة».

«لقد قلت أغلب الوقت».

رفع كتفيه فانتظرت بصبر أن يتحدث. شيء ما في طريقه للطفو على السطح، وهي تريد أن تسمعه. ملأ ضجيجُ الشارع الصمت فيما يختار كلماته بحرص.

«أنا... أشعر بأنها غاضبة مني. لا تدعني أقترب من فتياتها وأحيانًا لا... تدعني أقترب من كريمة وشابنام حتى. تبقيهن جميعًا في غرفة واحدة معها ليلًا. إنهما خائفتان بيبي جان. أعرف أن عليَّ رعايتهما هما وريما، لكنها تتصرف كأن... إنها تصرخ فيَّ أحيانًا لأبتعد عنهن. الأسهل عليَّ أن أترك البيت. لهذا لم تلحظ حتى أنني ذهبت إلى المقام لزيارة أمي. أنام في الفناء أغلب الليالي، لكنني لا أمانع. أنا لا أقصد الشكوى».

كان ينطق كلماته بحذر، كأنه يخشى ازدياد موقفه سوءًا.

عضت شفتها. تذكرت ما قالته تامينا في تلك الدقائق الغاضبة القليلة.

«يا الله يا رحيم»، تنفست ويدها على فمها. أدارت ظهرها له كأن الحقيقة لطمتها. لم يكن غضب تامينا حزنا على كمال. لم تنم كلمة واحدة من كلامها عن فقده أو قتله غدرًا. عاشت معه طوال حياتها قبل الزواج، ولا يغضبها سوى ما حاق بعائلتها، وليس بأخيها.

لا تثق ببصير لأنها لا تثق بابن كمال. تامينا لا تحب أخاها. كان كيانها كله ينضح بكراهيتها له بنحو كان يجب أن تلحظه جلناز، لكنها لم تصدق أن الشر قد يضرب بجذوره عميقًا إلى هذا الحد. كيف كانت عمياء هكذا؟

راقبها بصير بصمت. ليس خطأه أن الذنب يلقي بظلاله عليه، أرادت أن تخبره بهذا. إنه انعكاس لون السماء فقط. ليس لبصير أي علاقة به.

«بيبي جان».

أومأت برأسها. إنها الحقيقة. لطالما ظلت كذلك. كيف كانت حياة زيبا؟ وحفيداتها؟ شعرت بالإعياء، لو فكرت في هذا لدقيقة واحدة أخرى قد تُفرغ ما في معدتها على أرض الشارع.

تنحنحت وكبحت دموعها. نظرت إلى بصير وهو يمسح عينيه براحتيه برزانة ما أمكنه. ما قدر ما يعرفه حقًا؟ ما قدر ما يشعر به من... من هذا الإعياء؟

«علينا أن نعيدك»، قالت وهي تحيط كتفيه المتهدلتين بذراعها بحب. مال برأسه عليها كما قد يفعل مع أمه لو كانت هنا في هذه اللحظة. تامينا تؤتمن على أحفادها بالطبع. لن تدع شيئًا يحدث لهم. لن تسمح لكمال بالخروج من قبره لتدمير حياتها. ليس مرة أخرى.

الفصل 41

استيقظت زيبا بشعور أن أحدًا ما يقف أعلاها.

«زيبا جان، ماذا بوسعي سوى الدعاء لكِ؟» همسَ ظلٌّ. «جلناز محقة، رغم أسفي لهذا، لكنه ليس مكانًا مناسبًا لكِ».

شعرت بلسانها في فمها ثقيلًا وسميكًا.

«أنت... ماذا تريد من أمي؟»

«اشربي هذا»، قال الملا وهو يناولها صحن حساء. سمعت صلصلة العظم في الخزف، تصاعد البخار الساخن المشبع بالدهن إلى وجهها. قرّب الملا الصحن من شفتيها وجفل حين أبعدته عنها بعنف. لم تر ملابسه في العتمة لكنها عرفت أنها تبللت بالحساء الساخن، امتزجت رائحة الملح والبصل برائحة عرقه.

توقعت أن يضربها، أو يشدها من شعرها لأعلى كما يحمل الطفل دميته. لكنه لم يفعل شيئًا.

«ماذا فعلت لأمي؟» سألته. ظل سؤالها بلا إجابة منذ أن رأته آخر مرة.

«ليت الأمور سارت على نحو مختلف. أنا رجل كبير الآن وحين أنظر إلى عائلتي أتساءل إن كنت قد اتخذت القرار السليم لصالح أبنائي. ما زلت لست متأكدًا».

«أبنائي»، همستْ زيبا، تتحدث إلى الليل وليس الملا. «ابنتي ريما يجب أن تسير خطواتها الأولى وهي تمسك بيدي».

«ربما تكون قد ركضت الآن». تنهد حبيب الله. «للأطفال طريقتهم في مواصلة العيش حتى بعد فقدان أحد أبويهم».

هذا القول، فكرت زيبا، من الحماقات التي لا يتفوه بها سوى الرجال.

«إن ابنك يبدو راضيًا. إنه يتبعك. يحترمك، والأهم من كل هذا، لا يخافك. لهذا ظننتك رجلًا محترمًا قبل أن تتجرأ وتمد يدك على أمي».

ظل صامتًا. يلقي قمر أحدب متناقص بشرائط ضوء من السماء. جلس متكورًا عند فتحة زنزانتها، يضغط عينيه بإبهامه وسبابته.

«أنا عجوز»، قال أخيرًا. «عجوز جدًا ومنهك جدًا لأكون أي شيء آخر. إن أمك تبدو كأنها أختك. إنها الوحيدة في البلد كله التي لم يمسسها الزمن. لست مدهوشًا. إنها صامدة، كالجبال».

«وتجرؤ على التحدث عنها كأنك تعرفها».

«كنت أعرفها جيدًا ذات يوم من الأيام. كانت عروسي ذات يوم».

نهضت تجلس. إن كان هذا حلمًا. فعليها نفض نفسها لتخرج من قبضته قبل أن تتوغل فيه.

«ماذا تقول؟» سألته بصوت مرتعش.

أومأ برأسه بكآبة. حدقت فيه وهي تعود إلى الخلف في الزمن، استبعدت لحيته وفوديه الأشيبين. نظرت في عينيه وتتبعت شكل أنفه وكتفيه.

«أنت لست... لست ميتًا؟»

«ليس بعد، بنيتي»، أجابها بفتور. تسارعت دقات قلبها. كتمت صرخة ومنعت نفسها من وضع يديها على وجهه. ركزت على

تنفسها، أغمضت عينيها وهي تهمس بالسؤال الذي سألته مرارًا وتكرارًا.

«أين كنت؟»

تساءلت إن كان سيقول اسم مكان واحد، وكأن الموقع الجغرافي قد يبرر بأدنى قدر غيابه عمرها بكامله.

«ذهبت إلى كل مكان. ارتحلت».

«لقد دعوت الله لك».

فكرتْ في عدد المرات التي شخصت ببصرها فيها إلى الجبال نحو الشرق وفكرت في الأربعمئة والثلاث والعشرين خطوة طول الجسر الخشبي المتهالك الذي يصل بين إقليمهم والإقليم المجاور. مات الكثيرون هناك، عرفت هذا وهي طفلة، زلت أقدامهم أو جمدهم الرعب. كانت تتضرع إلى الله ألا يسقط أبوها في قاع هذا الوهد.

«تحتم عليَّ أن أغادر يا زيبا. كان ذلك أفضل ما يمكنني فعله لتحريرنا نحن الاثنين».

«الولد.... لديك أسرة الآن؟»

رفع كتفيه.

«فعلتُ ما قد يفعله أي رجل آخر. تزوجت وبدأت حياة جديدة».

طرفت عينا زيبا سريعًا. بدا الأمر سهلًا جدًّا، مثل إغلاق كتاب ووضعه جانبًا وفتح كتاب آخر. لكنه منطقي أيضًا، لم تكن مختلفة تمامًا عنه. أدرات هي الأخرى ظهرها لجلناز.

بزغ في صدرها نور جديد رائع. تنهدت. بدا أنها مجنونة بقدر ما جعلها أبوها وأمها كذلك.

«غنِّ لي»، قالت للرجل الذي هجرها منذ وقت طويل مضى. بدا طلبًا صغيرًا إلى أن تقرر: أتحبه أم تكرهه.

كسر صوته، المفعم بالحنين والمشوب برعشة خفيفة تشي بسنه، صمت ليل القلوب المنهكة. كانا كائنان بائسين ذابت المسافة بينهما تحت لمعان النجوم. دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر.

«الليلة سأخبرك بأحزاني»، غنى بصوت أجش. *«وغدًا ستنسى كل شيء»*.

لمس قمة رأسها. أراح إبهامه على منبت شعرها في منتصف جبهتها، فشعرت بأنه وصل لروحها.

سبحت أغنيته في الليل. كانت اعترافًا. دعاء. غنت معه ودموعها تسيل على خديها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل 42

أنهى يوسف لتوه الاتصال برفيع، شقيق زيبا. سُرَّ لسماعه أن أخته ستُعاد إلى شيل ماهتاب بعد أن قضت نحو ثلاثة أسابيع عند الملا. أقسم ليوسف أنه كان يريد أن يزورها هناك، لكنه لم يستطِع ترك زوجته وهي على وشك ولادة طفلهما الرابع في أي لحظة. لاحظ يوسف نبرة الشعور بالذنب في صوته لكنه لم يكن متأكدًا إن كان في موقع يمكنه منه مسامحته أم لا. لكل رجل خياراته.

كان يجلس في غرفة المقابلة في شيل ماهتاب في انتظار أسما، الحارسة التي ستذهب معه إلى المقام لإحضار زيبا. كان يلعب بهاتفه الخلوي حين رأى لطيفة تقف في الرواق. ميز شريكة زيبا في الزنزانة، رآها تنظر إليه مباشرة، فحياها بإيماءة صغيرة من رأسه. حين فعل ذلك فتحت الباب وأدخلت منه رأسها.

«أنت محامي زيبا»، قالت فجأة.

«نعم»، قال بحذر. «أتحتاجين إلى شيء؟»

«متى ستعود؟ نحن نعرف أنهم أرسلوها إلى مقام ما للمجانين، وهذا فعل غبي. أتعرف لماذا هذا غباء؟» لم تنتظر ليجيب. «لأنها ليست مجنونة، إنها قوية ونحن بحاجة إليها هنا. متى ستعود؟»

«سريعًا»، قال مترددًا لا يريد الخوض في تفاصيل. «لقد وافق القاضي على عودتها».

«حقًّا!» قالت بغضب، شعور ما حارٌ يعتمل بداخلها، من نوعية الغضب الذي أحدث الانبعاج في باب زنزانتهن. «حسنًا، ظني أنك ترى أن هذه أخبار جيدة، لكن هذا لا يعني سوى أنه اكتفى

من اللهو. لقد حكم على امرأتين هنا بالإعدام. إنها مسألة وقت فحسب».

«هذا لا يعني أنه سيحدث لزيبا أيضًا». أجابها بحذر.

«ما دام ظل القضاة رجالاً، لا شيء سيتغير».

شعر فجأة بالرغبة في الدفاع عن جميع الرجال.

«لقد رُشِّحت سيدة للعمل في المحكمة العليا الأسبوع الماضي. قد تتغير الأحوال».

«ألم تسمع ببقية الأخبار؟» ردت عليه. «لقد رفضوها لأنها تنزف مرة شهريًا».

كان قد سمع بهذه الأخبار بالفعل. على قاضي المحكمة العليا أن يلمس المصحف يوميًا، كما قال أحد أعضاء البرلمان. كيف لسيدة أن تعمل قاضية في حين لا يجوز لها لمس المصحف أسبوعًا كاملًا كل شهر؟ جعله هذا المنطق يشعر بالقرف. قذفت أنيسة بكتاب من أعلى مكتبها حين قرأت هذا على الإنترنت. كانت ما زالت غاضبة حين غادر يوسف المكتب ذاهبًا إلى شيل ماهتاب.

«في الواقع»، قال وهو يضع هاتفه على الطاولة ويحول انتباهه كاملًا إلى لطيفة. «أنا ذاهب اليوم لإعادتها. لكن ما الذي يجعلك تقولين إنها قوية، أريد أن أعرف».

كان شعرها مسحوبًا إلى الخلف في ذيل أرنب منفوش. مدت يديها إلى الخلف، نزعت الرباط وفرقت شعرها نصفين ثم ضمتهما معًا بقوة. شعر يوسف -الذي قضى حياته في غرفة واحدة مع أختين- بهفوة حنين إلى أهله، أمام تلك الحركة المألوفة لديه.

«أنت لا تعرف ماذا فعلتْ زيبا للنساء هنا»، قالت وحاجباها يرتفعان بتوكيد. «حلت لهن المشكلات التي تُعجز النساء عن النوم ليلًا. لم أرَ شيئًا كهذا في حياتي من قبل».

«ماذا تعنين؟»

«إنها مثل أمها أو أفضل حتى. لم أصدق الأمر في البدء. أنا لا أومن بالسحر في العادة، لكن هذه أول مرة أرى بنفسي. هل ستعيدها إلى هنا اليوم حقًّا؟»

«هذه هي الخطة»، قل وما زال يفكر في ما قالته. ثم أردف «هل مارست زيبا نوعًا ما من السحر الأسود هنا في السجن؟ ماذا تعنين بأنها أفضل من أمها؟»

«أفضل من أمها الساحرة»، قالت ترسم الكلمات في الهواء. حين أدركت أنه لا يعرف شيئًا عن هذا، زادت ثقتها وتقدمت لتدخل الغرفة. «أنت تعرف أن أمها ساحرة، أليس كذلك؟ لا تخبرني بأنك لم تكن تعرف».

سعل قليلًا. يبدو أن زيبا وأمها قد أثرتا في السجينات إلى حد بعيد. لم يدهشه سماعه أن جلناز ساحرة.

«أنا هنا للتعامل مع أمور أخرى»، قال بهدوء.

«أوه، أنت مخطئ لاستهانتك بهذا يا سيدي»، قالت توبخه ويداها في خاصرتها العريضة. لاحظ حينها أنها ترتدي تيشيرت أصفر عليه صورة ويني الدبدوب. شكّت أنه ينظر بدهشة إلى صدرها السمين، في حين كان ينظر إلى إناء العسل الذي يمسكه الدبدوب، بهت وصار ذكرى بالية. أذهله دب الرسوم المتحركة ذاك، رمز حواديت الأطفال الرقيقة، كشكل غريب خاصة على

جسـد سـجينة. «إن أسـوأ مـا تفعلـه ألا تصـدق فـي السـحر. أخبـر زيبـا أن النسـاء فـي شـيل ماهتـاب فـي انتظـار الملكـة زيبـا».

«الملكة زيبا؟» كرر وهو يهرش في رأسه. «هل توّجنها ملكة؟»

«أخبرهـا بهـذا فحسـب»، همسـت وهـي تهـز رأسـها بابتسـامة خبيثـة. «ستشـتعل النسـوة بالنيـران حيـن يعرفـن بعودتهـا».

لم تكد تستدير لتنصرف حتـى دخلـت أسـما. شـعرها الأحمـر مجعـد حـول جبهتهـا، مبلـل بحبـات العـرق. سـوت سـترتها وشـيعت لطيفـة بنظـرة، التـي كانـت قـد خرجـت بالفعـل مـن الغرفـة بـرأس مطـرق. صاحـت وهـي تسـير فـي الـرواق ويداهـا مكورتـان علـى فمهـا «لتصحبكمـا السـلامة وليوفقكمـا الله ويعيدكمـا سـريعًا». تـرددت أصـداء كلماتهـا بيـن الجـدران المرقمـة بالأبجديـة. «يـا نسـاء، أخبـار جيـدة! سـيعيدون الملكـة إلـى شـيل ماهتـاب!»

حدجت أسـما يوسـف بنظـرة ذات معنـى، لـم تبدُ مندهشـة بأدنـى قـدر مـن إعـلان لطيفـة الجهـوري.

«جاهز؟» سـألته بإيماءة سريعة نحو الباب.

لم يمنحه ضجيج محرك سيارة السجن ثقة، كـذا غيـاب مكيـف الهـواء. همهمـت المروحـة لكنهـا تحـرك الهـواء السـاخن فـي السـيارة فحسـب. جلـس يوسـف فـي الكرسـي المجـاور للسـائق برأسـه يـكاد يخـرج مـن النافـذة لشـم هـواء محمـل بالتـراب. أغمـض عينيـه. تبقـى لديـه قـدر قليـل فـي آخـر زجاجـة مـن قطـرة العيـن، ولا يظـن أنـه سـيجد شـيئًا مناسـبًا فـي الصيدليـات المحليـة. فَـرش السـيارة بلـون أزرق داكـن كسـماء الليـل معبـأ برائحـة تبـغ قديمـة والكثيـر مـن المـزق والفتحـات. يمسـك السـائق، حـارس فـي السـجن، بمقـود السـيارة

بكلتا يديه وينقر بأصابعه وهو يدندن لحنًا لنفسه. تجلس أسما وحارسة أخرى في المقعد الخلفي.

لا يعرف يوسف ماذا يتوقع. كان القاضي نجيب قد اتصل بالملا صديقه ليخطره بأنهم سيعيدون زيبا. لم يجادله الملا كما هو واضح؛ ما أدهش يوسف. حين توقفت السيارة في الساحة أمام مقر الملا. لاحظ يوسف ستارة نافذة تُزاح قليلًا. خمن، من طوله، أنه ابن الملا. ترجل من السيارة، ونفض رجليه، يشعر بالعرق خلف فخذيه. كان من الحكمة أن ارتدى بنطالًا أسود اليوم.

لم يظهر الملا حتى ترجلوا جميعًا من السيارة. انفتح الباب الخشبي ببطء، وخرج منه بهدوء ليحييهم. رآه الحارس، وضع يده على قلبه تبجيلًا. أومأ الملا برأسه، وتحدث إلى يوسف.

«يا له من موكب لاصطحاب سيدة. لم أتوقع عددًا كبيرًا منكم»، قال بلا ابتسام.

رفع يوسف يده على عينيه اتقاءً للشمس.

«ظننت المديرة أن هذا ضروري».

أومأ الملا برأسه.

«كيف حال زيبا؟» سأل يوسف وهو ينظر إلى صف الزنزانات البعيد. جلس رجلان متربعان في الفناء، تحت الظل الأرقط لشجرة عطشى للمطر. لا علامة على وجود زيبا، ما لا يجب أن يقلقه، لكنه أقلقه. كان يتمنى أن يجدها جالسة على الكرسي البلاستيكي خارج باب الملا، تمامًا كما تركها.

«إنها بخير». أجابه الملا حبيب الله. «إن معنوياتها مرتفعة، لكنك تعرف هذا بالفعل، أنا متأكد من هذا».

«بالفعل».

«أود أن أتحدث معك لدقيقة».

«بالطبع يا ملا صاحب»، أجابه يوسف باحترام. «ثم بعد ذلك سيسعدنا أن نأخذ خانوم زيبا لنعيدها إلى شيل ماهتاب. لقد أصدر القاضي تعليماته المحددة. أنا واثق بأنك تفهم».

«دقيقة فحسب أيها الشاب».

تبادلت أسما والحارسة الأخرى نظرة سريعة قبل أن تسيرا نحو السور المعدني للمقام، حيث ربط المريدون شرائطهم الملونة وبعض القصاصات الورقية حتى. أخرج السائق هاتفه الخلوي وأجرى اتصالًا. قاد الملا يوسف إلى مقره. توترت معدة يوسف قليلًا، لا يطيق الانتظار للمغادرة. كان قد أحضر لزيبا كيس رقائق بطاطس، شطيرة دجاج مشوي وزجاجة مياه، متوقعًا أن تكون في حالة أنيميا شديدة.

لم يمضِ أربعون يومًا. الأرجح أن الملا ليس راضيًا عن مقاطعة العلاج، وبالطبع سيخبر يوسف الآن باعتراضاته التي لم يستطِع التعبير عنها للقاضي. تساءل يوسف إن كان يمكنه الاعتماد على الحرس في استعادة زيبا بالقوة إن اقتضى الأمر.

دخل يوسف الغرفة يحضِّر في ذهنه تفنيدًا لحجج الملا. شرد في أفكاره إلى حد أنه لم يلاحظ زيبا تجلس على الوسادة الأرضية التي جلس عليها يوم جاء إلى المقام لأول مرة. كان أمامها كوب شاي ساخن يتصاعد منه البخار، وصحنين من الخزف، واحد فيه صنوبر والآخر زبيب أخضر.

«زيبا! أنتِ... أنتِ هنا». انطلقت عيناه من موكلته إلى الملا الذي اقتعد بالفعل وسادة أرضية أخرى. جلس على مسافة أقدام

قليلة من زيبا، قريب منها بحيث تكون في متناول أطراف أصابعه لو مدَّ ذراعه. كانت هي تجلس كضيفة في البيت.

تخيل يوسف أن يجدها تتضور جوعًا ومشعثة ومنهكة. كان يعدُّ كل يوم قَضَته في هذا المقام فشلًا شخصيًا له. كان يفكر في زنزانتها الإسبرطية مع كل ملعقة أرز يضعها في فمه. كان يخشى، طوال تلك التسعة عشر يومًا، أن يسمع خبرًا عن موتها جوعًا أو انزلاقها إلى أعماق جديدة من الجنون.

«أأنتِ بخير؟»

أومأت له برأسها.

«جئت لأعيدك إلى شيل ماهتاب».

«أعرف»، قالت وهي تنظر إلى الملا. «عرفتُ بالأمس، أنا مستعدة للمغادرة».

تنحنح الملا وحرك مسبحته العقيق في يده بحركة عفوية. يجلس بإحدى رجليه مثنية وأخرى ممدودة أمامه. يرتدي قميصًا وبنطالًا قطنيين رماديين. لاحظ يوسف، للمرة الأولى فوديه الأشيبين: بقعتين كثتين مجعدتين عند صدغيه تلتقيان معًا في لحية قصيرة عند ذقنه. تساءل كيف قد يبدو الرجل بحلاقة وملابس نظيفة.

«قبل أن تذهبا، أريد أن أعرف ماذا سيحدث لها».

ثبت يوسف نظره على السجادة. يفكر في طريقة مؤدبة لإخبار الملا أن الأمر ليس من شأنه.

«لم يقرر القاضي بعد». أجابه. «الآن إن كان بإمكانك إخباري برأيك في حالتها اليوم مقارنة باليوم الأول، سيسعدني نقل هذه المعلومات إلى القاضي نجيب».

«أنا رجل بسيط»، قال الملا بصوت كئيب. «يأتي إليَّ أشخاص يعانون وعملي أن أجلس معهم، أن أصلي لهم، وأن أساعدهم على إيجاد العلاج. أمراضهم عبء عليهم وعلى أسرهم. أنا أعمل على علاج معاناتهم الجماعية. هذه المرأة»، قال وهو ينظر إلى زيبا بتأمل، «كانت بحال سيئة حين جاءت. كانت تحارب نفر من الجن الشرير، يتحكمون في أفكارها وأفعالها. كانوا ذراعيها ورجليها. ظللت منذ زيارتك الأخيرة أصلي معها ولها. وقد التزمت النظام الغذائي لطرد السموم من جسدها. استخرجت السم من ذهنها. ظني أنها تعافت بقدر كبير، وجدير بالذكر، أنها استطاعت ذلك في فترة أقل من الأربعين يومًا المعتادة».

«تعتقد إذن أنها الآن في حال عقلية سليمة؟» استخلص يوسف.

«أعتقد أن قدرًا كبيرًا من التغيير قد حدث لها في تلك الأيام القليلة. أعتقد أنها الآن تتفهم أمورًا كثيرة بشكل أفضل». كانت عيناه ما زالتا مثبتتين على زيبا التي لم تخجل لتحدثه عنها. رفعت بصرها إليه، وتحرك فمها قليلًا كأنها تهم بقول شيء، لكنها لم تقل شيئًا. شبكت يديها معًا في حجرها.

«زيبا خانوم، إن كنت مستعدة فعلينا الذهاب إذن. أسما وآخران في انتظارنا بالخارج».

أومأت برأسها مجددًا وضغطت بيديها على السجادة لتنهض. بدت ضعيفة لكن ليس بشدة، كان في خديها لون وفي عينيها ضيّ حتى وإن كانت تتحرك كمفصل ينقصه المرونة.

«أتحتاجين إلى مساعدة؟» قال يوسف وهو يمد يده لها بشكل عفوي، لكنها هزت رأسها.

راقبهما الملا قبل أن ينهض عن الأرض ببطء ليصطحبهما إلى الخارج.

«أيها الشاب»، قال وهو يضع يده على ساعد يوسف. التفت يوسف فجأة. لم يتوقع التلامس الجسدي. قال الملا «جاهِد من أجلها أرجوك. ابذل قصارى جهدك في الدفاع عنها، وسيجازيك الله خيرًا. إنها لا تستحق العقاب. إنها سيدة صالحة. ليتني استطعت مساعدتها بقدر أكبر».

استدارت زيبا ونظرت إلى الملا. في عينيها حزن، وليس الغضب الذي رآه يوسف حين تركها هنا.

«لقد بذلت قصارى جهدك»، قالت له بهدوء. عدلت طرحتها على رأسها، رفعت طرفيها المنسدلين على كتفها بأناقة. «أنا... أنا سعيدة بمقابلتك».

«سأظل أدعو لكِ»، قال وهو يقف بالقرب منها. «ظللت أدعو لك وأنت هنا وسأظل أدعو لك بعد مغادرتك. إن الله على كل شيء قدير. أنت تعرفين قدرته».

شعر يوسف بأنه دخيل أكثر منه محامي الدفاع عن زيبا. أصارت زيبا مؤمنة بالملا؟ هل أثرت فيها صلواته بهذا العمق في تلك المدة القصيرة. كانت يائسة، وربما تشبثت بمعتقداته كروح على وشك الغرق تبحث عن أي طوق نجاة. لاحظ تغيرًا فيها، سكينة لم تكن بها منذ تسع عشرة يومًا. أتوجد بالفعل قوة غيبية ما في هذا المقام؟ هز رأسه وتساءل إن كان هو الآخر تأثر بقوى الملا.

خرج من الباب ونظر إلى زيبا.

«ملا صاحب، شكرًا لك على كل ما فعلته»، قال لأنه كان القول الصائب في تلك اللحظة الخاصة.

أغمض الملا عينيه وأومأ برأسه إيماءة خفيفة، ردًا موجزًا.

سارت زيبا خلف يوسف بخطوات مثقلة.

وقفا إلى جانب السيارة حتى يعود الحرس الذين هرعوا نحو السيارة حين رأوهما يخرجان من البيت. مال الملا إلى الباب الخشبي، ترتاح يداه أعلى بطنه مباشرة وأصابعهما متشابكة.

«وداعًا أبي»، قالت زيبا بهدوء، عيناها تلتمعان في الشمس.

توقف يوسف فجأة ونظر إلى كل منهما. سقط فكه ومال برأسه جانبًا.

«ماذا قلتِ؟» سأل زيبا التي تقف إلى جانبه جوار السيارة.

لم يحرك الملا ساكنًا وظلت عيناه على زيبا. ازداد يوسف يقينًا -بمضي كل ثانية وهما على تجاهلهما له- أن هذين ليسا الشخصين نفسهما اللذين رآهما منذ ثلاثة أسابيع مضت.

«ماذا دعوتِه يا خانوم زيبا؟» سألها مجددًا بنبرة أكثر حدة.

«أبي»، همست زيبا وهي تمسح دمعة عن خدها بحزن. لم تسمح عودة الحرس بأي توضيح آخر. سرعان ما دلفوا جميعًا إلى التويوتا الفضية وانغلقت أبوابها الأربعة على التوالي.

أبوها؟ جلس يوسف في المقعد الأمامي، يقلب الكلمات في ذهنه. هل تعني أباها الحقيقي أم أنه قد غسل مخها تمامًا فنشأت بينهما علاقة غريبة؟ قاوم رغبته في الالتفات إليها وسؤالها. ليست محادثة يريد أن يجريها في حضور الجمهور الحالي.

دار المحرك وعادوا إلى الطريق المترب، يتضاءل المقام والملا خلفهم.

الفصل 43

«لقد عادت يا نساء، عادت الملكة زيبا إلينا يا نساء!»

وقفت سجينة ترتدي ثوبًا مطبوعًا بأزهار خضراء وسوداء أمام زيبا ثم استدارت فجأة لتهتف في الرواق. كن في الرواق المقابل لصالون التجميل.

طرفت زيبا بعينيها مندهشة.

برزت الرؤوس من باب صالون التجميل. امرأة تمسك بفرشاة شعر، وأخرى رأسها مكلل بالبكرات، شهقت حين رأت يوسف وعادت إلى الداخل.

«زيبا جان، لقد عدتِ! الملكة زيبا، كيف حالك؟»

كن يقفن أمامها. تظهر أعداد منهن عند نهاية الرواق فيما ينتشر خبر عودتها كما تتدفق المياه في مجرى النهر. وقفت فتاتان تشيران من بعيد.

«ها هي الملكة»، همست إحداهما للأخرى. «الملكة زيبا. أخبرتني أمي عنها».

«ظننتها مختلفة. أين تاجها؟» قالت الأخرى ضاحكة.

«ماذا يجري هنا؟» قالت زيبا بصوت خفيض ولاهث. لم تكن تسأل يوسف تحديدًا. ذُهلت من اللقب الذي منحنه لها أثناء غيابها ومن الضجة التي تثيرها عودتها.

مال يوسف عليها وقال لها بحدة، «أريد أن أتحدث معك قبل أن تعودي إلى غرفتك».

«بالطبع»، أجابته مشتتة قليلًا من تجمع النساء في الرواق. «أنا فقط...»

«لقد افتقدناك كثيرًا جدًّا! أريد أن أخبرك بما حدث في أثناء غيابك. لقد تغيرت أمور كثيرة جدًّا، والفضل في ذلك لك أنتِ»، قالت شابة.

ابتسمت زيبا بتردد، ليست متأكدة من رد فعلها تجاه هذا الترحاب. أخذت الشابة يدي زيبا وقلبت راحتيها لأعلى، ضغطت بشفتيها عليهما. سحبت زيبا يديها، أزعجتها الإيماءة التي تُستخدم عادة مع العجائز فقط.

«لقد أنقذتني!»

«أنا أنقذتك؟» كررت زيبا. تذكرت ببطء أنها جلست مع المرأة وراقبت ولديها الصغيرين يتململان وهي تحكي قصتها الرهيبة عن كيف حملت بهما.

«نعم! هذا الحجاب الذي أعطيتني إياه» قالت الشابة مشيرة إلى قطعة قماش مشبوكة بدبوس بكم ثوبها. «ظللت أرتديه كل لحظة منذ أن وضعته في يدي».

«ماذا حدث؟» سألتها زيبا.

«تبين أن الملجأ الذي يجب أن يذهب الولدان إليه كامل العدد. ليس لديهم مكان لأي شخص آخر، وعائلتي لا تريدهما. ليس لديهما مكان آخر ليذهبا إليه زيبا جان. كانوا سيلقون بهما في الشارع، ليخطفهما أي شخص ويبيع أعضاءهما أو يحولهما إلى عبدين. تخيلت ملايين الأشياء الفظيعة. لكن منذ يومين فقط، قال مدير السجن أنهما سيحصلان على إذن للبقاء معي عامين آخرين. عامان آخران!»

اتسعت عينا زيبا.

«هذه.... هذه أخبار رائعة!» قالت بهدوء.

«إنها كذلك، والفضل في هذا لكِ. لقد تغير الكثير جدًّا أيتها الملكة زيبا. لقد ظللنا ندعو الله أن تعودي سالمة لنشكرك على كل ما فعلته». ألقت الشابة نظرة سريعة خجلى على يوسف، الذي يزداد فضوله. «ولأريكِ أنني لن أنسى جميلك أبدًا.... انظري ماذا فعلت».

رفعت كمها عن ساعدها، وغمزت قليلا وهي تكشف عن جرح حديث العهد. برزت حروف اسم زيبا باللونين الأخضر والأسود.

شهقت زيبا وسألتها مذهولة

«ماذا فعلت؟» لمست ساعد الشابة بإصبع واحد، مست الحروف بطرفه، وتراجعت بحدة حين شعرت بتورمها. رفعت بصرها، تتوقع أن ترى وجه الشابة يختلج ألمًا، لكن شيئًا لم يحدث.

«طبعت اسمك على جسدي ليؤكد على انطباعه في قلبي. لن أنسى ما فعلته لي أبدًا». كانت تضغط بكلتا يديها أسفل قفصها الصدري، تميل برأسها جانبًا لتبتعد غُرتها عن عينيها المكحلتين. «سأظل شاكرة دائمًا للوقت الذي منحتني وولديّ إياه».

«أوه، أيتها الفتاة الحمقاء!» قالت زيبا ضاحكة. «ماذا سيقول ولداك؟»

«ولداي؟ إنهما محظوظان أنني لم أنقش اسمك عليهما هما أيضًا!» أجابتها الشابة بأريحية شديدة، فشعرت زيبا بارتخاء كتفيها لسعادة تلك المرأة. «كانا يبكيان كلما حدثتهما عن الذهاب إلى

الملجأ. لا يمكنك تخيل سعادتهما لبقائهما معي الآن! إن ماريزا تعلمهما الأرقام الآن، لولا ذلك لكانا هنا لعناقك بنفسيهما».

«الملكة زيبا!» صوت امرأة أخرى. ترددت كلمات المقطع في الرواق، يتبعها موجة ضحك:

«يوجد أمل حتى ولو شاط الأرز

والسجن لعودة الملكة زيبا يهتز!»

تقدمت أربع نساء أخريات بابتسامات وواسعة ووجوه متحمسة.

«أخيرًا! لم تتسنَّ لي الفرصة للتحدث معكِ من قبل. أنا ممتنة جدًّا لأنك عدت. يجب أن تساعديني!»

غمر زيبا فيض من النساء، تركن يوسف يقف في رواق سجن شيل ماهتاب. ضحكت أسما لرؤيته مشدوهًا بفمه الفاغر ورفعت كتفيها قائلة:

«صرن تحت إمرتها الآن بسحرها ذاك، عقدن الأسبوع الماضي جلسة رسم وشوم في صالون التجميل، نقشت عشرات النساء اسمها في مختلف أنحاء أجسادهن» همست بشغف للنميمة.

اهتز هاتفه الخلوي في جيبه. أخرجه ونظر إلى الرقم الذي اتصل به ثلاث مرات خلال الأسبوع الماضي. تجاهل الرد في المرات الثلاث لانشغاله بمحادثة مع القاضي أو أنيسة أو أمه. ضغط الزر الأخضر ليرد، ما زال يفكر في ما يجب أن توضحه له زيبا. هل الملا أبوها حقًّا؟ هل تعرف أمها هذا؟

«مرحبًا؟»

«نعم، مرحبًا. هل هذا رقم محامي خانوم زيبا، السجينة في شيل ماهتاب؟»

كان الصوت لامرأة. تساءل إن كانت من المكتب، لكن أنيسة لم تذكر شيئًا عن اتصال أحد به.

«نعم، من يسأل؟» اختفت آخر سجينة عند طرف الرواق البعيد. تبعتهن أسما، من باب الفضول وليس للسيطرة على تجمعهن حول زيبا.

«أنا صحفية من جريدة الفجر. اسمي سلطانة. أريد أن أطرح عليك بعض الأسئلة عن قضيتها. يسعدني التحدث معك على الهاتف أو في السجن».

تحدثت بثقة واختصار. مؤدبة، مع بعض حدة في صوتها، حين ذكر القاضي نجيب مسألة الصحافة لم يخطر له أن تكون صحفية.

«أوه، أنتِ إذن من تبحثين عن قصة في شيل ماهتاب؟» قال وهو يسير نحو غرفة المقابلة. عليه كتابة تقرير بما حدث في المقام اليوم وتقييم الملا الأخير لحالة زيبا. أغلق الباب، فاختفت ضجة الرواق. ألقى بحقيبته على الطاولة وسحب كرسيًا.

«أنا كذلك. كنت في البداية أبحث عن قصة في جرائم الآداب، لكن يبدو أن موكلتك قصة مثيرة جدًّا والتهم الموجهة إليها جسيمة بالفعل. أتعرف أن نساء السجن مفتونات بها؟ صارت بطلة بينهن».

«نعم، هذا واضح تمامًا»، وافقها، ما زال الهتاف باسم الملكة زيبا يرن في أذنيه.

«ويبدو أن خلفيتها معقدة. كان جدها المرشد ولأمها شخصية مميزة. كيف صارت متهمة بجريمة شنيعة كهذه؟ هل اعترفت

حقًّا بقتل زوجها أم أنك تصر على بطلان اعترافها الكتابي في محضر الشرطة؟

«كيف عرفت كل هذا؟»

«بطرح الأسئلة. أكان اعترافها حقيقيًا أم مُلفَّقًا؟»

أُخِذ بأسئلتها المباشرة. لم تمر دقيقة على بدء مكالمتهما، وقد وصلت إلى قلب القضية بالفعل.

«لقد أكدت بالفعل التساؤل عن مدى صحة الاعتراف»، قال بحرص. قرر أن يستغل التغطية الصحفية لصالحه ما أمكنه. وإن اقتضى ذلك الإشارة بأصابع الاتهام إلى النظام القضائي المتحلل، فسيفعل.

«فهمت. وسمعت أيضًا أنها أودعت في أحد المقامات لعلاج جنونها. هذا ليس إجراءً معتادا في جريمة قتل. أكان ذلك بناءً على طلبك، إرسالها إلى المقام؟ إلى متى ستظل هناك؟»

فك يوسف زر ياقته ودفعها بعيدًا عن رقبته، تجعلها حبات العرق تحتك بجلده.

«إنها ليست في المقام»، قال ببساطة. إن كانت سلطانة تريد المزيد من المعلومات عن المقام، يمكنها البحث عنها في مكان آخر. لن يتحدث عن جنون موكلته بعد أن تبين له أن دفعه بالجنون لا يفضي بها إلى أي مكان.

«لكنها *كانت* في المقام، مقام محلي حيث يعالج الملا المختلين عقليًا بطرق مثيرة للجدل إلى حد ما. لماذا أودعت هناك في حين لدينا منشآت بأطقم عمل من المتخصصين المدربين بإمكانهم تقييم حالتها ومعالجتها بأسلوب علمي؟»

«إنها ليست في المقام»، كرر دون أن يوضح.

«أين هي؟» سألت باهتمام أكبر.

«إنها هنا في شيل ماهتاب. لحين إعداد المذكرات النهائية في قضيتها، وسوف يصدر القاضي حكمه خلال اليومين القادمين». ظل يكافح مع وضع دفاعه النهائي، يمر بعينيه دون رضا على الصفحات المليئة بكتابة بخط يده.

«وماذا تتوقع بخصوص حكم القاضي نجيب؟»

«هذا سؤال للقاضي نجيب»، أجاب يوسف، «لكن أملي أن يضع في حسبانه كل تعقيدات هذه القضية ويصل إلى قرار عادل بخصوص أم لأربعة أطفال. الأفضل أن نعيدها إليهم سريعًا».

«هل تطالب ببراءتها؟»

«نعم»، أكَّد.

«لقد دفعت بعدم سلامة قواها العقلية، مما فهمته. أتعرف أنه لم يسبق أن تقدم محامٍ بالدفع بالجنون في أفغانستان من قبل قط؟ هذا خارج عن المألوف تمامًا».

«أعرف هذا، لكن ظروف القضية غير معتادة والقاضي نجيب حريص على تطبيق قانوني الإجراءات الجنائية والعقوبات الأفغانييّن. هدفنا جميعًا ضمان محاكمة عادلة لخانوم زيبا. كونها سابقة أولى لا يعني أن نخطئ فيها. أمور كثيرة تحدث لأول مرة في بلدنا».

«ظني هذا أيضًا، أنت تتحدث مع الصحافية الوحيدة التي ترحب بتغطية هذا الإقليم».

ابتسم يوسف وهو يشد خيطًا مفكوكًا في حزام حقيبته.

«متى تخططين لنشر القصة؟» سألها.

«حين أشعر أن لديَّ ما يكفي. في الوقت الراهن، توجد امرأة متهمة بقتل زوجها ومحاميها الأمريكي يطالب ببراءتها لأنها مجنونة. ليست بداية سيئة، أليس كذلك؟ مع ذلك، أريد أن أضمّنها كل ما يمكنني. أحيانًا، تتعلق الجريمة في أفغانستان بالشائعات والأقاويل أكثر من أي شيء آخر».

«هذا حقيقي إلى حد كبير». قال بتنهيدة.

«لكنني لا أريد شائعات، فقد تفضي إلى سحقها في الشارع. بل أريد حقائق، والحقائق قد تساعد قضيتك أيضًا»، أكدتْ ثم أوضحت. «قد يحث ما سأنشره القضاءَ هنا على تطبيق القوانين بالنص. وأحيانًا تلفت تقاريرنا انتباه وسائل الإعلام الأجنبية. توجد أعين دولية قليلة مهتمة بقضيتك، والضغط في ازدياد».

«أوه، أنتِ تسدين إليَّ خدمة باتصالك بي إذن!» قال ضاحكًا.

«أنا لا أسدي خدمات. أنا أبحث عن حقائق فحسب»، صححت له. «هل يمكنك إخباري عن زوج تلك المرأة؟ ألديك فكرة عن الدافع وراء قتله سواء أكانت هي أم أي شخص آخر؟»

«سمعت شائعات، لكن لا شيء يمكنني الجزم به. ومجددًا، أنا أصر على براءة موكلتي. من غير المعتاد أن تقتل زوجة زوجها. بل العكس هو الأكثر شيوعًا».

«مجددًا»، قالت بحدة، « كل امرأة أفغانية تعرف هذا».

تضايق. لا يحب تنميطه كرجل أفغاني. ألقى نظرة إلى الاستمارات الخالية على الطاولة أمامه، أمسك دفتر ملاحظاته واستخدمه لترويح الهواء حول وجهه.

«اسمعي، يجب أن أذهب، ليس لديَّ المزيد لقوله الآن. ليحالفك الحظ في قصتك»، قال بسرعة.

«يوسف، سؤال واحد فقط. هل خانوم زيبا...»

لكنه أنهى الاتصال، ضغط الزر الأحمر في هاتفه وترك سؤالها معلق في الهواء.

الفصل 44

كانت ملابس زيبا، كومة صغيرة تشغل مساحة صغيرة في الدولاب المعدني في الزنزانة، مغسولة ومطوية. ملاءة فراشها منشاة جيدًا وأطرافها محشورة بعناية تحت المرتبة. يزين الوسادة شريط من الحرير الأحمر وسلسلة مفاتيح بموشور ضوئي، في منتصفه قلب أحمر عكس الضوء في جميع الاتجاهات وزيبا تقلبه في راحتها.

عادت إلى شيل ماهتاب منذ ساعتين لكنها دخلت زنزانتها لتوها. جعلها فيض السجينات في الأروقة تشعر أن السجن أصبح مقامًا. لم يوترها ابتسامهن لها، تقديمهن التذكارات، لمس جسدها بأطراف أصابعهن كأنها شيخة طريقة. وكانت أسما محقة. نقش كثيرات اسمها على أذرعهن أو ظهورهن سواء لأنها أنقذتهن أو لأملهن في هذا. اعتقد بعضهن أن نقش حروف اسمها على أجسادهن حجابًا في حد ذاته. نمت التوقعات بما يمكنها فعله وتشعبت ككرمة عنب في أروقة السجن القاتمة.

عانقتها لطيفة. ضغطت بجسدها الممتلئ جسد زيبا النحيل بشكل مخجل.

«أوه يا ربي، لقد نحلت حتى صرتِ كالريشة! لا بدّ من أن الأمر كان رهيبًا. يجب أن تأكلي شيئًا. نفيسة، اذهبي إلى المطبخ بسرعة وأحضري بعض الطعام!»

كانت نفيسة قد رأت زيبا في الرواق لكنها انتظرت تفرّق النساء قبل أن تحيط صاحبتها بذراعيها. كانت مرعوبة من فكرة

جنون زيبا وتقييدها في مقام. فظلت في الزنزانة تشاهد التلفاز. كانت تتابع أخبار كابول: شاب وشابة يجلسان خلف مكتب طويل يذيعان أخبار التفجيرات الانتحارية ونتائج مباريات الكريكيت. همَّت بإخبار لطيفة بالذهاب وإحضار الطعام بنفسها، لكنها، حين نظرت إلى زيبا، أغلقت فمها ولم تعترض.

«أوه يا زيبا جان!» قالت بتعاطف. «سآتي إليكِ بشيء ما على الفور. تبدين نحيلة جدًّا بالفعل».

«أنا بخير يا نفيسة». أشارت إليها زيبا أن تبقى مكانها. «تناولت بعض الطعام في طريقي إلى هنا. إن معدتي ممتلئة».

«همف»، ابتسمت لطيفة بخبث وهي تنظر إلى قامة زيبا النحيلة. «لا أرى فيك شيئًا ممتلئًا».

لم تعرف زيبا ماذا تفعل. أرادت أن تقف وتتمطى، بعد ثلاثة أسابيع من عدم قدرتها على فعل ذلك. أرادت أن تتمشى في الفناء وتستخدم رجليها مجددًا. أرادت أن ترقد في فراشها وتنام دون قلق من العقارب أو سماع صلصلة القيود.

شعرتْ بارتياح لعودتها إلى السجن، ما جعلها ممرورة. أدركت أنها ليس لديها أمل كبير. كان يوسف يكافح للدفاع عنها، وكانت قد بدأت تفكر -رغمًا عنها- في إمكانية إيجاد مخرج من هذا المأزق بالفعل وعودتها إلى أطفالها. كانت في بعض اللحظات تفكر جديًا في إخبار يوسف والقاضي ووكيل النيابة بحقيقة وقائع ذلك اليوم. قد تنكر حتى إنها قتلت زوجها. الحقيقة، في أصلها، أنها ليست القاتلة.

لكنها -مع ذلك- تعرف أن لا أحد سيصدق الحقيقة. لذلك فقد أقسمت لنفسها، دون تكلف، أنها لن تسبب لتلك الفتاة الصغيرة ضررًا أكثر مما تسبب فيه كمال بالفعل. أكانت تضحي بأطفالها من أجل طفلة لا تعرفها؟

محتمل. لكنها اتخذت قرارها منذ أسابيع ولن تعيد التفكير فيه. إن خرجت من السجن، وحدث شيء ما للفتاة، ستغدو حريتها عذابًا. يومًا ما، ستخبر الفتيات بالحقيقة. لا تريد أن تؤلمهن، أيضًا، لكنها تريد أن يعدن للنظر إليها كما كن يفعلن.

إن أسرعت في تقبل شيل ماهتاب، ستبدأ عملية البقاء. عليها بناء حياة جديدة لنفسها. عليها أن تصبح أقوى من أي وقت مضى. إنها ليست مجنونة، عرفت هذا وهي في المقام. ارتسمت أفكارها في خطوط واضحة. صار الصوت الوحيد في رأسها صوتها هي.

قضى أبوها، الملا حبيب الله، ساعات طويلة في زنزانتها خلال تلك التسعة عشر يومًا. كان صوته -ببحته الناعمة كأغنية مألوفة- يهدؤها. غفرت له سنوات غيابه الطويلة. تعرف الآن أن الهجر ليس أسوأ ما قد يفعله الرجل لأسرته. ولم ترغب في فقدانه مرة ثانية.

«أنتِ لست مجنونة يا زيبا، إن كان بكِ خطب ما فسيكون قدر كبير من دماء أمك يسري في عروقك. إن دمها حار وانتقامي. تقول إنها تؤمن بالله، لكنها لا تؤمن إلا بجلناز. أنا أعرفها جيدًا. أحببتها أنا أيضًا. يمكنني إخبارك بهذا الآن بعد أن كبرتِ وصرت غريبة تقريبًا بالنسبة لي. أحببتها ذات مرة».

لم تجادله زيبا. لقد ظلت لسنوات مع تلك الأفكار المريرة نفسها عن جلناز.

«لكنني قلت للمحاميين أن يتركوكِ هنا لأنني ما إن ميزتك... ما إن ميزتُ أنكِ جزء مني... لم أستطِع إبعاد عيني عنكِ. بدوتِ متعبة، مثل الأرواح المتعبة الأخرى التي تأتي إلى المقام. أحيانًا يصعب التمييز إن كنت أنتِ المجنونة أم أن العالم حولك هو المختل. أحيانًا إن لم تستخدمي عقلك قليلًا، لن تجدي سبيلًا للبقاء. أنتِ لست كسيرة يا بنيتي. هذا ما عليكِ تذكّره».

قاطع حبل أفكارها طرق على الباب. رأت وجوه نساء تعرفهن. تظاهرن أنهن لم يرينها تجلس على الفراش وخاطبن لطيفة. كن يعضضن شفاههن السفلى ويتبادلن النظرات الجانبية.

«الملكة زيبا، ليست نائمة، صحيح؟»

نظرت لطيفة إلى زيبا تسألها ماذا عليها أن تفعل.

«تفضلن»، قالت زيبا. بعد ليالٍ كثيرة جدًّا قضتها وحدها، كانت مشتاقة إلى الصحبة. «تفضلن يا أخواتي».

شعت وجوههن بابتسامات واسعة، وتزاحمن في دخولهن من الباب. جلسن متربعات على الأرض أمام زيبا بطرحهن تتدلى على أعناقهن بحرية.

«أردت أن أشكرك على مساعدتك لي»، بدأت بيبي شيرين. المحكوم عليها بالسجن سبعة وعشرين عامًا بتهمة قتل ابنها بعد هروبه مع فتاة. خجلت زيبا لجلوسها على مستوى أعلى من امرأة كبيرة في السن، فهبطت من فوق الفراش وجلست بين النساء على الأرض. نهضت قليلًا وأشارت إلى بيبي شيرين أن تجلس مكانها، لكن المرأة رفعت يدها بتقطيبة.

«لقد أنقذتِ ابنتي، كانوا سيزوجونها تخليصًا للثأر. ولم تفلح التوسلات في إثنائهم... أنا لا أعرف ماذا فعلتِ، لكنه أفلح. لقد قرروا أنهم لا يريدونها رغم كل شيء».

«حقًّا؟» قالت زيبا مذهولة. إن تراجع أسرة عن مطالبتها بفتاة كان أمرًا غير مألوف، حتى مع حظر الحكومة ممارسة البعاد: تزويج الفتيات كتسوية للنزاعات بين العائلات، عام 2009.

«هذه أخبار رائعة!»

«أنا لن أعيش سبعًا وعشرين سنة أخرى رغم كل شيء. لن ينالوا مني كل هذا الوقت. الأهم من هذا ألا تتحول حياة ابنتي سجنًا. أطال الله عمرها هي، إن شاء الله».

أومأت النسوة ورددن: «آمين».

«ونحن أيضًا نريد أن نشكرك»، قالت إحدى الزوجتين، المرأتان المتهمتان بقتل زوجهما مع أن أبناء عمومته هم قتلته. تحدثت صغراهما أولًا، صوتها حلو كالكريمة. نظرت إلى الزوجة الأولى الجالسة بجانبها، مبتسمة. «أتخبرينها أنتِ أم أخبرها أنا؟»

«أخبريها أنت».

«حسنًا»، قالت الأخرى مبتسمة بمكر. «عرفنا أثناء غيابك أن أحد قتلة زوجنا قد قُتل».

«قُتل؟ من قتله؟» سألت لطيفة. وقفت أعلى دائرة النسوة القاعدات على الأرض، أكثر انتباهًا من أي حارسة سجن.

«العصبة التي قتلت زوجنا، انقلبوا على أنفسهم، وأطلق أحدهم النار على صدر آخر. العائلة كلها في فوضى. إنهم جميعًا على

استعداد لقتل أحدهم الآخر الآن، ونحن الوحيدتان اللتان في السجن. نحن في مأمن منهم هنا، الأمر مضحك تقريبًا».

«ليس مضحكًا البتة، في الواقع»، قالت الزوجة الأكبر سنًا بنظرة توبيخ. «بل لندعهم يقتتلون. سيقلل هذا من أعدائنا في الخارج. وفي هذه الأثناء، نحن في أفضل مكان يمكننا الوجود فيه».

أومأت الزوجة الأصغر.

«بكل تأكيد»، تدخلت لطيفة. «أنا متأكدة أن أحد ما من العائلة سيكون على استعداد للزواج بكما بعد أن مات زوجكما. هذا ما حدث لعمتي».

«أنتِ محقة»، قالت الأكبر سنًا بوجه متجهم. «كانوا يتحدثون عن هذا أثناء المحاكمة حتى. البقاء هنا أفضل إن جاز لي الاختيار».

«هل ستخبريننا ماذا فعلت زيبا جان؟» سألت أصغرهما. كانت تجلس على ركبتيها، يداها على وركيها ورأسها مائل قليلًا. «هل ألقيت عليهم لعنة؟»

صُعقت زيبا. تذكرت اليوم الذي ألقت فيه هاتان السجينتان بمشكلتهما عند قدميها. لم يكن لديها إجابة لهما. لم تقل سوى أنها ستفكر في موقفهما وهي في المقام، وقد فكرت بالفعل. دعت لهما، وإنما بكلمات مبهمة فحسب، لخصت رجاءها من الله في كلمة واحدة فحسب؛ الرحمة.

«أنا... لا يمكنني البوح بما فعلته. لقد دعوت لكما وفكرت فيكن جميعًا». تعثرت زيبا وهي تبحث عن رد.

«لكن ماذا استخدمت في العمل؟ نار؟ عظام دجاجة؟ ينتابني فضول شديد!»

رأت لطيفة تردد زيبا فملأت الصمت بصوتها الصاخب.

«بالطبع لا يمكنها إخباركما! إنها تتعامل مع أشياء خطِرة هنا، ألا تفهمين؟ أشياء مميتة». قالت بهمس أجش وهي تؤكد على الكلمة الأخيرة. بدت لهن وهن ينظرن لأعلى إليها أضخم من الحياة. «إن ما تفعله الملكة زيبا ليس لعبة. ليس للجميع، بل سر يجب أن يظل بين يديها القادرتين».

تبادلت المرأتان نظرة، تستقر كلمات لطيفة في وعيهما. قرصت الزوجة الصغرى خدها ندمًا، فعادت لطيفة إلى فراشها لتراقب من مسافة. جاهدت زيبا لتظل متماسكة.

«أنا لا أريد أن أعرف ماذا فعلت»، قالت شابة تُدعى وحيدة: «أنا أريد أن أشكرك فقط».

«نعم، أنتِ أفضل». قالت لطيفة ضاحكة. راضية الآن إذ ساد النظام في الزنزانة. «أخبري زيبا بما حدث في قضيتك».

نظرت زيبا إلى وحيدة، كانت الأشد أناقة في شيل ماهتاب. أنهت المدرسة العليا ولديها شقيق مقيم في إيران يرسل إليها الهدايا. اقتربت في جلستها من زيبا ووضعت يدها على ركبتها.

«إنه خبر سعيد. لطيفة جان محقة. لقد ظل الشاب الذي هربت معه يتوسل إلى أسرته ليسمحوا بزواجنا حتى وافقوا أخيرًا حين تدخلت زيبا. أخيرًا، سنصير معًا!»

«فتاة محظوظة! هل سيعقدون لكِ حفل زفاف؟» سألت الزوجة الأكبر سنًا وهي تلتفت لتبادل نظرة مع ضرتها.

«لا». أجابت وحيدة بحزن. «لكنهم جمعوا المال لكفالة إطلاق سراحنا نحن الاثنين. سيستغرق الأمر أيامًا قليلة فقط، كما أخبروني».

ضربت لطيفة كفًا بكف.

«هذا حقا لا يصدق. لقد مكثتُ هنا لسنوات»، قالت مذهولة، «ولم أرَ شيئًا كهذا قط. لم أرَ من قبل قط هذا العدد من النساء يرتحن أخيرًا. لقد صنعت الملكة زيبا معجزات!»

«لا تقولي هذا»، قالت زيبا بحدة. «لست بصانعة شيء البتة. لقد دعوت الله لكُنَّ جميعًا حين كنت في المقام. لم أفعل شيئا... أعني، لا تفكرن فيّ كصانعة... معجزات. أنا سجينة مثلكن تمامًا».

«هذا ليس صحيحا. لم تفعل أي سجينة أخرى شيئًا مما فعلته. لقد ظللت هنا مدة طويلة بما يكفي لأعرف هذا».

«إنها محقة»، أكدت الزوجة الأكبر سنًا. «وإن احتجتِ إلى أي شيء في أي وقت فنحن هنا في خدمتك. النساء في صالون التجميل، وفي غرفة الدرس، وفي الفناء. في كل مكان ليس لهن سيرة سوى ما فعلته لمساعدتنا. لأول مرة منذ وقت طويل، نشعر بأمل. لقد أنرت هذا المكان كالبدر التام!»

«والأطفال أسعد أيضًا، هؤلاء المساكين»، قوقأت بيبي شيرين. «إنهم يشعرون بأمهاتهم، أتعرفن».

دمعت عينا زيبا. ليست المسؤولة عن كل هذا، أليس كذلك؟

«لهذا نلت لقب الملكة زيبا»، قالت نفيسة، ورفعت صوت التلفاز. كان وقت مسابقة الغناء مجددًا، وقد حرصت ألا تفوتها النهائيات. «أنت أشهر واحدة في هذا السجن. حتى أن صحفية

كانـت هنـا، سـألت عنـكِ. سـمعتُ عـن قضيتِـك وتريـد مقابلتـك. لـن أندهـش لـو رأيـت قصتـك فـي الأخبـار. سنشـاهد وجهـك فـي التلفـاز، ألـن يكـون هـذا شـيئًا مـا!»

لـم تجـب زيبـا. الشـهرة بيـن جـدران شـيل ماهتـاب شـيء، وخارجـه شـيء آخـر، لـن يرونهـا مَـن فـي الخـارج مـن منظـور وردي كمـا تراهـا صاحباتها السـجينات.

الفصل 45

هطلت الأمطار بغزارة من غيوم نورانية كثيفة تبدو كصوف حملان غير مغزول. دخل يوسف المكتب قبل أن تهطل مباشرة. تساقطت قطرات المطر على زجاج نوافذ المكتب بإيقاع رتيب ومهدئ. كان يعرف أنه لن يقدِّر هذا لاحقًا، حين سيسير مسرعًا إلى بيته على الطريق الموحل. البلد في حاجة شديدة إلى المطر مع ذلك، لم تسقط قطرة واحدة خلال ما يزيد على الشهر. ظلت فروع الأشجار الجافة تتكسر بسهولة كقرون البازلاء، والهواء محمل بالغبار دون أدنى درجة من الرطوبة لتهدئته.

كانت استراحة محببة من الحر. ظلت عيناه تنجذبان إلى النافذة مرارًا، كأنه لم يرَ مطرًا من قبل.

سمع رنين هاتفه، فمد يده إلى جيب سترته. ميز الرقم. أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يضغط الزر ليتحدث.

«مرحبًا؟»، قال يتعمد إضفاء الفتور على صوته قليلًا ليبدو مشغول الذهن.

«نعم، أنا سلطانة مجددًا من *الفجر*»، قالت كأنه لم ينهِ محادثتهما الأخيرة فجأة. «أريد أن نستأنف حديثنا بخصوص خانوم زيبا».

نظر إلى أوراقه أمامه على مكتبه، فكر أن كل جهده في قضية خانوم زيبا ذهب هباءً في النهاية. بدا الدفع بالجنون ممكنًا على أوراق دفتره الصفراء فحسب، لكنه في الواقع، بدا خانقًا بشدة. أكسبتها الشائعات عن زوجها، تعاطف القاضي ووكيل النيابة أكثر

من حججه التي وضعها. لم يبقَ لديه سوى الحقيقة -البشعة- عن شهود زيبا جرم كمال ذاك اليوم، لكن موكلته ترفض ذكر أمر الفتاة. تخشى على مصلحة الطفلة وهي محقة في هذا. لقد تعرضت الطفلة لإساءة جنسية، فكر، لكن العالم سيراها كسلعة معيوبة فحسب. لن يشعروا نحوها لا بالشفقة ولا بالغضب، وحتى وإن حدث، فسيكونا أقل من اللازم.

«ألديكِ سؤال محدد؟» سأل سلطانة. كان يجلس إلى مكتبه في الغرفة الرئيسة. تجلس أنيسة إلى مكتبها في الاتجاه المقابل من الغرفة، بهاتف بين رأسها المائل وكتفها. عدلت نظارتها بيدها الحرة ثم فركت جبينها وصدغيها. كانت تعمل على قضية جديدة، شابة بيعت كخادمة بعد وفاة والديها. أخذوها من قرية إلى كابول، وحين اكتشف الوالدان في الأسرة التي تعمل لديها أن ولديهما المراهقين قد اعتديا عليها، زوجاها لرجل في السبعين. الذي بدوره أعادها إليهما بعد أسبوعين لأنها ليست عذراء. الآن الشابة مقبوض عليها بتهمة الزنا، وستصل إلى شيل ماهتاب في الصباح التالي. قد تحتاج أنيسة إلى مساعدته في تلك القضية، ولم يرد تضييع الوقت مع الصحفية.

«أنا أفهم إحجامك عن إخباري بتفاصيل محددة في هذه القضية»، أوضحت. «لذلك ربما يمكننا التحدث عن النساء السجينات بصفة عامة. لقد ذهبتُ إلى شيل ماهتاب مرات كثيرة والقصص كلها هناك تتراوح ما بين المأساة والعبث، مع ذلك يبدو أن لا أحد يلاحظ سهولة إدعاء «الفسق» في أي شيء قد تفعله المرأة».

«كيف تهتمين بهذا الموضوع؟»

لانَ صوتها بشكل ملحوظ حين سألها هذا السؤال، كأنها كانت تخشى أن يغلق الخط في وجهها.

«قرأتُ تقريرًا أصدرته إحدى المنظمات غير الحكومية عن الجرائم المتهم بها النساء هنا والأحكام الصادرة فيها. في البداية شغلتني فكرة مجيء منظمة أجنبية إلى بلدنا للحكم علينا بمعاييرها، لكنني حين تراجعت خطوة إلى الوراء، أدركت أنه لا جدوى من الاستياء ما لم أفعل شيئًا بخصوص الأمر، فقررت التحقيق في الأمر بنفسي. الأفغان لن يقرؤوا تقرير المنظمة، لكنهم سيسمعون عن الأخبار في الصحف».

«يبدو أن المنظمات الأجنبية لا تتمتع بقدر كبير من المصداقية».

«إنها إما تتمتع بقدر كبير جدًا وإما بقدر ضئيل جدًا. البعض يريدها أن تفعل كل شيء لبلادنا، وآخرون يرونها كجواسيس أو بعثات تبشير. وفي الحالتين، علينا حمل أعبائنا بأنفسنا».

«لا يرى الكثيرون الأمر بهذا النحو».

«أنت هنا مع منظمة دعم قانوني. ربما ترى جانبًا واحدًا فقط من القصة. بهذه المناسبة، ما رأيك في التمثيل القانوني الذي تحظى به النساء بعد القبض عليهن، هل هو عادل أو كافي؟»

ضج رأسه. كافح ليصل إلى إجابة. يعرف أنها تسأله عن حق النساء في الدفاع القانوني وعن المحامين المنتدبين لهذا الغرض. لكن الكلمات تبدلت في أذنيه، تحولت إلى السؤال نفسه الذي ظل يؤرقه كل ليلة وهو يتقلّب لينام.

أتدافع عن زيبا جيدًا؟

«هل ما زلت على الخط؟»

«نعم، أنا هنا»، تمتم. اعتدل في جلسته ولاحظ أن أنيسة أنهت مكالمتها. رمقته بنظرة تساؤل، رفعت حاجبيها المقوسين. أومأ لها برأسه أن كل شيء بخير وعاد إلى سؤال سلطانة. «اسمعي، بعض النساء يحظين بتمثيل قانوني جيد وأخريات لا يحظين به. محامون كثيرون يعملون على قضايا بشكل يجعلني أتساءل عمَّا درسوه. حجج دفاعهم ليست سوى التماس للعفو وتبدو كاعترافات خاصة تقريبًا. هذا ليس عدلًا، خاصة للنساء المقبوض عليهن بتهم ملفقة في المقام الأول. لذلك لست متأكدًا من أن أحدًا في أفغانستان قد حظي بمحاكمة عادلة. هؤلاء القتلة في كابول الذين حُوكموا وصدر الحكم عليهم خلال أسبوع... لم تكن هذه أيضًا محاكمة عادلة حقًّا، بل كانت فعلًا شائنًا في الاتجاه المعاكس».

هل كانت تدوِّن ملاحظات؟ سمع خشخشة واهنة على الخط. أرهف السمع لصوت تنفسها.

«هل أتممت دراستك كلها في الولايات المتحدة؟»

«نعم». أجابها.

«ما الذي جعلك تريد أن تعمل محاميًا؟»

«لديَّ رغبة لا تخمد في أن أكون على حق طوال الوقت»، قال مازحًا. سمعها تضحك برقة.

«وأنتِ؟ هل درستِ الصحافة في الخارج؟»

«لا، تخرجت في جامعة كابول».

«حقًا؟» قال مندهشًا. توقع بنصف ذهنه أن تكون مثله، وافدة عادت إلى الوطن بتعليم أجنبي. تساءل لماذا افترض هذا؟ ربما كانت طريقتها في الكلام أو في طرح الأسئلة مباشرة دون لف أو دوران حول الموضوع.

«نعم، حقًا»، قالت بحدة. لاحظت دهشته ولم تروقها. تحدثت بالإنجليزية لتوضح ما تريد قوله: «لدينا نظام تعليمي هنا بالفعل، أتعرف. ليس عليك السفر إلى الولايات المتحدة لتتعلم شيئًا».

«لم أقصد هذا. أخبريني إذن، لماذا تعملين صحفية؟»

«لأنني أحب معرفة الحقيقة»، أجابته بلا تردد. «ظللت دائمًا أسأل كثيرًا، منذ صغري. تسامحت عائلتي مع هذا إلى حد كبير جعلني أرغب في أن أجعله عملي».

«تفكير سليم».

«شكرًا»، قالت مبتهجة. «سوف أذهب إلى السجن في وقت لاحق من ظهيرة اليوم لإجراء مقابلات قليلة أخرى. آمل أن أقابل رئيسة الحارسات أيضًا. ظلت تتظاهر بالانشغال، لكنني سأحاصرها اليوم. هل هناك احتمال لأن تكون موجودًا هناك؟»

«سأعمل في المكتب هذا الصباح». كان كذلك بالفعل، لكنه شعر حينها برغبة في تغيير خططه. فأضاف: «لكنني مع ذلك قد أذهب إلى السجن هذه الظهيرة».

«عظيم، سأكون هناك في الثانية ظهرًا. ربما سأراك حينها».

أنهى الاتصال ونقر بقلمه على دفتر ملاحظاته. بدت الظهيرة أقل كآبة من الصباح.

الفصل 46

وقفت زيبا عند حافة السور تراقب أمها تقترب، تمامًا مثلما حدث منذ أشهر. كانت آخر مرة رأتها فيها حين استدارت جلناز لتنظر إليها قبل دخولها مقر الملا. تذكرت زيبا صراخها، صياحها بتحذير أمها عبر فناء المقام المفتوح. لم يتهدد جلناز حينها أي خطر حقيقي. لم يرد الملا حبيب الله سوءا بها قط، ليس حين كانا يعيشان معًا، ولا حين هجرها، ولا حين جلسا معًا ليناقشا مصير ابنتهما السجينة.

رطب المطر الهواء لكنه ترك الفناء موحلًا. ابتل صندلها وتشربت حافة بنطالها ماء من الأرض. لن تستطيع الجلوس اليوم وإلا ابتلت ملابسها كلها. ما كان يناسب زيبا التي أرادت أن تقف لمحادثة مثل هذه في جميع الأحوال.

قابلت عينا جلناز عيني ابنتها رغم المسافة، لكنها لم تتحدث حتى وصلت إلى السور الرفيع الذي يفصل بينهما. نظرت إلى الوحل أسفل قدميها وهزت رأسها. غرستْ أقدامهما في الأرض، يُثقلها الطين والحقائق التي كُشِفت مؤخرًا.

«سلام، مادر»، قالت زيبا برقة.

«وعليكم، بنيتي. لونك أفضل». تحركت عينا جلناز سريعًا من فوق كتف زيبا، تمسح الفناء بحثًا عن صاحباتها في الزنزانة. شعرت بأن عليها أن تسأل عليهن، كأنها في حاجة إلى محادثة مهذبة لتَملأ بها الوقت الذي ستقضيه مع ابنتها. «الأخريات لسن في الخارج اليوم».

«يبتعدن ما أمكن عن هذا الوحل».

شعرت زيبا بغصة في حلقها. ظلت منذ صغرها تتطلع إلى أمها بإعجاب. حتى حين شعرت بأنها تؤذي الآخرين بأعمالها، كانت تراها أكبر من الحياة ومنيعة. ما قواها على دفعها بعيدًا عنها. لم تكن أمها ضعيفة أو محتاجة. كانت جزيرة تتمتع بالحكم الذاتي، حتى والعالم كله من حولها مشتعل بالحروب. لكنها لم تدفعها حقًّا، بل ابتعدت عنها فحسب.

غير أن جلناز هذه مختلفة. وقفت أمامها امرأة بسيطة، من لحم وجروح وندم. قصةٌ سقطَ منحناها الدراميُّ فجأة بشكل مأساوي في حين كان يجب أن يعلو. بذلت زيبا جهدها لئلا تبدو الشفقة في عينيها. لم يكن هذا ما تمنته لأمها. من القسوة أن يُلقى الضوء الساطع على الكذبة الوحيدة التي بنت حياتها عليها، المغالطة الوحيدة التي أعانتها على مواصلة العيش والسير مرفوعة الرأس. كرهت زيبا معرفتها بالحقيقة عن والدها، أنه تركهم لأنه لم يحتمل البقاء مع أمها. أن أباها لم يكن بائسًا أو مجنونًا أو شهيدًا يزيد الأمر سوءًا فقط. كان حيًّا يُرزق وبصحة جيدة، شخص محترم اتخذ قرارًا قاسيًا، اختار ترك كل ما لديه وكل من يحبهم ليبتعد عن جلناز ما أمكنه فحسب. كان قد تركها بأكبر قدر ممكن من الكرامة حتى التقت مساراتهما مجددًا رغمًا عنهما.

رأت زيبا التجاعيد على وجه أمها وتساءلت كيف لم تلاحظها من قبل. لم تلمع عيناها الخضراوان. أكان ذلك لأنهما خلف شبكة السور أم لأنهما فقدتا بريقهما منذ سنوات دون أن تلاحظ

زيبا؟ انحناء ظهرها، انكماش شفتيها، الرعشة الخفيفة ليديها، كل هذه التغييرات الصغيرة.

«مادر»، بادرتها. لماذا يجب أن يكون الأمر هكذا؟ لماذا صارتا كأنهما على طوفين، تحاول كل منهما مد يدها إلى الأخرى لكن الأمواج العنيفة تظل تدفعها بعيدا؟ متى ستصلان إلى بر؟

«تعرفين الآن»، قالت جلناز.. عيناها الدامعتان تداريهما أهدابها الثقيلة. «تعرفين الآن كل شيء. وأنا سعيدة لهذا. يفاجئني قولي هذا لكنه الحقيقة. أخفيت عنك الأمر لأنك كنت فتاة صغيرة. لم تكوني لتفهمي قيمة الزوج».

شخصت جلناز ببصرها في الفراغ. كانت تتحدث بهدوء، محاولة هزيلة لتبديد قتامة الجو. «لكنني لست مضطرة إلى إخبارك الآن، أليس كذلك؟ صرت تعرفين أفضل من الجميع أن بعض الأزواج ليسوا سوى مخلوقات ثقيلة».

«إنهم كذلك بالفعل، أليسوا كذلك؟» قالت زيبا ضاحكة، فبدا طيف ابتسامة على وجه أمها. واصلت زيبا كلامها، «ظللت دائمًا أحلم بأن أجوب البلاد، أتسلق قمم الجبال لأجد راية خضراء أو كومة حجارة في مكان ما فتصدمني حقيقة أنني وجدت قبر أبي أخيرًا. تخيلته شهيدًا، بطلًا ضحى بنفسه في سبيل الحرية».

«كان سعيه من أجل حرية مختلفة. ليس شهيدًا، ولا أنا أيضًا».

«ظني هذا».

«كنت أعرف أنه سيتحدث إليك»، قالت جلناز. «توسَّلت إليه ذاك اليوم ألا يخبرك بأي شيء، لكنني عرفت من وجهه أنه لن يستطيع إمساك لسانه لأكثر من دقائق قليلة بعد مغادرتي».

«كيف يمكنه؟ كنت سأكرهه».

رفعت جلناز بصرها بحدة.

«لم تكوني ستعرفين لتكرهيه. كان بوسعه ترك الأمر ببساطة».

هزت زيبا رأسها.

«ليس صحيحًا. كنت في حاجة إلى المعرفة».

«حقًّا؟ هل تحسنتِ بأي شكل؟ هل استعدت أي شيء؟ أراهن أنك لم تفعلي».

لم ترغب زيبا في إجابتها. بدت أمها متألمة بما يكفي.

«هل أخبرتِ رفيع؟»

أومأت جلناز برأسها.

«كان عليَّ ذلك. لا داعي للانتظار حتى يعرف منك، أو الأسوأ من ذلك، أن يعرف من أبيكِ».

«أبيك» سقطت الكلمة من فمها كقطرة سم. رأت زيبا قدر احتقار أمها لزوجها وعرفت أن السخط ضرب بجذوره. أرادته جلناز أن يصبح شيئًا ما أفضل لكنه خذلها.

«ماذا قال رفيع؟»

«لم يقل الكثير. لا أعرف هل سيحاول مقابلته أم سيتظاهر بأنه لم يسمع شيئًا. كان يشب عن الطوق بالكاد حين ذهب أبوك إلى الـ...» أمسكت لسانها قبل أن تنهي جملتها بالكذبة التي ظلت ترددها وقتًا طويلًا جدًّا إلى حد أن ترسخت في رأسها. «حين تركنا أبوك. إنه غاضب من هذا».

«معه حق في هذا. يحق لنا جميعًا أن نغضب منه لتركنا».

رفعت جلناز بصرها، ممتنة للمحة الغضب التي ظلت لدى ابنتها بعد معرفة الحقيقة.

«كانت سنوات عصيبة».

«بالطبع كانت كذلك يا مادر. لا أشك في هذا للحظة».

«العار شيء فظيع».

تعرف زيبا هذا جيدًا. العار رهيب. أشد وطأة من قيود كاحليها حين كانت في المقام. العار، بمختلف أشكاله وألوانه هو ما كسرها، وكسر جلناز، وكسر الفتاة التي اغتصبها كمال. هددهن العار بنبذهن من المجتمع، هددهن بسلبهن الأمل في يوم جديد، ترك على أرواحهن وصمة لا تمحى.

«أنا آسفة أنك تشعرين بالعار»، قالت زيبا. كان ذلك أفضل ما يمكنها قوله. لم تستطِع إخبارها بأنها لم يكن عليها الشعور بالعار في ما مضى أو أنها لا ينبغي أن تشعر بالعار الآن. لم تكن لتخلط مغالطة بأخرى، ليس وأمها ترى الأمر جيدًا جدًّا.

«انتهى الأمر»، قالت جلناز بفتور. «كان عليّ توقع حدوث هذا. لا شيء يبقى مدفونًا، خاصة في مكان كهذا حيث ينبش الناس بأياديهم في القذارة دائمًا للعثور على تلك الأشياء. لكنه لا يريد العودة. لا شيء سيتغير في العائلة. أدار أبوك ظهره لنا، وعودته الآن ستجلب عليه هو نفسه العار. سيظل متخفيًا خلف اللحية والمقام حتى يوم مماته وزوجته ستدفنه هناك بصفته مُلا عظيمًا قضى حياته في مساعدة الضعفاء».

«إنه ليس شخصًا سيئًا. أخبرني أنه لم يقصد الإساءة إليك».

«أنا لم أعترض على اختياره»، اعترفت جلناز. «كنا ذات مرة سعداء، لكن كان هذا قبل أن أعرفه. حين كان خطيبي فقط وكنا على مسافة ذراع أحدنا من الآخر، كنا سعيدين جدًّا أحدنا بالآخر. لكنني بزوال حناء زفافي من يديّ، كنت قد كرهت كوني زوجته. كنت سأكره كوني زوجة أي شخص، لأقول لك الحق، وقلت له هذا في المقام».

«ماذا قال؟» كان سؤالًا جريئًا من زيبا، هذا أمر خاص بين والديها. لكنها سألته رغم كل شيء بعد أن زالت الحدود بالفعل.

«كان يعرف. ظل طوال الوقت يعرف. لهذا أسدى لي معروفًا بعدم تطليقي. كان بإمكانه هذا ليحرر نفسه. كان بإمكانه البقاء والزواج من أخرى، لكنه لم يرغب في ذلك حتى. أراد أن يتجول، وأن يكرهني لأني منحته سببًا جيدًا لهذا».

علقت زيبا أصابعها بالسور وضغطت بوجهها على أسلاكه حتى تركت آثارا على جلدها. لمست أمها خدها وأنفها بطرف إصبعها، لمسة رقيقة ودافئة كشعاع الشمس.

«أنا لا أظن بكِ أقل من هذا يا مادر جان. كنت سأفعل المثل. الأرجح أنني سأفعل الشيء نفسه. في الحقيقة، حين سيأتي الوقت لأحدث شابنام وكريمة وريما عن أبيهن. سأنتقي أفضل نسخة من الحقيقة يمكنني إخبارهن بها وأدعو الله أن يصدقنها إلى أن نموت جميعًا ويوارينا الثرى».

«ماذا حدث يا زيبا؟»

عضت زيبا شفتها السفلى وعبست. نقلت وزنها من قدم إلى أخرى وشعرت بالطين الطري في الأرض يتحرك من تحتها، ليتخذ شكل قدميها.

«وجدته يعتدي على فتاة لم أرَها من قبل، فتاة أكبر من شابنام بالكاد. لم أتخيل أبدًا أن أرى شيئًا بهذا الشر في بيتي. إن ذلك أسود شيء يمكن لأم رؤيته. لقد.. لقد انتهك عرضها».

أخذت جلناز نفسًا عميقًا بحدة. كانت قد ميزت سواد كمال منذ أمد طويل، لكنها لم تخمن أن يكون هذا هو الأمر. نظرت إلى ابنتها وشعرت بفيض من الفخر يسري في دمها.

«أنتِ قوية. ألا يعرف القاضي؟»

نظرت زيبا إلى أمها.

«لماذا سيصدقني؟ لست سوى نصف شاهد لكوني امرأة. وإن تبيّن ما حدث، سيدمرها هذا مجددًا. عليَّ أن أفكر في أطفالي أيضًا. سيقول لهم الناس أشياء فظيعة».

كان منطقها معقولًا. الموت أفضل للفتاة التي تعرضت للاغتصاب، الكثيرون يفكرون هكذا. ثم سيأتي التعويض. لأسرة الفتاة التي طالها العار أن تطالب بشابنام أو كريمة كزوجة أو خادمة.

«يومًا ما، ستتحدثين مع أبنائك عن كل هذا»، تنبأت جلناز، يتمزق قلبها بين أخطائها التي ارتكبتها وأخطاء ابنتها التي ما زالت ترتكبها. «حين يأتي هذا اليوم، لا تبخلي عليهم. الأفضل كثيرًا أن تصدقي أن أبناءك أصدقاءك. انظري إلى بصير. إنه يعرف ماذا فعلت ولماذا، وحين تحدثت معه كانت عيناه تلمعان حين يسمع اسمك. لا يوجد أي عار عليك إخفاؤه عنهم».

أومأت زيبا برأسها. غص حلقها لذكر اسم ابنها. كانت حقيقةُ أنه ما زال يحبها كلَّ شيء لها. لقد أخبرته أكثر مما يجب لفتى أن يسمعه عن أبويه. كانت تتوق إلى إخباره بكل شيء، كل تفصيلة مملة، لكنه كان مجرد طفل، ولم تثق بأنه سيحتفظ بسر براءتها لنفسه.

أخبرته بما رأته وبأن الفأس كانت ترقد هناك. أخبرته حتى بخوفها من أن تكون الضحية إحدى فتياتها. أخبرته أنها تحركت بلا تفكير. كان بصير ينظر إليها بخوف، كأن أشد ما أخافه تلك الليلة ليس المسافة الطويلة التي قطعها وحده ولا صراخ المجانين في ظلال المقام.

منعت نفسها -مع ذلك- من إخباره بأنها رفعت الفأس وهت بها على رأس أبيه من الخلف، فسقط أرضا فحسب. تعثرت بدمية بلاستيكية على الأرض، فسقطت متكومة والفأس على مسافة أقدام منها. صرخ كمال وتوجه نحوها بغضب وهو على يديه وركبتيه.

أيتها العاهرة! سأقتلك!

انقض عليها، حاول خنقها وهي ترفص برجليها. غطت وجهه بيديها. التصقت يده الثقيلة بفمها فتذوقت جلده المالح. ضاق صدرها. شعرت باختناق. لم ترَ الفتاة تزحف بعيدًا. مثل كمال، لم ترَ ماذا حدث بعد ذلك.

«ظني أن تامينا ستحضرهم إلى هنا قريبا»، أكدت جلناز. «لم تؤكد على هذا، لكن ظني أنها ستأتي».

«تامينا؟ لماذا... ما الذي يجعلك تظنين أنها ستفعل شيئًا كهذا؟» سألتها زيبا بهمس.

«ليس لديها ذكرى طيبة واحدة عن أخيها. يبدو أنه كان قذرًا معها في طفولتها هي الأخرى، لهذا أرادت أن تأخذ الأطفال حين مات. إنها لا تثق ببصير تمامًا، لكنها طيبة معه وظني أنها ستأتي ما إن تهدأ الزوبعة. لم أفهمها تمامًا حينها، لكنني فهمت الآن.

كانت الأشهر الماضية صعبة عليها، خاصة مع الشائعات حول القرآن. ستأتي ما إن يهدأ الأمر لئلا يعتبر قدومها كالبصق على قبر أخيها. الأفضل في الحقيقة أن تكره القرية أخاها بهذا القدر، حتى وهو ميت. يمنحها هذا حرية ألا تكرهك.

تامينا. تخيلت زيبا ما قد يفعله كمال بأخته الصغيرة في خصوصية بيتهما وهما صغار. لا عجب أن ظلت على مسافة من أسرته بكاملها. هي أيضًا تحولت حياتها إلى سجن.

«المسكينة تامينا. لم يخطر لي قط...» قالت زيبا متألمة.

قالت أمها: «لكنها عاشت. أغلبهن يعشن، بطريقة ما أو بأخرى».

أومأت زيبا ودعت الله أن تكون أمها محقة.

الفتاة المسكينة. تذكرت زيبا وجه ليلى الشاحب وهي تترك الفأس بعد أن هوت بها بالضربة القاضية على رأس كمال. كان شعرها ملتصق بوجهها المبتل، يداها ترتعشان، وصراخها محبوس في حلقها، نظرت لزيبا بعينين متوحشتين.

اذهبي، صاحت فيها زيبا، تتوقع أن يعود كمال إلى الحياة ويقضي عليهما هما الاثنتين. انهارت، حدقت إلى يديها الملطختين بالدم قبل أن تمسحهما بثوبها بعصبية.

لا، لا، لا، لا، صاحت الفتاة بصوت صغير جدًّا بالكاد سمعته زيبا مع دوي دقات قلبها.

الفتاة المسكينة، فكرت وهي تقف على مقربة بوصات من أمها، بين عدد قليل من النساء اللاتي يكتمن أسرارًا في أقبية قلوبهن. *إنها صغيرة جدًّا على كتم كل هذا*.

الفصل 47

شق يوسف طريقه بصعوبة، حذاؤه موحل وجوربه مبلل. رفع طرف بنطاله آملا أن ينقذ ما يمكن إنقاذه من ملابسه من الوحل. أوقفه سائق التاكسي بالقرب من مدخل شيل ماهتاب ما أمكنه.

لم يكن عليه المجيء اليوم. لا يوجد داعٍ حقيقي لهذه الزيارة، لن يفعل شيئًا لا يمكنه فعله غدا بعد أن تجفف الشمس الشوارع. أقنع نفسه أن التعاون مع الصحفية تصرف استراتيجي وليس يائسًا. وقف في غرفة المقابلة، مرت به حارستان، حياه بإيماءة. يعرفهما بوجهيهما ليس باسميهما، رفع يده إلى جبينه بتحية ودودة قبل أن ينفض طرفي بنطاله.

نظر إلى ساعته، بعد الثانية ظهرًا بدقائق قليلة. فتح حقيبته وأخرج دفتره. نظر إلى زجاجة قطرة العين وشكر المطر على تنقية الهواء. كان قد استيقظ هذا الصباح دون أن يشعر بجفنيه من الداخل كورق الصنفرة.

لديه مكالمة فائتة. نظر في الرقم فعرف أنها أمه، اتصلت ببطاقة اتصال. اشترت عددًا منها من السوق الأفغانية التي تشتري منها الخبز واللحم والترامس، أشياء لا تشتريها من أي سوق أخرى. تستقل باصين وتسير ربع ميل لتصل إلى المحل الأفغاني لكنها لا تشكو من هذا أبدًا.

في أي مكان آخر، تقول أمه، *يعطونك لحمًا بقريًا ويقولون لك أنه لحم ضأن. يظنون أننا لا نميز بينهما. وهذه الترامس تعرف كيف تحتفظ بالشاي ساخنًا لساعات!*

أتظنين أن أهل بلدك أفضل من أن يغشوكِ؟ يتمتم أبوه وعيناه المدربتان مثبتتان على التلفاز. *إنهم يغشونك وهم يتحدثون لغتك فحسب. نحن لم نأكل لحم ضأن منذ سنوات.*

كلما طال غيابه عنهما، وجد نفسه يفكر في ما يفعلانه في أي لحظة من اليوم. ينتقل عبر الهاتف من التوقيت المحلي إلى توقيت نيويورك. ليس لرغبته في العودة إلى شقتهم بما يهفُّ عليها من روائح طبيخ الجيران وطنين أجهزة التكييف غير المستقرة على أطر النوافذ. بل يلفّ تفكيره فيهما إعجابٌ خاص. الحنين للأهل، فكر بينه وبين نفسه، أرق كثيرًا من الشوق إلى الوطن.

سيتصل بأمه الليلة، ستكون الظهيرة في نيويورك وستكون في البيت، تعد الغداء لأبيه. لا شك في أنها ترسل الطعام يوميًا إلى أخته أيضًا لتغذيتها جيدًا أثناء الحمل.

«هل انتظرت طويلًا؟»

جفل لصوتها. رفع بصره فرأى شابة بعينين مكحلتين لا بدّ من أنها سلطانة. ترتدي سترة خضراء زيتونية تصل إلى ركبتيها، بكمين مغلقين عند المعصمين. بنطال جينز ضيق محشور في حذاء بني برقبة عالية، ملابس ذكية لطقس اليوم. مدت يدها ومالت برأسها جانبًا.

«أنت يوسف، أليس كذلك؟»

«أنا يوسف»، قال يدفع بكرسيه إلى الخلف لينهض ويصافحها، أدهشه أن مدت هي يدها أولًا وأدهشته أيضًا قبضتها الحازمة.

«سلطانة جان، ظني ذلك»، قال وهو يشير إلى الكرسي المقابل لكرسيه. انتظرها فيما تضع حقيبتها على الأرض وتزيح طرحتها

القطنية البنية عن رأسها، عبثت في ناصية شعرها، ثم أعادت الطرحة بخفة مكانها. ابتسمت بأدب، ظهرت غمازتان صغيرتان عند زاويتي فمها كفاصلتين. لا مساحيق تجميل على وجهها ولا قطعة حلي واحدة.

«نعم»، أكدت له. «شكرًا على وقتك».

«العفو»، أجابها. كان الشعور بالقلق لجلوسهما في غرفة معًا وحدهما متأصلًا في كل منهما. ولم يحسِّن من الموقف أنه فُتِن بوجهها، بروز خديها يمنح وجهها شكل القلب. «أنا سعيد أنكِ تهتمين بهذا المكان في الحقيقة. حين تخوضين في قضايا هؤلاء السجينات تعرفين جيدًا أولويات النظام القضائي».

«بالضبط»، وافقته. «حين نكون في حاجة إلى الشرطة، يرفعون أيديهم ويقولون «ماذا يسعنا فعله بلا تمويل أو تدريب؟» والمذهل حقًّا كيف يصبحون قادرين ومقتدرين حين يقبضون على امرأة هربت من بيت قاس. ليس لديهم مجرم أسوأ من امرأة تريد أن تعيش لنفسها».

«لا بدّ من أن التحقيق في هذا الأمر صعب وأنتِ امرأة»، علق على كلامها. «من المحبط متابعة كل هذا».

«ظني هذا. ليس صادمًا، بالطبع. مجرد تذكير بما عليه الأمور حقًّا. قد أكون مكانهن بسهولة، على ما أعتقد. نساء أخريات قد يرين الأمر بشكل مختلف، لكن أيًا منا قد يؤول بها الأمر إلى هنا».

تذكر يوسف القضايا التي عمل عليها مع أنيسة؛ المرأة التي خنقت زوجها بعد أن أجبرها على البغاء مع غرباء مقابل نقود، والمرأة التي هربت من زوجها بعد أن حاول طعنها بمفك براغي،

والمرأة التي رفضت تزويجها برجل أكبر منها بثلاثين عامًا. تذكر أخته التي جرؤت على حب رجل لا يحبه والداها. كانا قد صاحا فيها واعترضا، لكنهما خضعا لقرارها في النهاية، تكلفا نفقات حفل زفافها وابتسما حين هنأهما أصدقاؤهما دون أن يعلنا مدى خيبة أملهما قط.

قد يُدرَج اسم أخته في قائمة المطلوب القبض عليهن والزج بهن في شيل ماهتاب، ستكون أسما المسؤولة عن حراستها وسيقرر القاضي نجيب مصيرها وهو يحتسي كوبًا من الشاى الأخضر. لذلك كان هنا، لأنه يتخيل أسرته أو هو نفسه في كل مأساة على هذه الأرض. كان من الممكن أن يكون هو وكيل النيابة الذي ينقصه التدريب، لا يمكنه وضع حجة قانونية حقيقية. كان من الممكن أن تقبع أخته خلف تلك القضبان. قد يُلقى القبض على أخيه وهو مع صاحبته. جحيم، قد يلقى القبض عليه هو نفسه لذلك أيضًا. حتى والديه، يمكن القبض عليهما بناء على أي هراء.

«ما نوع القصة التي تعملين عليها تحديدًا؟»

«أريد أن أتحدث عن جرائم محددة، وعن حبس النساء فورًا دون تفكير. المشكلة أن لا واحدة من النساء تريد ظهور اسمها أو وجهها في الأخبار. الأفضل لهن التحدث عن الأمر مع الصحافة الأجنبية، لكن فكرة نشر قصصهن في الإعلام الأفغاني تجعلهن يرغبن في الهرب والاختباء. وبالطبع يستحيل التحدث مع الشرطة أو القضاة عن شيء من هذا. يظنون جميعًا أنهم يفعلون الصواب».

«لا أظن أن زيبا تريد التحدث أيضًا، لأقول لك الحق»، أقر لها. «لديها أطفال تفكر فيهم ولا ترغب في تشويه اسمها أكثر مما حدث بالفعل».

«بالتأكيد. لهذا لا أريد إلقاء الضوء على قضية معينة. ولهذا أيضًا فضلت جعل القصة عن المنظومة كلها».

«أتعرفين، لم أسألك قط»، قال بمرح. «لماذا اتصلتِ بي؟ أقصد، يوجد هنا الكثير من المحامين بخبرة محلية أكبر مني بكثير».

«سؤال جيد»، قالت سلطانة وهي تريح يديها على الطاولة كأنها تستسلم. «لقد ظللت أسأل هنا وهناك حتى أدركت أنه من الصعب جدًا أن تجعل أحدًا يتحدث. المحامون العاملون هنا لا يريدون التحدث مع صحفيين، خاصة مع صحفية. فكرت أنك قد تكون مختلفًا. أضف إلى ذلك، إن قضية زيبا مذهلة. لا توجد جرائم قتل كثيرة، لكنني لاحظت في الجرائم القليلة التي اطلعت عليها أن الدافع واضح جدًا. عادة ما توضح النساء جيدًا جدًا ما دفع بهن إلى القتل. أما هي فلم توضح أي سبب و...» مرّرت أصابعها على الطاولة فيما تتحدث بهدوء، «وأنا متأكدة من أن لديها سببًا. حقيقة أنها لم تعلن عنه تجعلني أزداد فضولًا فحسب».

خلع نظارته وفرك عظمة أنفه. بالطبع يوجد سبب، سبب جيد جدًا يتوق إلى الإعلان عنه بشدة. لكنه بدلًا من ذلك، انتقل إلى السبب وراء سعيها هي إلى التحدث معه.

«كيف عرفت أنني عائد من الخارج؟»

«اسأل كثيرًا وستعرف في النهاية أشياء قليلة. الأمر بهذه البساطة. بهذه المناسبة، أين كنت تعيش؟»

«في نيويورك. أو واشنطن»، أجابها، مدركًا أن الأمر بالنسبة إليها أمريكا واحدة كبيرة. «عشت في المكانين».

تفرست في وجهه، تحاول التكهن بشيء ما من ملامحه.

«كنت صغيرًا حين غادرت».

«بالفعل». وافقها قائلا. «ذهبنا إلى باكستان».

«نحن أيضًا ذهبنا إلى هناك لوقت. لكنك أنت... كنت من القلة المحظوظة». ثم ابتسمت قائلة. «أنت ذهبت إلى أمريكا. نحن عدنا في 2003».

اعتدل في جلسته. كان من المحظوظين وهو يعرف هذا. لذلك كان يشعر بالحرج نحو من في مثل سنه ويعيشون في أفغانستان. كان يجب أن يكونوا أقرانه، أندادًا له. كان يجب أن يشعروا نحوه بألفة أبناء البلد الواحد، ما لم يحدث. بل بدوا كأنهم تعرضوا جميعًا لحادث سيارة وكان هو الناجي الوحيد من بينهم بلا خدش واحد. لا بدّ من أنها شعرت بهذا.

قالت: «كنا نحن أيضًا محظوظين. لكن كثيرون جدًّا لم يحالفهم الحظ».

هرش قفاه. كان شاكرًا لهبوط درجات الحرارة، إشارة إلى اقتراب الخريف محملًا برياح الشمال الأكثر طراوة. وبعده، سيأتي الشتاء ببرده الذي ينخر العظام. سيرى أطفال الشوارع وهم يرتعشون في ستراتهم المهترئة وأحذيتهم البالية. إن كان الصيف قاسيًا، فالشتاء هو الموت نفسه. كان أسوأ مخاوفه أن تغادر زيبا السجن فقط لتواجه عدالة العالم الخارجي. قد تثأر عائلة كمال لمقتله. وإن حدث ذلك فسيحدث سريعًا، يعرف هذا. سيقتلونها قبل أن يطول البرد أصابع أول قدم في القرية. تذكر جنازة جدته، الحلوى البنية التي أعدتها أمه ولفتها في أرغفة

الخبز العربي المستديرة. ظلت قرمشة السكر المكرمل محفورة في ذهنه مع صوت بكاء أمه الهادئ والشعور ببرودة أرضية المسجد في جوربيه. يعرف أن هذا قد يحدث مع بصير، ابن زيبا. ربما حينها سيكون الثلج. ربما سيجعله سقوط الثلج كل شتاء يتذكر يوم فقدانه أمه.

ثبّت عينيه على يدي سلطانة، أصابعها النحيلة وأظافرها المستديرة قليلًا. كان محاميًا جيدًا. أخبره بذلك أساتذة القانون وزملاء الدراسة،ومحامون أكبر منه سنًا ومحامون أشرفوا عليه. لديه تقدير للقوانين والسوابق ومهارة صوغ الحجج القانونية. يحب العقلانية الراسخة في قوانين الإجراءات والعقوبات. يعدها إرشادات، مخططات لكيفية التعامل مع كل قضية وحيثياتها. مرتكزات، لحماية سفينة المجتمع من تلاطم الأمواج.

لكنه انتقل إلى الجانب الآخر من العالم. كان يشعر أحيانًا أنه سافر عبر الزمن إلى الماضي. تغيرت القوانين والأعراف. القاضي، لا يعرف القصة كاملة؛ ولا وكيل النيابة. لدى سلطانة حدس بأن ما خفي كان أعظم، لكنها ليس لديها خيط. اتضح له أن مصير زيبا لن يتحدد على أساس الحقائق، سيتحدد على أساس غياب المعلومات، ما يعد ظلمًا ممنهجًا. نظر إلى سلطانة وتساءل إن كان قد حان دوره هو ليعمل في نطاق الأعراف غير المكتوبة التي تحكم هذا البلد.

«ماذا لو أخبرتك أين قد تجدي معلومات عن قضية زيبا؟»

مال رأسها بخفة وطرفت بعينيها.

«ماذا تعني؟»

حاول تجاهل الرطوبة المتسللة إلى قدميه. كانت أمه ستخلع له جوربيه منذ وقت طويل. *أنت لا تعرف هذا الآن لأنك ما زلت صغيرًا، لكنّ رجليك ستضعفان لبقية حياتك إن لم تخلع جوربيك. أنا أعرف أن لديك شهاداتك وكل هذا، ولكن يوجد الكثير لتتعلمه في الحياة أيضًا.*

نقر بسن قلمه على دفتره، ثم رفع بصره. راقبته، كتفاها مفرودتان ومتحفزتان. تعرف أن عليها ألا تلح. وأن عليها أن تصبر فحسب.

«أنت محقة. قضية زيبا معقدة وفيها أكثر بكثير مما هو مذكور في محضر القبض»، قال فيما يزهر بداخله اليقين بأنه على صواب. بل إن هذا، في الحقيقة، الشيء الوحيد الذي يمكنه فعله. واصل «أُثيرت ضجة كبيرة في قريتها مؤخرًا. أقاويل يرددها الناس عن زوجها المتوفي قد تلقي بقدر كبير من الضوء على ما حدث ذاك اليوم».

«حقًا؟»

«نعم. أقاويل كثيرة عن أفعال ارتكبها في الأشهر الأخيرة قبل مقتله. من المهم معرفة أي نوع من الرجال كان، على ما أظن».

«أتقترح عليَّ أن أذهب إلى قريتها وأتحدث مع الناس؟»

لا يوجد وقت لذلك. يعرف يوسف جيدًا مشقة السفر، وطرق الأبواب لمقابلة قليلين يرغبون في التحدث.

«لقد قابل مأمور الشرطة الجميع تقريبًا، رجل يُدعى حكيمي. يبدو أن المرحوم كان مدمنا على الخمر».

ارتفع حاجباها فورًا باهتمام.

«حقًا؟»

«نعم، من بين رذائل أخرى كثيرة. لكن أسوأ ما في تقرير مأمور الشرطة كان عن حرقه صفحة من القرآن. يبدو أنه لم يكن يحترم كتاب الله كثيرًا. رجل يفعل هذا بالكتاب المقدس، حسنًا، تخيلي فقط كيف سيعامل زوجته».

«فهمت»، قالت وزمت شفتيها بحدة.

«هذه المعلومات سرية حقًا... ومن غير المحتمل أن تؤثر في حكم القاضي بقدر كبير لأنه لا ينظر سوى في الدليل المادي فقط».

«هل يوجد دليل على أفعال الزوج؟»

«هذا ما يقوله الكثيرون».

لم تقل شيئًا. عادت إلى الخلف في جلستها وضيقت عينيها على القلم الذي يُدوره يوسف بين أصابعه.

«أيوجد أي شيء آخر؟» سألته أخيرًا.

هز رأسه قائلًا:

«هذا... هذا يوضح الكثير، أليس كذلك؟ هكذا ستكون القصة مشوقة ليقرأها العامة».

«ما سيصل حينها إلى القاضي ويجبره على التساهل مع زيبا لأن زوجها كان كافرًا.. حرق صفحة من القرآن».

كان في نبرتها حدة واضحة. ضيقت عينيها بشدة فذاب الكحل مع أهدابها وبؤبؤيها مكونا أهلة داكنة.

حرك أصابع قدميه. بدأت رجلاه تؤلمانه.

قالت:

«أتعرف؟ لم أتوقع هذا». تراجعت عن الطاولة. وجهها جامد وساخط. «كنت أتوقع منك أفضل من هذا. سمعت أنك تحاول جاهدًا بناء قضية حقيقية لموكلتك. تحاول الدفاع عنها حقًا بدلًا من الانتقال من ملفها إلى ملف سجينة بائسة أخرى».

«ماذا تقولين؟» ذهل من رد فعلها. مال إلى الأمام، نظر بسرعة نحو الباب الزجاجي ليرى إن كانت إحدى الحرس تتسمع إلى محادثتهما.

«أتريد صحفيًا ليقوم بدلًا منك بالعمل القذر؟ ليس أنا. لقد أساءت الشائعات بما يكفي لهذا البلد، إنها سم. انظر إلى النساء في هذا السجن. لقد اطلعت على ملفاتهن، أليس كذلك؟ كم منهن هنا فقط لأن أحدهم أشار إليها بإصبع الاتهام؟ أنا لن أشارك في نشر الأكاذيب لأنك على وشك خسارة قضيتك. إن لم ترغب زيبا في التحدث عن زوجها فهذا لا يعني أن بإمكانك اختلاق الأكاذيب لتبرير إعدام آخر خارج نطاق القانون مثلما حدث في كابول. كنت هناك، أتعرف؟ قمت بتغطية المظاهرات بعد قتل تلك المرأة في الشارع بسبب الشائعات. خرج الآلاف ضد عدالة الشارع».

«انظري، هذا ليس قصدي يا سلطانة. دعيني فقط أوضح لكِ».

نهضت عن كرسيها وهزت رأسها بإباء. التقطت حقيبتها عن الأرض، فكادت تُسقط الكرسي. نهض هو الآخر، ظلت يداه على الطاولة. سار الأمر بشكل سيئ جدًا.

قال:

«خمس دقائق فقط».

«حظًا سعيدًا في قضيتك يا يوسف. كان ذلك للأسف مضيعة للوقت».

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل 48

عـض يوسـف طـرفَ قلمـه. كعادتـه منـذ أيـام المدرسـة العليـا. كان القاضـي نجيب قد استدعى المحاميَيْن كليهمـا إلـى مكتبـه يـوم الاثنيـن لإصدار الحكـم. قـدم كل مـن الطرفيـن قضيتـه كاملـة، وقـد حظيـا بمـا يكفـي مـن الوقت للتأجيـل.

اليوم: الاثنين.

جلس يوسـف على المقعد المطبـوع بالزهـور وجلست زيبا علـى كرسـي خشـبي بجـواره. جلـس وكيـل النيابـة علـى المقعـد المقابـل ليوسـف بإيمـاءة مـن رأسـه. دس يوسـف قلمـه المُعضعـض فـي حقيبتـه، مـا زال مـذاق المعـدن والمطـاط فـي فمـه. استقر وكيـل النيابة فـي جلسته ثم وضـع الملف على الطاولـة. نظـر المحاميين أحدهمـا إلـى الآخـر وتبـادلا نصـف ابتسـامة.

«أيًـا كان الأمـر، سـينتهي اليـوم»، قـال وكيـل النيابـة وهـو يرفـع كتفيـه.

أومـأ يوسـف برأسـه. لـم يتأثـر البتـة بخطـاب وكيـل النيابـة البـارد، لكنـه يحكـم علـى الرجـل بمعاييـره هـو الخاصـة.

واصـل وكيـل النيابـة: «أنـا... يجـب أن أخبـرك، إن طريقتـك فـي تطبيـق القـانـون.... أنـا لـم أرَ أحـدًا يعمـل بهـذا الاجتهـاد للدفـاع عـن مجـرم».

«إنهـا ليسـت مدانـة بعـد»، صحـح لـه يوسـف فـورًا. «هـذا هـو القصـد».

أومأ وكيل النيابة بلا مبالاة. سيتسلى بيوسف اليوم.

«أنت تعرف قصدي».

دخل القاضي نجيب ومر بالمحاميين وزيبا ليتخذ مجلسه. وضع الرجلان كل منهما يديه على ركبتيه ونهض. لم تجد زيبا داعيًا لنهوضها، كان القاضي يدير لها ظهره في جميع الأحوال. ظلت جالسة.

«السلام عليكم». رددا التحيات بهدوء.

«وعليكم»، أجابهما القاضي نجيب. «تفضلا بالجلوس».

ثم جلس وعاد بظهره للخلف وبدا متأملًا وهادئًا. أزلق يده في جيب سترته وأخرج مسبحته ليحملها في راحته اليسرى. أطال اللحظة ما أمكنه، يريد أن يشعر الجميع بأهمية الاجتماع.

«حان الوقت لوضع نهاية لهذا الأمر»، قال وهو ينظر إلى زيبا. «ظل هذان المحاميان يتجادلان في وقائع هذه القضية وقتًا طويلًا جدًا. استغرق منا الأمر وقتًا طويلًا لنتأكد من سير الإجراءات حسب القانون. حتى وإن لم نكن في كابول، فلسنا بأقل اجتهادًا».

جلست زيبا ويداها متشابكتان في حجرها. تراقب القاضي، لكنها تطرف بعينيها من حين إلى آخر وتخفض بصرها إلى الأرض لئلا تبدو وقحة. تفرس القاضي نجيب في وجهها لبرهة.

«لست كما كنتِ حين جئتِ هنا لأول مرة منذ أشهر».

توتر جسد يوسف كله.

«بدوتِ حينذاك كأن الجن يتلبسك. كنت كحيوانة، لم يكن بك شيء آدمي. ألاحظ الآن أنك مختلفة. ليس لهذا أي صلة بإدانتك أو براءتك وكل ما يتعلق بشخصك».

شعر يوسف بمعدته تهوي. لم تجفل زيبا. بل عادت بكتفيها إلى الخلف قليلًا ورفعت ذقنها. لم يروقها أن يصفها القاضي بحيوانة حتى وإن كان يتحدث عن التحول. لكنها تعرف أنه محق مع ذلك. كانوا قد جروها من مكتبه وهي تصرخ وتركل بقدميها، كانت تشعر بوحشية داخلية لأنها لم تعرف ماذا أو من كانت. أي أم لا يجن جنونها حين يأخذونها بعيدًا عن أطفالها وهم في أمس الحاجة إليها؟ التماسك في تلك اللحظة هو الجنون الحقيقي.

«أنت لا تقولين الكثير. لم تتحدثي البتة طوال هذه المحاكمة. كل ما نعرفه عنك اعترافك الممهور ببصمتك»، قال القاضي.

«إنه ليس اعترافها»، قاطعه يوسف رافعًا سبابته.

رفع القاضي يده نحو يوسف. فسكت الأخير.

«أتظنين أنك تتحكمين فينا؟» سأل القاضي نجيب. «أتظنين أنك مثل أمك بإمكانك توجيه العالم في المسار الذي تشائينه لأنك ما أنت عليه. أنت حفيدة المرشد الذي وصفوه تارة بالورع وتارة أخرى بأنه جاسوس لدول معادية. أنت ابنة الساحرة...»

حاولت زيبا ألا تجفل، لكن القاضي لمح كيف اختلجت عضلاتها لذكره أمها.

«أوه؟ ألم تظني أنني أعرف بشأن حيلها؟ لقد ظلت طوال حياتها امرأة بارعة».

نظر القاضي بعيدًا وهو يزم شفتيه. لماذا لا يمكنه رؤية جلناز كعجوز شمطاء؟ عبس وهو يفكر في جذبها للأنظار بشكل غير رباني.

«قاضي صاحب، يجب ألا تكون لسمعة جدها أو أمها وعاداتهما أي صلة بهذه القضية»، قال يوسف بصوت هادئ ما أمكنه. الدفاع عن موكلته دون إهانة القاضي مهارة تُكتسب بالممارسة.

لم يكترث القاضي بتعليق يوسف لكنه واصل كلامه دون الإشارة إلى جلناز مرة أخرى، بدا أنها مهمة بالنسبة إليه مثل زيبا تمامًا.

«أنتِ، خانوم، ألقي القبض عليكِ بتهمة قتل زوجك. أتوجد جريمة أسوأ من تلك؟ أيوجد شيء أسوأ من حرمان أبنائك من أبيهم... من... من حرمان عائلته من أخيهم؟ أيوجد أسوأ من قضائك على حياة شخص؟»

شعرت زيبا باستسلام يقوض كيانها. خلال دقائق -قليلة أو كثيرة- سيحكم عليها بالإعدام لقتلها كمال. رأت وجوه أبنائها خلف جفنيها المغمضين.

رأى يوسف انسحابها فدعا الله لها في سره على نحو غريزي. أراد أن يضع يده على يدها لكنه منع نفسه. لم تكن المرأة التي يظنها القاضي. كانت أشجع امرأة رآها، على استعداد لوضع نفسها تحت رحمة القاضي لإنقاذ مستقبل فتاة صغيرة من تدميره قبل بدئه. كان يكنّ احترامًا عميقًا لهذه المرأة التي دفعه سلوكها إلى الجنون أحيانًا.

«لم توضحي لي لماذا قتلت زوجك ذاك اليوم».

أغمض يوسف عينيه. لم يستطع النظر إلى زيبا. ليس الآن. ارتسمت ابتسامة على وجه وكيل النيابة، ارتفع رأسه قليلًا بشماتة. كان مندهشًا ومسرورًا من قرار القاضي الواضح.

وضع القاضي نجيب يديه على مكتبه، ما زالت أصابعه تحرك حبات مسبحته العنبرية مع أنه لا يردد أي ذكر وهو يتحدث. ضغط صوت التكات الهادئة لتحريك الحجارة الصغيرة على

أعصاب يوسف. أي نوع من الحكم هذا؟ ألم يسمع القاضي نجيب بالأقاويل عن معاقرة كمال للخمر، عن فجوره؟ هل تجاهل حقيقة أن زوجها من أسوأ أنواع الرجال؟

بدأت يدا زيبا ترتعشان. أدارت رأسَها جانبًا كأنها تتحاشى لكمة وشيكة.

«لقد وجدتك مدانة بالقتل»، أعلن القاضي بجهامة. «لأن هذا ما تثبته الأدلة. لم أجد شيئًا من جانب الدفاع عنكِ يمنح توضيحًا آخر لمقتل زوجك».

«حسنًا فعلت»، همس وكيل النيابة، الذي يمكنه الآن إضافة نصر آخر إلى ملفه المهني. قد تكون الظروف الخاصة لقضية زيبا قد أثرت فيه قليلا، لكنه عليه الاهتمام بمساره المهني أيضًا. مقياسه.

وضع يوسف مرفقيه على ركبتيه. يعرف قانون العقوبات. كان قد درسه، ثم طالعه مرة أخرى حين تولى قضية زيبا. سيتم إعدامها. إن نظر إليها الآن، إن تجرأ وحرَّك عينيه عن السجادة على الأرض، سيراها معلقة في الهواء، عنقها مكسور كدمية بلاستيكية وجسدها يتدلى مهزومًا.

«دعيني أوضح أكثر. أنتِ -خانوم زيبا- مدانة بقتل زوجك. هذه جريمة شنيعة في الإسلام وفي قوانين بلدنا. لا يوجد عذر لها. وسنعقد جلسة مجددًا خلال ثلاثة أيام لإصدار الحكم عليك».

الفصل 49

شق يوسف طريقه إلى البيت بصعوبة بعد سماعه قرار الإدانة. كان يريد العودة إلى شقته مباشرة، لكنه قرر في منتصف الطريق أن يذهب إلى الصالة الرياضية أولاً. إنه بحاجة إلى بذل جهد بدني.

كان قد سجل اسمه هناك في الأسابيع الأولى لوصوله. داخل الصالة مرايا من الأرض إلى السقف، أضواء ساطعة ومريحة، والهمهمة المألوفة لأجهزة السير. آلات الوزن ومجموعات الأثقال في كل مكان. رجال بمختلف الأحجام، بعضهم ببذلات رياضية من أديداس، وآخرون بتيشيرتات قديمة بلا أكمام. أحدهم بتيشيرت نصف كم يشد طرفي حزام مقاومة مطاطي. يسري عِرقٌ سميك في منتصف عضلتي ذراعيه كعلامة الكيّ في بنطال. رائحة المكان مطاط وعرق ومعدن.

أبقى جهاز السير يوسف عاقلًا. هدأه وقع خطواته على الحزام وهو يلف حول اللوح. منحه مساحة للتفكير خلافًا لشقته الهادئة جدًّا والمكتب الخالي.

عاد ذهنه على الفور إلى زيبا والملا. عليه أن يعرف إن كان أبوها حقًّا، مع أنه ليس متأكدًا من الفارق الذي قد يحدثه هذا. كان قد اتصل بزيبا بعد عودتها إلى شيل مهتاب بوقت قصير ليسألها.

أي سؤال هذا؟ أجابته. لم يكن ذلك تأكيدًا أو إنكارًا.

قرر، وحبات العرق تسيل على ظهره، أن يتبين من الملا حبيب الله بنفسه. إن كان ذلك حقيقيًا، فسيوجد المزيد ليتحدثا بشأنه.

هكذا، في الصباح، سافر يوسف إلى المقام وطرق باب الملا. فتح له ابن الملا الباب وارتفع حاجباه دهشة.

«بادر! إنه المحامي!»

نظر يوسف إلى غرفة الجلوس ورأى الملا يجلس على حشية على الأرض، الموقع نفسه الذي كان يجلس فيه في آخر محادثة بينهما. يستند بظهره على الحائط ويعقد رجليه أمامه. على رأسه طاقية كروشيه بيضاء ويرتدي سترة سوداء بلا أكمام على قميصه وبنطاله البنيين. ألقى نظرة سريعة في ساعته كأنه كان يتوقع يوسف في تلك اللحظة بالضبط.

«سلام يا ملا صاحب»، قال يوسف بيد على صدره.

«وعليكم. مرحبًا أيها الشاب».

«هل يمكننا التحدث لدقائق قليلة؟ توجد مسألة مهمة يجب أن أناقشها معك. الأمر له علاقة بخانوم زيبا، بالطبع».

أشار له الملا بالدخول. تقدم يوسف خطوتين في الغرفة. لاحظ ما إن عبر الباب الخشبي أن الملا ليس وحده. تجلس جلناز قبالته. ظهرها مستقيم كالعصا. رجلاها مدسوستان أسفلها وتغطيهما بوشاح أزرق سماوي موشى بخيوط حمراء. نظرت إلى يوسف ثم إلى الوشاح المفرود على حجرها وتنهدت بعمق.

«السلام عليكم»، قال لها يوسف وهو يحني رأسه. فأومأت له برأسها قائلة: «لم أتوقع أن أراك هنا».

عاد ابن الملا من الغرفة الخلفية بكوب فارغ ليصب فيه الشاي ليوسف.

«تفضل بالجلوس»، قال الملا. جلس يوسف على الحشية نفسها التي يجلس عليها الملا، تاركًا مسافة واسعة بينهما. وضع ابن الملا كوب الشاي أمامه على الأرض. جلب إبريق الشاي وصب منه بخراقة، اختفت آثار خراقته في السجادة البالية. ثم اختفى الولد أيضًا، ذهب إلى الغرفة المجاروة من باب خلفي لا مرئي.

ظلت عينا جلناز مثبتتين على الملا.

«لقد قاطعت محادثتكما»، أعلن يوسف متأكدًا تمامًا منه أنه يجلس مع والدي زيبا. مع أنه لم يتزوج، لكنه يعرف جيدًا التوتر المألوف حين يزور عمة وعمًّا ظلا متزوجين فقط ليتجنبا أعباء الطلاق. شعر به على الهاتف في محادثته الأخيرة مع إلينا. نوع خاص من الغضب، كآبة، حنق لا يوجد إلا مكان الحب الضائع. تنحنح ثم قال: «جئت لأسأل عن شيء ما قالته زيبا ذاك النهار لكن... حسنًا، ظني أنني تلقيت الإجابة».

لم يقولا شيئًا.

«أنا لا أريد التدخل في شؤونكما أو تاريخكما العائلي. همي الوحيد هو قرار القاضي. يؤسفني أن أخبركما بأن القاضي قد أدان ابنتكما. لكنني لست مستعدًا لترك قضيتها».

طارت يد جلناز إلى جبينها.

«أدانها»، قالت بأسى، صوتها رفيع ورقيق كالخيوط الحمراء في وشاحها. «بالطبع».

قال يوسف:

«كما قلت، لست مستعدًا لترك قضيتها».

جعل تحول طفيف في تشكيل السحب في السماء فيضًا من أشعة الشمس ينصبّ في الغرفة. سبحت ذرات التراب في المساحة الساطعة عند قدمي يوسف.

«أنتِ»، قال الملا، صوته مفعم بالسخط. «كيف لم يمكنك إيجاد شيء لطحنه أو حرقه لإنقاذ ابنتك؟ ظني أن حيلك ليست إلا لأخت الزوج اللئيمة أو لمن نظرت إليكِ بجانب عينيها».

ضغطت جلناز بأصابعها المفلطحة في حجرها. رفعت رأسها وضيقت عينيها وهي تنظر إلى زوجها قائلة:

«وماذا لديك أنت لتقوله! أنت، صاحب المقام المبجل المقدس، الورع التعس! بكل نذورك المربوطة بالأسوار ومجانينك الذين لم تنقذهم، ماذا فعلت لابنتك؟»

«لسانك يستحق قطعه»، تمتم الملا.

«أنا من ربيت أطفالك واضطررت إلى التعامل مع أسرتك بعد رحيلك! إن كان ذلك يجعلني دجالة بلسان يستحق قطعه، فليكن. لكن فكر في مدى حقارتك، الرجل الذي لم يأبه برعاية طفليه. تركتنا بلا شيء حين كانت الصواريخ والقنابل تنهمر من حولنا كالمطر».

«تركتكم في كنف عائلة محترمة».

«لقد أخذتني من كنف عائلة مبجلة».

«مبجلة»، ردد هازئًا. «لقد أخبرتني بنفسك أنك ساعدت أباك في حيله لجعل جيرانكم المساكين من مريديه».

«أنت وغد جاحد. إن كنت تحتقر أبي لهذه الدرجة لماذا رغبت بشدة في أن تحذو حذوه؟ لقد كان محترمًا لأنه ساعد

الناس. ليس مثلك، كان يفعل ذلك بطريقة متحضرة. لم يقيد أحدًا أو يجوِّعه».

«ما أفعله يفلح. تحدثي مع أسر من ساعدتهم على الشفاء. سيخبرونك. أو لا تفعلي. لست بحاجة إلى إثبات نفسي أمامك».

«لا، لست كذلك. لقد أثبتَّ لي بالفعل ما أنت عليه»، أجابته كأنها تبصق. أدارت رأسها نحو الباب، تشيح بوجهها عن الرجل الذي هجرها منذ أمد طويل.

فكر يوسف في الانصراف. في الغالب لن يلاحظا مغادرته. لا يمكنه تضييع وقته في الاستماع لتقليبهما في الماضي. سيصدر الحكم على زيبا خلال يومين، ورغبة القاضي نجيب في تطبيق قانون العقوبات بالنص تعني أنه سيحكم عليها بالإعدام دون أن يرمش له جفن.

«ليس من حقي التدخل»، بادرهما بحذر. كان واعيًا لفارق السن بينه وبينهما. كانا في مقام جدَّيه، كبيران بما يكفي للتعامل معهما باحترام حتى وإن تصرفا كأحمقين. لكنهما ضربا بالآداب الاجتماعية عرض الحائط حين نشرا تاريخهما أمامه. «لكن التقليب في ما مضى لن يساعد ابنتكما. إنها على شفا حفرة. لديَّ أفكار قليلة، لكنني سأحتاج إلى مساعدتكما.. أنتما الاثنان».

رشف الملا من شايه بصوت عال فعقدت جلناز حاجبيها، لخص هذا المشهد ليوسف ماضيهما كله.

«سأفعل أي شيء لمساعدة زيبا. وعدتها بهذا قبل أن تغادر»، أعلن حبيب الله وهو يقلب أوراق الشاي المترسبة في قعر كوبه.

«جيد. سأطلب منك إذن أن تتحدث إلى القاضي. إنه صديقك، أليس كذلك؟»

أومأ الملا برأسه.

«ألا يعرف من تكون؟» سألت جلناز. «إنه من القرية نفسها».

«كنا صغارًا حينها»، قال حبيب الله بهدوء. «لم يتعرف عليَّ قط، ولا أتوقع أن يفعل. أنا مختلف الآن من أوجه كثيرة، بما في ذلك مظهري».

«حقيقي جدًّا»، تمتمت جلناز. «تقدمت بك السن بشكل سيئ».

«تحدث معه إذن» قال يوسف بسرعة. «إنه يحترمك ويحترم ما تقوم به هنا. يعدّك خبيرًا وتقيًا. أخبره أن زيبا ابنتك وتوسَّل إليه أن يعفو عنها».

«أخبره من أنا؟»

«نعم. بالتأكيد سيشعر نحوك بالتزام ما. أنت لا تتحدث عن مجرد شخص مر بالمقام. يجب أن تقدم له سببًا جيدًا ليسمع كلامك».

«هذا بالضبط ما كنت أقوله له»، قالت جلناز بهدوء. «قد يعفو عنها القاضي إن عرف أنها ابنتك. هذا هو الأمل الوحيد أمامها».

هرش الملا لحيته. انعقد حاجباه الكثان وبرزت شفته السفلى. هذه طريقته في التفكير العميق، أدرك يوسف.

«ماذا دهاك؟» قالت جلناز فجأة. كانت حانقة من صمته حيث ينبغي إعلان الموافقة. أدارت رأسها بزاوية طفيفة جدًّا لتخاطب زوجها. «هل نطلب منك الكثير إلى هذا الحد؟»

«اسمعي»، صوته كزئير خفيض. «سأفعل أي شيء لأساعدها. لقد وعدتها بهذا. لكن هذا لا يعني أنه عليّ القفز برأسي أولا

في البئر. أريد أن أتأكد إن كان ثمة طريقة أفضل».

«طريقة أفضل لا تتضمنك، أهذا ما تعنيه؟»

«وبالنسبة إليك يا خانوم»، قال يوسف وهو يمر بطرف سبابته على حافة كوبه.

رفعتْ إليه رأسها لكنها لم تنظر إليه.

«أريدك أن تتفوقي على نفسك في ما تفعلينه. اذهبي لزيارة القاضي لتطلبي منه العفو. إنها أم لأربعة أطفال. كانت ابنة جيدة. كان زوجها رجلًا فظيعًا. أخبريه بكل هذا والأهم من كل شيء، ذكّريه بمواهبك».

«مواهبي؟» كررت جلناز بهدوء.

«نعم، أنت تعرفين ماذا أقصد. إنه ليس شيئًا أطلبه في العادة، لكننا في ظروف خاصة».

«فهمت»، أومأت برأسها. «سأتحدث معه».

لم يشك يوسف للحظة في أنها ستفهمه.

«وماذا عنك؟ ما ستفعل أنت؟» سأله الملا.

نظر يوسف نحو الباب وفكر في الرجال المقيدين في السراديب عبر الفناء. فكر في الساعات الطويلة التي قضاها تحت ضوء لمبات مكتبة القانون الخضراء، وفي عناد زيبا الشديد حين اقترح عليها إخبار القاضي بما رأت كمال يفعله بتلك الفتاة. لم يكن فخورًا بتحركاته في القضية، لكنه ظل مشوشًا منذ علم سبب فعل زيبا لما فعلته. فكر في سلطانة وكيف تركته وانصرفت، ساخطة وجميلة.

أعاد كوب الشاي أمامه على الأرض وصفق يديه بفخذيه قبل أن ينهض.

«بالنسبة إليَّ، لديَّ فكرة واحدة أخرى، عليَّ بدء العمل عليها فورًا إن أردت أن تفيد منها زيبا. لدى كل منكما رقم هاتفي. سيصدر الحكم يوم الخميس. اتصلا بي غدًا لتخبراني بما حدث».

ظلا في مكانيهما وقتًا طويلًا بعد أن غادر، جمدتهما رغبة لا يمكن مقاومتها في مراجعة ما كان من كل منهما. تقتضي سنهما ألا يتركا أي شيء مسكوتًا عنه.

ذات مرة، تذكرت جلناز بوجوم، في إحدى فترات الظهيرة، نظرت من النافذة وشعرت بالدوار لفكرة أن حياتها قد ارتبطت بهذا الرجل بخيط لا مرئي. تبدو فكرة كهذه مذهلة الآن وهما جالسان يغليان في حضور أحدهما الآخر.

الفصل 50

فتح يوسف علبة الطعام التي جلبتها له أنيسة، سبانخ سوتيه وأرز يشبهان رمز الطاوية بالأبيض والأخضر. كان يتضور جوعًا، فتشمم بخار الأرز الأبيض المحمل برائحة الكمون والملح. أحضرت أنيسة قطعتين من الخبز الطازج أيضًا. قطع يوسف لقمة وغمسها بكتلة من السبانخ المختلطة بخيوط وردية من الروانـد. كان فمه ممتلئًا بالطعام حين دخلت سلطانة غرفة المكتب.

لم يستطع إخفاء دهشته. وقف والتقط منديلًا ورقيًا. وضعه على فمه بيد واحدة ليخفي مضغه، وأشار إليها باليد الأخرى. رأته فأومأت برأسها وتقدمت نحوه.

«أنا أقاطع غداءك»، قالت على نحو اعتذاري.

حاول ألا يختنق بالطعام وهو يبتلعه بسرعة. مسح شفتيه بالمنديل وعاد يجلس على كرسيه. جلسا متقابلين، كما كانا في غرفة المقابلات في شيل ماهتاب.

«لا تقلقي بهذا الشأن»، قال وهو يعيد تغطية العلبة. «أأنت جائعة؟ يمكنك مشاركتي، لكن...»

«شكرًا، لقد تناولت طعامي منذ وقت قصير»، أجابته. كانت ترتدي السترة الزيتونية نفسها بكميها مشمرين، وتربط طرحتها بلونيها الأصفر والأخضر أعلى رأسها. «لا تتوقف بسببي، أرجوك».

«لا بأس. لست جائعًا على أي حال،» قال وهو يتنحنح. كان في المكتب محامٍ آخر، لكن مكتبه في الجانب الآخر من الغرفة ويفصل بينهما نصف جدار. رفع المحامي الآخر بصره باهتمام

حين رأى سلطانة تدخل المكتب وظل ينظر بطرف عينه وهو يتحدث في الهاتف. من غير المعتاد، بالطبع، أن تأتي إلى المكتب شابة.

«تدهشني رؤيتك».

«أنا متأكدة من ذلك. كان بإمكاني الاتصال، لكنني ظننت أنه من الأفضل أن أمر بك».

«أنا سعيد لأنك فعلت. اسمعي، دعيني أعتذر لكيفية سير محادثتنا الأخيرة. أنا لم أقصد استغلالك في القضية».

«لكن هذا ما كنت تفعله، أليس كذلك؟» كانت ما زالت تحمل حقيبتها على كتفها، تمنى يوسف أن تضعها. بدت كأنها ستغادر في أي لحظة.

«بلى.. بلى هذا صحيح»، اعترف. «اسمعي، أنا أبذل قصارى جهدي في قضية زيبا. إنها مأساة متعددة الزوايا، ومهما حاولت، حسنًا، لن ترى المحكمة لماذا لا يجوز إعدامها. وقد مرت الثغرات في قضية وكيل النيابة مرور الكرام، في حين ينبغي ألا يحدث ذلك حقًّا».

«أنا متأكدة من أن هذا حقيقي. لكن هل تعتقد أن الرجل حرق صفحة من القرآن، وإن كان قد فعل حقًّا، هل يجب أن تقتله زوجته؟ لا أظن أنك تعتقد هذا، لهذا أردت أن أتحدث معك مجددًا. ربما توجد زاوية أفضل للقصة».

أراح مرفقيه على المكتب. كان يوم الأربعاء، تبقت نحو أربع وعشرين ساعة على إصدار الحكم. ما زال لم يتلقَّ أخبارًا من والدي زيبا. كان قد اتصل بهما، لكنهما لم يجيبا.

«يمكنني إخبارك بالقصة كلها، لكنها قصة قبيحة وليست للنشر . لا يجوز نشر أي تفاصيل للعامة».

«ما الأمر؟» سألت سلطانة، بفضول بالطبع. كان عملها أن تطرح الأسئلة، ولهذا تحديدًا جاءت إلى المكتب.

«أريد منك وعدًا باحترام سرية ما تريده زيبا أن يبقى سرًّا».

«أعدك». أزلقت حزام حقيبتها من فوق كتفها وتركتها تسقط على الأرض.

عادت بظهرها في كرسيها واستمعت إلى يوسف وهو يخبرها عن الفتاة الصغيرة، بصوت خفيض ومتجهم. جفلت، بشكل غير ملحوظ تقريبًا، لكنها لم تقاطعه ولم تتحرك في جلستها. أخبرها عن خوف زيبا على الفتاة إن ذكرت شيئًا عنها، ستسعى القرية كلها لمعرفة الضحية وسوف يدمرون حياتها مجددًا. لم يكن عليه شرح مخاوف زيبا. تفهمها سلطانة بقدر ما قد تفهمها أي امرأة أخرى تعرف أن الأمر كله يتعلق بالشرف.

لقد سُلِبَت تلك الفتاة شرفها ومستقبلها. إن عرف أحد شيئًا، ستعيش تحمل العار طوال عمرها.

كان ذلك ظلمًا شديدًا، جعل دم سلطانة يغلي.

«زيبا لديها أربعة أطفال. ليس لديهم سواها. إن فقدوها سيفقدون كل شيء».

«أأنت متأكد من هذه القصة؟» سألت سلطانة. هي نفسها لا تشك فيها مع ذلك. لا يوجد سبب لذلك.

«أنا متأكد»، أجابها وهو يومئ برأسه. «طريقة تحدثها عنها... إنها الحقيقة. لهذا قلت لك ما قلته. سيصدر الحكم عليها غدًا،

لقد أكد القاضي رغبته في تطبيق القانون بالنص. ظني أنه سيحكم بإعدامها».

عقدت سلطانة رجليها ونقرت بأصبعها على ذقنها.

«ماذا يمكننا فعله؟ حتى وإن ذهبتُ إلى القاضي بشائعات عن زوجها، بما سيفيدنا هذا؟»

«إنها رمية بعيدة، لكنها كل ما يسعني. لقد حاولت كل شيء آخر». كان ذلك حقيقيًا، حتى إنه دفع بالملا وجلناز ليتوسلا إلى القاضي العفو. كان تحولًا مأساويًا، أدرك أنه صار الآن يلتمس العفو فقط بدلًا من العدالة أو الحرية.

«وفي اعتقادك، لو أخبرت القاضي بأنني أجري تحقيقًا عن الزوج الميت، وأنني سأكتب عن الاتهامات المنسوبة إليه بشأن حرق القرآن، فهل هذا سيضغط عليه لئلا يحكم بإعدام المرأة التي قتلته؟»

«ظني أن هذا محتمل... حسب ما رأيته من هذا القاضي».

«لا أعرف»، زمت شفتيها وتفرَّست في وجهه.

كان المحامي الآخر قد أنهى محادثته الهاتفية وظل ينظر نحوهما. رفع حاجبيه كأنه يسأل يوسف من تكون زائرته. رفع يوسف يدًا وعاد ينظر إلى مكتبه. لم يكن في مزاج لتوضيح أي شيء.

«شائعات القرية. لم أرغب في أن تكون لي أي علاقة بها أبدا. إنها تعني الموت لنا جميعًا، أقسم بهذا». همست سلطانة.

مرر أصابعه في شعره. لديه كل الأسباب ليتوقع خسارة هذه القضية. كانت جميع الاحتمالات ضده من البداية. زوج ميت، زوجة صامتة، لا شهود ولا مشتبه فيهم محتملين. كان عليهم إعدامها منذ وقت طويل.

وقفت سلطانة فجأة، سوَّت سترتها. مدت يدها إلى حقيبتها.

«هل ستغادرين؟» سألها. لا يريدها أن تغادر. بل يريدها، إن لم تقم بأي شيء آخر أن تبقى وتخبره أنه فعل كل ما بوسعه. كانت الوحيدة غيره التي تعرف الحقيقة.

«تأخر الوقت وعليَّ العودة»، قالت وهي تنظر إليه وترى اليأس في عينيه. لكنه هو رأى عزيمة في عينيها.

أضافت: «وأريد أن أتصل بالقاضي قبل أن يتأخر الوقت».

الفصل 51

أنهى القاضي نجيب الاتصال وفرك شحمة أذنه بإصبعين.

«من كان هذا؟» صاحت زوجته تسأله من الغرفة المجاورة.

لم يسمعها، ما زالت أذنه تطن من محادثته مع الملا حبيب الله.

«هل كانت شادية؟ هل قالت شيئًا عن ذهابهم إلى كابول في العطلة؟»

شعر بألم الحموضة السمج يغور في صدره، ولم يكن متأكدًا أكان بسبب طبيخ زوجته أم مما سمعه حالًا من صديقه. فكر في القليل الذي يعرفه عن الرجل، حتى بعد كل تلك السنوات، ظل يصدق كالأعمى أنه جاء من إقليم آخر لمساعدة الناس. كان ذلك مجرد خيطٍ رفيعٍ من الحقيقة. شعر -وهو الذي يقابل الأكاذيب والقصص المختلقة في حياته يوميًا- بأنه كان عليه التدقيق في فجوات تلك القصة.

لكنه لم يفعل.

«أيها العجوز، هل فقدت سمعك؟» صاحت زوجته. كانت تقف عند عتبة الباب تحت القوس الفاصل بين الغرفتين. تحمل في يدها طاسة نصف مغسولة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«أكنتِ تقولين شيئًا؟»

«تقولين شيئًا؟» كررت بدهشة.

«حسنًا. من الواضح أنك قلتِ شيئًا. ماذا قلتِ؟»

«سألتك إن كانت أختك من اتصلت».

هز رأسه.

«اتصل بها إذن لتسألها إن كانوا سيذهبون إلى كابول في العطلة. أريدها أن تشتري لي قماشًا».

«سوف أتصل بها غدًا»، غمغم. «هل تبقى شاي في الإبريق؟»

«لا. سأعد لك كوبًا»، قالت وهي تعود إلى المطبخ. توقفت قبل أن تختفي تمامًا. «هل فكرت في إغماض عينيك لدقائق قليلة؟ تبدو مرهقًا».

أومأ برأسه. إنها زوجة جيدة -أقر لنفسه- حتى وإن كانت تسلبه كامل هيبته ما إن يدخل البيت. كانت محترمة لتفعل ذلك فقط وهما وحدهما، وكانت تذكره مرارًا أنها ترى أن هذا من واجبها. *إن بقية العالم يحنون رؤوسهم لك، عزيزي القاضي. ومن واجبي أن أذكرك أنك مجرد رجل.*

«سأذهب للسير لدقائق قليلة. قدماي متخشبتان».

«إن ركبتيك تزدادان سوءًا. سأنقع لك بعض الأعشاب والزنجبيل».

تذكر وهو يضغط على إحدى ركبتيه لينهض كيف كان يفكر في جلناز. عيناها، هاتان الزمردتان، سحرتاه، ندم لأنه لم يتقدم لخطبتها بحماسة أكبر في شبابه. أكان جسده سيؤلمه كما يؤلمه الآن لو كان قد قضى حياته معها؟ أم كانت ستضطره هو الآخر إلى الرحيل كما حدث مع الملا؟

«متى ستصدر الحكم في هذه القضية؟» صاحت زوجته وهي بعيدة عن نظره.

«غدًا». قال وهو يسوي قميصه، عبس لرؤية بقعتين من الدهن الأحمر من غدائه.

«الخميس؟ قبل العطلة مباشرة؟ حقًا، أأنت بقسوة القلب تلك لإصدار حكمًا بالإعدام ليلة الجمعة؟»

«أيوجد يوم أفضل لإصدار الحكم بالإعدام؟» سألها مازحًا. سمع صفير الغلاية.

«أنت تعرف ماذا أقصد».

«اسمعي، لديَّ بالفعل محاميان في هذه القضية، لست بحاجة إلى ثالث في البيت».

«هل تتخيلني لو كنت محامية؟» سألته ضاحكة. كانت قد وصلت في دراستها إلى الصف الرابع فقط قبل أن تترك المدرسة لتعتني بإخوتها الصغار. ومع أنها كانت متعلمة لكنها لم تفكر في العمل خارج البيت قط، ككل نساء في عائلتها. لم تكن الفكرة لتخطر على بال القاضي من باب التسلية حتى.

عاد ذهنه إلى زيبا. قد تكون ابنة الملا بالفعل، لكنها، حسب ما يرى، لا شك في أنها من قتلت زوجها.

وقف وسار نحو الباب ثم إلى الفناء. تنفس بعمق، أنعشته الرائحة النفاذة للشبت الذي تزرعه زوجته. توقف ليلمس الزهور الصفراء ويمرر أصابعه بين الأوراق الخيطية الخضراء.

بدا حبيب الله محرجًا على الهاتف، الأرجح لأنه كذب عليه من قبل بخصوص موطنه أكثر من حرجه لأنه ترك زوجته وأطفاله. أراد نجيب أن يُسدي لصديقه معروفًا، لكنه يتمزق حقًا. كان يتوق إلى جعل هذه القضية علامة فارقة. كان قد تصور نفسه من الرواد، رجل يُذكر عند ذكر العهد الجديد في النظام القضائي الأفغاني. لم يكن جموحًا منه أن يتوقع الاتصال به لشغل منصب

فـي محكمـة الاسـتئناف أو فـي المحكمـة العليـا حتـى، لتُخلَّد ذكـراه إلـى الأبـد فـي تاريـخ أفغانسـتان.

لا بـد أن أطفـال زيبـا يفتقـدون أباهـم. ومـن حقهـم رؤيـة العدالـة، فكـر فـي نفسـه، حتـى وإن كان حبيـب الله يراهـا بشـكل مختلـف.

لقـد كان رجـلًا فظيعًـا، قـال لـه صديقـه القديـم أخيـرًا، *رجـل لا يسـتحق زوجتـه وأطفالـه. زيبـا امـرأة جيـدة. مخلصـة ونقيـة القلـب. زوجهـا هـو المسـؤول عـن هـذه الفوضـى، وليسـت هـي.*

صديقـي، أجابـه نجيـب بكآبـة. *أنـا أتفهـم موقفـك كأب. لكـن كيـف ليسـت مسـؤولة؟ ويجـب أن أسـألك أيضًـا كيـف لـك أن تعرفهـا جيـدًا فـي هـذه الحـال. أعـرف أنهـا ابنتـك، لكنـك لـم ترهـا منـذ عقـود. فكـر كيـف اختلـف كل واحـد منـا عمّـا كان عليـه منـذ ثلاثيـن عامًـا مضـت.*

فـي النهايـة، وعـده بـأن سيضـع التماسـه فـي الحسـبان وأن يفعـل مـا بوسـعه إكرامًـا لخاطـر صديقـه. أقسـم صادقًـا أيضًـا ألا يبـوح بشـيء عـن الأمـر. إن جذبـت هـذه القضيـة الأنظـار، فـلا يريـد نجيـب قـدرًا كبيـرًا مـن التدقيـق فـي مسـألة المقـام. كان المـلا يسـاعد النـاس هنـاك حقًّـا، ولـم يجـد القاضـي داعيًـا لجـر أحـد أوليـاء الله الصالحيـن إلـى الفوضـى.

خـرج إلـى الشـارع، أخـرج مسـبحته مـن جيـب سـترته. بيتـه فـي صـف مـن بيـوت متشـابهة مـن طابـق واحـد، أمـام كل بيـت جـدار خارجـي يحيـط بخصوصيـة الحيـاة فـي الداخـل؛ مـا جعـل الطريـق يبـدو كالـرواق، بجـدران عاليـة علـى كلا جانبيـه. أغلـق نجيـب البوابـة المعدنيـة خلفـه، ليـواري بيتـه هـو عـن أنظـار الجيـران والمـارة. فكـر فـي الأشـخاص الذيـن دخلـوا بيـت زيبـا ذاك اليـوم وأحاطـوا بهـا، هـل

ذكر محضر الشرطة كم عددهم؟ عشرات من المحدقين بانشداه يقتحمون خصوصية أسرة. هذا ما لا تفهمه هؤلاء النسوة، فكر نجيب. جميع نساء شيل ماهتاب دمرن جدرانهن بجرائمهن، أزاحوا حجابهن الذي يسترهن. تجاوز بعضهن الحد في علاقاتهن بالرجال، وأخريات عملن لوقت متأخر مع زملائهن الذكور. ترك بعضهن بيت أبيهن. كان عليهن توقع العواقب.

لم يكد يصل إلى نهاية الشارع حتى توقف فجأة. ضيق عينيه وتساءل إن كان بصره ليس بحال أفضل من ركبتيه. مع ذلك، إنها هي بلا شك.

«ماذا تفعلين هنا؟» سألها بسخف.

«قاضي صاحب» قالت جلناز بصوت هادئ وحازم. «أريد أن أتحدث معك».

«كيف عرفتِ عنواني؟»

«سألتُ الناس. أنت معروف جدًا في هذا الحي».

توقف عن تحريك مسبحته.

«ماذا تريدين؟» سألها وهو يفكر أن يصرفها قبل أن تجيبه حتى. كان قد بدأ يشك بالفعل في تحيزه لزيبا خلال الأسابيع الأولى للقضية. يشعر الآن باستغلاله، جعله علمه بأن جلناز من النساء اللاتي قد يدفعن بزوج محترم إلى الرحيل بعيدًا عنهن، يميل أكثر من أي وقت مضى إلى فكرة أن زيبا قد حذت حذو أمها لكنها تجاوزت الحد لتتخذ مسارًا أكثر جسامة.

«أنا في حاجة إلى التحدث معك».

«بسـرعة. لـديَّ عمـل وأنـت تقاطعيـن أمسـيتي». قـال وعقـد ذراعيه علـى صـدره، تعلقـت المسـبحة بمرفقـه. أخـذت جلنـاز نفسًـا عميقًـا وبـدأت مـا ظلـت تتمـرن علـى قولـه طـوال طريقهـا إلـى بيـت القاضـي.

«قاضـي صاحـب، نحـن الاثنـان مـن قريـة واحـدة. تقابلنـا ونحـن صغـار. عشـنا فـي ظـل المسـجد نفسـه وشـربنا مـاء الجـداول نفسـها. كنـت تعـرف عائلتـي ودخلـت بيتنـا. جئـت إليـك الآن لأطلـب منـك العفـو. كانـت ابنتـي تعانـي مـع ذلـك الرجـل، وحالـه لـم تكـن سـرًا».

«كوننـا مـن قريـة واحـدة لا يعنـي أن أتجاهـل جريمـة. إن واجبـي تحقيـق العـدل».

«نحن جميعًا نـريد العدل».

«سـتفهمين إذن أن علـيَّ فعـل الصـواب هنـا. أنـا أعـرف أنهـا ابنتـك، لكننـي مسـؤول عـن سـيادة القانـون. لا يمكننـا تـرك أمتنـا تسـقط فـي الفوضـى مجـددًا، وقـد تكـون هـذه هـي البدايـة».

«مـاذا عـن جرائمـه هـو التـي مـرت بـلا عقوبـة. كان سـكيرًا، ليـس لديـه صديـق محتـرم واحـد. لـم يصـلِّ ولـم يصـم ولـم يطـع الله فـي شـيء. السـجادة السـوداء لا يُبيضهـا الغسـيل. بذلـت ابنتـي كل مـا فـي وسـعها لتعيـش معـه وتكـون لـه زوجـة صالحـة، لكنهـا لـم تسـتطع تخليصـه مـن مسـاوئه».

«لم يكن عليها ذلك. كان عليها تـرك الأمر للقانون أو الله».

«أتوسـل إليـك أن تفكـر فـي أطفالهـا. إن ابنهـا محطـم، فتياتهـا الثـلاث ليس لديهـن أحـد الآن. لقـد فقـدوا كلا والديهمـا. أنحـن بحاجـة إلـى المزيـد مـن الأيتـام فـي هـذا العالـم؟ أعِـد إليهـم أمهـم رجـاءً!»

«لا يصح أن يختبئ المجرمون خلف أطفالهم». لم يقل ذلك لأنه قاسي القلب. بالطبع يضع في اعتباره ترك زيبا أربعة أطفال خلفها. يعرف أيضًا أن أصغرهم لم تتم عامها الأول. ظلت تلك التفاصيل في ذاكرته منذ اليوم الأول لنظره في القضية، تخيل حينها الصغار بوجوههم المجهولة مغبشة أو أحيانًا بوجوه أحفاده هو. كتم هذه التفاصيل في نفسه.

«ليس لديَّ مال لعرضه عليك يا قاضي صاحب. لقد ولى زمن أن كانت عائلتي ميسورة الحال منذ أمد طويل. ظللت امرأة وحيدة طوال حياتي تقريبًا. وابني يناضل ليطعم أسرته ويكسيها».

غضب نجيب لتلميحها.

«لم أطلب منكِ شيئًا! خانوم، لقد كنت ممتنًا لأبيكِ المرشد. لقد منحنا أملًا كبيرًا حين كنا في أشد لحظاتنا يأسًا. نجا أخي من المرض وظلّ حيًا وبصحة جيدة حتى الآن. أتظنين حقًا أنني سأطلب منك مالًا بعد كل هذا؟»

لم تجبه جلناز. كانت الشمس خلف سحب هشة. رسمت في السماء خطوطًا بلوني الكركم والزعفران. كسرت قمم الجبال المسننة لوحة الغروب. إنها لا تطلب العفو حقًا، بل تطلب العدل.

«يوجد شيء آخر يجب أن تعرفه».

مسحت بعينيها الشارع ورأت مجموعة من الصغار يلعبون بإطار دراجة بالقرب منهما. لا أحد على مرمى السمع.

«إن من قتله شخص آخر حقًا».

أومأ القاضي إذ كان يتوقع أن تنطق جلناز بشيء لا يمكن تصديقه.

«مثل من؟ يهمني جدًا أن أعرف من أيضًا كان هناك. لم يقل أحد أي شيء عن وجود أي شخص آخر هناك، بمن فيهم ابنتك!»

«إن أعدمت ابنتي ستجعلها شهيدة».

«شهيدة؟» قال هازئًا. «شهيدة ماذا؟»

«إنها تحت رحمة المحكمة لأنها حاولت إنقاذ حياة ذاك اليوم. ما سأخبرك به الآن هو الحقيقة المجردة مع أنني ليس لديَّ إثبات، وابنتي لا تريد البوح بها لأي شخص. وهي لم تقل لك شيئًا عنها منذ القبض عليها لأنها تخاف على سلامة فتاة صغيرة».

شعر نجيب بالألم في صدره يتصاعد مجددًا. سيتناول ملعقة زبادي قبل النوم لتهدئة هذه الحموضة.

«أوضحي».

عضت شفتها السفلى. لم تخبر زيبا بأنها ستتحدث إلى القاضي وبالطبع لم تناقش معها ماذا ستخبره. لكن ماذا سيحدث لو اكتشفت زيبا شيئًا ما عن هذه المحادثة؟ إما ستشعر بالسخط مجددًا على أمها، ما اعتادته جلناز بالفعل، وإما بالشكر. وهي مخاطرة ترحب بها جلناز.

«لقد عرفته زيبا ذاك اليوم على حقيقته. وجدته يعتدي على فتاة صغيرة في بيتهم، تلميذة في سن المدرسة. هذه، عزيزي القاضي، هي حقيقة الأمر. كل ما حدث بعد ذلك، بما في ذلك التسعة عشر يومًا التي قضتها في المقام، كان محاولة امرأة حماية شرف فتاة صغيرة».

تأفف نجيب ضجرًا. في كل منعطف، توجد حقيقة تحط من شأن الرجل الميت. *لا عجب أن الرجل لم يستطِع الدفاع عن*

نفسه، فكر القاضي. لم تفعل عائلته الكثير للدفاع عنه أيضًا. في الغالب بسبب الشائعات القذرة عن كفره.

«طفلة»، كررت جلناز ببطء للتوكيد. «أنت أب ورجل محترم. تخيل شعور زيبا حين رأت هذه الجريمة الشنيعة في بيتها».

«نعم، خانوم، أنا أب»، قال نجيب بتحدٍّ. لقد جاءت إلى هنا تظن أن بوسعها تغيير تفكيره. تظن أن بإمكانها استمالة قراره لصالح زيبا، لكن الأمر ليس بالبساطة التي توقعتها. شعر بغرور قليلًا. إنه يعرفها أكثر مما تتخيل. «لديَّ ثلاثة أبناء وابنتان، كلهم كبروا وصار لديهم أسرهم الخاصة. إن كان يوجد شيء واحد أعرفه بصفتي أبًا، فهو أن الأم قد تفعل أي شيء من أجل أطفالها».

سحبت جلناز كتفيها للخلف بحدة. هزت رأسها.

«لقد أسأت فهمي».

«لا، لا أظنني فعلت». أجابها.

«أنا أقول لك الحقيقة». أصرت.

«تعرفين أنكِ ذكية جدًّا. لطالما ظللت كذلك».

أساعدت ابنتها بمجيئها إلى هنا أم زادت الأمر سوءًا فحسب؟ ستتصل بيوسف الليلة لتخبره بما حدث. القاضي يعرف كل شيء الآن، أيًا كانت نتيجة هذه المعرفة.

توارت الشمس تمامًا خلف الجبال الآن. كان الغروب غريبًا في هذا السياق، بدا كأنه يستعجل إنهاء الأمر. كان غروب شمس الأربعاء، آخر غروب قبل إعلان القاضي الحكم على زيبا. بعد هذا الغروب، كم غروبًا ستشهده زيبا وما مدى سرعتها. لم يثقل

الزمن على قلب جلناز كما يفعل الآن والأيام والساعات تحدُّ من حياة ابنتها. خفضت بصرها قليلًا لئلا يرى القاضي عينيها الساحرتين دامعتين.

«لا يهم ماذا أظن أنا يا قاضي صاحب. هذه هي المشكلة. هذا العالم يدور حول ما تظنه أنت، وأنت وحدك».

«لا أظن أنه يوجد المزيد لقوله الآن»، قال لا يعرف بما يجيب تعليقها.

«نعم»، قالت ببطء. حلقها يغص بالجزع، لكنها بذلت جهدها لتنطق الكلمات. «ظني أنه لا يوجد شيء لقوله بالفعل. لكنني متأكدة من أن لديك الكثير لتفكر فيه الليلة، لذلك سأدعك لشأنك».

لقد حاولتِ التحدث مع الرجل بالعقل لالتماس عفوه عن ابنتها، لكن المنطق لا يجدي في كثير من الأحيان، لهذا تحديدًا قضت حياتها في تنفيذ أغراضها بوسائل أخرى.

أدارت ظهرها له، فعاد إلى سيره. كان على مسافة أمتار قليلة منها حين حدث ما حدث، كان قريبًا جدًّا إلى حد أن سمعت التكات الخفيفة وشهقته الناعمة. تك تك تك. يشبه صوت زخات المطر على سقف. لم يكن عليها الالتفات لترى. أغمضت عينيها للحظة وتخيلت المنظر خلف ظهرها، بشعور طفيف بالرضا. تخيلت نجيب، فمه نصف مفتوح، لا شيء في راحته سوى شرّابة المسبحة. كم مرة أتم التسبيح بهذه الحجارة البيضاوية الصغيرة الثلاثة والثلاثين؟ ذُهِل بشدة، لم يفكر قط في الخيط الرفيع الذي يجمعها معًا.

تلاشى خيط المسبحة واختفى تمامًا عن الأنظار، فسقطت الحجارة متناثرة على الأرض الصلبة.

الفصل 52

«عندما كنت صغيرة، كنت أومن بوجود يوم قيامة واحد للجميع»، قالت بيبي شيرين. جلست متربعة بجوار زيبا. تميل بجذعها يمنة ويسرى على نحو غير ملحوظ تقريبًا. شردت تتذكر القصص التي أخبروها بها مرارًا في صغرها. «ليوم القيامة علامات؛ الزلازل المتتابعة، وترك الناس الصلاة، وركض الكفرة في الشوارع. ستسوى الجبال بالأرض وينشق القمر ليحذرنا من اقتراب الساعة. سيُطلق سراح الوحشين، يأجوج ومأجوج، ليعيثوا في الأرض فسادًا. كنت أومن أن الموتى سيبعثون، وسوف نزهو جميعًا بشبابنا ونحن في انتظار عبور الصراط معًا. سيسقط بعضنا في النار بالأسفل، لكن المتقين سيعبرونه إلى الجانب الآخر حيث الجنة في انتظارهم».

تجمع نحو نصف سجينات شيل ماهتاب في الفناء، جلسن في شبه دائرة حول الملكة زيبا. انتشر خبر احتمال الحكم عليها بالإعدام هذه الظهيرة. انخفضت درجات الحرارة فجأة فأمكنهن الجلوس في الخارج دون مراوح. بعضهن شمَّرن أكمامهن ليكشفن عن اسم زيبا منقوشًا على سواعدهن. كان الجو كئيبًا.

«وبماذا تؤمنين الآن؟»

أغمضت بيبي شيرين عينيها. ربتت زاويتي جفنيها بطرف طرحتها. جاء صوتها رفيعًا ومخنوقًا.

«الآن أنا أشعر أن كل يوم هو يوم القيامة. كل يوم. لماذا، يا الله، خلقت الكثير منا ضحايا؟» ناحت نحو السماء.

أراحت زيبا يدها على يد بيبي شيرين.

«إنها محقة». ارتفعت الأعين تنظر إلى امرأة محكوم عليها بالسجن نحو عشرين سنة لهروبها من البيت. لم يعبأ القاضي الذي نظر في قضيتها بأنها هربت من بيت زوجها بثلاثة أضلع مكسورة وجرح غائر في رجلها إثر طعنة. قالت:

«يحبون فض أغشيتنا

ويبتسمون لبقية دمنا».

«لديَّ مقطع آخر»، صاحت أخرى بتردد. عرفتها زيبا، إنها المرأة التي خطبت لرجل تركها، وحين رتب أهلها زواجها بآخر بلغ عنها أهله بتهمة الزنا من باب الحقد. كانت شابة، ما زالت حبوب الشباب تكسو وجهها.

«إن أشاروا إليك بإصبع اتهام

فليس أمامك سوى الظلام».

صارت تلك المقاطع طريقة نساء شيل ماهتاب في قتل الوقت. بعضهن كنّ بارعات، وأخريات واعدات. كانت قطعًا من الحرية لمن لا يعرفن ما يكفيهن من الأبجدية لكتابة أسمائهن. كانت منحة زيبا لهن دون أن تقصد.

كانت زيبا مستعدة لسماع حكم القاضي اليوم. ظلت تعدّ نفسها لهذا -كما أدركت- منذ أن وجدت نفسها أمام جثة كمال. لذلك انهارت على الأرض وجلست جامدة، في انتظار أن يأتي أطفالها ويكتشف العالم ما حدث. بصير، وجيرانها، ويوسف، وأمها، وحتى أبوها، استبسلوا جميعًا ليغيروا مصيرها، لكنه القدر.

تعلقت بها نسوة شيل ماهتاب، يتساءلن إن كن يشهدن الأيام الأخيرة للملكة زيبا. إن كانت المرأة قد تُسجن أو تُجلَد لرؤيتها مع رجل، فبالطبع ستُعدَم إن قتلته. بدا أن السجن قد بدأ الحداد عليها بالفعل.

قضت يوميها الأخيرين في تكثيف دعواتها في ما يهم حقًا. تريد فقط أن يذكرها أطفالها بلا عار أو سخط. تريدهم أن يعرفوا أنها لم تألُ جهدًا في رعايتهم، وأنها كانت تسهر تراقبهم وهم نائمون وأنها بكت حين أتموا الأربعين يومًا، وتألمت لكل عثرة أو خدش في ركبة أحدهم. وأنه ليس للطعام مذاق لو لم يتناولونه معها. وأنها لم تشعر بالحياة إلا حين بدأ بصير يتحرك في رحمها. كان ذلك حين بدأ الزمان، حين بدأت عقارب الساعة بالدوران لحساب الثواني والأيام والأشهر.

تمنت أن يعرفوا كل هذا.

طرقعت لطيفة بإصبعيها صائحة: «لديَّ مقطع... لديَّ مقطع... اسمعن:

« هؤلاء الرجال اللعينون لن يتركوا منابرهم
وسيغدو العالم مختلفًا لو أن امرأة حاكمتهم!»

سرت موجة تصفيق وعلت أصوات الثناء. تألقت لطيفة للحظة ثم انتبهت فورًا لكلماتها. نظرت إلى زيبا.

«أنا آسفة»، قالت بهدوء. «ليس الوقت المناسب ربما».

«لطيفة، لا وقت أنسب من هذا. إنه مقطع رائع»، قالت زيبا.

كن يمررن بينهن علبة شوكولاتة أهدتها لهن إحدى السجينات. استخدمن ملاعق لقطع كل مربع إلى أربعة أرباع، ليتذوقنها كلهن. «رغم كونه بيتًا بلا نوافذ لكن سجن شيل ماهتاب ليس سيئًا إلى

حد ما. أحيانًا أتنفس هنا بشكل أفضل من أي وقت مر عليَّ في بيتي».

«بالضبط»، صاحت امرأة أخرى. لم تستطِع زيبا رؤية وجهها. كانت وسط كتلة نساء، لم يبدُ منها سوى يدها التي رفعتها في الهواء كسارية علم. «ملكة زيبا، إنهم يدعون هذا السجن شيل ماهتاب، لأن هذا هو الوقت الذي نقضيه هنا. أربعون قمرًا على الأقل. لكنك أنتِ... أنتِ من أنرتِ أروقته بنور أربعين قمرًا. مهما حدث سيظل اسمك على جدران هذا السجن، سيسري في دمنا إن تطلب الأمر ذلك، طالما بقيت واحدة منا هنا».

شعرت زيبا بغصة في حلقها. كانت قد منحتهن القليل جدًّا وتلقت منهن في المقابل الكثير جدًّا. سيعدن إلى شجاراتهن على حصص الطعام أو مسحوق الغسيل. اليوم راحة من الشجار.

«الله رحيم»، صاحت أخرى، في اللحظة نفسها سرى نسيم شمالي بين أوراق شجرة الأرجان في ركن الفناء. حتى سور الفناء، لمع في ضوء الشمس، لمعان أقرب إلى الفضة القديمة منه إلى المعدن الصلب. «إن شاء الله، سيستجيب لدعواتنا. تحلين بالإيمان يا أخوات».

كسرت لطيفة الصمت الواجم بمقطع أخير:

«لو كنت أعرف عن الراحة في شيل ماهتاب
لتركت نفسي لأول رجل طرق الباب!»

علت موجة ضحك، وصفقت الأيدي بسرور. التقت عينا زيبا بعينيّ لطيفة وتألقتا للحظة، فاتفقتا -دون كلمة واحدة- أن نعم الله كثيرة حتى يوم القيامة.

ضاق مكتب القاضي نجيب بيوسف ووكيل النيابة وزيبا وجلناز والحارس. جلست الأم وابنتها على المقعد المطبوع بالزهور. أحاطت جلناز ابنتها بيدها. كانت قد تحدثت مع تامينا هذا الصباح، همست لزيبا بهذا. سيزورها أطفالها اليوم أو غدًا، إذ بدأ هجوم أهل القرية على عائلة تامينا يهدأ.

كان وكيل النيابة متحفزًا إلى حد أن ارتدى رابطة عنق للمناسبة، مع أنها تذكره بالمشنقة في كل مرة يعقدها حول عنقه. يأمل وضع نهاية لهذه القضية. جلس يوسف قبالة زيبا وجلناز. ينظر إلى موكلته من حين إلى آخر ليطمئن على حالتها الذهنية. بدت متماسكة أكثر مما توقع، لكنها رغم ذلك مليئة بالمفاجآت. نقر بقدمه وتجنب النظر إلى وكيل النيابة الجالس إلى يمينه.

دخل القاضي نجيب بعد الجميع، أراد أن يتخذوا جميعًا مجلسهم قبل دخوله. مد يده كعادته في جيب سترته وهو يتحرك خلف مكتبه. مسبحته، أعادت زوجته جمع حباتها في خيط واحد بعد إلحاح منه. حدج جلناز بنظرة وقرر ترك المسبحة في جيبه. سعل مرتين، اهتزت عمامته مع حركة رأسه. تنحنح ونظر إلى الأوراق على مكتبه وبدأ يتحدث.

«اليوم، سأصدر الحكم على خانوم زيبا»، قال بهدوء وحزم. «قضينا جميعًا وقتنا في العمل على هذه القضية، ليستوفي المجني عليه حقه في الاهتمام بمقتله. إنها قضية مأساوية. زوج مقتول وأم في السجن وأطفال بلا والدين. جرائم ينبغي التعامل معها بالقانون. الحديث كثير عن العفو، لكن الله هو العفو القدير.

ظني أنكم جميعًا تعرفون مقولة: «دع العدل يأخذ مجراه»، إنها مقولة شائعة مع أن معظمنا لا يعرف قصتها».

ضغط يوسف قلمه الرصاص بين سبابته وإبهامه حتى أبيضت مفاصل أصابعه. جعلت طريقة نطق القاضي لكلمة العدل معدته تهوي.

«كان هناك لص، كادوا يقبضون عليه فجرًا وهو يسرق الطعام من عائلة محترمة ليُطعم أطفاله. سمع أحدهم صوتا فأشعل مصباحًا. وحين رأى اللص يهرب من النافذة صاح بصوت عالٍ ينادي الجيران. انطلق اللص في الركض وخلفه نصف الجيران بالهراوات والسكاكين وما شابه.

ركض اللص في الظلام حتى وصل إلى مسجد. فكر في الاختباء فيه قليلًا. كان الملا خلف المسجد يتوضأ. تسلل اللص إلى فراش الملا وغطى نفسه بالبطانية قبل أن يقترب الجمع الغاضب. دخلوا المسجد فظنوا أن النائم هو الملا. حين ذاك عاد الملا وفوجئ بالزحام الغاضب. حين رأوه، ظنوا أنه اللص فجروه إلى الخارج وهم يضربونه بالهراوات والقبضات. ظل يؤكد لهم أنه ليس اللص وتوسل إليهم أن يفكروا جيدًا قبل تنفيذ العقوبة على الشخص الخطأ. بكى وتوسل قائلًا: «دعوا العدل يأخذ مجراه!» وهم يقطعون يده. هذه عقوبة السرقة. وسط هذه الفوضى، عاد اللص إلى أسرته الجائعة.

حين مات الملا وصل إلى باب الجنة وقابل مَلَك الموت. سأل الملا الملك لماذا تركه الله يُعاقب على جريمة لم يرتكبها ولماذا نجّى اللص الحقيقي. أين العدل في هذا؟»

سكت القاضي للحظة، يسمح لجمهوره بالتفكير في السؤال. ثم تنحنح وواصل.

«أخبره الملك أن اللص لم يطمع في أكثر من إطعام أسرته الجائعة. وفي حين لم يكن الملا مذنبًا في تلك الحادثة بالخصوص، لكنه كان قد ضرب صرصور الليل ذات مرة وكسر له قدمه الهشة. جرم بلا شهود، لكن هذا لا يجعله أقل شأنًا. «تماما كما قلت يا صديقي. دع العدل يأخذ مجراه»، أوضح له الملَك. ما بدا ظلمًا كان في الحقيقة عدلًا مؤجّلًا».

ألقت جلناز بطرفي طرحتها على كتفيها. نظرت إلى يوسف الذي لم يجرؤ على رفع عينيه عن الأرض.

أومأ وكيل النيابة برأسه باهتمام، ضيق عينيه وهو ينتظر الحكم الفعلي.

«في هذه القضية، يوجد الكثير لأخذه في الاعتبار، وكما ظللت أؤكد طوال الوقت، أنا أريد تطبيق القوانين التي تحكم بلدنا. لأنها السبيل الوحيد للخروج من ظلمات الفوضى والاستبداد. لهذا السبب، لجأت إلى قانون العقوبات».

طرفت عينا يوسف بسرعة. نظر إلى القاضي الذي رفع حاجبيه وهو يقرأ من أسفل نظارته.

«تنص المادة 400 من قانون العقوبات أن من يقتل شخصًا بالخطأ فعقوبته السجن مدة لا تقل عن ثلاث سنوات أو غرامة قدرها 36 ألف أفغاني».

رفع القاضي بصره ونظر إلى زيبا. «مما رأيته، لم تكن هذه المرأة تنوي قتل زوجها. لم تخطط ولم تتحدث مع أحد من أقاربها أو جيرانها عن هذا. بالأخذ في الاعتبار سلوكها وظروفها، الذي جعلنا نقرر إرسالها إلى خبير لتقييم قواها العقلية. وقد أكد

أنها في حالة ضعف شديد. وبعد النقاش مع الملا في المقام، بدا أنها نادمة على ما حدث. لا أعتقد أنها تعمدت قتله، بل كانت تدافع عن نفسها ضد سلوكياته الخارجة عن نطاق القانون والإسلام، كانت تتصدى لتحويل بيتها إلى وكر للذنوب. اتضح أنها حاولت الإبلاغ عنه، لهذا ذهبتُ إلى مأمور الشرطة قبل موت زوجها. كان ينبغي معاقبته بالقانون على سلوكياته المؤسفة بموجب المادة 347 التي تجرِّم الكفر».

شعر يوسف بضجيج في صدره لسماعه القاضي يردد مواد معينة من قانون العقوبات. تحول وجه وكيل النيابة من الثقة الهازئة إلى الارتباك. كيف سارت الأمور على هذا النحو الخاطئ بهذه السرعة؟

«لذلك، وبإدانة زيبا بجريمة القتل، تقع عليَّ مسؤولية إيجاد حكم مناسب لجريمتها، ما قررت أن تكون المدة التي قضتها بالفعل في سجن شيل ماهتاب وغرامة قدرها ألف أفغاني».

نهض وكيل النيابة، بفم مشدوه. نهض يوسف من مقعده بعصبية أيضًا. لو كانت غرفة مكتب القاضي أوسع لقفز على ظهر المقعد. لكنه بدلًا من ذلك التفت إلى جلناز وزيبا ليرى وقع الأمر عليهما.

«لكن قاضي نجيب، هذا ليس عدلًا. لا تكبدني عناء الاستئناف. كيف تدينها ثم...»

لوح القاضي بيده نحوه لينهي النقاش في الأمر. أزت المروحة الكهربية في الخلفية.

«انتهى وقت النقاش. أقترح عليك مواصلة العمل على قضيتك التالية»، قال.

أغلق الملف على مكتبه ووضع عليه راحتيه المفتوحتين يحميه: «هذا القرار نهائي».

نفخ وكيل النيابة من بين شفتين مزمومتين. لن يستأنف الحكم، يعرف هذا. كانت قضية مليئة بالتناقضات ولم يرد سوى التخلص منها.

كانت زيبا على شفا الحفرة حقًّا. شدت جلناز على يد ابنتها. نظرت زيبا في عيني أمها، بؤبؤيهما الأخضرين كمواشير ضوئية ضئيلة بين الدموع. لقد حظيا بأعظم نعمة. فرصة البدء من جديد، لا أسرار خفية في طيات تنورتيهما. جاء يوم القيامة، صارت زيبا حرة لتحتضن ملائكتها الأربعة بعد غياب أشهر. أي طعام لديهم سيكون أحلى من فاكهة الجنة. أي شراب سيكون أطيب من نهر اللبن هناك. ستستمتع بجنتها المتواضعة في هذا العالم.

ستعيش حياتها.

الفصل 53

بحث يوسف في سجل مكالماته وضغط الزر الأخضر عند رقمها. كان مساء الخميس، ما زالت وقائع جلسة الحكم لم تبرح ذهنه. خرج وكيل النيابة من غرفة المكتب دون أن يقول شيئًا، بعبوس لم يغفل عنه القاضي نجيب. ضغطت جلناز وزيبا جبينيهما معًا وأجهشتا بالبكاء. يوسف نظر إلى القاضي، لكنه كان قد نهض عن كرسيه بالفعل وغمغم بشيء ما عن القضية التالية. توقف فقط ليضع يده على كتف يوسف ويومئ برأسه له. دون أن يقول شيئًا.

حين أجابت سلطانة، مال يوسف إلى الخلف في مقعده في سيارة الأجرة بارتياح.

«إنها حرة»، كلمات قليلة لئلا يتهدج صوته. «زيبا حرة».

«حقًا؟ أأنت جاد؟» سألت مذهولة.

«نعم، جاد جدًا. حدث بالفعل هذه الظهيرة. لم أكن لأصدق لولا وجودي هناك!»

«لكن... لكن... لماذا؟ ماذا قال؟»

أوضح لها منطق القاضي، رأي جديد مغاير لسنه وللتقاليد.

بدأ يتساءل عن خلطة التأثيرات التي جعلته يقضي بإطلاق سراح زيبا.

«هذا مذهل».

«إنه كذلك بالتأكيد. اسمعي. لا أعرف ماذا قلتِ للقاضي، وإن كان لهذا أي علاقة بما حدث هذه الظهيرة. ماذا قلت له؟»

«يوسف، أنا لم أقل الكثير. قلت فقط إنني أفكر في مقابلة أهل القرية للتحقيق في الشائعات حول زوجها. سألني لماذا أريد هذا فأخبرته بأنني أريد محو العار عن اسم المجني عليه في حال كان ما يقال عنه أكاذيب. سألته عن رأيه في هذا، لكنه رفض قول المزيد. كان يستعجل إنهاء المكالمة».

«لقد طرق ذهنه شيء ما يا سلطانة. لا أعرف ماذا كان، لكن شيئًا ما أفلح».

انعطفت السيارة في شارعه. بيته على مسافة قريبة، ما زال اليوم في الوقت الذي يقضيه الرجال في الشوارع. انبعث إيقاع إلكتروني لأغنية شعبية من محل كباب مع رائحة اللحم المشوي. عرض فتى صغير تلميع أحذية المارة.

«هل سيطلق سراحها حقًا؟ تمامًا؟»

عكس سؤالها أفكاره الخاصة. هل غير القاضي نجيب رأيه بسبب توسلات الملا؟ أم جلناز؟ أم أنه خشي من الانتباه الذي قد تلفته سلطانة إلى القضية، بإعلانها عن أي نوع من الرجال كان كمال، وإثارة الانتقادات نحو القاضي الذي تجرأ على إدانة المدافعة عن القرآن؟ من المحتمل أيضًا أنه وصل إلى هذا القرار بناء على الحقيقة، أن يكون قد وقف أخيرًا على الحقائق كلها، حتى ولو لم يتم ذلك رسميًا في أوراق الدفاع.

«أردت أن أشكرك على ما فعلته. تلك المكالمة الهاتفية التي أجريتها قد تكون هي ما أثرت فيه».

«أشك في ذلك»، قالت بتنهيدة. «لم يبدُ متأثرًا جدًا بما قلته. بدا منزعجًا من اقتحامي عليه أمسيته، صدقًا».

«هـذا ليـس المسـار الـذي توقعتـه للقضيـة، لكنهـا النتيجـة التـي أردتهـا. أنـا سـعيد لهـذا الجـزء».

«إنـه الإحبـاط المصاحـب لـكل محـاولات فعـل شـيء جيـد هنـا، حتـى مـع وجـود نظـام قضائـي حقيقـي، يجعلـك الأمـر تظـن أننـا عدنـا إلـى عصـر طالبـان. جُلِـدت امـرأة فـي إقليـم غـور هـذا الأسـبوع بتهمـة الزنـا. حاكموهـا وفـي النهايـة وقـف جمهـور الرجـال يراقبـون جلدهـا مئـة جلـدة».

لكنـه لـم يحبـط لهـذا الخبـر أو لفشـل محاولاتـه إعـادة بعـث قانـون الإجـراءات فـي مكتـب القاضـي. فهـم أن المحاكـم قـد تبـدو كأي شـيء، قـد تُكتـب المذكـرات بخـط اليـد علـى ورقـة مقطوعـة مـن كراسـة. عـرف أن محاضـر القبـض قـد تكـون مـن نسـج الخيـال وأن عقوبـة جـرم الزنـا أكبـر مـن السـرقة. كل هـذا لا يعنـي سـوى أنـه مـا زال أمامـه الكثيـر مـن العمـل.

«مـاذا سـتفعل بعـد هـذا؟» سـألته سـلطانة كأنهـا تقـرأ أفـكاره. «هـل سـتعود إلـى الولايـات المتحـدة؟»

«لا، ليـس بعـد»، أجابهـا وابتسـم لسـؤالها عـن خططـه. كانـت أمـه سـتوجه لـه السـؤال نفسـه، لكنهـا ستسـتخدم صيغـة الأمـر. سـيعود إلـى نيويـورك... فـي النهايـة. سـيعود إلـى أريكـة والديـه قريبًـا جدًّا، ربمـا حتـى فـي الوقـت المناسـب ليحمـل ابـن اختـه أو ابنتهـا، لكـن ليـس حاليًـا. «ظنـي أننـي سـأبقى هنـا لوقـت».

«حقًّا؟» سـألته بصوت ماكر قليلًا.

«بالتأكيـد. لذلـك إن أردت طـرح أي أسـئلة أخـرى علـيَّ، فمـا زلـت متاحًـا».

توقفت السيارة عند باب البناية. رأى مظلة الصالة الرياضية عند نهاية المبنى وسجل في ذهنه أن يذهب إلى هناك في وقت لاحق من اليوم، كان مشحونًا بطاقة دافعة. ناول السائق نقوده وترجل إلى الشارع. علقت في الهواء رائحة وقود وخبز ساخن.

«هذا جيد يوسف جان»، قالت سلطانة. لم يفته مخاطبتها له باسمه الأول وبصيغة الود. هذه طريقة سير الأمور هنا، في أرض تكتسب فيها الشائعات والأقاويل والتلميحات صلابة الجبال التي تحيط بها.

الفصل 54

عـاد إليهـا أطفالهـا بعـد أسـبوع مـن إطـلاق سـراحها، أحضرتهـم تامينـا، لـم تجـرؤ علـى دخـول بيـت أخيهـا. جـاءت فـي المسـاء، مـا إن غابـت الشـمس، وصلـت فـي سـيارة أجـرة وقفـت عنـد نهايـة الشـارع. دفعـت للسـائق ليظـل فـي انتظارهـا، تعـرف أنـه سـيكلفها أكثـر ممـا يسـعهما هـي وزوجهـا، لكنهـا لـم ترغـب فـي أن يراهـا الجيـران الذيـن ستنتصب آذانهـم لأي خبـر مـن بيـت القاتلـة الحـرة.

ألقـت الفتيـات بأنفسـهن فـي حضـن زيبـا. وقـف بصيـر إلـى جانـب أمـه، أراح رأسـه علـى جانبهـا فـي البـدء، ثـم مسـح دموعـه بكمِّهـا.

التفتت زيبا لتشكر تامينا، التي وقفت جامدة كالحجر.

«ظنـي أنـه مـن الأفضـل أن تبقـي بعيـدًا»، قالـت تامينـا وهـي تحدق فـي رؤوس الفتيـات. «لـم يعـد هنـاك شـيء يربطنـا معًا».

«تامينا جان، أنا ممتنة جدًّا لـ...»

«لا تقولـي شـيئًا، أرجـوك. لا شـيء لقولـه. لقـد أديـت واجبـي. هـذا مـا تفعلـه الأمهـات. نحـن نفعـل أي شـيء يأمرنـا بـه اللّه».

أومـأت زيبـا برأسـها، تعـرف أنهـا لـن تـرى أخـت زوجهـا مـرة أخـرى أبـدًا. دُفـن كمـال فـي عمـق الأرض ودفـن معـه كل مـا أرادت تامينـا نسـيانه. كانـت تلـك فرصتهـا لهـذا، ولـن تضيعهـا.

استدارت وخرجت إلـى الشـارع، ثـم توقفت وقالت دون أن تسـتدير: «أنـا سـعيدة مـن أجل الأطفـال يـا زيبـا. أنـت لا تسـتحقين المـوت».

بكـت زيبـا بصـوت عـالٍ، خـرت علـى ركبتيهـا وأحاطـت بناتهـا بذراعيهـا وهـي تضغـط بوجنتهـا قمـة رأس ابنهـا.

قضت الخريف والشتاء في البيت مع أطفالها. منحها جدها صفوت الله ملكية قطعة أرض أجّرتها لأسرة مزارعين. ليس مبلغًا كبيرًا لكنه يكفي لعيش أسرة صغيرة. لم يخرجوا من البيت إلا نادرًا خلال أشهر عطلة الشتاء الثلاثة، قضت زيبا وقتها في النقاهة. فتحت نوافذ بيتها لتهويته. كنست الفناء، أزالت الأمطار الغزيرة التي هطلت حين كانت في شيل ماهتاب دم كمال بالفعل. نزعت الأفرع اليابسة من أجمة الورد وربتت بأصابعها على التربة الناعمة أسفلها.

في البيت، كنست الأرض وغسلت كل الأواني والطاسات والزجاجات بالماء المغلي. فعلت ذلك بهدوء، لاحظت وهي تغسل جدران غرفة الجلوس أنها لا تحس بالظلام. اختفى فجأة كما ظهر فجأة. في الغرفة التي تشاركتها مع كمال طوال سبعة عشر عامًا، فصلت ملابس زوجها عن ملابسها، حملت قمصانه وبناطيله على مسافة ذراع. طوتها ووضعتها في منتصف ملاءة سرير قديمة ثم ربطت أطرافها بإحكام. كانت في أشد الأيام بردًا، تفتح تلك الصرة وتستخدم قمصانه وقبعاته وقودًا لنار الطبخ، فتُذكي النار بابتسامة رضا.

لم يتحدث الأطفال عن أبيهم. لم يكونوا بحاجة إلى توضيح، بعد أن عرفوا كيف كان في حياته. لم ينزعجوا من حقيقة غيابه. لم يفتقدوا نوبات غضبه، انقضاضاته على أمهم الخائفة. ما زالت آذانهم تؤلمهم بسبب قرصه، وخدودهم بسبب صفعاته. لم يفتقدوا صوت تهشم الزجاج أو القلق الذي يجعلهم يتبولون لا إراديًا في منتصف الليل. كان من الأفضل والأصح أن ذهب هو وعادت أمهم.

دع العدل يأخذ مجراه، قال القاضي. حقيقة فهمها أطفالها دون أن يسمعوا القصة. أدهشتها قدرتهم على الفهم.

حل الربيع الآن. جاءت نهارات معتدلة بدلًا من البرد القارس. تغيرت مجموعة ألوان العالم الخارجي، تزحزح الطيف درجة. تحول الأصفر إلى الأخضر والرمادي إلى الأزرق. ذابت قبعات الثلج عن قمم الجبال. جرت مياه النهر باردة ونقية تحمل جيلًا جديدًا من الأسماك. حان الوقت لأسرتها لتعيد الاندماج في العالم، قررت زيبا. هل سيحدق فيهم أهل القرية بأفواه مشدوهة؟ فليكن. هل سيشيرون بأصابعهم ويهمسون أو يصيحون؟ لا يهم. لم تعش في شيل ماهتاب لتسجن أطفالها في البيت.

تستقر أصابع ريما الصغيرة، وراحتها الناعمة، في كف زيبا اليمنى. يحمل بصير سلة فارغة ليضع فيها السمك الذي سيصطاده. سارت خلف أطفالها، رقص قلبها لرؤيتهم في دفء أشعة الشمس. بصير وشابنام وكريمة أمامها بمسافة أمتار، يمكنها رؤية جانب وجه كل منهم حين يلتفت أحدهم لقول شيء ما للآخر.

توقفت كريمة فجأة، استدارت، ونادت أمها.

«أتعدين بأننا سنرى بيبي جان غدًا؟»

«نعم»، قالت زيبا وهي تومئ برأسها. «سننطلق في الصباح إلى قرية خالكم. سيكون علينا الاستحمام جيدًا، مع ذلك، لئلا يشمون رائحة السمك حين يعانقوننا».

ضحكت كريمة وقفزت خطوات قليلة لتلحق بأخويها.

أطفالـي، فكرت زيبا بينها وبيـن نفسـها. *انظـري إلـى تلك الوجـوه المشـرقة، حركـة أذرعهـم فـي سـيرهم، تلامـس أكتافهـم بمـرح. لا مجـال للشـيطان بينهـم. أطفالـي.*

سـتكون جلنـاز فـي انتظارهـم، وكذلـك رفيـع وزوجتـه، دون كمـال ليفسـد فرحـة جمعهـم، شـعرت بأنهـا عـادت إلـى طفولتهـا. معرفـة الحقيقـة عـن أبيهمـا حـررت رفيـع وزيبـا ليحبـا أمهمـا أكثـر بعـد أن فهماهـا أخيـرًا. ليسـوا بحاجـة إلـى توضيحـات منـه ولا إلـى وجـوده فـي حياتهـم. يكفيهـم معرفـة أنـه هنـاك، ليـس شـهيدًا، لكنـه ليـس الشـيطان أيضًـا.

جـاء الكثيـرون مـن أهـل البلـدة إلـى النهـر، جعلهـا المنظـر تتـردد للحظـة. فكـرت فـي منـاداة الأطفـال والعـودة، ووعدهـم بالمجـيء فـي يـوم آخـر. لكنهـا تذكـرت النسـاء فـي شـيل ماهتـاب. فكـرت فـي لطيفـة ونفيسـة، بيبـي شـيرين والشـابة والـدة التوأميـن. تذكـرت أنهـن يدعونهـا الملكـة زيبـا ونقشـهن اسـمها علـى أجسـادهن.

نحـن سـعيدات جـدًا مـن أجلـكِ، صِحـن يـوم إطـلاق سـراحها. *ادعـي لنـا الله ملكـة زيبـا. تعرفيـن أننـا ليـس لنـا أحـد غيـرك يدعـو لنـا.*

فرحـن لإطـلاق سـراحها لأنـه يمنحهـن، هـن أيضًـا، قـوة. إن كان بالإمـكان إطـلاق سـراح قاتلـة، فثمـة بعـض الأمـل لبقيتهـن.

بثقـة تعززهـا أصواتهـن التـي مـا زالـت تتـردد فـي رأسـها، رفعـت زيبـا ذقنهـا ومضـت قُدمًـا، اقتربـت مـن أهـل القريـة الذيـن تجنبتهـم طـوال موسـمين. ضحـك الصبيـة، يحملـون الصنـارات العالـق بهـا سـمك التـراوت، يلمـع بجلـده الفضـي وبقعـه الحمـراء. كانـت أسـرة

تشوي السمك في الهواء الطلق على ضفة النهر، على مقربة من مجموعة صخور يجلس عليها الأطفال، يغمرون أصابعهم في المياة المثلجة ويرتعشون.

جلست في منطقة خالية، قريبة من منحنى خفيف للنهر. على مسافة من الآخرين تسمح لها برؤية وجوههم لكنها لا تسمح بسماع ما يقولونه. فرشت الملاءة التي أحضرتها وجلسوا عليها متربعين. ذهب بصير ليجرب شبكة الصيد التي استعارها من جار لهم. جلبت شابنام وكريمة لعبة الجاكس وبدأتا لعبهما الهادئ، يرفعن الكرة ويلتقطن القطع الفضية بمهارة عن الأرض. كانت ريما تضحك كلما ربَّتتا على يديها لإبعادها.

لمعت مياه النهار في شمس الظهيرة، وضعت زيبا يدًا على جبينها لتقي عينيها ضوء الشمس. بحثت عن بصير فرأته يقف وسط مجموعة من فتية من سنه. وقف بعضهم على الصخور في حين وقف بصير وآخرون في الماء ليغمر أرجلهم حتى ركبهم، يسحبون شباكهم.

سمعت خشخشة خلفها، فالتفتت برأسها غريزيًا.. رأت أمًا وأبًا يعودان إلى بيتهما وبينهما طفلة صغيرة، عادت تنظر إلى بناتها.

مالت لتزيح شعر شابنام عن عينيها، فشعرت بنفسها ينحبس في صدرها فجأة. التفتت إلى الأسرة مرة أخرى، ببطء، تأمل ألا يلاحظوها وأن يلاحظوها أيضًا. كان يوجد أناس حولهم، لكن لا أحد يهتم بهم كثيرًا، كأن زيبا وأطفالها أكثر الناس طبيعية.

كانت الأم تتحدث إلى الأب وهو يومئ برأسه. تمسك الفتاة الصغيرة بيد أمها. كانوا يقتربون من زيبا وبناتها وسيمرون بهن

سريعًا. خفضت زيبا بصرها وشعرت بعينيها تدمعان. لكنها لم تستطِع إبعاد بصرها عنهم. كانت فتاة جميلة، مثل فتياتها الثلاث اللاتي يجلسن أمامها.

رأت قامة الفتاة النحيلة قبل أن تختفي خلف قامة أبيها، يبدو رجلًا طيبًا، فكرت زيبا، غمرتها موجة سلام. يبدو من الرجال الذين يميزون بين الخطأ والصواب، من طريقة سيره بجانب زوجته وابنته وليس أمامهما.

قالت الأم شيئًا ما فرفعت الفتاة بصرها وضحكت. شع وجهها ببهجة خجول. أطلقت زيبا صرخة ناعمة، هادئة إلى حد لم تسمعها بناتها. بدا كأنها عبرت المسافة بينهما وربتت على كتف الفتاة فالتفتت الأخيرة برأسها.

نظرت نحو زيبا، وانشده فمها للحظة. ظلت زيبا تنظر إليها، قابلت عيناها عينيّ الفتاة وشعرت بقلبها يضج في صدرها. هل ستقول شيئًا لأبويها؟

لكنها لم تفعل. طرفت الفتاة بعينيها وابتسمت، انحناء ناعم في شفتيها شعرت به زيبا كذراعين صغيرتين حول عنقها. تبددت الكلمات الكثيرة التي لم تقلها كل منهما للأخرى، الأسئلة التي لدى كل منهما عن الأخرى، مع نسيم الربيع، حل محلها صوت جريان مياه النهر بين الجبال.

حتى من على هذه المسافة، بدت ليلى قوية بشكل ملحوظ. لمس أبوها قمة رأسها بيده وهو شارد الذهن، كأنه يتأكد من حضورها حتى وهي تسير بجواره. عاشت لأكثر من أربعة آلاف يوم لكنها قضت الشهور الأخيرة تستعيد اليوم الوحيد الأسوأ من أي يوم آخر في حياتها. بينما كانت يدا فريد الغاضبتان

تحـاولان خنـق زيبـا، كانـت والـدة ليلـى منكبـة علـى ابنتهـا، دموعهـا تختلـط بالسـائل القرمـزي المـروع الـذي كانـت تزيلـه عـن فخـذي ابنتهـا الملتهبتيـن المتورمتيـن. فـي اللحظـة التـي ألقـت فيهـا زيبـا رأسـها للخلف وصرخت في مكتب القاضي، كانت ليلـى تتوسـل إلـى أمهـا باكيـة أن تنهـي بؤسـها. اقتلينـي. خـر أبوهـا، تيمـور، فـي الغرفـة المجـاورة، علـى ركبتيـه لسـماعه ابنتـه تلـح بهـذا الطلـب الكارثـي. ليـس لديهمـا غيرهـا. كانـت ليلـى كل شـيء.

أنـت فتـاة صالحـة، صالحـة، ظـل يهمـس لهـا مـرارًا وتكـرارًا. وكانـت أمهـا تبكـي بقلـب يتمـزق أكثـر لرؤيتهـا زوجهـا يهدهـد ابنتـه. كان قلبـه كسـيرًا لكـن شـرفه لـم يُمـس.

تعافـت فقـط لأن أباهـا ظـل يلمـس رأسـها بفخـر ولأن أمهـا ظلـت ترعاهـا ليـلًا ونهـارًا، فنجـت لتعيـش هـذه الأيـام الربيعيـة. لـن تعـود الفتـاة الصغيـرة التـي كانتهـا ذات مـرة، لكـن جراحهـا سـتندمل.

رفعـت زيبـا يدهـا وضغطـت بهـا علـى صدرهـا. يمكنهـا متابعـة الفتـاة بعينيهـا، إلـى أن تصيـر مجـرد نقطـة بنفسـجية علـى خلفيـة الأشـجار القليلـة، لكنهـا أغمضـت عينيهـا، لتنقـش صـورة تلـك الابتسـامة الخجـول فـي ذاكرتهـا.

«مـادر، هـل أنـت بخيـر؟» سـألتها شـابنام وهـي تنظـر إليهـا بتوتـر. أوقفتـا هـي وكريمـة لعبهمـا فانتهـزت ريمـا الفرصـة لتفرقـة القطـع كلهـا بحركـة واحـدة مـن يدهـا..

كان بصيـر فـي طريقـه إليهـن، فـي يـده عصـا فـي طرفهـا سـمكة تـراوت لامعـة، يرفعهـا عاليًـا فـي الهـواء كأنهـا رايـة النصـر.

«أنـا بخيـر جـدًّا»، أخبـرت بناتهـا، ولأول مـرة منـذ وقـت طويـل جـدًّا شـعرت بصـدق تلـك الكلمـات العزيـزة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

NADIA HASHIMI

telegram @soramnqraa

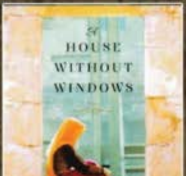

تحفزوا جميعًا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ودهشوا من صياح الغرباء الغاضبين نحوهم في الشارع في أعقاب الكارثة. فرح أبوه بقرار الولايات المتحدة بغزو أفغانستان مع أنه لم يكن لديه لا النية ولا الأمل في العودة إلى هناك.

الحمقى فقط من يركضون نحو مبنى يحترق، كان يقول ساخرًا.

حين كان يوسف في عامه الأول في جامعة نيويورك، كانت أخبار أفغانستان في كل مكان. إلى حد الضجر. كانت أفغانستان هي الهجمات الانتحارية، والنساء ضحايا العنف والفساد. في عامه الثاني التحق في لحظة اندفاع بفصل لدراسة حقوق الإنسان، ظنًا منه أنها طريقة سهلة ليضيف إلى متوسط درجاته. في المحاضرة الثانية اشتعل اللهب. عاوده فيض الذكريات، من أفغانستان. جثث قتلى، أطفال صغار يعملون في الحدادة، صحفي شاب يُذبح هو وزوجته وأطفاله، الأوضاع اللا إنسانية في مخيمات اللاجئين، بيع فتيات صغيرات لسداد ديون الأفيون، مجرمو الحرب الذين لا يمسهم القانون.

كيف يمكنه إدارة ظهره لكل هذا؟

يوجد آخرون لم يمكنهم، آخرون كانوا شجعانًا، آخرون حملوا قضية من لا صوت لهم.

عاش يوسف وتنفس الحلم الأمريكي بأن شخصًا واحدًا يمكنه إحداث فارق. تشبع بمطويات اتحاد الطلبة والخطاب المتفائل لأساتذة الجامعة. حضر أول مظاهرة اعتراض وأحب الهتاف مع آخرين. رفع صوته. ذاق طعم النضال، راقه الغضب الذي يثيره فيه. الغضب أفضل من الخوف.

kalemat
www.kalemat.com
جميع كتبنا متوفرة على تطبيق مكتبة كلمات
Google play
App Store